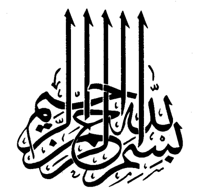
عدة الصابرين
وذخيرة الشاكرين

لابن قيم الجوزية

تحقيق
أحمد علي

الناشر
دار البيان العربي




عدة الصابرين
وذخيرة الشاكرين

اسم الكتاب : عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين
اسم المؤلف : الإمام ابن القيم
اسم المحقق : أحمد علي
مقاس الكتاب : ١٧ x ٢٤
عدد الصفحات : ٣٢٠
عدد الأجزاء : مجلد واحد
رقم الإيداع : ٢٤٠٦٠ / ٢٠٠٦



دار البيان العربي
الأزهر درب الأتراك ت: ٥١١٨٠٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

الحمـد لله والصلاة والسلام على رسـول الله وبعد ، فـإن كتاب عـدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم رحمه الله، يعـد من أجمع ما كتب ابن القيم في أعمال القلوب من الصبر والــشكر والزهد والورع وغير ذلك، جمع فيـه المصنف رحمه الله دررًا متناثرة من تفـسير القـرآن وشروح السنة وآثار السلف الكرام مع دقائق سلوكـية ولمحات تربوية ، وغير ذلك من الفوائد التي لا تكاد تظفر بها في كتاب سواه.

وحظي هذا الكتاب باهتمام كثير من دور النشـر فطبع طبعات متعددة ولكنها في مجـملها لم تسلم من أخطاء طباعـية أو تحريفـات بين مقل ومكثر، إضـافة إلى خلو أكـثرها مـن عزو الأحـاديث والآثار وبيـان كـلام أهل هذا الفن عليـها مـن الصحـة والضعف.

ولقد قمـنا ـ بفضل الله تبارك وتعالى ـ بخـدمة هذا الكتاب المبارك بضـبط نصه على أصل خطي، وخرجنا مـا به من آيات وأحاديث ، وكثير من الآثار ، كـما قمنا بعزو كثير من الأقوال والأشعار إلى مصادرها الأولى، مساهمة في خدمة كتب سلفنا رضوان الله عليهم أجمعين .

هذا وصل الله على نبينا محـمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم تسليمًـا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه
أبو الفضل الدمياطي
عفا الله عنه
آمين

ترجمة ابن القيم

اسمه ونسبه :

هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي زين الدين الزرعي ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن قيم الجوزية.

مولده:

ولد في السابع من شهر صفر سنة (٦٩١ هـ).

شيوخه :

والده أبو بكر بن أيوب - أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة النابلسي الشهاب العابر - شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني - تقي الدين أبو الفضل سليمان بن حمزة بن أحمد بن قدامة المقدسي - أبو بكر بن المسند زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي - مجد الدين إسماعيل بن محمد الفراء الحراني - جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن زكي الدين عبد الرحمن المزي - شمس الدين أبو عبد الله بن أبي الفتح البعلبكي اللغوي - كمال الدين أبو المعالي محمد بن علي بن عبد الواحد الأنصاري الزملكاني - شمس الدين أبو عبد الله محمد ابن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي.

تلاميذه:

عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي - زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي المشهور بـ « ابن رجب الحنبلي » - ابن برهان الدين إبراهيم بن شرف الدين عبد الله - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي ثم الصالحي - شمس الدين أبو عبد الله بن عبد القادر بن محيى الدين عثمان النابلسي المعروف بالجنة - محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن الخضر الغزي - محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر القرشي المقري التلمساني - محمد بن يعقوب الفيروز آبادي اللغوي صاحب القاموس وغيره - تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي.

طلبه للعلم :

قال ابن كـثير في « البـداية والنهاية» : ســمع الحديث واشتـغل بالعلم وبرع في علوم متعددة لاسـيما علم التفسير والحـديث والأصلين ولما عاد الشيخ تقي الدين ابن تيمـية من الديار المصرية في سنة (٧١٢) لازمـه إلى أن مات الشيخ فأخـذ عنه علمًا جمًا مع ما سلف له من الاشتغال فصار فريدًا في بابه في فنون كثيرة مع كثرة الطلب ليلاً ونهارًا وكثرة الابتهال.

وكان حسن القراءة والخلق كثير التودد لا يحـسد أحدًا ولا يؤذيه ولا يستعيبه ولا يحقد على أحد. وله من التـصانيف الكبار والصغار شيء كثير وكتب بخطه الحسن شيـئًا كثيـرًا ، واقتنى من الكتب ما لا يتهـيأ لغيـره تحصيل عشـره من كتب السلف والخلف.

وقال ابن رجب الحنبلي في « ذيل طبقات الحنابلة»: تفقه في المذاهب وبرع وأفتى ولازم الشيخ تقي الدين وأخـذ منه وتفنن في علوم الإسلام وكان عـارفًا بالتفسـير لا يجاري فـيه وبأصـول الدين وإليه فيـهما المـنتهى والحديث ومـعانيه وفـقهـه ودقائق الاستنباط منه لا يلحق في ذلك وبالفقه وأصوله وبالعربية وله فيها اليد الطولى وتعلم الكلام والنحـو وغير ذلك وكـان عالمًا بعلم السلوك وكـلام أهل التصـوف وإشاراتهم ودقائقهم له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى .

وصنف تصانيف كـثيرة جـدًا في أنواع العلم وكان شديد المحـبة للعلم وكتـابته ومطالعته وتصنيفه واقتناء الكتب واقتنى من الكتب ما لم يحصل لغيره.

ثناء العلماء عليه:

قال الذهبي : عنى بالحديث ومتونه وبعض رجاله وكـان يشتغل في الفقه ويجيد تقريره وتدريسه وفي الأصلين.

وقال ابن ناصر الدين في « الرد الوافر » وكان ذا فنون من العلوم وخاصة التفسير والأصول من المنطوق والمفهوم .

وقال ابن حجر العســقلاني في « الدرر الكامنة » :كان جريء الجنان واسع العلم عارفًا بالخلاف ومذاهب السلف .

وقال السيوطي في « بغية الوعـاة» : قد صنف وناظر وصار من الأئمة الكبار في التفسير والحديث والفروع والأصلين والعربية .

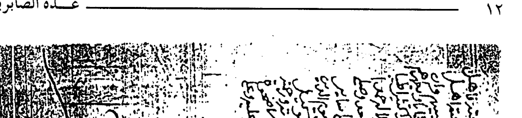
وقال الشـوكاني في « البـدر الطالع» : العلامـة الكبيـر المجتهـد المطلق المصنف المشهـور .... وبرع في شتى العلـوم وفاق الأقران واشـتهـر في الآفاق وتبـحر في معرفة مذاهب السلف .

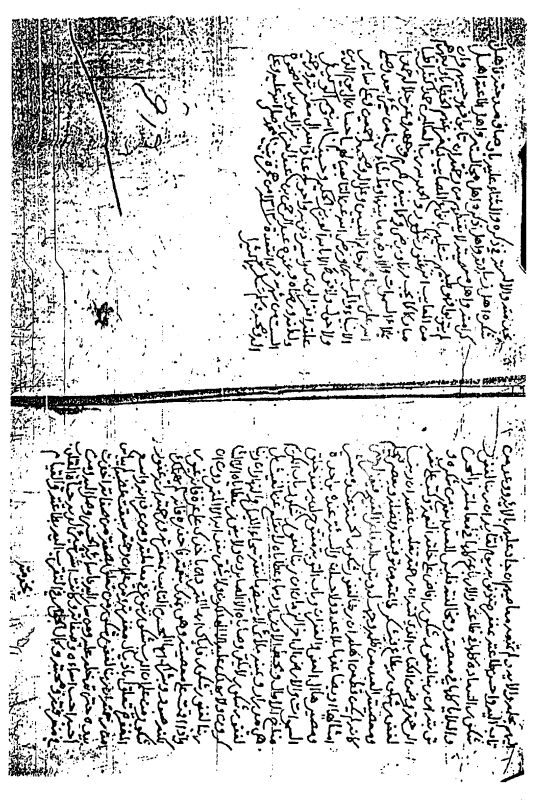
تصانيفه :

اجتماع الجيوش الإسلام على غزو المعطلـة والجهمية ـ أحكام أهل الذمة. أسماء مؤلفات ابن تيمية ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين ـ إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ـ إغاثة اللهفان في حكم طـلاق الغضبان ـ بدائع الفوائد ـ التبيـان في أقسام القرآن ـ تحفـة المودود في أحكام المولود ـ تهذيب مـختصـر سنن أبي داود ـ جلاء الأفـهام في الصـلاة والسـلام على خيـر الأنام ـ حـادي الأرواح إلى بلاد الأفـراح ـ حكم تارك الصلاة ـ الداء والدواء ـ الرسالة التـبوكية ـ روضة المحـبين ونزهة المشتاقين ـ الروح ـ زاد المعاد في هدي خـير العـباد ـ شفـاء العليل في مسائل الـقضاء والقـدر والحكمة والتعليل ـ الصواعق المنزلة على الجهميـة والمعطلة ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين ـ الطرق الحكمية في السيـاسة الشرعية ـ عدة الصابرين وذخيرة الشـاكرين ـ الفروسية ـ الفوائد الكافية الشـافية في الانتصار للفرقة الناجـية ـ الكلم الطيب والعمل الصالح ـ مدارج السالكين ـ مـفتاح دار السعـادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى .

وفاته :

وبعد هذه الحـياة الحافلة انتقـل ابن القيم إلى الرفيق الأعلى ليلة الخـميس ثالث عشر من رجب وقت أذان العشاء سنة (٧٥١ هـ) .





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المصنف

وبه نستعين [وعليه نتوكل ولا حول ولا قوة إلا بالله]

الحمد لله الصبور الشكور العلى الكبير ،السميع البصير العليم القدير الذى شملت قدرته كل مقدور وجرت مشيئته فى [كل][1] خلقه بتصاريف الأمور ، وأسمعت دعوته اليوم الموعود أصحاب القبور، قدر مقادير الخلائق وآجالهم ، وكتب آثارهم وأعمالهم وقسم بينهم معايشهم وأموالهم ، [وخلق][2] الموت والحياة ليبلوهم أيهم أحسن عملا وهو العزيز الغفور القاهر القادر فكل عسير عليه يسير وهو المولى النصير فنعم المولى ونعم النصير : **﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) [يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ و][3] يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) ﴾** [التغابن] .

وأشهد أن لا إله إلا الله ،وحده لا شريك له ، إلهًا جلَّ عن التشبيه والنظير وتعالى عن الشريك والظهير وتقدس عن تعطيل الملحدين [كما تنزه][4] عن شبه المخلوقين، فليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخيرته من بريته، وصفوته من خليقته، وأمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده ، أعرف الخلق به ،وأقومهم بخشيته وأنصحهم لأمته وأصبرهم لحكمه ، وأشكرهم لنعمه وأقربهم إليه وسيلة ،وأعلاهم عنده منزلة، وأعظمهم عنده جاهًا ، وأوسعهم عنده شفاعة، بعثه الله إلى الجنة داعيًا ، وللإيمان مناديًا ، وفي مرضاته ساعيا وبالمعروف آمرا وعن المنكر ناهيا فبلغ رسالات ربه وصدع بأمره، وتحمل فى مرضاته ما لم يتحمله بشر سواه ، وقام لله بالصبر والشكر حق القيام حتى بلغ رضاه، فثبت فى مقام الصبر حتى لم يلحقه أحد من الصابرين، وترقى فى درجة الشكر حتى علا فوق جميع الشاكرين، فحمده الله وملائكته ورسله وجميع المؤمنين وكذلك خص بلواء الحمد من بين جميع العالمين فآدم تحت لوائه

---

(١) سقط من ط ، و ، ب

(٢) في أ : « وقدر » .

(٣) سقط من ط و ب .

(٤) في ط ، و أ : و .

كذلك من دونـه من الأنبياء والمرسلـين ،وجعل الحمـد فاتحـة كتابه الذى أنزلـه عليه كذلك فيـما بلغنا هو فى التوراة والإنجيل وجعله آخـر دعوى أهل ثوابه الذين هداهم على يديه ، وسمى أمـته الحامـدين قبل أن يخرجـهم إلى الوجود لحـمدهم له على السراء والـضراء والشدة والـرخاء ، وجعلهـم أسبق الأمم إلى دار الثـواب والجزاء، فأقرب الخـلق إلى لوائه أكثرهم حمـدًا لله وذكرًا ، وكما أن أعـلاهم منزلة أعظمهم صبرًا وشكرًا، فصلى الله ومـلائكته وأنبياؤه ورسله وجميع المؤمنين عليـه ،كما وحد الله وعرف به ودعا إليه . وسلم تسليما كثيرًا .

أما بعد :

فإن الله سبحانه وتعالى جعل الصبـر جوادًا لا يكبو وصارما لا ينبو وجندًا غالبًا لا يهزم وحصناً حصينًا لا يهدم ولا يثلم فهو والنصر أخوان شقيقان لا يفترقان.

رضيعي لبان ثدي أم تقاسما　　　بأسحم داج عوض لا يتفرق

فالنصر مع الصبـر، والفرج مع الكرب ،واليسر مع العسر ،وهو أنصـر لصاحبه من الرجال بلا عدة ولا عدد، ومحله من الظفر كمحل الرأس من الجسد .

ولقد ضـمن الوفى الصادق لأهله فى مـحكم الكتاب أنه يوفـيهم أجرهم بغـير حساب وأخبر أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين، فقال تعالى : ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] [فظفر][١] الصابرون بهـذه المعية [بخـيرى][٢] الدنيا والآخرة، وفازوا بها، بنعمة الباطنة والظاهرة [ق/ ٢أ].

وجعل سـبحانه الإمامـة فى الدين منوطة بالصبر واليـقين، فقال تعـالى وبقوله اهتـدى المهتـدون : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤] .

وأخبر أن الصبر خير لأهله [خبرًا] [٣]مؤكدا باليمن، فقال تعالى : ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾[النحل :١٢٦] .

وأخبر أن مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو ولو كان ذا تسليط، فقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[آل عمران : ١٢٠] .

أخبـر عن نبيه يوسف الصـديق أن صبره وتقـواه [أوصلاه] [٤]إلى محل العز والتمكين فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف : ٩٠] .

---

(١)في ا : فذهب .
(٢)في ط و ب : بخير .
(٣)سقط من ط و ب .
(٤)في ط و ب : وصلاه .

وعلّق الفلاح بالصبر والتقوى، فعـقل ذلك عنه المؤمنون، فقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

وأخبر عنه محبـته لأهله وفي ذلك أعظم ترغيب للراغـبين فقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران :١٤٦] .

[و] (١) لقد بشر الصابريـن بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الـدنيا يتحاسدون، فقال تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ [البقرة] .

[ووصى](٢) عباده بالاستعانـة بالصبر والصلاة على نوائب الدنـيا والدين، فقال تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة :٤٥] .

وجعل الفوز بالجنـة والنجاة من النار لا يحظى به إلا الصـابرون، فقال تعالى : ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون :١١١] .

وأخبر أن الرغبة فـي ثوابه والإعراض عن الدنيا وزينتـها لا [يلقاها](٣) إلا أولو الصبر المؤمنون، فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ [القصص : ٨٠] .

وأخبر تـعالى أن دفع السـيئة بالتي هـي أحسن تجعل المـسيء كأنه ولي حـميم، فقال: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] .

وأن هذه الخصـلة : ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥] .

وأخبر سـبحانه خبـرًا مؤكدا بالـقسم : ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر] .

وقسم خلقه قسمين : أصحاب ميمنة، وأصحـاب مشأمة. وخص [أصحاب](٤) الميمنة أهل التواصي بالصبر والمرحمة ،وخص بالانتفاع بآياته أهل الصبر وأهل الشكر تمييزًا لهم بهذا الحظ الموفـور، فقال في أربع آيات من كتابه : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩] .

---

(١) سقط من ط و ب .
(٢) في ط و ب : واوصى .
(٣) في ط و ب : ينالها .
(٤) سقط من أ .

وعلّق المغفرة والأجر بالعمل الصالح والصبر وذلك على من يسره الله عليه يسير فقال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود :١١].

وأخبر أن الصبر والمغفرة من العزائم التي تجارة أربابها لا تبور، فقال : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى :١١] .

وأمر رسوله [صلى الله عليه وسلم] (١)بالصبر لحكمه ،وأخبر أن [صبره](٢) إنما هو بـه ، وبذلك جميع المصائب تهون فـقال: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور:٤٨].

وقال : ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل].

[فالصبر] (٣)آخية المؤمن التى يجول ثم يرجع إليها ،[وميثاق](٤) إيمانه الذى لا اعتـماد له إلا عـليها، فـلا إيمان لمن لا صـبر له ، وإن كـان فإيمان قلـيل فى غـاية الضعف، وصاحبه ممن يعبد الله علـى حرف، فإن أصابه خير اطمأن به ،وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ولم يحفظ منهما إلا بالصفقة الخاسرة.

فخير [العيش] (٥)أدركه السعداء بـصبرهم وترقوا إلى أعلى المنـازل بشكرهم، فساروا بين جناحى الصبر والشكر إلى جنات الـنعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

(١)زيادة من أ .
(٢)في أ : الصبر .
(٣)في ط و ب : والصبر .
(٤)في ط و ب : وساق .
(٥) سقط من ط و ب

فصل

ولما كان الإيمان نصفين : نصف صبر ونصف شكر ،كان حقيقًا [ق/ ٣أ] على من نصح نفسه، وأحب نجـاتها ،وآثر سعادتها ،ألا يهمل هذين الأصـلين العظيمين، ولا يعدل عن هذين الطريقين القاصدين ، وأن يجعل سيره إلى الله من هذين الجناحين ، ليجعله الله يوم لقائه مع خير الفريقين .

فكذلك وضع هذا الكتاب للتعريف بشدة الحاجة والضرورة إليهما، وبيان توقف سعادة الدنيا والآخـرة عليهما ، فجاء كتابًا جـامعًا حاويًا نافعًا فيه مـن الفوائد ما هو حقيق على أن يعض عـليه بالنواجذ ، وتثنى علـيه الخناصر ، ممتعًا لقـارئه ، مريحًا للناظر فيه ، مسليًا للحزين، منهضًا للمقصرين ، محرضًا للمشمرين ، مشتملاً على نكات حسان من تفسير القرآن ،وعلى أحاديث نـبوية معزوة إلى مظانها، وآثار سلفية منسوبة إلى قائلها، ومـسائل فقهية [حسان][1] مقررة بالدليل ، ودقائق سلوكية على سواء السبيل ،لا تخفى معرفة ذلك على من فكر وأحضر ذهنه.

فإن فـيه ذكـر أقسـام الصـبر، ووجـوه الشـكر وأنـواعه، وفـصل الـنزاع فـى [التفضيل][2] بين الغنـى الشاكر والفقيـر الصابر ،وذكر حقيقـة الدنيا وما مثلـها الله ورسوله والسـلف الصالح به والكـلام على سير هذه الأمثـال ومطابقتها [لحـقيقة][3] الحال ، وذكر مـا يذم من الدنيـا ويحمد، وما يـقرب منها إلـى الله ويبعـد ،وكيف يشقى، بها من يشـقى ، ويسعد بها من يسعد، وغير ذلك مـن الفوائد التى لا تكاد تظفر بها فى كتـاب سواه، وذلك محض منة [من][4] الله على عبـده، وعطية من بعض عطاياه.

فهو كتاب يصلح للملوك والأمراء والأغنيـاء والفقراء والصوفية والفقهاء، ينهض القاعد إلى المسير ، ويؤنس السائر فى الطريق، وينبه السالك على المقصود ،ومع هذا فهو جهد المقـل، وقدرة المفلس ،حذر فيه من الداء وإن كان مـن أهله ،ووصـف فيه الدواء وإن لم يصـبر على تناولـه لظلمه وجهـله ،وهو يرجو أكرم الأكـرمين وأرحم الراحمين أن يغفر له غيه لنفسه بنصيحته لعباده المؤمنين.

---

(١) سقط من أ .
(٢) في ط و ب : التفصيل .
(٣) في أ : بحقيقة .
(٤) سقط من أ .

فما كان فى الكتاب من صـواب فمن الله وحده [فهو] (١) المحمود والمستعان ، وما كان فـيه من خطأ فـمن مصنفه ومـن الشيطان ،والـله برىء منه ورسـوله وهذه بضاعه مـؤلفه المزجاة تساق إليـك ، وسلعته تعرض عـليك ،فلقارئه غنـمه، وعلى مؤلفه غرمه. وبـنات أفكاره تزف إليك، فإن وجدت حرًا كريمًـا كان بها أسعد، وإلا فهي خود تزف إلى عنين مقعد وقد جعلته ستة وعشرين بابًا وخاتمة.

وقد جعلته ستة وعشرين بابًا وخاتمة :

الباب الأول: فى معنى الصبر لغة واشتقاق هذه اللفظة وتصريفها .

الباب الثاني: فى حقيقة الصبر وكلام الناس فيه.

الباب الثالث: فى بيان أسماء الصبر [بـالإضافة إلى متعلقه] (٢) [وكلام الناس فيه](٣) .

الباب الرابع: فى الفرق بين الصبر والتصبر والاصطبار والمصابرة . .

الباب الخامس : فى أقسام الصبر باعتبار محله .

الباب السادس: فى أقسامه بحسب اختلاف قوته وضـعفه ومقاومته لجيش الهوى وعجزه عنه .

الباب السابع: فى بيان أقسامه باعتبار متعلقه .

الباب الثامن: فى انقسامه باعتبار تعلق الأحكام الخمسة به .

الباب التاسع: فى بيان تفاوت درجات الصبر .

الباب العاشر: فى انقسام الصبر إلى محمود ومذموم .

الباب الحادى عشر: فى الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام .

الباب الثانى عشر: فى الأسباب التي تعين على الصبر .

الباب الثـالث عشر: فى بيان أن الإنسـان لا يستغنى عن الصبـر فى حـال من الأحوال.

الباب الرابع عشر: فى بيان أشق الصبر على النفوس .

الباب الخامس عشر: فى ذكر ما ورد فى الصبر من نصوص الكتاب العزيز .

الباب السادس عشر: فى ذكر ما ورد [فى الصبر](٤) من نصوص السنة [ق/ ٤أ].

الباب السابع عشر: فى ذكر الآثار الواردة عن الصحابة فى فضيلة الصبر .

---

(١) في أ وهو .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) سقط من أ .
(٤) في أ : فيه .

الباب الثامن عشر: فى ذكر أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب وشق الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها .

الباب التاسع عشر: فى أن الصبر نصف الإيمان وأن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر .

الباب العشرون: فى بيان تنازع الناس فى الأفضل من الصبر والشكر.

الباب الحادى والعشرون : فى الحكم بين الفريقين والفصل بين الطائفتين.

الباب الثانى والعشرون: فى اختلاف الناس فى الغنى الشاكر والفقير الصابر، أيهما أفضل ؟ وما هو الصواب فى ذلك .

الباب الثالث والعشرون: فى ذكر ما احتجت به الفقراء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار .

الباب الرابع والعشرون : في ذكر ما احتجت به الأغنياء من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار .

الباب الخامس والعشرون : في بيان الأمور المضادة للصبر والمنافية له والقادحة فيه.

الباب السادس والعشرون: فى بيان دخول الصبر [والشكر] [(١)] فى صفات الرب جل جلاله وتسميته بالصبور الشكور .

وسميته : « عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين » . والله المسؤول أن يجعله خالصًا لوجهه مدنيًا من رضاه ، وأن ينفع به مؤلفه وكاتبه وقارئه، إنه سميع الدعاء ، وأهل الرجاء ، فهو حسبنا ونعم الوكيل .

* * * *

---

(١) سقط من ط و ب .

الباب الأول

فى معنى الصبر لغة واشتقاق

هذه اللفظة وتصريفها

أصل هذه الكلمة : هو المنع والحبس ، فالصبر حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي [والتسخط][١]، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما . ويقال : صبر يصبر صبرًا وصبر نفسه قال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ [الكهف :٢٨].

وقال عنترة :

فصبرت عارفة لذلك حرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع

يقول: حبست نفسا عارفة وهى نفس حر تأنف، لا نفس عبد لا أنفة له وقوله: «ترسو» أي تثبت وتسكن إذا خفت نفس الجبان واضطربت.

ويقال : صبَّرت فلانًا إذا حبسته، وصبّرته بالتشديد إذا حملّته على الصبر، وفي حديث الذي أمسك رجلا وقتله آخر : « **يقتل القاتل ويصبر الصابر** »[٢] ،أى: يحبس للموت كما حبس من أمسكه للموت . وصبرت الرجل إذا قتلته صبراً أى: أمسكته للقتل وصبرته أيضا وأصبرته إذا حبسته للحلف ومنه الحديث الصحيح : «**من حلف على يمين صبر ليقتطع بها مال امرئ مسلم، لقي الله وهو عنه معرض** »[٣] ، ومنه الحديث الذي فى القسامة : « **ولا يصبر يمينه حيث تصبر الأيمان** »[٤] والمصبورة اليمين المحلوف عليها، وفي الحديث نهى عن المصبورة [٥] وهي الشاة والدجاجة ونحوهما تصبر للموت فتربط ثم [ثم ترمى][٦] حيث تموت .

---

(١) سقط من ط و ب .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٧٨٩٢) والدارقطني (١٧٥) والبيهقي (١٥٨٠٩) ، قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - : حديث يقتل القاتل ويصبر الصابر » رواه الدارقطني والبيهقي من حديث الثوري عن إسماعيل ابن أمية عن نافع عن ابن عمر . ورواه معمر وغيره عن إسماعيل مرسلاً. قال الدارقطني : والإرسال فيه أكثر. وقال البيهقي : إنه موصول غير محفوظ وصححه ابن القطان . انظر تلخيص الحبير (١٦٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٩٩) ، ومسلم (٢٢٠) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٣٢) والبيهقي في الكبرى (١٦٢٤٣) من حديث ابن عباس .

(٥) أخرجه البخاري (٥٥١٣) ومسلم (١٩٥٦) من حديث أنس .

(٦) في ط و ب : فترمى .

وفعل هذا الباب : صبرت أصبر ، بالفتح فى الماضـي والكسر فى المستقبل، وأما صبرت أصبُر بالـضم فى المستقبل فهو بمعنـى الكفالة ،والصبير الكفـيل ،كأنه حبس نفسه للغرم ،ومنه قولـهم : أصبرنى: أي [جعلني] (١) كفيلا، وقيل: أصل الكلمة من الشدة والقوة، ومنه الصبر للدواء المعروف لشدة مرارته وكراهته ،قال الأصمعي: إذا لقي الرجل الـشدة بكمالها قيـل لقيها بأصبارهـا [ومن الصبور](٢): بضم الصاد للأرض ذات الحصباء لشدتـها وصلابتها ومنه سميت الحرة أم صـبار ، ومنه قولهم: وقع القوم فى أمر صبّور بتشديد الباء أي: أمر شديد ومنه صبارة الشتاء بتخفيف الباء وتشديد الراء لشدة برده .

وقيل : هو مأخوذ من الجمع والضم، فالصابر يجمع نفسه [ق/ ٥أ] ويضمها عن الهلع والجزع، ومنه صبرة الطعام وصبارة الحجارة .

والتحقيق أن فى الصبر المعاني الثلاثة : المنع،والشدة ، والضم. ويقال: صبر إذا أتى بالصبر ، وتصبر إذا تكلفه واستدعاه ،واصطبر إذا اكتسبه وتعلمه وصابر إذا وقف خصمه فى مقام الصـبر . وصبر نفسه وغيره بالتشديد إذا حملـها على الصبر. واسم الفـاعل: صابـر، وصبار ،وصبـور، ومصابـر ، ومصطـبر ، فمصـابر من صـابر، ومصطبر من اصطبر، وصابر من صبر ، وأما صبار وصبور فهو من أوزان المبالغة من الثلاثي: كضراب وضروب، والله [سبحانه](٣) أعلم.

* * * *

(١) في أ : جعلني .
(٢) في ط و ب : ومن الصُبر .
(٣) زيادة من أ .

الباب الثاني

فى حقيقة الصبر وكلام الناس فيه

قد تقدم بيان معناه لغة ، وأما حقيقته : فهو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل ،وهو قوة مــن قوى النفس التى بها صلاح شأنها وقوام أمرها .

وسئل عنه الجنيد بن محمد فقال:[هو][1] تجرع المرارة من غير تعبس.

وقال ذو النون : هو التباعد عن المخالفات ،والــسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة.

وقيل: الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب.

وقيل : وهو الفناء في البلوى بلا ظهور شكوى.

وقال أبو عثمان: الصبَّار هو الذي عود نفسه الهجوم على المكاره.

وقيل: الصبر المقام على البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية.

ومعنى هذا : أن لله على العبد عبوديته فــى عافيته وفي بلائه ، فعليه أن يحسن صحبة العافية بالشكر ، وصحبة البلاء بالصبر .

وقال عمرو بــن عثمان المكى: الــصبر هو الثبات مــع الله وتلقى بــلاءه بالرحب والدعــة. ومعنى هــذا: أنه يتلــقى البلاء بــصدر واسع لا يتــلقاه بالــضيق والســخط والشكوى.

وقال الخواص: الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

وقال رويم: الصبر ترك الشكوى فسره بلازمه.

وقال غيره : الصبر هو الاستعانة بالله.

وقال أبو على : الصبر كاسمه.

وقال على بن أبى طالب ﷺ: الصبر مطية لا تكبو .

وقال [غيره وهو][2] أبو محــمد الجريرى: الصبــر أن لا يفرق بين حال النــعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما .

قلت : وهذا غير مقدور ولا مــأمور به ،فقد ركب الله الطباع علــى التفريق بين الحالتين، وإنما المقدور حــبس النفس عن الجزع لا استواء الحالتين عــند العبد، وساحة

---

(١)سقط من ط و ب . (٢)سقط من ط و ب .

العافية أوسع للعبد من ساحة الصبر، كما قال النبي ﷺ فى الدعاء المشهور: « **إن لم يكن بك غـضب على فلا أبالـى غير أن عافيتـك أوسع لى** » [١] . ولا يناق[هذا][٢] قوله ﷺ: « **وما أعطى أحد عطاء خـيراً وأوسع من الصبر** » [٣] ،فإن هذا بعد نزول البلاء ليس للعبد أوسع من الصبر ،وأما قبله فالعافية أوسع له [منه][٤].

وقال أبو على الدقاق : حد الصبر أن لا يعترض على التقدير. فأما إظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافي الصبر، قال الله تعالى فى قصة أيوب: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص:٤٤] مع قوله تعالى: ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء:٨٣] ، قلت : فسر اللفظة بلازمها .

وأما قوله : « **على غير وجه الشكوى** » فالشكوى نوعان:

أحدهما: الشكوى إلى الله فهذا لا ينافـي الصبر كما قال يعقوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي [إِلَى اللَّه][٥]﴾ [يوسف :٨٦] مع قوله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف :١٨]. وقال أيوب: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ مع وصف الله له بالصبر ، وقال سـيد الصابرين صلوات الله وسلامه عليه :«**اللهم أشكوإليك ضعف قوتي وقلة حيلتي. . . [الحديث]** » .

ومقال موسى صلوات الـله وسلامه عليه: « **اللهم لك الحمد، وإلـيك المشتكى، وأنت المستعان ،وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك**» .

والنوع الثاني: شكوى المبتلى بلسان الحال أوالمقال ،[فهذا لا يجامع][٦] الصبر بل [يضاده ويبطله][٧]، فالفرق بين شكواه والشكوى إليه . وسنعود لهذه المسألة فى باب اجتماع الشكوى والصبر وافتراقهما إن شاء الله تعالى .

وقيل : الصبر شجاعة النفس ومن ها هـنا أخذ القائل قوله :(الشجاعة [ق/٦أ] صبر ساعة).

وقيل: الصبر ثـبات القلب عند مـوارد الاضطراب والصبر والجـزع ضدان ولهذا يقابل أحدهما بالآخر قـال تعالى عن أهل النار :﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن

---

(١) أخرجه الطبراني فـي الكبير (١٣)، (٧٣) ، (١٨١) وفي الدعاء (١٠٣٦)، قال الهيثـمي : رواه الطبراني ، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقـات . انظر مجمع الزوائد (٦/ ٣٥) وضعفه الألباني ـ رحمه الله ـ في فقه السيرة (ص١٣٧) وفي ضعيف الجامع (١١٨٢) .

(٢) أفي ط و ب : هذه .

(٣) أخرجه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) سقط من ط و ب

(٥) سقط من ط و ب .

(٦) في ط و ب : فهذه لا تجامع .

(٧) في ط و ب : تضاده وتبطله .

مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم:٢١] .

والجزع قرين العجز وشقيقه، والصبر قرين الكيس ومادته، فلو سئل الجزع : من أبوك؟ لقال: العجز ، ولو سئل الكيس: من أبوك، لقال: الصبر.

والنفس مطية العبد التى يسير عليـها إلى الجنة أو النار. والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام للمطية، فإن لم يكن للمطية خطام ولا زمام شردت فى كل مذهب .

وحفظ من خطب الحجاج : [أقرعوا] [١] هذه النفوس فإنها [طليعة][٢] إلى كل سوء، فرحم الله امرءًا جعـل لنفسه خطامًا وزمامًا فقادها بخطـامها إلى طاعة الله ، وصرفها بزمامهـا عن [معصية] [٣] الله، فإن الصبر عن محـارم الله أيسر من الصبر على عذابه .

قلت : والنفـس فيها قوتـان : قوة الإقدام وقوة الإحجام ، فـحقيقة الـصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه، وقوة الإحجام إمساكًا عما يضره .

ومن الناس من يكون قوة صبره على فعل ما ينتفع به وثباته عليه أقوى من صبره عما يضره، فيصبر على مشقة الطاعة ولا صبر له عن داعى هواه إلى ارتكاب ما نهى عنه. ومنهم من يكون قوة صبره عن المخالفات أقوى من صبره على مشقة الطاعات. ومنهم من لا صبر له على هذا ولا هذا . وأفضل الناس أصبرهم على النوعين.

فكثـير من الناس يصـبر على مكابـدة قيام الليل فـى الحر والبرد ،وعلى مـشقة الصيـام، ولا يصبر عـلى نظرة محـرمة . وكثيـر من الناس يصـبر عن النـظر وعن الالتفـات إلى الصور، ولا صبـر له على الأمر بـالمعروف والنـهى عن المنكـر وجهاد الكفار والمنافقـين، بل هو أضعف شىء عن هذا وأعجزه ، وأكثرهـم لا صبر له على واحد من الأمرين. وأقلهم أصبرهم فى الموضعين .

وقيل: « الصبر ثـبات باعث العقـل والدين فى مقابـلة باعث الهوى والـشهوة » ومعنى هذا أن الطبع يتقاضى ما يجب وبـاعث العقل والدين يمنع منه، والحرب قائمة بينهما [وهى][٤]سجال، ومعرك هذا الحرب قلب العبد والصبر والشجاعة والثبات .

---

(١)في ط و ب : اقدعوا .
(٢)في ط و ب : طلعة .
(٣)في ط و ب : معاصي .
(٤)في ط و ب : وهو .

الباب الثالث

فى بيان أسماء الصبر بالإضافة إلى متعلقه

لما كان الصبر المحمود هو الصبر النفسانى الاختيارى عن إجابة داعى الهوى المذموم، كانت مراتبه وأسماؤه بحسب متعلقه .

فإنه إن كان صبرًا عن شهوة الفرج المحرمة سمى عفة، وضدها الفجور والزنا والعهر.

وإن كان عن شهوة البطن ،وعدم التسرع إلى الطعام ،أو تناول ما لا يجمل منه، سمى شرف نفس وشبع نفس ، وسمى ضده شرهًا ودناءة ووضاعة نفس.

وإن كان عن إظهار ما لا يحسن إظهاره من الكلام سمى كتمان سر، وضده إذاعة وإفشاء أو تهمة أو فحشا أو سبًا أو كذبًا أو قذفًا.

وإن كان عن فضول العيش سمى زهدًا ، وضده حرصًا . وإن كان على قدر يكفي من الدنيا سمى قناعة ، وضدها الحرص أيضًا.

وإن كان عن إجابة داعى الغضب سمى حلما وضده تسرعًا أيضًا.

وإن كان عن إجابة داعى العجلة سمى وقارًا وثباتًا وضده طيشًا وخفة.

وإن كان عن إجابة داعى الفرار والهرب سمى شجاعة وضده جبنًا وخورًا.

وإن كان عن إجابة داعى الانتقام سمى عفوًا وصفحًا وضده انتقامًا وعقوبة.

وإن كان عن إجابة داعى الإمساك والبخل سمى جودًا، وضده بخلا.

وإن كان عن إجابة داعى الطعام والشراب فى وقت مخصوص سمى صومًا .

وإن كان عن إجابة داعى العجز والكسل سمى كيسًا .

وإن كان عن إجابة داعى إلقاء الكل على الناس وعدم حمل كلهم سمى مروءة .

فله عند كل فعل وترك اسم ما يخصه بحسب متعلقه والاسم الجامع لذلك كله «الصبر». وهذا يدلك على ارتباط [مقامات الدين كلها] [١] [ق/١٧أ] بالصبر [كلها][٢] من أولها إلى آخرها .

---

(١) في أ : مقام الدين كله .

(٢) سقط من ط و ب .

[ولذا يسمى عدلا إذا تعلق بالتسوية بين المتماثلين وضده الظلم][1].

ويسمى سماحة إذا تعلق ببذل الواجب والمستحب بالرضا والاختيار. وعلى هذا جميع منازل الدين .

* * * *

(١) سقط من ط و ب .

الباب الرابع
فى الفرق بين الصبر والتصبر
والاصطبار والمصابرة

الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبـد فى نفسه وحاله مع غيره، فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعى ما لا يحسـن إن كان خلقًا له وملكة سمى صبرًا . وإن كان بتكلف وتمرن وتجرع لمرارته سمى تصبرًا كما يدل عليه هذا البناء لغة فإنه موضوع للتكلف كالتحلم والتشجع والتكرم [والتحلم][1] ،ونحوها.

وإذا تكلفه العبد واستدعاه صار سجية له كما فى الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**ومن يتصبر يصبره الله** » . وكذلك العبد يتكلف التعـفف حتى يصير العفاف له سجية وكذلك سائر الأخلاق .

وهي مسألة اختلف فيها الناس: هل يمكن اكتساب واحد منها أم التخلق لا يصير خلقًا أبدًا؟ كما قال الشاعر:

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

[وقال آخر :

يا أيها المتحلى غير شيمته إن التخلق يأتى دونه الخلق][2]

وقال الآخر :

فضح التطبع شيمة المطبوع

قالوا: وقد فرغ الله سبحانه وتعالى من الخلق والخُلُق والرزق والأجل.

وقالت طائفة أخرى: بل يمكن اكتساب الخلق كما يـكتسب العقل والحلم والجود والسخـاء والشجاعة، والوجـود شاهد بذلك . قـالوا :والمزاولات تعطى المـلكات، ومعنى هذا أن من زاول شيئًا واعتاده وتمرن عليه صار ملكة له وسجية وطبيعة .

قالوا : والعوائد تنقل الطبائع، فلا يزال العبد يتكلف التصبر حتى يصير الصبر له سجية ، كما أنه لا يزال يتكلف الحلم والوقار والسكينة والثبات حتى تصير له أخلاقًا

---
(١) في ط و ب : والتحمل .
(٢) سقط من ا .

بمنزلة [الطباع][١].

قالوا: وقد جعل اللـه سبحانه وتعالى فى الإنـسان قوة القبول والتعلـم [والتهيؤ للكمال][٢]، فنقل الطـبائع عن مقتضياتهـا غير مستحيل ، غير أن هـذا الانتقال قد يكون ضـعيفًا فـيعود العـبد إلى طبـعه بأدنى بـاعث ،وقد يكـون قويًا ، ولكـن لم [ينتقل][٣] الطبع [انتقالاً تامًا] [٤] فقد يعود إلى طبعـه إذا قوى الباعث واشتد. وقد يستحكم الانـتقال بحيث يستحدث صاحبـه طبعًا ثانيًا ،فهذا لا يكاد يـعود إلى طبعه الذى انتقل عنه .

وأما الاصطبار: فهو أبلـغ من التصبر ،فـإنه افتعال للـصبر بمنزلة الاكـتساب، [فالتصـبر مبدأ الاصطبار، كمـا أن التكسب مقدمـة الاكتساب][٥]، فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطباراً.

وأما المصابرة : فهى مقـاومة الخصم فى ميـدان الصبر، فإنهـا مفاعلة تسـتدعى وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة ،قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] فأمرهـم بالصبر وهو عـلى حال الصابر فى نفسه ، والمـصابرة وهى حالة فى الصبر مع خصمه والمـرابطة وهى الثبات واللزوم والإقامة على التصبر والمصابرة ،فقد يصبر العبد ولا يصابر .[وقد يصابر][٦] ولا يرابط. وقـد يصبر ويصابـر وقد يصابر ويرابـط من غير تعـبد بالتقوى، فـأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كـله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليهـا فقال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:١٨٩]. فالمرابطة كـما أنها لزوم الثغر الـذى يخاف هجوم [العدو] [٧] منه فى الظـاهر فهى لزوم ثغر القلـب لئلا يدخل منه الهـوى والشيطان فيزيله عن مملكته .

* * * *

---

(١) في ط و ب : الطبائع

(٢) سقط من أ.

(٣) في ط و ب : ينقل .

(٤) سقط من ط و ب .

(٥) سقط من ط و ب .

(٦) سقط من ط و ب .

(٧) سقط من ط و ب .

الباب الخامس

فى [أقسامه][(١)] باعتبار محله

الصبر ضربان: ضرب بدنى، وضرب نفسانى ، وكل [ضرب][(٢)] منهما نوعان: اختياري، واضطرارى، فهذه أربعة أقسام:

الأول: البدنى الاختيارى كتعاطى الأعمال الشاقة على البدن اختيارًا وإرادة.

الثاني: البدنى الاضطرارى كالصبر على ألم الضرب والمرض والجراحات والبرد والحر وغير ذلك.

الثالث : النفسانى الاختيارى [ق/٨أ] كصبر النفس عن فعل ما لا يحسن فعله شرعًا ولا عقلا.

الرابع: النفسانى الاضطرارى ، كصبر النفس عن محبوبها قهرًا إذا حيل بينها وبينه.

فإذا عرفت هذه الأقسام فهى مختصة بنوع الإنسان دون البهائم، ومشاركة البهائم فى نوعين منها وهما: صبر البدن والنفس الاضطراريين .وقد يكون بعضها أقوى صبرًا من الإنسان ،وإنما تميز الإنسان عنها بالنوعين الاختياريين. وكثير من الناس يكون قوة صبره فى النوع الذى يشاركه فيه البهائم لا فى النوع الذى يختص بالإنسان، فيعد صابرًا وليس من الصابرين .

فإن قيل: هل يشارك الجن الإنس فى هذا الصبر؟

قيل: نعم ،هذا من لوازم التكليف وهو مظنة الأمر والنهى، والجن مكلفون بالصبر على الأوامر ، [والتصبر] [(٣)] عن النواهى كما كلفنا نحن بذلك.

فإن قيل : فهل هم مكلفون على الوجه الذى كلفنا نحن به أم على وجه آخر؟

قيل : ما كان من لوازم النفوس ، كالحب والبغض والإيمان والتصديق والموالاة والمعاداة فنحن وهم مستوون فيه وما كان من لوازم الأبدان، كغسل الجنابة وغسل الأعضاء فى الوضوء والاستنجاء والختان وغسل الحيض ونحو ذلك، فلا تجب مساواتهم لنا فى [كيفيته][(٤)]، وإن تعلق ذلك بهم على وجه يناسب خلقتهم [وهيأتهم][(٥)].

---

(١) في ط و ب : انقسامه

(٢) سقط من ط و ب .

(٣) في ط و ب : والصبر .

(٤) في ط و ب : تكلفه .

(٥) في ط و ب : وحياتهم .

فإن قيل: فهل تشاركنا الملائكة فى شىء من أقسام الصبر.

قيل: الملائكة لم يبتلوا بهوى يحارب عقولهم ومعارفهم، بل العبادة والطاعة لهم كالنفس لنا، فلا يتصور فى حقهم الصبـر الذى حقيقته ثبات باعث الدين والعقل فى مقابلة باعث الشهوة والهوى ،وإن كان لهم صبر يـليق بهم وهو ثباتهم وإقامتهم على ما خلقوا له من غير منازعة هوى أو شهوة أو طبع.

فالإنسان منا إذا غلـب صبره باعث الهوى والشهوة التحـق بالملائكة ، وإن غلب باعث الـهوى والشهوة صـبره التحق بالـشياطين ،وإن غلـب باعث طبعـه من الأكل والشرب والجماع صبره التحق بالبهائم.

قال قتادة: خلق الله سبحانه الملائكـة عقولا بلا شهوات ،وخلق البهائم شهوات بلا عقول، وخلق الإنسان وجعل له عقلا وشهـوة ، فمن غلب عقله شهوته فهو مع الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو كالبهائم .

ولما خلق الإنسان فى ابـتداء أمره ناقصًا لم يخلق فيه إلا شـهوة الغذاء الذى هو محتاج اليه، فصبره فى [هذا][1] الحال بمنزلة صبر البهائم، وليس له قبل تمييزه قوة صبر الاختيار. فإذا ظهرت فيه شهوة اللعب استعد لقوة الصبر الاختيارى على ضعفها فيه. فإذا تـعلقت به شهوة الـنكاح ظهرت فيه قوة الـصبر ،فإذا تحرك سلطـان العقل وقوى أعين بجـيش الصبر، ولكن هـذا السلطان وجنـده لا يستقلان بمقاومـة سلطان الهوى وجنده، فـإن إشراق نور الهداية يلوح عليـه عند أول سن التمييز ويـنمو على التدريج إلى سن البلوغ كما يبدو خيط الفـجر ثم يتزايد ظهوره ، وكلها هداية قاصرة غير مستقلة بإدراك مـصالح الآخرة ومضارها، بل غايتها تعلقها بـنقص مصالح الدنيا ومفاسدهـا فإذا طلعت علـيه شمس النبوة والـرسالة وأشرق عليـه نورها ، رأى فى ضوئها تفاصيل مصالح الدارين [ومفاسدهما][2] فتلمح العواقب ولبس لأمة الحرب وأخذ أنواع الأسلحة ووقع فى حومة الحرب بـين داعى الطبع والهوى. وداعى العقل والهدى والمنصور من نصره الله والمخـذول من خذله ، ولا تضع الحرب أوزارها حتى ينزل فى إحدى المنزلتين. ويصير إلى ما خلق له من الدارين .

(١) في ط و ب : هذه .   (٢) في ط و ب : ومفاسدها .

الباب السادس
فى [بيان][١] أقسامه بحسب اختلاف قوته وضعفه ومقاومته بجيش الهوى وعجزه عنه

وباعث الدين [ق/ ٩أ] بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

[إحداها][٢] : أن يكون القهر والغلبة لداعي الدين فيرد جيش الهوى [مذلولا] [٣] وهذا إنما يصل إليه بدوام الصبر والواصلون إلى هذه الرتبة هم المنصورون فى الدنيا والآخرة وهم الذين قالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت : ٣٠] ، وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت : ﴿ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدنيا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠ ، ٣١] ، وهم الذين نالوا معية الله مع الصابرين وهم الذين جاهدوا فى الله حق جهاده فخصهم بهدايته دون من عداهم.

الحالة الثانية : أن [يكون القهر][٤] والغلبة لداعي الهوى فيسقط منازعة][٥] باعث الدين بالكلية فيستسلم البائس للشيطان وجنده فيقودونه حيث شاؤوا .

وله معهم حالتان :

إحداهما : أن يكون من جندهم وأتباعهم ، وهذه حال العاجز الضعيف.

الثانية : أن يصير الشيطان من جنده ،وهذه حال الفاجر القوي المتسلط والمبتدع الداعية المتبوع كما قال [القائل][٦] :

وكنت امرءاً من جند إبليس فارتقى ... بى الحال حتى صار إبليس من جندي

فيصير إبليس وجنده من أعوانه وأتباعه ، وهؤلاء [هم] [٧] الذين غلبت عليهم شقوتهم، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة وإنما صارو إلى هذه الحال لما أفلسوا من الصبر. وهذه الحالة هي حالة جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.

وجند أصحابها المكر ،والخداع، والأماني الباطلة، والغرور ،والتسويف بالعمل،

---

(١) سقط من ط و ب .
(٢) في ط و ب : أحداها .
(٣) في ط و ب : مغلولاً .
(٤) في ط و ب : تكون القوة .
(٥) في ط و ب : منازعه .
(٦) في ط و ب : قائل .
(٧) سقط من ط و ب .

وطول الأمل ،وإيثار العاجل على الآجل .وهي التى قال فى صاحبها النبي ﷺ : «**العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**» [(١)] .

وأصحاب هذه الحال أنواع شتى: فمنهم المحارب لله ورسوله الساعي فى إبطال ما جاء به الرسول ، يصد عن سبيل الله ويبغيها بجهده عوجًا وتحريفًا ليصد الناس عنها، ومنهم المعرض عما جاء به الرسول، المنهمك على شهواته ودنياه فقط. ومنهم المنافق ذو الوجهين، الذي يأكل بالكفر والإسلام. ومنهم الماجن المتلاعب الذي قطع أنفاسه بالمجون واللهو واللعب ،ومنهم من إذا وعظ قال: واشوقاه إلى التوبة ولكنها قد تعذرت على فلا مطمع لى فيها ومنهم من يقول: ليس الله محتاجًا إلى صلاتي وصيامي، وأنا لا أنجو بعملي والله غفور رحيم ومنهم من يقول: ترك المعاصي استهانة بعفو الله ومغفرته!!

فكثر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم

ومنهم من يقول : ماذا تقع طاعتي فى جنب ما قد عملت وما قد ينفع الغريق خلاص أصبعه وباقي بدنه غريق .ومنهم من يقول: سوف أتوب وإذا جاء الموت ونزل بساحتي تبت وقبلت توبتي .

إلى غير ذلك من أصناف المغترين الذين [قد][(٢)] صارت عقولهم فى أيدي شهواتهم، فلا يستعمل أحدهم عقله إلا فى دقائق الحيل التى بها يتوصل إلى قضاء شهواته، فعقله مع الشيطان كالأسير فى يد الكافر، يستعمله فى رعاية الخنازير وعصر الخمر وحمل الصليب، وهو بقهره عقله وتسليمه إلى أعدائه عند الله بمنزلة رجل قهر مسلمًا، وباعه للكفار ، وسلَّمه إليهم ،وجعله أسيرًا عندهم.

(فصل)

وهاهنا نكتة بديعة يجب التفطن لها ،وينبغى إخلاء القلب لتأملها ، [وهي][(٣)] أن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذى أعزه به وشرفه ورفع به قدره ، وسلمه إلى أبغض أعدائه إليه وجعله أسيرًا له تحت قهره وتصرفه وسلطانه سلَّط الله عليه من كان حقه هو أن يتسلط عليه ،فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه، يسخره حيث شاء

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٦٤) والترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠)، والحاكم (١٩١) ، (٧٦٣٩) من حديث شداد بن أوس . وضعفه الألباني : انظر ضعيف الجامع (٤٣٠٥)

(٢) سقط من ط و ب . (٣) في ط و ب : وهو .

ويسخر منه ، جنده وحزبه ،فكما أذل سلطان الله ،وسلمه إلى عدوه أذله الله ، وسلط عليه عدوه، الذى أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره فصار بمنزلة من سلم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب ،وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه، فلما ترك مقاومته ومحاربته، [ق/ ١٠أ] واستسلم له، سلط عليه عقوبة له، [قال الله تعالى] [١]: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل] .

فإن قيل : فقد أثبت له على أوليائه هاهنا سلطانًا فكيف نفاه [بقوله تعالى][٢] حاكيًا عنه مقررًا [لقوله][٣] : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم :٢٢] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبأ : ٢٠ ، ٢١] .

قيل: السلطان الذى أثبته له عليهم غير الذى نفاه من وجهين:

أحدهما : أن السلطأن الثابت هو سلطأن التمكن منهم وتلاعبه بهم، وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه [من][٤] ذلك بطاعته وموالاته ، والسلطان الذى نفاه سلطان الحجة فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير [أنه][٥] دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

الثانى: أن الله لم يجعل له عليهم سلطانًا ابتداء البتة ،ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته ودخولهم فى جملة جنده وحزبه ،فلم [يتسلط][٦] عليهم بقوته، فإن كيده ضعيف، وإنما [تسلط] [٧] عليهم بإرادتهم واختيارهم .والمقصود أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن [يتسلط] [٨] عليه ذلك العدو نفسه.

---

(١) في أ : قال تعالى .
(٢) في أ : في قوله .
(٣) في ط و ب : له .
(٤) سقط من أ .
(٥) في أ : أن .
(٦) في ط و ب : يتسلطن .
(٧) في ط و ب : تسلطن .
(٨) في أ : يسلط .

[فصل] (١)

الحالة الثـالثة : في أن يكون الحـرب سجالاً ودولاً بين الجندين ، فـتارة له وتارة عليه، وتكثر نوبات الانتصار وتقل، وهذه حال أكثر المؤمنين [الذين](٢) خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا.

وتكون الحـال يوم القيامة مـوازنة لهذه الأحوال [الـثلاثة](٣) سواء بسواء، فمن الناس من يدخل الجنة ولا يدخل النار . ومنهم من يدخل النار ولا يدخل الجنة.

ومنهم من يـدخل النار ثم يدخل الجنة، وهـذه الأحوال [الثلاثة](٤) هى أحوال الناس فى الصحة والمـرض ، فمن الناس من تقاوم قوته داءه فيقهـره ويكون السلطان للقوة ، ومنهم من يقهر داؤه قوته ويكون السلطان للداء ،ومنهم من تكون الحرب بين دائه وقوته نوبًا فهو متردد بين الصحة والمرض.

(فصل)

ومن الناس من يصبر بجهد ومشقة، ومنـهم من يصبر بأدنى حمل على النفس. ومثال الأول : كرجل صارع رجلا شديداً فلا يقهره إلا بتعب [ومشقة](٥) ،والثانى : كمـن صارع رجلا ضعـيفًا فـإنه يصرعـه بغيـر مشقة، فـهكذا تـكون المصارعـة بين [جنود](٦) الرحمن وجنود الشيطان، ومن صرع جند الشيطان صرع الشيطان .

قال عبد الله بن مسعود [رضي الله عنه](٧) : « لقى رجل من الإنس رجلا من الجن فصارعه فصرعه الإنسى فقال: مالى أراك ضئيلا؟ فقال: إنى من بينهم لضليع » فقالوا: أهو عمر بن الخطاب؟ فقال : من ترونه غير عمر.

وقال بعض الـصحابة: « إن المؤمن ينـضى شيطانه كـما ينضى أحدكم بـعيره فى السفر».

وذكر ابن أبى الـدنيا عن بعض الـسلف: إن شيطانًا لـقى شيطانًا فـقال : ما لى أراك [شحباً؟](٨)، فقال : إنى مع رجل إن أكل ذكر اسم الله [تعالى](٩) فلا آكل معه

---

(١) سقط من ط و ب .
(٢) في ط و ب : الذي .
(٣) في ط و ب : الثلاث .
(٤) في ط و ب : الثلاث .
(٥) في أ : أ و .
(٦) في أ : حزب .
(٧) زيادة من ط و ب .
(٨) في أ : سخيفاً .
(٩) زيادة من أ .

وإن شرب ذكر اسم الله تعالى فلا أشرب [معه](١) وإن دخل بيته ذكر اسم الله فأبيت خارج الدار . فقال [الآخر](٢) : لكنى مع رجل إن أكل لم يسم الله فآكل أنا وهو جميعاً، وإن شرب لم يسم الله فأشرب معه، وإن دخل داره لم يسم الله فأدخل معه، وإن جامع امرأته لم يسم الله فأجامعها [معه](٣) .

فمن اعتاد الصبر هابه عدوه ،ومن عز عليه الصبر طمع فيه عدوه وأوشك أن ينال منه فرصته .

(١) سقط من أ .
(٢) سقط من أ .
(٣) سقط من ط و ب .

الباب السابع
[بيان](١) أقسامه باعتبار متعلقه

الصبر باعتبار متعلقه [ق/ ١١أ] ثلاثة أقسام : صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر على [النواهي] (٢) والمخالفات حتى لا يقع فيها ،وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها.

وهذه الأنواع الثلاثة هي التى قال فيها الشيخ عبد القادر [رحمه الله تعالى](٣) فى « فتوح الغيب »: لا بد [للعبد](٤) من أمر يفعله ، ونهي يجتنبه، وقدر يصبر عليه.

وهذا الكلام يتعلق بطرفين: طرف من جهة[الرب تعالى، وطرف من جهة العبد.

فأما الطرف الذي من جهة الرب](٥): فهو أن الله تعالى له على عبده حكمان: حكم شرعى دينى، وحكم كونى قدرى .فالشرعى متعلق بأمره ، والكونى متعلق بخلقه، وهو سبحانه له الخلق والأمر وحكمه الدينى الطلبى نوعان بحسب المطلوب: فإن المطلوب إن كان محبوبًا له فالمطلوب فعله إما وجوباً وإما استحباباً،ولا يتم ذلك إلا بالصبر وإن كأن مبغوضًا لـه فالمطلوب تركه إما تحريماً وإما كراهة ،وذلك أيضًا موقوف على الصبر. فهذا حكمه الدينى الشرعى .وأما حكمه الكونى [القدري](٦)، فهو ما يقضيه ويقدره على العبد من المصائب التى لا صنع له فيها ،فـفرضه الصبر عليها . وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء، وهما وجهان فى مذهب [الإمام](٧) أحمد أصحهما أنه مستحب . [فمرجع] (٨) الدين كله إلى هذه القواعد [الثلاث](٩) فعل المأمور، وترك المحظور ، والصبر على المقدور .

وأما الذي من جهة العبد فإنه لا ينفك عن هذه [الثلاث](١٠) [ما دام مكلفًا ،ولا

---

(١) في أ : في ذكر .
(٢) في ط و ب : المناهي .
(٣) زيادة من أ .
(٤) سقط من ط و ب .
(٥) سقط من أ .
(٦) سقط من ط و ب .
(٧) زيادة من أ .
(٨) في أ : فرجع .
(٩) في أ : الثلاثة .
(١٠) في أ : الثلاثة .

تسقط عنه هذه الثلاثة] [١] حتى يسقط عنه التكليف .

فقيام عبودية الأمر والنهى والقدر على ساق الصبر لا يستوى إلا عليه كما لا تستوى السنبلة إلا على ساقها فالصبر [متعلّق][٢] بالمأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر. والشيخ دائمًا يحوم [حول][٣] هذه الأصول الثلاثة .كقوله: يا بنى افعل المأمور واجتنب المحظور وأصبر على المقدور.

وهذه الثلاثة هى التى [أوصى][٤] بها لقمان لابنه فى قوله [تعالى][٥]: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان : ١٧] فأمره بالمعروف يتناول فعله [بنفسه] [٦] وأمر غيره به وكذلك نهيه عن المنكر. أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه . وأما من حيث اللزوم الشرعى فإن الآمر الناهى لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهى .

[وذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة] [٧] فى قوله : [﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى][٨] إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢)﴾ [الرعد].

فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان فى هذه الأوصاف .فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه ،وذلك يعم أمره ونهيه الذى عهده إليهم بينهم وبينه ، وبينهم وبين خلقه ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه.

ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويدخل فى هذا ظاهر الدين وباطنه وحق الله و[حق][٩] خلقه، فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له والقيام بطاعته والإنابة إليه .والتوكل عليه .وحبه وخوفه ورجائه والتوبة إليه ، والاستكانة له والخضوع والذلة له والاعتراف له بنعمته وشكره عليها ،والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها . فهذه هي الوصلة بين [الرب والعبد][١٠] .

---

(١) سقط من ط و ب .
(٢) في أ : يتعلق.
(٣) في أ : على .
(٤) في أ : وصى .
(٥) زيادة من أ .
(٦) في أ : في نفسه .
(٧) فى أ : تقديم وتأخير .
(٨) سقط من أ .
(٩) سقط من ط و ب .
(١٠) في أ : تقديم وتأخير .

وقد أمر الله بهذه الأسباب التى بينه وبين عبده أن توصل وأمر أن [نصل ما][١] بيننا وبين رسوله بالإيمان به وتصديقه، وتحكيمه فى كل شىء ، والرضا [بحكمه][٢] ، والتسليم له. وتـقديم محبته على محبة النـفس والولد [والوالد][٣] والناس أجمعين [صلوات الله وسلامه عليه][٤] . فدخل فى ذلك القيام بحقه وحق رسوله . وأمر أن نصل مـا بيننا وبين الـوالدين والأقربين بالـبر والصلة .فإنـه أمر ببر الوالديـن وصلة الأرحام، وذلك [مما][٥] أمر به أن يوصـل. وأمر أن [ق/ ١٢أ] نصل ما بيـننا وبين الزوجات بالقيـام بحقوقهن ومعاشرتهـن بالمعروف. [وأمر][٦] أن نصل [ما][٧] بيننا وبين الأرقاء بـأن نطعمهـم مما نأكل ونكـسوهم مما [نكـتسي][٨]، ولا نكلفـهم فوق طاقتهم وأن نصل ما بـيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقـه، وحفظه فى نفسه وماله وأهله بما تحفظ بـه نفوسنا وأهلينا وأموالنا . وأن نصل ما بيـينا وبين الرفيق فى السفر والحضر ، وأن نصل ما بيننا وبين عموم الناس بأن نأتى إليهم [ما][٩] نحب أن يأتوه إلينا وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكـرام الكاتبين بأن نكرمهم، ونستحى منهم كما يستحى الرجل من جليسه ومن هو معه ممن يجله ويكرمه . فهذا كله مما [أمر الله به][١٠] أن يوصل.

ثم وصـفهم بالحـامل لهم عـلى هذه الصـلة ، وهو [خشـية][١١] وخوف سوء الحساب يوم المآب [فقـال تعالى : ﴿ ويخشون ربهم ويخـافون سوء الحساب ﴾][١٢] ولا يمكن [لأحد][١٣] قط أن يصل مـا أمر الله بوصله إلا بـخشيته ، ومتـى ترحلت الخشية من القلب انقطعت هذه [الصلة][١٤] .

ثم جمع لهم سـبحانه ذلك كله فى أصل واحد وهو أخيـة ذلك وقاعدته ومداره الذى يدور عليه وهو الصبر ، فقال :﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ [الرعد : ٢٢] ، فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصًا لوجهه .

---

(١) في ط وب : نوصل .
(٢) في ط و ب : لحكمه .
(٣) سقط من ط و ب .
(٤) سقط من أ .
(٥) في أ : ما .
(٦) سقط من أ .
(٧) سقط من ط و ب .
(٨) في أ : نلبس .
(٩) في أ : مما .
(١٠) في أ : أمر به .
(١١) في أ : خشيته .
(١٢) سقط من ط وب .
(١٣) في أ : أحد .
(١٤) في أ : الوصل .

ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر [وهى][١] الصلاة، فقال: ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ﴾ . وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة ، وهما الصبر والصلاة ، [قال تعالى][٢]: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البقرة] ، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة ١٥٣] .

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سراً وعلانية ، فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة ، وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم .

ثم ذكر حالهم إذا جهل عليهم وأوذوا أنهم لا يقابلون ذلك بمثله ، بل يدرؤون بالحسنة [السيئة][٣] ، فيحسنون إلى من يسىء إليهم ، فقال : ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ وقد فسر هذا الدرء بأنهم يدفعون [الذنب بالحسنة][٤] بعده ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود : ١١٤] وقال النبى ﷺ :« **أتبع السيئة الحسنة تمحها**»[٥] والتحقيق أن الآية تعم النوعين :

والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام[والإيمان كلها][٦]، اشتملت على فعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على المقدور.

وقد ذكر تعالى هذه الأصول [الثلاثة][٧] فى قوله : [﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٢٥] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف : ٩٠] وقوله تعالى][٨]: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا [وَصَابِرُوا][٩] وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة، فإن حقيقة التقوى: فعل المأمور وترك المحظور .

---

(١) في أ : وهو .
(٢) في ط و ب : فقال .
(٣) سقط من أ .
(٤) في ط و ب : بالذنب الحسنة .
(٥) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) وأحمد (٢١٣٩٢) ، (٢١٤٤١) والطبراني في الأوسط (٣٧٧٩) وفي الصغير (٥٣٠) وأبو نعيم في الحلية (٤/٣٧٦) ووكيع في الزهد (٩٤) وهناد في الزهد (١٠٧٣) من حديث معاذ، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٦١٨) .
(٦) سقط من ط و ب .
(٧) سقط من ط و ب .
(٨) سقط من ط و ب .
(٩) سقط من أ .

الباب الثامن
فى انقسامه باعتبار تعلق الأحكام الخمسة به

وهو ينقسم بهذا الاعتبار إلى واجب، ومندوب، ومحظور، ومكروه، ومباح: فالصبر الواجب ثلاثة أنواع :

أحدها : الصبر عن المحرمات .

والثاني: الصبر على أداء الواجبات .

والثالث : الصبر على المصائب التى لا صنع للعبد فيها كالأمراض والفقر وغيرها.

وأما الصبر المندوب : فهو الصبر عن المكروهات، والصبر على المستحبات، والصبر [عن] (١) مقابلة الجانى بمثل [ما فعل] (٢).

وأما [الصبر] (٣) المحظور فأنواع :أحدها الصبر [عن] (٤) الطعام والشراب حتى يموت. وكذلك الصبر [عن] (٥)الميتة والدم ولحم الخنزير عند المخمصة حرام إذا خاف بتركه الموت، قال: طاووس وبعده الإمام أحمد: من اضطر إلى أكل الميتة والدم فلم يأكل فمات دخل النار.

فإن قيل : فما تقولون فى الصبر عن المسألة فى هذه الحال؟

قيل:اختلف فى حكمه، هل هو حرام أو مباح؟ على قولين هما لأصحاب أحمد، وظاهر نصه أن الصبر عن المسألة جائز فإنه قيل له: إذا خاف إن لم يسأل أن يموت فقال: لا يموت، يأتيه الله [برزقه] (٦) ،أو كما قال فأحمد منع وقوع المسألة [و] (٧)متى علم الله ضرورته وصدقه فى ترك المسألة قيض [الله] (٨) له رزقا .

وقال كثير من أصحاب أحمد والشافعى :[تجب] (٩)[ق/ ١٣ أ] عليه المسألة وإن لم يسأل كان عاصيًا، لأن المسألة تتضمن نجاته من التلف.

---

(١)في ط و ب : على .
(٢)في أ : فعله .
(٣)سقط من ط و ب .
(٤)في ط و ب : على .
(٥)في ط و ب : على.
(٦)في أ : برزق .
(٧)سقط من ط و ب .
(٨)سقط من أ .
(٩)في ط و ب : يجب .

(فصل)

ومن [**الصبر**][1] **المحظور**: صبر الإنسان على ما يقصد هلاكه من سبع أو [حيات][2] أو حريق أو ماء أو كافر يريد قتله، بخلاف استسلامه وصبره فى الفتنة وقتال المسلمين، فإنه مباح له بل يستحب [الصبر][3]، كما دلت عليه النصوص الكثيرة، وقد سئل النبي ﷺ عن هذه المسألة بعينها، فقال: « [**كن كخير ابنى آدم**][4]» [5] ، وفي لفظ : « **كن عبد الله المقتول ، ولا تكن عبد الله القاتل** » [6] وفي لفظ [آخر][7]: « **دعه يبوء بإثمه وإثمك** » [8] وفي لفظ آخر: « **فإن بهرك شعاع السيف فضع يدك على وجهك** » [9] وقد حكى الله [سبحانه][10] استسلام خير ابنى آدم [وصبره][11] وأثنى عليه بذلك.

وهذا بخلاف قتل الكافر ، فإنه يجب عليه الدفع عن نفسه،[لأن][12] من مقصود الجهاد أن يدفع عن نفسه وعن المسلمين. وأما قتال اللصوص ،فهل يجب فيه الدفع أو يجوز فيه الاستسلام؟ فإن كان عن معصوم غيره وجب ،وأما عن نفسه فظاهر نصه أنه لا يجب الدفع، وأوجبه بعضهم، ولا يجوز الصبر على من قصده أو حرمته بالفاحشة.

(فصل)

وأما الصبر المكروه فله أمثلة:

أحدها : أن يصبر عن الطعام والشراب والملبس وجماع أهله حتى يتضرر بذلك

---

(١) في ط و ب : صبر . (٢) في أ : حية .

(٣) سقط من ط و ب . (٤) في أ : كخير ابن .

(٥) أخرجه أبو داود (٤٢٥٧) وأحمد (١٦٠٩) من حديث سعد بن أبي وقاص ، وأخرجه أبو داود (٤٢٥٩) وابن ماجه (٣٩٦١) وأحمد (١٩٧٤٥) والبيهقي في الكبرى (١٦٥٧٧) وابن حبان (٥٩٦٢) من حديث أبي موسى الأشعري وصححه الألباني . انظر إرواء الغليل (٢٤٥١) .

(٦) أخرجه أحمد (٢١١٠١) من حديث خباب والحاكم (٨٥٧٨) من حديث خالد بن عرفطة . وصححه الألباني انظر : إرواء الغليل (٢٤٥١) .

(٧) سقط من ط و ب .

(٨) أخرجه مسلم (٢٨٨٣) من حديث أبي بكرة .

(٩) أخرجه أبو داود (٤٢٦١) وابن ماجه (٣٩٥٨) وأحمد (٢١٤٨٣) والحاكم (٢٦٦٦) (٨٣٠٤) ، (٨٣٠٥) والبيهقي في الكبرى (١٦٥٧٥) ، وابن حبان (٥٩٦١) ، (٦٦٨٥) وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠٧٢٩) وصححه الألباني انظر إرواء الغليل (٢٤٥١) .

(١٠) زيادة من أ . (١١) سقط من ط و ب .

(١٢) في أ : لأنه .

بدنه.

الثاني: صبره عن جماع زوجته إذا احتاجت إلى ذلك ولم يتضرر به.

الثالث: صبره على [المكروه][(١)] .

الرابع: صبره عن فعل المستحب.

(فصل)

وأما الصبر المباح: [فهو][(٢)] الصبر عن كل فعل مستـوى الطرفين خير بين [فعله وتركه][(٣)] والصبر عليه .

وبالجملة فالصبر على الواجـب واجب ،وعن الواجب حرام، والصبر عن الحرام واجب ، وعليه حرام . والصبر على المستحب مستحب، وعنه مكروه . والصبر عن المكروه مستحب، وعليه مكروه والصبر على المباح مباح. والله أعلم .

* * * *

(١) سقط من ط و ب .
(٢) في أ : وهو .
(٣) في أ : تقديم وتأخير .

الباب التاسع
فى بيان تفاوت [درجات][١] الصبر

الصبر كما تقدم نوعان: اختيارى واضطرارى ،والاختيارى أكمل من الاضطرارى، فإن الاضطرارى يشترك فيه الناس ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر [اختياراً] [٢].

[ولذلك] [٣] كان صبر يوسف الصديق ﷺ عن مطاوعة امرأة العزيز، وصبره على ما ناله [في] [٤] ذلك من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ما ناله. من إخوته لما ألقوه فى الجب وفرقوا بينه وبين أبيه وباعوه بيع [العبيد] [٥]. ومن الصبر الثانى[إنشأه الله سبحانه له ما أنشأه] [٦] من العزة والرفعة والملك [والتمكين] [٧] فى الأرض.

وكذلك صبر الخليل ﷺ والكليم، وصبر نوح، وصبر المسيح، وصبر خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم [عليهم ـ الصلاة والسلام] [٨]ـ كان صبراً على الدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله ،ولهذا سماهم الله [أولى] [٩] العزم ،وأمر رسوله أنْ يصبر صبرهم فقال: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾[الأحقاف :٣٥] . وأولو العزم هم المذكورون فى قوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾[الشورى : ١٣] وفي قوله : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى [ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا][١٠] ﴾[الأحزاب: ٧] ، كذلك قال ابن عباس وغيره من السلف، ونهاه سبحانه أن يتشبه بصاحب الحوت حيث لم يصبر صبر أولى العزم فقال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾[القلم : ٤٨] .

وها هنا سؤال[نافع] [١١] وهو أن يقال: ما العامل فى الظرف وهو قوله: ﴿إِذْ

---

(١) سقط من أ
(٢) في ط و ب : الاختياري .
(٣) في أ : وكذلك
(٤) في أ : من .
(٥) في ط و ب : العبد .
(٦) في أ : ما أنشأه الله له .
(٧) في أ : التمكن .
(٨) سقط من أ .
(٩) في أ : أولو والمثبت هو الصواب .
(١٠) سقط من ط وب .
(١١) سقط من أ .

نَادَى﴾ ولا يمكن أن يكون الفعل المنهى عنه ، إذ يصير المعنى لا تكن مثله فى ندائه، وقد أثنى الله سبحانه عليه فى هذا النداء ، فأخبر أنه نجاه به فقال : ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء] . وفي الترمذى وغيره عن النبي ﷺ [ق/ ١٤أ] أنه قال : « **دعوة أخى ذى النون إذ دعا بها فى بطن الحوت، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه:** ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ »[1] .

فلا يمكن أن ينهى عن التشبه به فى هذه الدعوة وهى النداء الذى نادى به ربه وإنما نهى عن التشبه به فى السبب الذى أفضى به إلى هذه المناداة، وهى مغاضبته التى أفضت به إلى حبسه فى بطن الحوت وشدة ذلك عليه [حتى][2] نادى ربه وهو [مكظوم] ،والمكظوم [3]و الكظيم، والكاظم: الذى قد امتلأ غيظًا أوغضبًا أوهمًا وحزنًا وكظم عليه فلم يخرجه.

فإن قيل: وعلى ذلك فما العامل فى الظرف ؟

قيل: ما فى صاحب الحوت من معنى الفعل .

فإن قيل : فالسؤال بعد قائم، فإنه إذا قيد المنهى [عنه][4] بقيد أو زمن كان داخلا فى حيز [النهى][5]، فإذا كان المعنى لا تكن مثل [صاحب][6] الحوت فى هذه الحال [أو][7] هذا الوقت كان نهيا عن تلك الحالة.

قيل : لما كان نداؤه مسببًا عن كونه صاحب الحوت، فنهى أن [يتشبه][8] به فى [تلك][9] [الحالة][10] التى [أفضت][11] به إلى [صحبة][12] الحوت والنداء ، وهى ضعف العزيمة والصبر لحكمه تعالى، ولم يقل تعالى ولا تكن كصاحب الحوت إذ ذهب مغاضبًا فالتقمه الحوت فنادى، بل طوى القصة واختصرها وأحال بها على

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٥) وأحمد (١٤٦٢) والحاكم (١٨٦٢) من حديث سعد بن أبي وقاص ، وصححه الألباني . انظر صحيح الترمذي (٢٧٨٥) .

(٢) في أ : حين .
(٣) سقط من ط و ب
(٤) سقط من ط و ب .
(٥) في أ : المنهى .
(٦) في أ : من صحب .
(٧) في أ : و .
(٨) في ط و ب : يشبه .
(٩) سقط من أ .
(١٠) في أ : الحال
(١١) في أ : اقتضت
(١٢) في ط و ب : صحبته .

ذكرها فى الموضع الآخر ، واكتفى بغايتها وما انتهت إليه .

فإن قيل: فما منعك [من تعويض][١] الظرف بنفس الفعل المنهى عنه، أى: لا تكن مثله فى ندائه وهو ممتلئ غيظًا وهمًا وغمًا ،بل يكون نداؤك نداء راض بما قضى عليه قد تلقاه بالرضا والتسليم وسعة الصدر لا نداء كظم .

قيل :هذا المعنى وإن كان صحيحًا [إلا أن النهي لم يقع][٢] عن التشبه به فى مجرده، وإنما نهى عن التشبه به فى الحال التى حملته على ذهابه مغاضبًا حتى سجن فى بطن الحوت، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ ، ثم قال : ﴿وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ أى فى ضعف صبره لحكم ربه، فإن الحالة التى نهى عنها [هى][٣] ضد الحالة التى أمر بها .

فإن قيل: فما منعك أن تصير [حيث][٤] أمر بالصبر لحكمه الكونى القدرى الذى يقدره عليه ولا [تكن][٥] كصاحب الحوت [الذي][٦] لم يصبر عليه ،إذ نادى وهو كظيم لكشفه، فلم يصبر على احتماله والسكون تحته .

قيل: منع من ذلك أن الله سبحانه أثنى على يونس وغيره من أنبيائه بسؤالهم إياه كشف ما بهم من الضر وقد [أثنى][٧] عليه سبحانه بذلك فى قوله : ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ فكيف ينهى عن التشبه به فيما يثنى عليه ويمدحه به ، وكذلك أثنى على أيوب بقوله : ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وعلى يعقوب [بقوله][٨]: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ .

وعلى موسى بقوله : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وقد شكا إليه خاتم أنبيائه ورسله فقال: « **اللهم أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى** » الحديث[٩].

فالشكوى إليه سبحانه لا تنافي الصبر الجميل، بل إعراض عبده عن الشكوى إلى غيره جملة وجعل الشكوى إليه وحده هو الصبر ، والله تعالى يبتلى عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه وقد ذم سبحانه من لم يتضرع [له][١٠] ولم يستكن له وقت

---

(١) في ط و ب : بتعويض .
(٢) في أ ، فلم يقع النهي .
(٣) سقط من ط وب .
(٤) في أ : إلى أنه .
(٥) في أ : يكون .
(٦) في أ : حيث .
(٧) سقط من أ
(٨) في ط و ب : في قوله .
(٩) تقدم تخريجه .
(١٠) في ط و ب : إليه .

البلاء، كـما قـال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون:٧٦] والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه. والرب تعالى لم يُرد من عبده أن يتجلد عليـه، بل أراد منه أن يستكين له ويتـضرع إليه، وهو تعـالى يمقت من يشكوه إلى خلقـه، ويحب من يشكو ما به إليـه ،وقيل لبـعضـهم : كيف تشـتكى إليـه ما [ليس](١) يخفى عليه؟ فقال: [فقلت](٢) ربى يرضى ذل [العبد](٣) إليه.

والمقصـود أنه سبحانه أمـره رسوله [ﷺ](٤) أن يصبـر صبر أولـى العزم الذين صبروا لحكمه اختيارا وهذا أكمل الصبر ،ولـهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء حـتى [ردوها](٥) إلى أفـضلهم وخـيـرهم وأصـبـرهم [ق/١٥أ] لحكم الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فإن قيل: [أى](٦) أنواع الصبر الثلاثة أكمل : الصبر على المأمور، أم الصبر عن [المحظور](٧)، أم الصبر على المقدور؟

قيل: بل الصبر المتعلق بالتكليف وهو الأمر والنهى أفـضل من الصبر على مجرد القدر، فإن هذا الصبر يأتى به البر والفـاجر ، والمؤمن والكافر ،فلا بد لكل أحد من الصبر على القدر اختيارا [و](٨) اضطرارًا.

وأما الصبر على الأوامر والنواهى فصبـر أتباع الرسل، وأعظمهم اتباعًا أصبرهم فى ذلك ،وكل صبر فى محله وموضعه أفضل: فالصبر عن الحرام فى محله أفضل، وعلى الطاعة فى محلها أفضل.

فإن قيل: أى الصبرين أحب إلى الله؟ صبر من يصـبر على أوامره، أم صبر من يصبر عن محارمه.

قيل: هذا موضع تنازع فيه الناس فقالت طائفة: الصبر عن المخالفات أفضل لأنه أشق وأصعب ،فـإن أعمال البر يفـعلها البر والفـاجر ،ولا يصبر عن المخـالفات إلا الصديقون، قـالوا: ولأن الصبر عن المحرمـات صبر على مخـالفة هوى النفس وهو أشق شىء وأفضله.

قالوا: ولأن ترك المحبـوب الذى تحبه النفـوس دليل على أن [من](٩) ترك لأجله

---

(١) في أ : لا .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) في أ : العبيد .
(٤) زيادة من أ .
(٥) في ط و ب : ردها .
(٦) في أ : فأي .
(٧) سقط من أ .
(٨) في أ : أو .
(٩) سقط من أ .

أحب إليه مــن نفسه وهواه ، بخــلاف فعل ما يحبــه المحبوب فإنه لا يســتلزم ذلك. قالوا: وأيضًا فالمروءة والفتوة كلها فى هذا الصبر. [كما](١) قال الإمام أحمد : الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى فمروءة العبد وفتوته بحسب هذا الصبر .

قالوا : وليس العجــب ممن يصبر على الأوامر، فــإن أكثرها محبوبات لــلنفوس [السليمة](٢) لما فيها من العدل والإحسان والإخلاص والبر وهذه محاب [النفوس](٣) الفاضلة الزكية، بل العجب ممن يصبر عن المـناهي التي أكثرها محاب النفوس، فيترك المحبوب العاجل فى هذه الدار للمحبوب الآجل فى دار أخرى ،والنفس الموكلة بحب العاجل فصبرها عنه مخالف لطبعها .

قالوا : ولأن المناهى لها أربعة دواع تدعو إليــها: نفس الإنسان وشيطانه ، وهواه ودنياه، فلا يتركها حتى يـجاهد هذه الأربعة [حق الجهاد](٤) ،وذلك أشق شيء على [النفوس](٥) وأمره.

قالوا : فالمناهى من باب حمـية النفوس عن مشتهياتها ولذاتـها ،والحمية مع قيام داعى التـناول وقوته من أصـعب شيء وأشقه .قـالو: ولذلك كان [قـربان باب](٦) النهى مسدودًا كله.

وباب الأمر إنما يفعل منه المســتطاع كما قال النبي ﷺ : « **إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه** » (٧) . فدل على أن باب المنهيات أضيق من باب المأمـورات، وأنه لم يرخص فــى ارتكاب شيء منــه كما رخص فى تــرك بعض المأمورات للعجز والـعذر قالوا :ولهذا كانت عامة العقوبات مــن الحدود وغيرها على ارتكاب المنهيات بــخلاف ترك المأمور فإن الله سبحانه لــم يرتب عليه [حدًا](٨) معينا قالوا: وأعظم المأمورات، الصلاة وقد اختلف [العلماء](٩) هل [على تاركها](١٠) حدٌّ أم لا ؟

(فصل)

فهذا بعض ما احتجت به هذه الطائفة ،وقالت طائفة أخرى: بل الصبر على فعل

(١) سقط من ط و ب .
(٢) سقط من أ .
(٣) في ط و ب : للنفوس .
(٤) سقط من ط و ب .
(٥) في أ : النفس .
(٦) في أ : تقديم وتأخير .
(٧) أخرجه البخاري (٧٢٢٨) ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة .
(٨) في أ : جزاءاً .
(٩) سقط من أ.
(١٠) في أ : عليه .

المأمور أفضل وأجل من الصبر على [ترك][١] المحظور؛ لأن فعل المأمور أحب إلى الله من ترك المحظور، والصبر عـلى أحب الأمرين [إليه][٢] أفضل وأعلى، وبيان ذلك من وجوه :

أحدها : أن فعل المـأمور مقصود لـذاته فهو مشروع شـرع المقاصد ،فإن مـعرفة الله، وتوحيده ،وعبوديته وحده، والإنابة إلـيه والتوكل عليه ، وإخلاص العمل له، ومحبتـه، والرضا به ،والقيام فى خـدمته هو الغاية الـتى خلق لها الخلق وثـبت بها الأمر، وذلك أمر مقصود لـنفسه .والمنهيات إنما نهى عنـها لأنها صادة عن ذلك، أو شاغلة عنـه، أو معوقة أو مفوتة لكمالـه ، ولذلك كانت درجاتها فى النـهى بحسب صدها عن المأمور [ق/١٦أ] وتعويقها عنه وتفويتـها لكماله ، فهي مقصودة لغيرها ، والمأمور مقصـود لنفسه، فلو لم يصـد الخمر والميسر عن ذكر اللـه وعن الصلاة وعن التواد والتحـاب الذى وضعه الله بين عباده لـما حرمه، وكذلك لو لم يحـل بين العبد وبين عقله الذى [يعرف به][٣] الله ويعبده ويحمده ويمجده ويصلى له ويسجد له ـ لما حرمه وكذلـك سائر ما حرمه إنمـا حرمه؛ لأنه يصد عـما يحبه ويرضـاه ويحول بين العبد وبين [كماله][٤] .

الثاني : أن المأمورات متعلقة بمعرفة الله وتـوحيده وعبادته وذكره وشكره ومحبته والتوكل عـليه والإنابة إليه ،فمـتعلقها ذات الرب تعـالى وأسمائه وصفاته، ومـتعلق المنهيات ذوات الأشياء المنهى عنها، والفرق من أعظم ما يكون .

الثالث : أن ضرورة العبد وحـاجته إلى فعل المأمور أعظم مـن ضرورته إلى ترك المحظور، فإنه ليـس إلى شىء أضر وأحوج وأشد فاقة منه إلى معـرفة ربه، وتوحيده وإخلاص العمل له وإفراده بالعبودية والمحـبة والطاعة ، وضرورته إلى ذلك أعظم من ضرورته إلى نفسه ،ونـفسه وحياته أعظم من ضرورته إلى غـذائه الذى به قوام بدنه. بل هذا لقلبه، وروحه كالحياة والغذاء لبدنه، وهو إنما هو إنسان بروحه وقلبه لا ببدنه وقالبه، كما قيل:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته   فأنت بالقلب لا بالجسم إنسان

وترك المنهى إنما شرع له تحصيلا لهذا الأمر الذى هو [ضرورى له وما][٥] أحوجه

(١) سقط من أ .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) في أ : تقديم وتأخير .
(٤) في أ : إكماله .
(٥) في أ : أضر شيء و .

وأفقره إليه.

الرابع : أن ترك المنهى من باب الحمية ،وفعل المأمور من باب حفظ القوة والغذاء الذى لا تقوم البنية بدونه ،ولا تحصل الحياة إلا به، فقد يعيش الإنسان مع [تركه][١] الحمية وإن كان [بدنه][٢] عليلا أشد ما يكون علة، ولا يعيش بدون القوة والغذاء الذى يحفظها، فهذا مثل المأمورات والمنهيات .

الخامس: إن الذنوب كلها ترجع إلى هذين الأصلين : ترك المأمور وفعل المحظور، ولو فعل العبد المحظور كله من أوله إلى آخره حتى أتى من مأمور الإيمان بأدنى أدنى مثقال ذرة منه نجا بذلك من الخلود فى النار . ولو ترك كل محظور ولم يأت بمأمور الإيمان لكان مخلدا فى السعير ، فأين شيء مثاقيل الذر منه تخرج من النار إلى شيء وزن الجبال منه أضعافًا مضاعفة لا تقتضي الخلود فى النار، مع وجود ذلك المأمور [أو][٣] أدنى شيء منه.

السادس : إن جميع المحظورات من أولها إلى آخرها تسقط بمأمور التوبة، ولا تسقط المأمورات كلها [مصية المخالفة][٤] إلا بالشرك و الوفاة عليه ، ولا خلاف بين الأمة أن كل محظور يسقط بالتوبة منه ، واختلفوا هل تسقط الطاعة بالمعصية، وفي المسألة نزاع وتفاصيل [و][٥] ليس هذا موضعه .

السابع : أن ذنب الأب كان بفعل المحظور فكان عاقبته أن اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وذنب إبليس كان بترك المأمور فكان عاقبته ما ذكر الله سبحانه ، وجعل هذا عبرة للذرية إلى يوم القيامة .

الثامن : إن المأمور محبوب [إلى الرب][٦]، والمنهى مكروه له، وهو سبحانه إنما قدره وقضاه لأنه ذريعة إلى حصول محبوبه من عبده ومن نفسه تعالى. أما من عبده فالتوبة والاستغفار والخضوع والذل والانكسار وغير ذلك. وأما من نفسه فبالمغفرة والتوبة على العبد والعفو عنه ، والصفح والحلم والتجاوز عن حقه، وغير ذلك مما هو أحب إليه تعالى من فواته بعدم تقدير ما يكرهه وإذا كان إنما قدر ما يكرهه؛ لأنه يكون وسيلة إلى ما يحبه، علم أن محبوبه هو الغاية ففوات محبوبه أبغض إليه وأكره له من حصول مبغوضه ،بل إذا ترتب على حصول مبغوضه ما يحبه من وجه آخر

(١) في أ : ترك .
(٢) سقط من أ .
(٣) في أ : و
(٤) سقط من أ .
(٥) سقط من ط و ب .
(٦) في أ : للرب .

كان المبـغوض مرادًا له إرادة الـوسائل، كما كـان المنهى عنـه وكراهته لـذلك . وأما المحبوب فمراده إرادة المقاصـد كما تقدم، فهو سبحانه إنما خلق الخـلق لأجل محبوبه ومأموره وهو عـبادته وحده. كما قـال تعالى [ق/١٧]: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] وقدر مكـروهه ومبغـوضه تكمـيلا لهذه الـغاية التـى خلق [الخلق](١) لأجلهـا، فإنه ترتب علـيه من المأمورات ما لـم [يكن](٢) يحصل بدون تقديره كالجهاد الذى هو أحب العمل إليه والموالاة فيه والمعاداة فيه ،ولولا محبته لهذه المأمورات لما قدر من المكروه له ما يكون سببًا لحصولها.

التاسع : إن ترك المحظور لا يكون قربة ما لم يقارنه فعل المأمور، فلو ترك العبد كل محظـور لم يثبه الله عـليه [حتى يقـارنه مأمور الإيمان، وكذلك المـؤمن لا يكون تركه للمحظور قربة](٣) حتى يقارنه مأمور النية بحيث يكون [تركه](٤) لله ، فافتقر تركه المنهيات في كـونه قربة يثاب عليها إلى فعل المأمور، ولا يفـتقر فعل المأمور فى كونه قربة وطاعة إلى ترك المحظور، ولو افتقر إليه لم يقبل الله طاعة من عصاه أبدًا، وهذا من (٥) [أبطل] الباطل.

العاشر : أن المنهى عنه مطلوب إعدامه ، والمـأمور مطلوب إيجاده والمراد إيجاد هذا وإعدام [ذاك](٦)، فإذا قدر عدم الأمـرين أو وجودهما كان وجودهمـا خيراً من عدمهـما، فإنه إذا عـدم المأمور لم [يـنفع](٧) عدم المحظـور، وإذا وجد المأمور فـقد يستعـان به على دفع المحظور أو دفع أثـره فوجود القوة والمرض خير مـن عدم الحياة والمرض .

الحادى عشر: إن باب المأمور الحسنة فـيه بعشر أمثالها إلى سبعـمائة ضعف إلى أضعـاف كثـيرة . وباب المحـظور السـيئـة فيه بمـثلـها وهى بـصدد الزوال بـالتـوبة والاستغفار، والحسنة الماحية ،والمصيبة المكفرة ،واستغفار الملائكة للمؤمنين ،واستغفار بعضهم لبعض وغير ذلك. وهذا يدل على أنه أحب إلى الله من عدم المنهى عنه.

الثانى عشر: إن باب المنهيات يمحوه الله سبحانه ويبطل أثره بأمور عديدة من فعل

---

(١) في أ : خلقه .
(٢) سقط من أ .
(٣) سقط من ط و ب .
(٤) في ط و ب : ترك .
(٥) سقط من أ .
(٦) في أ : هذا .
(٧) في أ : ينتفع .

العبد وغيره ، فإنه يبطله بالتوبة النصوح وبالاستغفار وبالحسنات الماحية وبالمصائب المكفرة، وباستغفار الملائكة ،وبدعاء المؤمنين. فهذه ستة فى حال حياته، وبتشديد الموت وكربه عليه وسياقه فهذا عند [مفارقته] (١) الدنيا. وهول المطلع وروعة الملكين فى القبر وضغطته وعصرته له ،وشدة الموقف وعنائه وصعوبته، وبشفاعة الشافعين فيه وبرحمة أرحم الراحمين له .فإن عجزت [عنه] (٢) هذه الأمور فلا بد [له] (٣) من دخول النار، ويكون لبثه فيها على قدر نقاء خبثه ودرنه ،فإن الله حرم الجنة إلا على كل طيب. فما دام درنه ووسخه وخبثه فيه فهو فى كير التطهير حتى يتصفى من ذلك الوسخ والخبث . وأما باب المأمورات فلا يبطله إلا الشرك.

الثالث عشر: إن جزاء المأمورات الثواب، وهو من باب الإحسان والفضل والرحمة، وجزاء المنهيات العقوبة وهى من باب الغضب والعدل ، ورحمته سبحانه تغلب غضبه، فما تعلق بالرحمة والفضل أحب إليه مما تعلق بالغضب والعدل، وتعطيل ما تعلق بالرحمة أكره إليه من فعل ما تعلق بالغضب .

الرابع عشر: إن باب المنهيات تسقط الآلاف المؤلفة منه[بالواحدة] (٤) من المأمورات، وباب المأمورات لا [تسقط] (٥) الواحدة منه الآلاف المؤلفة [من المنهيات] (٦).

الخامس عشر: إن متعلق [المأمورات] (٧) الفعل، وهو صفة الكمال، بل كمال المخلوق من [فعاله] (٨) فإنه فعل فكمل ومتعلق النهى الترك والترك عدم ومن حيث هو كذلك لا يكون كمالاً فإن العدم المحض ليس بكمال ،وإنما يكون كمالا لما يتضمنه أو يستلزمه من الفعل الوجودى [المأمور] (٩) الذى هو سبب الكمال ،وأما أن يكون مجرد الترك الذى هو عدم محض كمالاً أوسبباً للكمال فلا .

مثال ذلك: لو ترك السجود للصنم لم يكن كماله فى مجرد هذا الترك ما لم يكن يسجد لله [عز وجل] (١٠) وإلا فلو ترك السجود لله ، وللصنم لم يكن ذلك كمالا، وكذلك لو ترك تكذيب الرسول ومعاداته لم يكن بذلك مؤمنًا، ما لم يفعل

(١)في أ : مفارقة .
(٢)سقط من أ .
(٣)سقط من أ .
(٤)في ط و ب : الواحدة .
(٥)في ط و ب : يسقط .
(٦)سقط من أ .
(٧)في أ : المأمور .
(٨)في أ : أفعاله .
(٩)سقط من ط و ب .
(١٠)زيادة من ب .

ضد ذلك من التـصديق والحب [له][١] وموالاته وطاعـته فعلم أن الكمـال كله فى المأمور وأن المنهى [ما][٢] لم [ق/ ١١٨أ] يتصل به فعل المأمور لـم يفد شيئًا ولم يكن كمـالا . فإن الرجـل لو قال للـرسول: لا أكذبـك ولا أصدقك، ولا أوالـيك، ولا أعاديك، ولا أحـارب من يحاربـك لكان كافرًا ولـم يكن مؤمـنًا بترك [مـعاداته][٣] وتكذيبه ومحاربته ما لم يأت بالفعل الوجودى الذى أمر به .

السادس عشر : إن العبد إذا أتى بـالمأمور به على وجه ترك المنـهى عنه ولا بد. فالمقصود إنما هو فـعل المأمور، ومع فعله على وجهه يتـعذر فعل [المنهى][٤]. فالمنهى عنه فى الحقيقة [فعله][٥] هو تعريض لترك [المأمور للإضاعة][٦]، فإن العبد إذا فعل ما أمر به من الـعدل والعفة وامتنع من صـدور الظلم والفواحش منه ،فـنفس العدل يتضمن ترك الظلـم، ونفس العفة تتضمن ترك الفواحش ،فدخـل ترك المنهى عنه فى المأمور [به][٧] ضمنًا وتبعًـا. وليس كذلك فى عكسه، فإن ترك المحـظور لا يتضمن فعل المأمور [فإن العبد][٨] قد يتركهما معًا كما تقدم . فعلم أن [المقصود][٩] هو إقامة الأمر على وجـهه . ومع ذلك لا يمكن ارتكـاب [النهى][١٠] عنه البـتة . وأما ترك المنهى [عنه][١١] فإنه يستلزم إقامة الأمر.

السابع عشر: إن الرب تعالى إذا أمر عبده بأمر ونهاه عـن أمر ففعلهما جميعًا ، كان قد حـصل محبـوب الرب [وبغيـضه][١٢]. فقد تـقدم له من مـحبوبه مـا يدفع [عنه][١٣] شر[بغيضه][١٤] ويقاومه. ولا سيما إذا كان فـعل ذلك المحبوب أحب إليه من ترك ذلـك [المكروه][١٥] البغـيض فيهـب له [من][١٦] جنايـة ما فعل مـن هذا بطاعته، ويتجاوز له عما فعل من الآخر.

ونظير هـذا الشاهد : أن يقتل الرجـل عدوًا للملك هو حريص علـى قتله . ثم

---

(١) سقط من ط و ب .
(٢) سقط من أ .
(٣) في ط و ب : معادته .
(٤) سقط من أ .
(٥) سقط من ط و ب .
(٦) في أ : لترك المأمور وإضاعته .
(٧) سقط من ط و ب .
(٨) في ط و ب : فإنه .
(٩) في أ : القصد .
(١٠) في أ : المنهي عنه .
(١١) سقط من أ .
(١٢) في أ : و نقيضه .
(١٣) سقط من أ .
(١٤) في أ : نقيض .
(١٥) سقط من ط وب .
(١٦) سقط من أ .

يشرب مسكرًا نهاه [الملك](١) عن شربه. فإنه يتجاوز له عن هذه الزلة، بل عن أمثالها فى جنب ما أتى به من محبوبه وأما إذا ترك محبوبه [وبغيضه](٢)، فإنه لا يقوم ترك [بغيضه](٣) بمصلحة فعل محبوبه أبدًا . كما إذا أمر الملك عبده بقتل عدوه ونهاه عن شرب [مسكر](٤) فعصاه فى قتل عدوه مع قدرته عليه وترك شرب المسكر، فإن الملك لا يهب له جرمه بترك أمره فى جنب ترك ما نهاه عنه. وقد فطر الله [سبحانه](٥) عباده على هذا ، فهكذا السادات مع عبيدهم ، والآباء مع أولادهم والملوك مع جندهم والزوجات مع أزواجهم ليس التارك منهم محبوب الأمر ومكروهه بمنزلة الفاعل منهم محبوب [أمره](٦) [وبغض](٧) مكروهه .

يوضحه الوجه الثامن عشر: [أن](٨) فاعل محبوب الرب يستحيل أن يفعل جميع مكروهه[بل يترك من مكروهه](٩) هو بقدر ما أتى [به](١٠) من محبوبه، فيستحيل الإتيان بجميع مكروهه وهو يفعل ما أحبه أو بعضه، فغايته إذا اجتمع [له](١١) الأمران، فيحبه الرب تعالى من وجه. ويبغضه من وجه أما إذا ترك المأمور به جملة، فإنه لم يقم بما يحبه الرب عليه، فإن مجرد ترك المنهى لا يكون طاعة إلا باقترانه بالمأمور كما تقدم، فلا يحبه على مجرد الترك، وهو سبحانه يكرهه ويبغضه على مخالفة الأمر فصار مبغوضًا للرب تعالى من كل وجه، إذ ليس فيه ما يحبه الرب عليه، فتأمله .

يوضحه الوجه التاسع عشر : وهو أن الله سبحانه لم يعلق محبته إلا بأمر وجودى أمر به إيجاباً به أو استحبابًا ،ولم يعلقها بالترك من حيث هو ترك ولا فى موضع واحد، فإنه يحب التوابين ،ويحب المحسنين ،ويحب الشاكرين، ويحب الصابرين، ويحب المتطهرين، ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص، ويحب المتقين، ويحب الذاكرين، ويحب المتصدقين، فهو سبحانه إنما

---

(١) سقط من ط و ب .
(٢) في أ : ونقيضه .
(٣) في أ : نقيضه .
(٤) في أ : المسكر .
(٥) زيادة من أ .
(٦) في ط و ب : الأمر .
(٧) سقط من ط و ب .
(٨) سقط من ط و ب .
(٩) سقط من أ .
(١٠) سقط من ط و ب .
(١١) سقط من ط و ب .

علق محبته بأوامره، إذ هى المقصــود من الخلق والأمر كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ فما خلق الخلق إلا لقيام أوامــره وما نهاهم إلا عما يصدهم عن قيام أوامره ويعوقهم عنها .

يوضحه الوجه [العشرون][١]:[وهو][٢] أن المنهيات لو لم تصد عن [ق/ ١٩أ] المأمورات، وتمنع وقوعها على الوجه الذى أمر الله بها،لم يكن [للنهى][٣] عنها معنى وإنما نهى عنها لمضــادتها لأوامره وتعـويقها لهــا وصدها عنها. فــالنهى عنها من باب التكميل والتتمة للمأمور، فهو بمنزلــة تنظيف طرق الماء ليجرى فى مجاريه غير معوق فالأمر بمنزلة الماء الذى أرسل فى نهر لحيــاة البلاد والعباد، [والنهى عنها بمنزلة تنظيف طرقه ومــجراه وتنقيــتها مما يعــوق الماء والأمر بمنزلة القوة والحــياة][٤]، والنهى بمنزلة الحمية الحافظة للقوة [والدواء][٥] والخادم لها .

قالوا :وإذا تبين أن فعل المأمــور أفضل ،فالصبــر عليه أفضل أنواع الصــبر، وبه يسهل عليه الصبر عن المحظور والصبر على المقدور، فإن الصبر الأعلى يتضمن الصبر الأدنى دون العكس وقد ظهر لك من هذا أن الأنواع الثلاثة مـتلازمة، وكل نوع منها [يعين][٦] على النوعين الآخرين. وإن كان من الناس من قوة صبره على المقدور، فإذا جاء الأمر والنهى فــقوة صبره هناك ضعيــفة ،ومنهم من هو بالعكس [من][٧] ذلك. ومنهم من قوة صبره فى جانب الأمر أقوى، ومنهم من هو بالعكس والله أعلم .

---

(١) في أ : العشرين .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) في أ : المنهى .
(٤) سقط من ط و ب .
(٥) في ط و ب : والداء و.
(٦) في أ : معين .
(٧) في أ : في .

الباب العاشر
فى انقسام الصبر إلى محمود ومذموم

الصبر : ينقسم إلى قسمين : قسم مذموم، وقسم ممدوح :

فالمذموم: الصبر عن الله وإرادته ومحبته وسير القلب إليه، فإن هذا الصبر يتضمن تعطيل كمال العبد بالكلية وتفويت ما خلق له . وهذا كما أنه أقبح الصبر فهو أعظمه وأبلغه فإنه لا صبر أبلغ من صبر من [صبر](١) عن محبوبه الذى لا حياة له بدونه البتة، كما أنه لا زهد أبلغ من زهد الزاهد فيما أعد الله لأوليائه من كرامته مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فالزهد فى هذا أعظم أنواع الزهد وأبلغها ، كما قال رجل لبعض الزاهدين وقد تعجب لزهده : « ما رأيت أزهد منك». فقال : أنت أزهد مني أنا زهدت في الدنيا وهى لا بقاء لها ولا وفاء وأنت زهدت فى الآخرة. فمن أزهد منا ؟ » قال يحيى بن معاذ الرازى: «صبر المحبين أعجب من صبر الزاهدين، واعجبًا كيف يصبرون» وفي هذا قيل .

الصبر يحمد فى المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يحمد

ووقف رجل على الشبلى فقال : «أى صبر أشد على الصابرين» فقال: «الصبر فى الله؟» قال: (لا) فقال :الصبر لله فقال:(لا). قال:« الصبر مع الله» قال :(لا). قال «فأي شيء هو؟» قال:« الصبر عن الله[تعالى](٢) » . فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه تزهق.

وقيل: الصبر مع الله وفاء ،والصبر عن الله جفاء. وقد أجمع الناس على أن الصبر عن المحبوب غير محمود ، [فكيف] (٣) إذا كان كمال العبد وفلاحه فى محبته. ولم تزل الأحباب تعيب المحبين بالصبر عنهم كما قيل :

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر فى سائر الأشياء محمود

وقال آخر [فى الصبر عن محبوبه](٤) :

إذا لعب الرجال بكل شيء ... رأيت الحب يلعب بالرجال
وكيف الصبر عمن حل منى ... بمنزلة اليمين [من](٥) الشمال

---
(١) في أ : يصبر .
(٢) زيادة من أ .
(٣) سقط من أ .
(٤) سقط من أ .
(٥) فى أ : عن .

وشكا آخر إلـى محبوبه ما يـقاسي من حبه فـقال: « لو كنت صادقًـا لما صبرت عنى» .

ولما شكوت الحب قالت: كذبتني ترى الصب [من][١] محبوبه كيف يصبر

والصبابة : رقة الشوق وحرارته .

(فصل)

وأما الصبر المحمود فنوعان : صبر للـه وصبر بالله قال الله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّه﴾ [النحل :١٢٧] وقال :﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور :٤٨] .

وقد تنازع الناس أى الصبرين أكمل، فقالت طائفة: الصبر له أكمل، فإن ما كان لله أكمل مما كان بالـله ،فإن ما كان له فهو غاية ،وما كان به فهـو وسيلة، والغايات أشرف من الوسائل ،ولذلك وجب الوفاء بالنذر إذا كان تبررًا وتقربًا إلى الله لأنه نذر له، ولم يجب الـوفاء به إذا خرج مخرج اليمـين لأنه حلف به .فما كان لـه سبحانه فهو متعلق بألوهيته، [ق/ ٢٠أ] وما كان به فهو متـعلق بربوبيته ،وما تعلق بألوهيته أشرف مما تعـلق بربوبيتـه، ولذلك كان توحيد الألـوهية هو المنجـى من الشرك دون توحيد الربوبية بمجرده، فإن عباد الأصنـام كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه، ولكن لما لم يـأتوا بتوحيد الألوهية . [وهو][٢] عبادته وحده لا شريك له، لم ينفعهم توحيد ربوبيته.

وقالت طائفة : الصبر بالله أكمل ، بل لا يمكن الصبر له إلا بالصبر به، كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ﴾ . فأمـره بالصبـر ،والمأمور به هـو الذى يفـعل لأجله، ثـم قال ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّه ﴾ ،فهذه جملة خبرية غير الجملة الطلبية التى تقدمتها أخبر فيها أنه لا يمكنه الصبر إلا به ،وذلك يتضمن أمرين: الاستعانة به والمعية الخاصة التى تدل عليها بـاء [المصاحبة][٣]، كقوله : «**فبي يسـمع ،وبى يبصر ، وبى يـبطش، وبى يمشي**»[٤]. وليس المراد بهـذه الباء [مجرد][٥] الاستعـانة، فإن هذا أمر مشـترك بين المطيع والعـاصى. فإن مالا يكون، بالله لا يـكون، بل هى باء المصاحبة والمـعية التى صرح بمضمونها فى قوله :﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِين﴾ [البقرة:١٥٣] ، وهى المعية الحاصلة لعبده الذى تقرب إليه بالنوافل حتى صار محبوبا له، فبه يسمع وبه يبصر ،وكذلك به

---

(١) في أ : عن . (٢) في أ : وهي . (٣) في أ : بالمصاحبة.

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة.

(٥) سقط من ط و ب .

يصبر، فلا يتحرك ولا يسكن ، ولا يدرك إلا والله معه. [ومن][١] كان كذلك، أمكنه الصبر له ، وتحمل الأثقال لأجله ،كما فى الأثر الإلهى: «بعيني ما [يتحمل][٢] المتحملون من أجلى» فدل قوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ على أنه من لم يكن الله معه لم يمكنه الصبر وكيف يصبر على الحكم الأمرى امتثالا وتنفيذًا وتبليغًا، وعلى الحكم القدرى احتمالا [له][٣] واضطلاعًا به ،من لم يكن الله معه؟ فلا يطمع فى درجة الصبر المحمودة عواقبه .ومن لم يكن صبره بالله، [كما][٤] لا يطمع فى درجة المتقرب المحبوب من لم يكن سمعه وبصره وبطشه ومشيه بالله .

وهذا هو المراد من قوله : «**كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها [ورجله التى يمشى بها]**»[٥]، ليس المراد [به][٦] [أننى][٧] كنت نفس هذه الأعضاء والقوى كما يظنه أعداء الله أهل الوحدة ،وأن ذات العبد هى ذات الرب، تعالى الله عن قول إخوان النصارى علوًا كبيرًا . ولو كان كما يظنون لم يكن فرق بين هذا العبد وغيره، ولا بين حالتى تقربه إلى ربه بالنوافل وتمقته إليه بالمعاصى، بل لم يكن هناك متقرب ومتقرب إليه، ولا [عابد][٨] ولا معبود، ولا محب و[لا][٩] محبوب . فالحديث كله مكذب لدعواهم الباطلة من نحو ثلاثين وجهًا تعرف بالتأمل الظاهر . وقد فسر المراد من قوله : «**كنت سمعه وبصره ويده ورجله**» بقوله : «**فبي يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى**»، فعبر عن هذه المصاحبة التى حصلت بالتقرب إليه بمحابه بألطف عبارة وأحسنها تدل على تأكد المصاحبة ولزومها ، حتى صار له بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله .

ونظير هذا قوله : « **الحجر الأسود يمين الله فى الأرض فمن صافحه وقبله، فكأنما صافح الله وقبل يمينه**» [١٠] .

ومثل هذا سائغ فى الاستعمال أن ينزل [الشيء][١١] إلى منزلة ما يصاحبه

---

(١)في أ : ومتى .
(٢)فى أ : يتحمله .
(٣)سقط من أ .
(٤)سقط من أ .
(٥)سقط من ط و ب .
(٦)سقط من ط و ب .
(٧)في أ : أنى .
(٨)في ط و ب : عبد .
(٩)سقط من أ
(١٠)أخرجه ابن عدي في الكامل (١/ ٣٤٢) والخطيب في تاريخه (٣٣٧١) ،وابن الجوزي في العلل المتناهية (٩٤٤) من حديث جابر ونص أنه باطل . وضعفه الألباني. انظر السلسلة الضعيفة (٢٢٣) .
(١١)سقط من ط و ب .

[ويقارنه][١] حتى يقول المحب لـلمحبوب: أنت روحى وسمعى وبـصرى [وقلبي][٢] وفي ذلك معنيان أحدهما : أنه [قد][٣] صار منه بمنزلة روحه وقلبه وسمعه وبصره ، والثانى: أن محـبته وذكره لما استولى على قـلبه وروحه صار معه وجليـسه ،كما فى الحديث : «**يقول الله تعالى: أنا جليس من ذكرنى**» [٤]وفي الحديث الآخر: « **أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحـركت بى شفتاه**» [٥]؛ وفي الحديث الإلهي :« **فإذا أحببت عبدى كنت [له سمعًا]** [٦]**وبصراً ويداً ومؤيدا** » [٧]ولا يعبر عن هذا المـعنى بأتم من هذه العـبارة ولا أحـسن ولا ألطـف [منـها][٨]، وإيضـاح هذه العبـارة [مما][٩] يزيـدها [ق/ ٢١أ] جفاء وخفاء .

والمقصود إنمـا هو ذكر الصبر بالـله، وأن العبد بحسب نـصيبه من معيـة الله له يكون صبره .وإذا كان الـله معه [أمكن][١٠] أن يأتى من الصبر بمـا لا يأتى به غيره. **قال أبو على:** « فاز الصابرون بعز الدارين؛ لأنهم نالوا من الله معيته». قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣] . وهاهنا سر بديع، وهو أن مـن تعلق بصفة من صفات [الرب][١١] تعالى أدخلته تلك الصفة عليه وأوصلته إليه، [فالرب][١٢] تعالى هو الصـبور، بل لا أحد أصبـر على أذى سمعـه منه . وقد قـيل: إن الله سبـحانه وتعالى أوحى إلى داود: « تـخلق بأخلاقى فإن من أخلاقى أنى أنـا الصبور» فالرب تعالى يحـب أسماءه وصفاته ،ويحب مقتـضى صفاته وظهور آثارها فى الـعبد، فإنه تعالى جمـيل يحب الجمال ،عفو يحـب أهل العفو، كريم يحب أهل الـكرم، عليم

---

(١)في أ : ويقاربه . (٢)سقط من ط و ب . (٣)سقط من ط و ب .

(٤)أخرجه البيهقي في الشعب (٦٧٠) وابن أبـي شيبة (١٢٢٤) ، (٣٤٢٨٧)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٧) ، وقال الجراحي: الحديث رواه الديلمي بلا سند عن عائشة مرفوعًا وعند البيهقي في الشعب عن أبي بن كعب . انظر كشف الخفاء (١/ ٢٣١) وقال الزركشي : حديث « إني جليس من ذكرني » رواه البيهقي في الشعب من الإسرائيليات . انظر الدرر المنتثرة (١/ ٤٣) .

(٥)أخرجه الـبخاري (٦/ ٢٧٣٥) معلـقًا وابن ماجـه (٣٧٩٢) وأحمد (١٠٩٨١) وابن حبـان (٨١٥) والحاكم (١٨٢٤) وابن المبـارك في الزهد (٩٥٦) كلـهم من حديث أبـي هريرة إلا الحاكـم فأخرجه من حـديث أبي الدرداء . وصححه الألباني انظر صحيح سنن ابن ماجه (٣٠٥٩) .

(٦)في أ : سمعاً له .

(٧)أخرجه البغوي في شرح السنة (١٢٤٩) وقال الحافظ ابن حـجر ـ رحمه الله: في سنده ضعف . انظر الفتح (١١/ ٣٤٩) وضعفه الألباني . انظر السلسلة الضعيفة (١٧٧٥) .

(٨)سقط من أ . (٩)سقط من أ . (١٠)في أ : أمكنه .

(١١)في أ : الله . (١٢)في ط و ب : والرب .

يحب أهل العلم ،وتر يحب [أهل][١] الوتر ،قوى والمؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف ،صبور يحب الصابرين، [محسن يحب المحسنين][٢] ، شكور يحب الشاكرين .وإذا كان سبحانه يحب المتصفين بآثار صفاته ،فهو معهم بحسب نصيبهم من هذا الاتصاف، فهذه المعية الخاصة عبرً عنها بقوله: « **كنت له سمعًا وبصراً ويداً ومؤيداً** » .

[(فصل)][٣]

وزاد بعضهم قسمًا ثالثا من أقسام الصبر، وهو الصبر مع الله ،وجعلوه أعلى أنواع الصبر . وقالوا :هو الوفاء، ولو سئل هذا عن حقيقة الصبر مع الله لما أمكنه أن يفسره بغير الأنواع الثلاثة التى ذكرت . وهى الصبر على أقضيته، والصبر على أوامره والصبر عن نواهيه فإن زعم أن الصبر مع الله هو الثبات معه على أحكامه، يدور معها حيث دارت ، فيكون دائمًا مع الله لا مع نفسه، فهو مع الله بالمحبة والموافقة، فهذا المعنى حق ولكن مداره على [الصبر على الأنواع المتقدمة][٤] ،[وإن][٥] زعم أن الصبر مع الله هو الجامع لأنواع الصبر [فهذا حق][٦] ، ولكن جعله قسمًا رابعًا من أقسام الصبر غير مستقيم.

واعلم أن حقيقة الصبر مع الله ،هو بثبات القلب بالاستقامة معه، وهو أن لا يروغ عنه روغان الثعالب هاهنا وهاهنا . فحقيقة هذا هو الاستقامة [إلى الله][٧] ، وعكوف القلب عليه.

وزاد بعضهم قسمًا آخر من أقسامه ،وسماه الصبر فيه. وهذا أيضًا غير خارج عن أقسام الصبر المذكورة ،ولا يعقل من الصبر فيه معنى غير معنى الصبر له .وهذا كما يقال: فعلت هذا فى الله ولله، كما قال خبيب [رضي الله عنه][٨] :

وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

وقد قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] وقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ [الحج :٧٨] وفي حديث جابر: « **إن الله تعالى لما أحيا أباه وقال**

---

(١) سقط من أ .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) سقط من ط و ب .
(٤) في أ : تقديم وتاخير .
(٥) في أ : فإن .
(٦) سقط من ط و ب .
(٧) في ط و ب : إليه .
(٨) زيادة من ب .

له: تمن قال: **يـا رب أن ترجعنى إلى الدنيـا حتى أقتل فيك مـرة ثانية**» [١] وقال ﷺ : «**ولقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد** » [٢] .

وهذا يفهم منه معنيان :

أحدهما : أن ذلك فى مرضاته وطاعـته [وسبيله][٣]، وهذا فيما يفـعله الإنسان باختياره، كما فى الحديث : « **تعلمت فيك العلم** » [٤] .

والثاني : أنه بسببه [وفي وجهته][٥] حصل ذلك ، وهذا فيما يـصيبه [بغير][٦] اختياره وغالب ما يأتى قولهم : « ذلك فـى الله » فى هذا المعنى. **فتأمل** قوله ﷺ : « **ولقد أوذيت فى الله**»، وقول: خبيب : « وذلك فى ذات الإله » وقول عبد الله بن حرام : «**حتى أقتل فيك**»، وكذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ [العنكبوت:٦٩] ،فإنه يترتب عليه الأذى فيه سبحانه.

وليست «فى» هاهنا للظرفية ، ولا لمجرد السببية ،وإن كانت السببية هي أصلها، فانظر إلى قوله : « **فى نفس المؤمن مائة من الإبل** » [٧] وقوله : « **دخلت امرأة النار فى هرة**»[٨] كيف تجد فيه معنى زائدًا على السـببية ،وليست فى للوعاء فى [ق/ ٢٢أ] جميع معانيها فقولك: «**فعلت هذا فى مرضاتك** » فيه معنى زائد على قولك: « فعلته لمرضاتك » وأنت إذا قلت: «**أوذيت فى الله** » لا يـقوم مقام هذا اللفظ [كقولك][٩]: «**أوذيت لله**» ولا: « **بسبب الله**». وإذا فهم المعـنى طوى حكم العبارة. والمقصود أن الصبر فى الـله إن أريد به هذا المعنى فـهو حق ،وإن أريد به معنى خـارج عن الصبر على [أقضيـته وعلى أوامره][١٠] وعن نواهـيه وله وبه لم يحـصل فالصابر فـى الله

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠١٠) وابن ماجه (١٩٠) ، (٢٨٠٠) وأحمـد (١٤٩٢٤) كلهم من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ وصححه الألباني . انظر صحيح سنن النسائي (٢٩٦٢) .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٧٢) وابن ماجه (١٥١) وأحـمد (١٢٢٣٣) ،(١٤٠٨٧) وأبو يعلى (٣٤٢٣) وابن حبان (٦٥٦٠) وابن أبي شيـبة في مصنفه (١١٧٥٠) ، (١٨٤١٥) مـن حديث أنس ـ رضي الله عنـه ـ وصححه الألباني انظر صحيح سنن ابن ماجه (١٢٣) .

(٣) في أ : وسيلة .

(٤) أخرجه مسلم (١٩٠٥) من حديث أبي هريرة.

(٥) في ط و ب : وبجهته . (٦) في ط و ب : بعد .

(٧) أخرجه مالـك في الموطأ (١٥٤٧) والنسـائي (٤٨٥٧) من حديث أبي بكـر بن محمد بن عـمرو بن حزم ، وصححه الألباني ، انظر الإرواء (٢٢٤٨) .

(٨) أخرجه البخاري (٣٣١٨) ومسلم (٢٢٤٢) من حديث ابن عمر وأبي هريرة.

(٩) في أ : قولك . (١٠) في أ : أقضية الله ومراده وأوامره .

كالمجاهد فى الله ،والجهاد فيه لا يخرج عن معنى الجهاد به وله. والله الموفق .

وأما قول بعضهم : « الصبر لله غناء »، والصبر بالله بقاء، والصبر فى الله بلاء، والصبر مع الله وفاء ،والصبر عن الله جفاء» فكلام لا يجب التسليم لقائله؛ لأنه ذكر ما سنح له وتصوره ،وإنما يجب التسليم للنقل المصدق عن القائل المعصوم، ونحن نشرح هذه الكلمات.

أما قوله: « الصبر لله غناء »،فإن الصبر لله بترك حظوظ النفس، [ومرادوها][(١)] لمراد الله، وهذا أشق شيء على النفس وأصعبه ،فإن قطع [المفازة][(٢)] التى بين النفس وبين الله بحيث يسير منها إلى الله شديد جداً على النفس بخلاف السفر [من النفس][(٣)]، إلى الآخرة فإنه سهل ، وكما قال الجنيد: [السير][(٤)] من الدنيا إلى الاخرة سهل، يعنى على المؤمن، وهجران الخلق فى جنب الحق شديد، [والسير][(٥)] من النفس إلى الله صعب شديد، والصبر مع الله أشد .

وأما قوله : «والصبر بالله بقاء » ؛ فلأن العبد إذا كان بالله هان عليه كل شيء، وتحمل الأثقال ولم يجد لها ثقلا، فإنه إذا كان بالله لا بالخلق ولا بنفسه، كان لقلبه وروحه وجود آخر وشأن آخر ، غير شأنه إذا كان بنفسه وبالخلق. [وبهذا][(٦)] الحال لا تجد عناء الصبر ولا مرارته ،وتنقلب مشاق التكليف له نعيما وقرة عين، [كما][(٧)] قال بعض الزهاد «عالجت قيام الليل سنة [ثم][(٨)] تنعمت به عشرين سنة» . ومن [كانت][(٩)] قرة عينه فى الصلاة لم يجد لها مشقة وكلفة .

وأما قوله : « والصبر فى الله بلاء» فالبلاء فوق العناء والصبر فيه فوق الصبر له وأخص منه كما تقدم فإن الصبر فيه بمنزلة الجهاد فيه، وهو أشق من الجهاد له فكل مجاهد فى الله وصابر فى الله مجاهد له وصابر له من غير عكس، فإن الرجل قد يجاهد ويصبر لله مرة فيقع عليه اسم من فعل ذلك لله ولا يقع عليه اسم من فعل ذلك فى الله وإنما يقع على من انغمس فى [العدو و][(١٠)] الجهاد والصبر [ودخل الجنة][(١١)].

---

(١) في أ : ومراداتها .
(٢) في أ : المنازعة .
(٣) سقط من ط و ب .
(٤) في أ : المسير .
(٥) في أ : المسير .
(٦) في أ : وفي هذا .
(٧) سقط من أ .
(٨) في ط و ب : و.
(٩) في أ : كان .
(١٠) سقط من ط و ب .
(١١) في أ : ودخل في الجنة ..

وأما قوله : « والصبر مع الله وفاء » فلأن الصبر معه هو الثبات معه على أحكامه، [وأن](١) لا يزيغ القلب عن الإنابة ،ولا الجوارح عن الطاعة ، فتعطى المعية حقها من التوفية، كما قال تعالى[عن خليله](٢) : ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم:٣٧] ، أى وفى ما أمر به بصبره مع الله على أوامره .

وأما قوله : «والصبر عن الله جفاء » فلا أجفى و أعظم ممن صبر عن معبوده وإلهه ومولاه الذى لا مولى له سواه ، ولا حياة له ولا صلاح ولا نعيم إلا بمحبته، والقرب منه، وإيثار مرضاته على كل شيء ، فأى جفاء أعظم من الصبر عنه؟! وهذا معنى قول من قال: « الصبر على ضربين صبر العابدين وصبر المحبين » فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظًا، وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضًا كما قيل :

[تبين](٣) يوم البين إن اعتزامه ... على الصبر من إحدى الظنون الكواذب

[وقال الآخر](٤) :

ولما دعوت الصبر بعدك والبكا ... أجاب البكا طوعًا ولم يجب الصبر

قالوا : ويدل عليه أن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه ـ قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:١٨] [ورسول الله ﷺ إذا وعد وفى](٥) ثم حمله الوجد على يوسف والشوق إليه أن قال: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف :٨٤] فلم يكن عدم صبره [عنه](٦) منافيًا لقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فإن الصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه، ولا ينافيه الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى ، فإنه قد قال:﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف :٨٦] والله تعالى أمر رسوله بالصبر الجميل ، [لأن من فقده فقد الصبر الجميل] (٧)، وقد [ق/٢٣أ] [امتثل ما أمر به](٨) ، وقال: « **اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهوانى على الناس**» الحديث (٩) .

وأما قول بعضهم: إن الصبر الجميل أن يكون صاحب المصيبة فى القوم لا يدرى من هو فهذا من الصبر الجميل ؛ لأن من فقده فقد الصبر الجميل فإن ظهور أثر المصيبة على العبد مما لا يمكن دفعه البتة وبالله التوفيق .

---

(١) سقط من ط و ب .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) في ط و ب : يبين .
(٤) الشاعر هو : العباس بن الأحنف .
(٥) سقط من ط و ب .
(٦) سقط من ط و ب .
(٧) سقط من أ.
(٨) في أ : أمر به .
(٩) تقدم تخريجه .

وزاد بعضهم فى الصبر قسمًا آخر ،وسماه الصبر على الصبر، وقال: « هو أن يستغرق فى الصبر حتى [يعجز][1] الصبر عن الصبر» كما قيل :

صابر الصبر فاستغاث به الصبر فصاح المحب بالصبر صبرا

وليس هذا خارجا عن أقسام الصبر، وإنما هو المرابطة على الصبر والثبات عليه والله أعلم .

* * * *

[1] في أ : عجز .

الباب الحادى عشر
فى الفرق بين صبر الكرام وصبر اللئام

كل أحد لا بد أن يصبـر على بعض ما يكره، إما اختياراً وإمـا اضطراراً فالكريم يصبر اختيارا لعـلمه بحسن عاقبة الصبر، وأنه يحمد عـليه ويذم على الجزع، وأنه إن لم يصبر لم يرد الجزع عليه فائتا ، [ولم][1] ينزع عنه مكروها، وإن المقدور لا حيلة فى دفعه ومـا لم يقدر لا حيلـة فى تحصيله فـالجزع خرق ضره أقرب من نـفعه . قال بعض العقلاء: العاقل عند نزول المصيبة يفعل ما يفعله الأحمق بعد شهر كما قيل :

وأن الأمر يفضى إلى آخر فيصيـــر آخـــــره أولا

فإذا كان آخر الأمر الصبر والعبد غير محـمود فما أحسن به أن يستقبل الأمر فى أوله بما يستدبره الأحمق فى آخره وقال بعض العقلاء: من لم يصبر صبر الكلام سلا سلو البهائم فالكـريم ينظر إلى المصيبة، فإن رأى الجزع يردها ويدفعهـا فهذا قد ينفعه الجزع وإن كان الجزع لا ينفعه فإنه يجعل المصيبة مصيبتين .

(فصل)

وأما اللئيـم فإنه يصبر اضطراراً ،فـإنه يحوم حول ساحة الجزع فـلا يراها تجدى عليه شيئًا فيصبر صبر الموثق للضرب. وأيضًا فالكريم يصبر فى طاعة الرحمن واللئيم يصبر فى طـاعة الشيطان. فاللئام أصـبر الناس فى طاعة أهوائهم وشـهواتهم، وأقل الناس [صبراً][2] فى طاعة ربهم، [فاللئيم يصبر][3] على البذل فى طاعة الشيطان أتم صبر، ولا يصبر [على البذل][4] فى طاعة الله فى أيسر شىء، ويصبر على تحمل المشاق لـهوى نفسه فى مـرضاة عدوه ،ولا يصبـر في أدنى المشاق فى مـرضاة ربه، ويصبر علـى ما يقال فى عرضه فى المعـصية، ولا يصبر على ما يـقال فى عرضه إذا أوذى فى اللـه ،بل يفر من الأمـر بالمعروف والنهـى عن المنكر خـشية أن يتكـلم فى عرضه فى ذات الله . ويبذل عـرضه فى هوى نفسه [ومراده][5] صابراً على ما يقال فيه ، وكذلك يصبر على التبذل بنفسه وجاهه فى هوى نفسه ومراده، ولا يصبر على

---

(١) في أ : لا .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) في أ : فيصبر .
(٤) سقط من ط و ب .
(٥) في ط و ب : مرضاتها ومرضاته .

التبذل لله فى مرضاته وطاعته، فهو أصبر شىء على [البذل] [١] فى طاعة الشيطان [ومراد نفسه][٢]، وأعجز شيء عن الصبر على ذلك فى [مراد] [٣] الله .

وهذا أعظم اللؤم ، [ولا][٤] يكون صاحبه كريمًا عند الله ، ولا يقوم مع أهل الكرم إذا نودى بهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ليعلم أهل الجمع من أولى بالكرم اليوم، أين المتقون ؟

* * * *

(١) في ط و ب : التبذل .
(٢) في أ : أو مراد النفس .
(٣) سقط من ط و ب .
(٤) في أ : فلا .

الباب الثانى عشر
فى الأسباب التى تعين على الصبر

لما كان الصبـر مأموراً به ،جعل الله سبحـانه له أسبابًا تعين عليـه وتوصل إليه. وكذلك ما أمر الله سبـحانه بأمر إلا أعان عليه، ونصب له أسبابًـا تمده وتعين عليه، كما أنه ما قدر داءً إلا وقدر له دواء و ضمن الشفاء باستعماله .

فالصـبر وإن كان شاقًا كـريهًا علـى النفوس فتـحصيله ممـكن،وهو يتـركب من مفردين: العلـم والعمل، فمنهما تركب جمـيع الأدوية التى [تداوى](١) بها القلوب والأبدان فلا بد من جزء علمي وجزء عملى، فمنهما يركب هذا الدواء الذى هو أنفع الأدوية.

فأما الجزء العلمي : فهو إدراك ما فى المـأمور من الخير والنفع والـلذة والكمال. وإدراك ما فى المحظور مـن الشر [والضر](٢) والنقص. فإذا أدرك هذين الـعلمين كما ينبـغى، أضاف إليـهما العـزيمة الصادقة والـهمة [ق/ ٢٤أ] العـالية والنـخوة والمروءة الإنسانية ،وضم هذا الجزء إلى هذا الجزء . فمتى فعل ذلك حصل له الصبر. وهانت عليه مشاقه وحليت له مرارته ،وانقلب ألمه لذة.

وقد تقدم أن الصـبر مصارعة باعث العقل والـدين [لباعث](٣) الهوى والنفس، [وكل](٤) متصارعين [أراد](٥) أن يتغلب أحدهـما على الآخر فالطريق فيـه تقوية من أراد أن تكون الغلبة له [ويضعف](٦) الآخر، كالحال مع القوة والمرض سواء .

فإذا قوى بـاعث شهوة الوقـاع المحرم ،وغلب بحيـث لا يملك معهـا فرجه، أو يملكه ولكن لا يملك طرفه ،أو يملكه ولكن لا يملك قلبه، بل لا يزال يحدثه بما هناك ويعده ويمنيه ويصرفه عن حقائق الذكر والتفـكر فيما ينفعه فى دنياه وآخرته، فإذا عزم على التداوى ومقاومة هذا الداء فليضعفه أولا بأمور :

أحدها : أن ينظر إلى مادة قوة الشهوة، فيجـدها من الأغذية المحركة للشهوة إما بنوعها أو بكميتهـا وكثرتها [فليحسم](٧) هذه المادة بتقليلها ،فـإن لم تنحسم، فليبادر

---

(١) في أ : يتداوى .
(٢) في أ : والضرر .
(٣) في ط و ب : باعث .
(٤) في أ : فكل .
(٥) في أ : أردنا .
(٦) في أ : وضعف .
(٧) في ط و ب :ليحسم .

إلى الصوم، فإنه [يضيق][١] مجارى الشهوة ويكسر حدتها ولاسيما إذا كان أكله وقت الفطر معتدلا .

الثانى : أن يجتنب محرك الطلب ،وهو النظر فليقصر لجام طرفه ما أمكنه ، فإن داعى الإرادة والشهوة إنما يهيج بالنظر ،والنظر يحرك القلب بالشهوة، وفي المسند عنه ﷺ: **«النظر سهم مسموم من سهام إبليس »** [٢] . وهذا السهم يسدده إبليس نحو القلب ولا يصادف جنة دونه ، وليست الجنة إلا غض الطرف أو التحيز والانحراف عن جهة الرمى، فإنه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور ،فإذا لم تقف على طريقها [أخطأك][٣] السهم ،وإن نصبت قلبك غرضًا فيوشك أن يقتله سهم من تلك السهام المسمومة .

الثالث : تسلية النفس بالمباح المعوض عن الحرام، فإن كل ما يشتهيه الطبع ففيما أباحه الله سبحانه غنية عنه . وهذا هو الدواء النافع فى حق أكثر الناس، كما أرشد إليه النبي ﷺ ، فالدواء الأول يشبه قطع العلف عن الدابة الجموح ، وعن الكلب الضارى لإضعاف قوتهما . والدواء الثانى يشبه تغييب اللحم عن الكلب والشعير عن البهيمة لئلا تتحرك [قوتهما][٤] له عند المشاهدة . والدواء الثالث يشبه [إعطاءهما][٥] من الغذاء ما يميل إليه [طبعهما][٦] بحسب الحاجة لتبقى معه القوة [فتطيع][٧] [صاحبهما][٨]، ولا تغلب بإعطائها الزيادة على ذلك.

الرابع: التفكير فى المفاسد الدنيوية المتوقعة من قضاء هذا الوطر، فإنه لو لم يكن جنة ولا نار ، لكان فى المفاسد الدنيوية ما ينهى عن إجابة هذا الداعى، ولو تكلفنا عدها [لفاقت][٩] الحصر، ولكن عين الهوى عمياء .

الخامس : الفكرة فى مقابيح الصورة التى تدعوه نفسه إليها إن كانت معروفة بالإجابة له ولغيره، فتنفر نفسه أن يشرب من حوض ترده الكلاب و [الذباب][١٠]، كما قيل:

---

(١) في ط و ب : يضعف .

(٢) أخرجه الحاكم (٧٨٧٥) من حديث حذيفة، والطبراني في الكبير (١٠٣٦٢) من حديث ابن مسعود ، وضعفه الألباني . انظر السلسلة الضعيفة (١٠٦٥) .

(٣) في ط و ب : أخطا.

(٤) في أ : نفوسهما .

(٥) في أ : إعطائها .

(٦) في أ : طبعها .

(٧) في ط و ب : فتطيع .

(٨) في أ : صاحبها .

(٩) في أ : لفات .

(١٠) في ط و ب : الذئاب .

سأترك وصلكم شرفا وعزا لخسة سائر الشركاء فيه

وقال آخر :

إذ كثر الذباب علـى طعـام رفعت يدى ونفسى تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود مـاء إذا كان الكـلاب يلغـن فيه

وليذكر مـخـالطة ريقـه [لريق][١] كل خبيث [و][٢] ريقه الداء الـدوى فإن ريق الفاسق داء وكما قيل:

تسلَّ يا قلب عـن سمح بمهجته مبذل كـل من يلـــقاه [يقرفه][٣]
كالماء أى صيـد يأتيـه ينهلـه والغصن أى نسيم مر يعطفه[ق/ ١٢٥أ]
وإن حلا ريـق فاذكـر مرارتـه فى فم أبـخر يجنيـه ويرشفـه

ومن له أدنى [مروءة ونخوة][٤] يأنف لنفسه من مواصلة من هذا شأنه. فإن لم تجبه نفسه عن الإعـراض ،ورضى بالمشاركة ،فلينظر إلى مـا وراء هذا اللون والجمال الظاهر من الـقبائح الباطنة، فـإن من مكن نفسه من فـعل القبائح ، فنفـسه أقبح من نفوس البهائم، فـإنه لا يرضى لنفسه بذلك حيوان من الحيـوانات أصلا إلا ما يحكى عن الخنزير، وأنه لـيس فى [الحيوانات][٥] لواطى سواه .فقد رضـى هذا الممكن من نفسه أنه يكون بمنزلة الخنزير.

وهذا القـبح يغطـى كل جمال وملاحـة فى الوجه والبـدن غير أن حبـك الشئ يعمى ويصم ، وإن كانت الصورة أنثى فقد خانت الله ورسوله وأهلها وبعلها ونفسها وأورثت ذلك لمن بعدها من ذريتها ،فلهـا نصيب من وزرهم وعارهم ولا نسبة لجمال صورتها إلى هذا القبح البتة . وإذا أردت معرفة ذلك فانظر إلى القبح الذى يعلو وجه أحدهما فى كـبره، وكيف يقلب اللـه سبحانه تلك المحاسـن [قبائح][٦]،حتى تعلو الوحشة والقبح وجهه ، كما قيل [شعراً][٧] :[٨]

لو فكر العاشق فى منتهى حسن الذى يسبيه لم يسبه

وتفصيل هذه الوجوه يطول جدا فيكفي ذكر أصولها.

---

(١) سقط من ط و ب .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) في أ : يعرفه .
(٤) في أ : تقديم وتأخير .
(٥) في ط و ب : البهائم .
(٦) في ط و ب : مقابح .
(٧) سقط من أ .
(٨) الشاعر هو المتنبي .

(فصل)

وأما تقوية باعث الدين، فإنه يكون بأمور :

أحدها : إجلال الله تبارك وتعالى أن يعصى وهو يرى ويسمع، ومن قام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك البتة .

الثاني: مشهد محبته سبحانه ،فيترك معصيته محبة له ،فإن المحب لمن يحب مطيع، وأفضل الترك ترك المحبين، وكما أن أفضل الطاعة طاعة المحبين ،فبين ترك المحب وطاعته وترك من يخاف العذاب وطاعته بون بعيد .

الثالث: مشهد النعمة والإحسان ،فإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليه، وإنما يفعل هذا لئام الناس .فليمنعه مشهد إحسان الله تعالى ونعمته عن معصيته حياء منه أن يكون خير الله وإنعامه نازلا [إليه ومخالفته][1] ومعاصيه وقبائحه صاعدة إلى ربه، فملك ينزل بهذا ،وملك يعرج [بذاك][2]. فأقبح بها من مقابلة .

الرابع: مشهد الغضب والانتقام، فإن الرب تعالى إذا تمادى العبد فى معصيته غضب، وإذا غضب لم يقم لغضبه شيء، فضلا عن هذا العبد الضعيف .

الخامس: مشهد الفوات ، وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة، وما يحدث له بها من كل اسم مذموم عقلا وشرعًا وعرفًا ويزول عنه من الأسماء الممدوحة شرعًا وعقلا وعرفًا . ويكفي [فى][3] هذا المشهد [أن يشهد][4] فوات الإيمان الذى أدنى [أدنى][5] مثقال ذرة منه خير من الدنيا وما فيها [بأضعاف مضاعفة][6]. فكيف أن يبيعه بشهوة تذهب لذتها وتبقى تبعتها، تذهب الشهوة وتبقى الشقوة .وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: « **لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن**»[7] .

قال بعض الصحابة: ينزع منه الإيمان حتى يبقى على رأسه مثل الظلة، فإن تاب [رجع][8] إليه .

وقال بعض التابعين : ينزع عنه الإيمان كما [ينزع عنه][9] القميص، فإن تاب لبسه. ولهذا روى عن النبي ﷺ فى الحديث الذى رواه البخارى: « **الزناة فى التنور**

---

(١) في أ : عليه ومخالفته.
(٢) في أ: بهذا .
(٣) سقط من أ .
(٤) في ط وب : مشهد .
(٥) سقط من ط و ب .
(٦) في ط و ب : أضعافاً مضاعفة .
(٧) أخرجه البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة .
(٨) في أ : عاد .
(٩) في ب و ط : ينقص .

عراة»(١) لأنهم تعروا من لباس الإيمان وعاد تنور الـشهوة الذى كان فى قلوبهم تنوراً ظاهرًا يحمى عليه فى النار.

السادس: مشهد القـهر والظفر ،فإن قهر الـشهوة، والظفر بالشـيطان له حلاوة ومسرة وفرحة عند من ذاق ذلك تنورًا أعظم من الظفر [بعدوه](٢) من الآدميين وأحلى موقعًا ،وأتم فرحة. وأمـا عاقبته ، فأحمد عاقبة[ق/٢٦أ] وهو كـعاقبة شرب الدواء النافع الذى أزال داء الجسد وأعاده إلى صحته واعتداله .

السابع : مشهد العوض ،[وهي](٣) ما وعد اللـه سبحانه من تعـويض بمن كف نفسه وتـرك المحارم لأجله ونهى نفســه عن هواها، وليوازنه بين الـعوض والمعوض، فأيهما كان أولى بالإيثار، اختاره وارتضاه لنفسه.

الثامن: مشهد المعية ، وهو نوعان معية عامة ،ومعية خاصة. فالمعية العامة اطلاع الرب تعالى عليه ،وكونـه بعينه لا [يخفى](٤) عليه حاله، وقد تـقدم هذا. والمقصود هنا المعية الخاصة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣] وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل :١٢٨] ، وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] ، فهذه المعية الخـاصة خير [له](٥) وأنفع فى دنياه وآخـرته ممن قضى وطره ونيل شهوته على التمام من أول عمره إلى آخره، فكيف يؤثر عليها لذة منغصة منكدة فى مدة يسيرة من العمر إنما هى كأحلام نائم أو كظل زائل .

التاسع : مشهد المغافصة والمعالجة ،وهو أن يـخاف أن يغافصه الأجل فيأخذه الله على غرة فيحال بينه [وبين ما يـشتهى من لذات الدنيا وبينه](٦) وبين ما يشتهي من لذات الآخرة، فيـالها من حسرة ! مـا أمرها وما أصعبـها ! ولكن ما يعـرفها إلا من جربها . وفي بعض الكتب القديمة : يا من لا يأمن على نفسه طرفة عين، ولا يتم له سرور يوم. الحذر الحذر !

العاشر : مشهد البلاء والعافية، فإن البلاء فى الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها، والعافيـة المطلقة هي الطـاعات وعواقبها. فأهل الـبلاء هم أهل المعصيـة وإن عوفيت أبدانهم وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مرضت أبدانهم. وقال بعض أهل العلم فى

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٦) من حديث سمرة.
(٢) في أ : بعدوك .
(٣) في ط و ب : وهو .
(٤) في ط و ب : تخفى .
(٥) سقط من ط و ب .
(٦) سقط من ط و ب .

الأثر المروى: «إذا رأيتم أهـل البلاء فاسألوا الله الـعافية»(١) فإن أهل البلاء المـبتلون بمعاصى الله والإعراض والغفلة عنه ،وهذا وإن كـان أعظم البلاء فاللفظ يتناول أنواع المبتلين فى أبدانهم وأديانهم، والله أعلم.

الحادي عشر: أن يعود باعث الدين وداعيه[مصارعاً] (٢) لداعى الهوى [ومقاوما له](٣) على التدريج قليلا قليلا حتى يدرك لذة الـظفر ، فتقوى حينئذ همته، فإن من ذاق لذة شيء قويت همته فى تحصيله ،والاعتـياد لممارسة الأعمال الشاقة تزيد القوى التى تـصدر عنها تـلك تلك الأعمـال، ولذلك تجد قوى الحـمالين وأرباب الصـنائع الشاقة تتزايد بخلاف البزاز والخياط ونحوهما ، ومن ترك المجاهدة بالكلية ضعف فيه باعث الدين وقوى فيه باعث الشهوة، [ومتى](٤) عود نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد .

الثانى عشر : كف [الباطن](٥) عن حديث النفس، وإذا مـرت به الخواطر نفاها ولا يؤويها ويساكنـها فتصير مني وأمانى ،وهى رؤوس أموال المفـاليس. ومتى ساكن الخواطر صارت أمانى، ثم تقوى فتصير هـمومًا ، ثم تقوى فتصير إرادات، ثم تقوى فتصير عزمًا يقترن به المراد. فدفع الخـاطر الأول أسهل وأيسر من دفع أثر المقدور بعد وقوعه وترك معاودته .

الثالث عشر: قطع العلائق والأسباب التى تدعـوه إلى موافقة الهوى وليس المراد أن لا يكون له هوى ،بل المراد أن يصرف هواه إلى ما ينفعه، ويستعمله فى تنفيذ مراد الرب تعالى، فإن ذلـك يدفع عنه شر استعمالـه [فى معاصيه](٦)، فإن كل شيء من الإنسان يسـتعمله للـه، [فإن الله](٧) يقيه شـر استعماله لـنفسه وللشـيطان. وما لا يستـعمله للـه استعمـله لنفسـه وهواه ولا بد. فالعـلم إن لم يكـن لله كان للـنفس والهوى، والعـمل إن لم يكن للـه كان للرياء والنـفاق والمال إن لم ينفـق [فى طاعة لله](٨) أنفق فى طاعة الشيطان والهوى والجاه إن لم [يستعمله صاحبه في أمر الله](٩) لله استعمـله [صاحبه](١٠) فى هواه وحظوظـه، والقوة إن لم يستعملهـا فى أمر الله

---

(١)أخرجه مالك (١٧٨٤) .
(٢)في ط و ب : مصارعة .
(٣)في ط و ب : ومقاومته .
(٤)في أ : ومن .
(٥)في ط و ب : الباطل والصواب ما أثبتناه من أ.
(٦)سقط من أ .
(٧)سقط من ط و ب .
(٨)في أ : لله .
(٩)في أ : يستعمل لله .
(١٠)سقط من ط و ب .

استعملتـه فى معصيته. فمن [ق/٢٧أ] عود نـفسه العمل لله لم يكـن عليه أشق من العمل لغـيره، ومن عود نفسه العمـل لهواه وحظه لم يكن علـيه أشق من[إخلاص العمل][1] لله وهذا فـى جميع أبواب الأعمال فلـيس شيء أشق على المنفـق لله من الإنفاق لغيره وكذا بالعكس .

الرابع عشر: صرف الفكر إلى عجائب آيات الله التى ندب عباده إلى التفكر فيها وهى آياته المتلوة وآياته [المجلوة][2] فإذا استولى ذلك على قلبه دفع عنه [محاضرة][3] الشيـطان ومحادثته ووسـاوسه ،وما أعظم غـبن من أمكنه أن لا يزال [مـحاضرًا][4] للرحمن وكتابـه ورسوله [والصحابة][5] فرغب عن ذلك إلى [محاضرة][6] الشيطان من الإنس والجن، فلا غبن [بعد][7] هذا الغبن. والله المستعان .

الخامس عشر: التفكر فى الدنيا وسرعة زوالها وقرب [انقضائها][8]،فلا يرضى لنفسه أن يتزود منها إلى دار بقائه وخلوده أخس ما فيها وأقله نفعًا ، إلا ساقط الهمة دنيء المـروءة ميت القـلب، فإن حـسرته تشـتد إذا عاين حـقيقـة ما تزوده وتبـين له [حقيقة][9] عدم نفعه لـه فكيف إذا كان [ترك تزود ما يـنفعه إلى زاد][10] يعذب به ويناله بسببه غاية الألم. [بل][11] إذا تزود ما ينفعه وترك ما هو أنفع منه له كان ذلك حسرة عليه وغبنًا .

السادس عشر: تعرضه إلى من القلوب بين أصبعيه وأزمة الأمور بيديه ، وانتهاء كل شيء إليه على الـدوام فلعله أن يصادف أوقات النفحات كـما فى الأثر المعروف: **«إن لله فـى أيام دهركم نـفحات فتـعرضوا لنـفحاته، وسـلوا الله أن يـستر عوراتـكم ويؤمن روعاتكم »** [12].

ولعله فى كثرة تعرضه أن يصادف ساعة من الساعات التى لا يسأل الله فيها شيئا

---

(١) في أ : من الإخلاص والعمل

(٢) في أ : المخلوقة .

(٣) في ب : محاظرة .

(٤) في ط و ب : محاظراً .

(٥) في أ : وأصحابه .

(٦) في ط و ب : محاظرة .

(٧) في أ : يعدل .

(٨) في أ : انفصالها .

(٩) سقط من ط و ب .

(١٠) في أ : زاده ما .

(١١) سقط من أ .

(١٢) أخرجه الطـبراني في الكبير (٧٢٠) والـدعاء (٢٦) وأبو نعيم في الحـلية (٣/ ١٦٢) والبيهقي فـي الشعب (١٠٨٣) ، (١٠٨٤) من حديـث أنس بن مالـك ـ رضي الله عنه ـ وضعـفه الألباني انـظر ضعيـف الجامع (٩٠٢) .

إلا أعطاه، فمن أعطى منشور الدعاء أعطى الإجابة، فإنه لو لم يرد إجابته لما ألهمه الدعاء، كما قيل :

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه   من جود كفك ما عودتنى الطلبا

ولا يستوحش من ظاهر الحال ، فإن الله سبحانه يعامل عبده معاملة من ليس كمثله شيء فى أفعاله ،كما ليس كمثله شيء فى صفاته ،فإنه ما حرمه إلا ليعطيه، ولا أمرضه إلا ليشفيه ،ولا أفقره إلا ليغنيه ،ولا أماته إلا ليحييه، وما أخرج أبويه من الجنة إلا ليعيدهما إليها على أكمل حال ، كما قيل : « يا آدم لا تجزع من قولى لك اخرج منها فلك خلقتها وسأعيدك إليها » .

فالرب تعالى ينعم على [عبده](١) بابتلائه ، ويعطيه بحرمانه، ويصحه بسقمه، فلا يستوحش عبده من حالة تسوؤه أصلا إلا إذا كانت تغضبه عليه وتبعده منه .

السابع عشر: أن يعلم العبد [أن](٢) فيه جاذبين متضادين، ومحنته بين الجاذبين ؛ جاذب يجذبه إلى الرفيق الأعلى [ليكون](٣) من [أهل](٤) عليين ،وجاذب يجذبه إلى أسفل سافلين فكلما انقاد مع الجاذب الأعلى صعد درجة، حتى ينتهى إلى حيث يليق به من المحل الأعلى وكلما انقاد إلى الجانب الأسفل نزل درجة حتى ينتهى إلى موضعه من سجين .ومتى أراد أن يعلم هل هو مع الرفيق الأعلى أو الأسفل ،فلينظر أين هو ومع من هو فى هذا العالم، فإن الروح إذا فارقت البدن تكون فى الرفيق الأعلى الذى كانت [تجذبه](٥) إليه فى [هذه](٦) الدنيا فهو أولى بها ، فالمرء مع من أحب طبعا وعقلا وجزءا، وكل مهتم بشيء فهو منجذب إليه وإلى أهله بالطبع، وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه، وقد قال تعالى : ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤] ، فالنفوس العلوية تنجذب بذاتها وهمها وأعمالها إلى أعلى، والنفوس السافلة إلى أسفل .

الثامن عشر: أن يعلم العبد أن تفريغ المحل شرط لنزول غيث الرحمة، وتنقيته من الدغل شرط لكمال الزرع .فمتى لم يفرغ المحل لم يصادف غيث الرحمة محلا فارغاً قابلا ينزل فيه ،وإن فرغه حتى أصابه غيث الرحمة، ولكنه لم ينقه من الدغل

---

(١) سقط من أ .
(٢) في ط و ب : بان .
(٣) سقط من ط و ب .
(٤) في ط و ب : أعلى .
(٥) في أ : منجذبة .
(٦) زيادة من أ .

لم يـكن الزرع زرعـاً كاملا، بـل ربما غلـب الدغل عـلى الزرع فـكان الحكـم له، [ق/١٢٨أ] وهذا كالـذى يصلح أرضه ويهـيئها لقبـول الزرع ،ثم يودع فيهـا البذور ، وينتظر نزول الـغيث ،فإذا طهرَّ العبد قلـبه، وفرغه من [إرادة][1] السوء وخواطره ، وبذر فيه بذر الذكر والفكـر والمحبة والإخلاص، وعرضه [لمهاب رياح][2] الرحمة ، وانتظر نـزول غيث الرحمة فـى أوانه كان جديرًا بحـصول المغل وكما يـقوى الرجاء لنزول الغيث فى وقـته ،كذلك يقوى الرجاء لإصابة نفحات الـرحمن جل جلاله فى الأوقات الـفاضلة والأحـوال الشريفـة ،ولا سيما إذا اجـتمعت الـهمم، وتسـاعدت القلوب، وعظم الجمـع كجمع عرفة، وجمع الاستسقاء ، وجـمع أهل الجمعة، فإن اجتمـاع الهمم والأنفـاس أسباب نصبـها الله تـعالى مقتـضية لحصول الخـير ونزول الرحمة، كـما نصب سائر الأسباب [مـفضية][3] إلى مسبباتهـا بل هذه الأسباب فى حصول الرحمة، أقوى من الأسباب الحسية فى حصول مـسبباتها. ولكن العبد بجهله يغلب عليه الشاهد على الغائب [والحس[4] على العقل] ، [وبظلمه][5] يؤثر ما يحكم به هذا ويقتضيه على ما يحكم به [الآخر][6]، ولو فرغ العبد المحل وهيأه [وأصله][7] لرأى العجائب، فـإن فضل الله لا يرده إلا المانع الذى فى الـعبد. فلو [زال][8] ذلك المانع، لسارع إليه الفضل من كل صوب. فتـأمل حال نهر عظيم يسقى كل أرض يمر عليها ، فحصل بينه وبين بعض الأرض المعطشة المجدبة سكر وسد كثيف، [فصاحب الأرض][9] يشكو [عطش الأرض وجدبها][10] والنهر إلى جانب أرضه.

التاسع عشر : أن يعلم العبد أن الله سبحانـه خلقه لبقاء لا فناء له، ولعز لا ذل معه وأمن لا خوف فيه، وغناء لا فقر معـه ،ولذة لا ألم معها ،وكمال لا نقص فيه، وامتحنه فى هذه الدار بالـبقاء الذى يسرع [إليه][11] الفناء ،والعز الذى يقارنه الذل، ويعقبه الذل والأمـن الذى معه الخوف وبعده الخوف . وكذلك الغنـاء واللذة والفرحة والسرور والنعيم الذى هنا مشوب بضده ؛لأنـه يتعقبه ضده وهو سريع الزوال، فغلط أكثر [الخلق][12] فى هذا المقـام إذ طلبوا النعيم والـبقاء والعز والملك والجـاه فى غير

---

(١) في أ : إرادات .
(٢) في أ :لهبات .
(٣) في ط و ب : مقتضية .
(٤) في ط و ب : الحسن .
(٥) في أ : ولظلمه .
(٦) في أ : هذا .
(٧) في أ : واصلحه .
(٨) في أ : أزال .
(٩) في ط و ب : فصاحبها .
(١٠) في ط و ب : الجدب .
(١١) في ط و ب : إلى .
(١٢) في أ : الناس .

محله ففاتهم فى محله وأكثرهم لم يظفر بما طلبه من ذلك، والذى ظفر به إنما هو متاع قليل والزوال قريب فإنه سريع الزوال عنه والرسل صلوات الله وسلامه عليهم إنما جاؤوا بالدعوة إلى النعيم المقيم والملك الكبير، فمن أجابهم حصل له ألذ ما فى الدنيا وأطيبه، فكان عيشه فيها أطيب من عيش الملوك فمن دونهم فإن الزهد فى الدنيا ملك حاضر، والشيطان يحسد المؤمن عليه أعظم حسد، فيحرص كل الحرص على أن لا يصل إليه فإن العبد إذا ملك شهوته وغضبه فانقادا معه لداعى الدين فهو الملك حقا؛ لأن صاحب هذا الملك حر. والملك المنقاد لشهوته وغضبه عبد شهوته وغضبه، فهو مسخر مملوك فى زى مالك يقوده زمام الشهوة والغضب كما يقاد البعير فالمغرور المخدوع [يقع][1] نظره على الملك الظاهر الذى [ظاهره][2] ملك وباطنه رق ،وعلى الشهوة التى أولها لذة وآخرها حسرة والبصير الموفق يعبر نظره من الأوائل إلى الأواخر ،ومن المبادئ إلى العواقب. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم .

العشرون : أن لا يغتر العبد باعتقاده أن مجرد العلم بما ذكرنا كاف فى حصول المقصود، بل لا بد أن يضيف إليه بذل [الجهد][3] فى استعماله، واستفراغ الوسع والطاقة فيه .وملاك ذلك الخروج عن العوائد فإنها أعداء الكمال والفلاح، فلا أفلح من استمر مع عوائده أبدًا، ويستعين على الخروج عن العوائد بالهرب من [مظان][4] الفتنة والبعد عنها ما أمكنه، وقد [ق/ ٢٩أ] قال النبي ﷺ : « **ومن سمع بالدجال فلينأ عنه** » [5] فما استعين على التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه .

وههنا نكتة لطيفة للشيطان لا يتخلص منها إلا حاذق، وهى أن يظهر له فى مظان الشر بعض شيء من الخير ويدعوه إلى تحصيله ، فإذا قرب منه ألقاه فى الشبكة. والله أعلم.

---

(١) في ط و ب : يقطع .
(٢) في أ : صورته .
(٣) في أ : المجهود .
(٤) في ب : مضان .
(٥) أخرجه أبو داود (٤٣١٩) وأحمد (١٩٨٨٨) (١٩٩٨٢) وصححه الألباني. انظر صحيح أبي داود (٣٦٢٩) .

الباب الثالث عشر
فى بيان أن الإنسان لا يستغنى عن الصبفى حال من الأحوال

فالعبد ما دام مكـلفاً لا يستغني عن الصبر في حـال من الأحوال ، فإنه بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه ،ونهى يجب عليه اجتنابه وتركه، وقدر يجرى عليه اتفاقا، ونعمة يجب عليه شكر المنعم علـيها ،وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه فالصبر لازم له إلى الممات.

[وكل][1] ما يلقى العبد فى هذه الدار ،لا يخلو من نوعين أحدهما يوافق هواه ومراده، والآخر يخالفه . وهو محتاج إلى الصبر فى كل منهما.

أما النـوع الموافق لغـرضه : فكالصـحة ،والسلامة، والجاه، والمـال وأنواع الملاذ المباحة، وهو أحوج شىء إلى الصبر فيها من وجوه :

أحدها: أن لا يركن إليها ،ولا يـغتر بها ،ولا تحمله على الـبطر والأشر والفرح المذموم الذى لا يحب الله أهله .

الثانى: أن لا ينـهمك فى نـيلها، ويـبالغ فى اسـتقصائـها، فإنهـا تنقلـب إلى أضدادها. فمن بالغ فى الأكل والشرب والجـماع انقلب ذلك إلى ضده، وحرم الأكل والشرب والجماع.

الثالث: أن يصبر على أداء حق الله فيها ولا يضيعه فيسلبها .

الرابع: أن يصبر عن صرفـها فى الحرام ،فلا يمكن نفسه من كل مـا يريده منها، فإنها تـوقعه فى الحرام ،فإن احـترز كل الاحتراز أوقعـته فى المكروه، ولا يصـبر مع السراء إلا الصديقون .

قال بعض السلف: « البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا [الصديقون][2] ».وقال عبـد الرحمن بن عـوف رضى الله عنه: « ابـتلينا بـالضراء فصبرنا ،وابتلينا بالسراء فلم نصبر ».

ولذلك حذر اللـه عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد، فـقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون:٩] .

وقال تعـالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾

---

(١) في أ : فكل .

(٢) في أ : صديق .

[التغابن:١٤] . وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادة ، بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد ،وتعلم العلم والصدقة، وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر، كما فى جامع الترمذى من حديث إسرائيل حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ قال : « هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة، فأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ [فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبي ﷺ](١) فلما أتوا رسول الله ﷺ ورأوا الناس قد فقهوا فى الدين، هموا أن يعاقبوهم [فأنزل الله هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾] (٢)الآية. قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح (٣) .

وما أكثر ما [فات](٤)العبد من الكمال [والصلاح](٥) والفلاح بسبب زوجته وولده، وفي الحديث: «**الولد مبخلة مجبنة** » (٦) . وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، قال: حدثني [حسين](٧) بن واقد، قال حدثنى عبد الله بن بريدة، قال: سمعت أبى يقول: « كان رسول الله ﷺ يخطبنا ، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ،فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر ،فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما» . وهذا من كمال رحمته ﷺ ولطفه بالصغار وشفقته عليهم ،وهو تعليم منه للأمة الرحمة والشفقة واللطف بالصغار.

(فصل)

وإنما كان الصبر على السراء شديدًا لأنه مقرون بالقدرة، والجائع [ق/ ٣٠أ] عند غيبة الطعام أقدر منه على الصبر عند حضوره، وكذلك الشبق عند غيبة المرأة أصبر منه عند حضورها.

---

(١) سقط من أ .	(٢) في أ : فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

(٣) أخرجه الترمذى (٣٣١٧ ، ٣٧٧٤) ، وأبو داود (١١٠٩) ، والنسائى (١٤١٣) ، وابن ماجه (٣٦٠٠) من حديث بريدة وحسنه الألبانى . انظر صحيح الترمذى (٢٦٤٢) .

(٤) في أ : يفوت .	(٥) سقط من ط و ب .

(٦) أخرجه ابن ماجه (٣٦٦٦) ، وأحمد (١٧٥٩٨) والبيهقي في الكبرى (٢٠٦٥٢) ، والحاكم (٤٧٧١) ، (٥٢٨٤) ، وصححه الألباني انظر صحيح ابن ماجه (٢٩٥٧) .

(٧) في أ و ب : زيد .

(فصل)

وأما الـنوع الثـانى المخـالف للـهوى : فلا يـخلو إما أن يـرتبط باخـتيار العـبد كالطاعات والمعاصى، أو لا ترتبط [أو يرتبط] (١) أوله باختياره كالمصائب، [أو يرتبط أوله باختياره] (٢) ولكن لا اختيار له فى إزالته بعد الدخول فيه، فهاهنا ثلاثة أقسام :

أحدها : ما يرتبـط باختياره: وهو جـميع أفعاله الـتى توصف بكونـها طاعة أو معصية، فأما الطاعـة فالعبد محتاج إلى الصبر عليها ؛ لأن النفـس [بطبعها تنفر] (٣) عن كثير من العبودية. أما فى الصلاة فلما فى طبعها من الكسل، وإيثار الراحة ،ولا سيما إذا اتفق مع ذلك قسوة القلب ورين الذنب والميل إلى الشهوات، ومخالطة أهل الغفلة، فلا يكاد الـعبد مع هذه الأمور وغيرها أن يفعلها ، وإن فـعلها مع ذلك كان متكلفًا غائب القلب، ذاهلا عنها طالبًا لـفراقها كالجالس إلى الجيفة .وأما الزكاة فلما فى [طبع النفس] (٤)ـ من [الشح والبخل] (٥)، وكذلك الحج والجهاد للأمرين جميعًا وطبعًا.

ويحتاج العبد ها هنا إلى الصبر فى ثلاثة أحوال:

أحدها: قبـل الشروع فـيهـا ، بتصـحيح الـنيـة ، والإخلاص وتجنـب دواعى [الرياء] (٦) والسمعة، وعقد العزم على توفية [المأمور به حقه] (٧) .

الحالة الثانية : الصبر حال العمـل ، فيلازم العبد الصبر عن دواعى التـقصير فيه والتفريط، ويلازم الصـبر على استصحاب ذكر النية، وعلى حـضور القلب بين يدى المعبود، وأن لا ينساه فى أمره ،فليس الشأن فى فعل المأمور، بل الشأن كل الشأن أن لا ينسى الأمر حـال الإتيان بأمره ،بل يكون مسـتصحبًا لذكره فى أمـره ،فهذه عبادة العبيد المخلصـين لله، فهو محتاج إلى الصبر عـلى توفية العبادة حقها بالـقيام بأدائها وأركانهـا وواجباتها وسـننها، [وإلى الـصبر] (٨) على اسـتصحاب ذكـر المعبود فـيها و[أن] (٩) يشتـغل عنه بعبـادته، فلا يعطلـه حضوره مع الله بـقلبه عن قيـام جوارحه بعبوديته ، ولا يعطله قيام الجوارح بالعبودية عن حضور قلبه بين يديه سبحانه .

---

(١) سقط من ط و ب .
(٢) في أ : أو لا يرتبط .
(٣) في أ : تقديم وتأخير .
(٤) في ط و ب : طبعها .
(٥) في أ : تقديم وتأخير .
(٦) في ط و ب : الريبة .
(٧) فى ط و ب : المامورية حقها .
(٨) سقط من أ .
(٩) سقط من ط و ب .

الحالة الثالثة: الصبر بعد الفراغ من العمل وذلك من وجوه :

أحدها: أن يصبر نفسه عن الإتيان بما يبطل عمله، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي ﴾ [البقرة:٢٦٤] فليس الشأن في الإتيان بالطاعة إنما الشأن فى حفظها مما [يفسدها و](١) يبطلها .

الثاني: أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها والتكبر والتعاظم بها ،فإن هذا أضر عليه من كثير من المعاصى الظاهرة .

الثالث: أن يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية، فإن العبد يعمل العمل سرًا [بينه وبين الله سبحانه](٢) فيكتب فى ديوان السر ،فإذا تحدث به نقل إلى ديوان العلانية، فلا يظن أن بساط الصبر انطوى بالفراغ من العمل .

(فصل)

وأما الصبر عن المعاصى فأمره ظاهر، وأعظم ما يعين عليه قطع المألوفات، ومفارقة الأعوان [عليها](٣) فى المجالسة والمحادثة وقطع العوائد ،فإن للعادة طبيعة خاصة، فإذا انضافت الشهوة إلى العادة تظاهر جندان من جند [الشيطان](٤) على جند الله، فلا يقوى باعث الدين على قهرهما.

(فصل)

القسم الثانى ما لا يدخل تحت الاختيار: وليس للعبد حيلة فى دفعه، كالمصائب التى لا صنع للعبد فيها، كموت من يعز عليه ،وسرقة ماله، ومرضه،ونحو ذلك. وهذا نوعان:

أحدهما : ما لا صنع للعبد الآدمى فيه ، والثانى ما أصابه من جهة آدمى مثله كالسب والضرب وغيرهما .

فالنوع الأول للعبد فيه [أربعة](٥) مقامات:

أحدها مقام العجز : وهو مقام الجزع والشكوى والسخط. وهذا [ما](٦) لا يفعله إلا أقل الناس [ق/ ٣١ أ] عقلا ودينًا ومروءة،وهو أعظم المصيبتين .

المقام الثانى: مقام الصبر: إما لله وإما للمروءة [و](٧) الإنسانية .

---

(١) سقط من ط و ب .
(٢) سقط من أ .
(٣) سقط من أ .
(٤) في أ : إبليس .
(٥) في أ : أربع .
(٦) سقط من أ .
(٧) سقط من ط و ب .

المقـام الثالـث: مقام الـرضا : وهو أعلـى من مقام الـصبر، وفي وجـوبه نزاع، والصبر متفق على وجوبه .

المقام الرابع :مـقام الشكر : وهو أعلى من مقام الرضا ،فإنه يـشهد البلية نعمة، فيشكر المبتلى عليها .

وأما النوع الثانى: وهو ما أصابه من قبل الناس ،فـله في هذه المقامات ويضاف إليه أربعة أخر :

أحدها : مقام العفو والصفح .

والثاني: مقام سلامة القـلب من إرادة التشفي والانتقام، وفراغه مـن ألم مطالعة الجناية كل وقت وضيقه بها .

الثالث: مقام شهود القدر، وإنه وإن كان ظالمًا بإيصال هذا الأذى إليك، فالذى قدره عليك وأجراه علـى يد هذا الظالم ليس بظالم، وأذى النـاس مثل الحر والبرد لا حيلة فـى دفعه، فالمتسـخط من أذى الحر والبرد غـير حازم .والكل جار بـالقدر وإن اختلفت طرقه وأسبابه.

المقام الرابع : مقام الإحسان إلـى المسيء ، ومقابلة إساءته بإحـسانك. وفي هذا المقام من الفوائد والمصالح ما لا يعلمه إلا الله ، فإن فات العبد هذا المقام العالى، فلا يرضى لنفسه بأخس المقامات وأسفلها .

(فصل)

القسم الثالث : ما يكون وروده باختياره، فإذا تمكن لـم يكن له اختيار ولا حيلة فى دفعه وهذا كـالعشق [الذي] [١] أوله اختيار وآخره اضطـرار، وكالتعرض لأسباب الأمراض والآلام التى لا حيلة فـى دفعها بعد مباشرة أسبابها ،كـما لا حيلة فى دفع السكر بعد تناول المسكر، فهذا [القسم][٢] كان فرضه الصبر عنه فى أوله ،فلما فاته بقى فرضه الصبر عـليه فى آخره، وأن لا يطيع داعى هواه ونفسه. وللـشيطان هاهنا دسيسة عجيبة، وهى [أنه][٣] يخيل إليه أن نيل بعض ما منع [منه][٤] قد يتعين عليه أو يباح له على سبيل التداوى، وغايته أن يكون كالتداوى بالخمر والنجاسة وقد أجازه كثير من الفقهاء وهذا من أعظم الجهل فإن هذا التداوي لا يزيل الداء بل يزيده ويقويه

(١) سقط من ط و ب .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) في ط و ب : أن .
(٤) سقط من ط و ب .

وكم ممن تداوى بذلك فكان هلاك دينه ودنياه في هذا التداوي، بل الدواء النافع لهذا الداء دواء الصبر والتقوى ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. وقال: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] فالصبر والتقوى دواء كل داء من [أدواء](١) الدين، ولا يستغنى أحدهما عن صاحبه.

فإن قيل : فهل يثاب العبد على الصبر في هذا القسم إذا كان عاصيا مفرطًا يتعاطى أسبابه وهل يكون معاقبًا على ما تولد منه وهو غير اختياري له ؟

قيل : نعم، إذا صبر لله تعالى وندم على ما تعاطاه من السبب المحظور أثيب على صبره ؛ لأنه جهاد منه لنفسه، وهو عمل صالح، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وأما عقوبته على ما تولد منه، فإنه يستحق العقوبة على السبب وما تولد منه. وكما يعاقب السكران على ما جناه في حال سكره . [فإذا](٢) كان السبب محظورًا لم يكن السكران معذورًا ،فإن الله سبحانه يعاقب على الأسباب المحرمة وعلى ما [تولد](٣) منها، كما يثيب على الأسباب المأمور بها وعلى ما يتولد منها. ولذا كان من دعا إلى بدعة وضلالة عليه من الأوزار مثل أوزار من اتبعه ، ولأن اتباعهم [له](٤) تولد عن فعله ، ولذلك كان على ابن آدم القاتل لأخيه كفل من ذنب كل قاتل إلى يوم القيامة ، وقد قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] وقال تعالى : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

فإن قيل: فكيف التوبة من هذا المتولد وليس من فعله والإنسان إنما يتوب [ق/ ٣٢أ] عما يتعلق باختياره قيل التوبة منه بالندم عليه وعدم إجابة دواعيه وموجباته وحبس النفس عن ذلك، فإن كان المتولد متعلقًا بالغير، فتوبته مع ذلك برفعه عن الغير بحسب الإمكان، ولهذا كان من توبة الداعي إلى البدعة أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدى في ضده، كما [شرط](٥) تعالى في توبة أهل الكتاب الذين كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدى ليضلوا الناس بذلك أن

---

(١) سقط من أ .
(٢) في أ : وإذا .
(٣) في أ : يتولد
(٤) سقط من أ .
(٥) في أ : شرطه .

يصلحوا العمل فى نفوسهم، ويبينـوا للناس ما كانوا يكتمونهم إياه فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) ﴾ [البقرة] .

وهذا [كما][1] شرط فى تـوبة المنافقـين الذين كان ذنبهـم إفساد قلوب ضـعفاء المؤمنين في تحـيزهم واعتصامهم بـاليهود والمشركين أعداء الـرسول ﷺ ، وإظهارهم الإسلام رياء وسمعة أن يصـلحوا بدل إفسادهم، وأن يعتصموا باللـه بدل اعتصامهم بالكـفار من أهل الـكتاب والمشـركين ،وأن يخلصـوا دينهم لـله بدل إظهـارهم رياء وسمعة، فهكذا تفهم شرائط التوبة وحقيقتها. والله المستعان .

---

(١) في ط و ب : ما .

الباب الرابع عشر
فى بيان أشق الصبر على النفوس

مشقة الصبر بحسب قوة الداعى إلى الفعل وسهولته على العبد، فإذا اجتمع فى الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق شيء على الصابر. وإن فقدا معًا سهل الصبر عنه. وإن وجد أحدهما وفقد الآخر سهل الصبر من وجه وصعب من وجه .

فمن لا داعى له إلى القتل والسرقة وشرب المسكر وأنواع الفواحش، ولا هو سهل عليه ،فصبره عنه لمن [أيسر شيء وأسهله](١) ، ومن اشتد داعيه إلى ذلك وسهل عليه فعله، فصبره عنه أشق شيء عليه. ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم،وصبر الشاب عن الفاحشة، وصبر الغنى عن تناول[اللذات والشهوات](٢) عند الله بمكان .

وفي المسند وغيره عن النبي ﷺ : **«عجب ربك من شاب ليست له صبوة»** (٣) . ولذلك استحق [أولئك](٤) السبعة المذكورون فى الحديث(٥) الذين يظلهم الله فى ظل عرشه لكمال صبرهم ومشقته، فإن صبر الإمام المتسلط على العدل فى قسمه وحكمه ورضاه وغضبه، وصبر الشاب على عبادة الله ومخالفة هواه، وصبر الرجل على ملازمة المسجد، وصبر المتصدق على إخفاء الصدقة حتى عن بعضه ،وصبر المدعو إلى الفاحشة مع كمال جمال الداعى ومنصبه ،وصبر المتحابين فى الله على ذلك فى حال اجتماعهما وافتراقهما، وصبر الباكى من خشية الله على كتمان ذلك [وعدم](٦) إظهاره للناس، من أشق الصبر.

[ولهذا](٧) كانت عقوبة الشيخ الزانى، والملك [الكذاب](٨)، والفقير المختال،

---

(١) في أ : أسهل شيء وأيسره .
(٢) في أ : تقديم وتأخير .
(٣) أخرجه أحمد (١٧٤٠٩) والطبراني في الكبير (٨٥٣) وأبو يعلى (١٧٤٩) والقضاعي في مسند الشهاب (٥٧٦) والروياني في مسنده (٢٢٧) من حديث عقبة بن عامر وصححه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (٢٨٤٣) .
(٤) سقط من ط و ب .
(٥) أخرجه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة بلفظ : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » . .
(٦) سقط من أ .
(٧) في ط و ب : ولما .
(٨) في ط و ب : الكاذب .

أشد العقوبـة لسهولة الصبر عن هذه الأشـياء المحرمات عليهم [لضعـف دواعيها فى حقهم](١) فكان تركهم الصبر [عنهـا مع سهولته عليهم](٢) دليلاً على تمردهم على الله وعتوهم عليه.

ولهذا كـان الصبر عن مـعاصى اللسـان والفرج من أصـعب أنواع الصبـر لشدة الداعى إليهما وسهولـتهما .فإن معاصى اللسان فاكهة الإنسان ،كالـنميمة، والغيبة، والكذب، والمـراء، والثناء علـى النفس تعـريضًا وتصريـحًا، وحكاية كـلام الناس، والطعن عـلى من يبغضه، ومـدح من يحبه ونحو ذلـك . فتتفق قوة الداعـى وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر، ولهذا قال ﷺ لمعاذ:« **أمسك عليك لسانك** ». فقال : وإنا لمؤاخذون بما نتـكلم به؟ فقال : « **وهل [ق/ ١٣٣أ] يكب الناس فـى النار على مناخـرهم إلا حصائـد ألسنتـهم**» (٣) ولا سيما إذا صـارت المعاصى اللسانيـة معتادة للعبد، فإنه يعسر عليه الصبر عليها .

ولهذا تجـد الرجل يقوم اللـيل ،ويصوم النهـار، ويتورع عن استنـاده إلى وسادة حرير لحظة واحدة، [بغـير اختياره ذنبًا](٤) و[ليطلف لسانه فى الـغيبة والنميمة] (٥)، [والتـفكـه في أعراض الخـلق وربما خـص أهل الـصلاح والعـلم بالـله والـدين](٦) [والقول](٧) ما لا يعلم.

وكثيـر ممن تجده يتورع عـن الدقائق من الحرام والـقطرة من الخمـر، ومثل رأس الإبرة من النجاسة ولا يبالى بارتكاب الـفرج الحرام، كما يحكى أن رجلا خلا بامرأة أجنبيـة [فلما أراد مواقعتـها قال: يا هذه غطى وجهـك فإن النظر إلى وجه الأجـنبية حرام !!](٨) وقد سأل رجل عـبد الله بن عمـر عن دم البعوض، فقـال: انظروا إلى هؤلاء يسألونى عن دم البعوض وقد قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ .

واتفق لى قريب من هذه الحكاية: [لما](٩) كنت فى حال الإحرام، فأتانى قوم من

---

(١) في أ : ولضعف داعيها في نفوسهم . (٢) في أ : تقديم وتأخير .

(٣) أخرجـه الترمـذي (٢٦١٦) وابن ما جـه (٣٩٧٣) وأحمد (٢٢٠٦٩) ، (٢٢١٢١) والـنسائـي في الكـبرى (١١٣٩٤) وعبد الرزاق فـي مصنفه (٢٠٣٠٣) والطبـراني في الكبير (٢٦٦) وعـبد بن حميد في المـنتخب (١١٢) وهناد في الزهد (١٠٩١) وصححه الألباني انظر صحيح الجامع (٥١٣٦) .

(٤) سقط من ط و ب . (٥) في أ : ولسانه يفري في أعراض الناس غيبة ونميمة .

(٦) في أ : تقديم وتأخير . (٧) في أ : ويقول .

(٨) سقط من أ . (٩) سقط من ط و ب .

الأعراب، المعروفين بقتل النفوس ، والإغارة علـى الأموال، يسألوني عن قتل المحرم القمل، فقلت: يا عجبًا لقوم لا يتورعون عن قتل [النفس التي حرم الله قتلها ، ويسألون] [١] عن قتل القملة فى الإحرام .

والمقصود أن اختلاف شدة الصبر فى أنواع المعاصى وآحادها يكون باختلاف داعيه إلى تلك المعصية فـى قوتها وضعفها ويذكر عـن على ﷺ أنه قال: الصبر ثلاثة [أنواع][٢]: فصبر علـى المصيبة وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية ،فمن صبر على المصيبة حتـى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمـائة درجة ،ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كـما [أمر][٣] الله كـتب الله له ستـمائة درجة، ومن صـبر عن المعصية خوفًا من الله ورجاء ما عنده كتب الله له تسعمائة درجة[٤] .

وقال ميمون بـن مهران: الصبر صبران فالصـبر على المصيبة حسـن وأفضل منه الصبر عن المعصية .

وقال الفضيل فـى قوله تعالى : ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد:٢٤] ، ثم قال: صبروا على ما أمروا به وصـبروا عما نهوا عنه وكأنه جعل الصبر عـلى المصيبة داخلا فى قسم المأمور به والله سبحانه أعلم .

* * * *

---

(١) في أ : النفوس المحرقة ويسألوني .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) في أ : أمره .
(٤)

الباب الخامس عشر
فى ذكر ما ورد فى الصبر من نصوص الكتاب العزيز

قال الإمام أحـمد رحمه اللـه: ذكر الله سبـحانه الصبـر فى القرآن فى تـسعين موضعًا [انتهى][١]. ونحن نذكر الأنواع التى سيق فيها الصبر وهى عدة أنواع :

أحدها : الأمر به كـقوله: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧] ، ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور :٤٨] .

الثانى: النهى عما يـضاده كقوله : ﴿وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف :٣٥] وقوله: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران:١٣٩] وقوله: ﴿وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم : ٤٨]، وبالجملة فكل ما نهى عنه ، فإنه يضاد الصبر المأمور به .

الثالث : تعليق الفلاح به كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فعلق الفلاح بمجموع هذه الأمور .

الرابع: الإخبار عن مضاعفة أجر [الصابر][٢] على غيره كقوله: ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص:٥٤] وقوله : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] قال سـليمان بـن القاسم : كـل عمل يـعرف ثوابه إلا الـصبر، قال الـله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال: كالماء المنهمر

الخامس: تعليق الإمامة فى الدين به وباليقين قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] ، فبالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين .

السادس : ظفرهم بمعية الله سبحانه [لهم][٣] قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣] قال أبو على الدقـاق : « فاز الصابرون بعز الدارين لأنهـم نالوا من الله معيته ».

السابع: أنه جمع لـلصابرين ثلاثـة أمور لم يجمعهـا لغيرهم وهى الـصلاة منه عليهم، ورحـمته لهم، وهدايته إياهـم ،قال تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧] وقال بعض السلف، وقد عزى عـلى مصيبة نالته ،

---
(١) زيادة ليست في أ . (٢) في ط و ب : الصابرين .
(٣) سقط من أ .

فقال : ما لى لا أصبر، وقد وعدنى الله على الصبر [عليها][١] ثلاث خصال ،كل خصلة منها خير من الدنيا وما عليها [ق/ ٣٤أ].

الثامن : أنه سبحانه جعل الصبر عونًا وعدة وأمر بالاستعانة [به][٢] : فقال : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة:٤٥] فمن لا صبر له لا عون له .

التاسع: أنه سبحانه علق النصر بالصبر والتقوى فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران:١٢٥] ولهذا قال النبي ﷺ : « **واعلم أن النصر مع الصبر** »[٣] .

العاشر: أنه سبحانه جعل الصبر والتقوى جنة عظيمة من كيد [العدو ومكره][٤] : فمن استجن العبد من ذلك بجنة أعظم منهما ، فقال تعالى : ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠] .

الحادي عشر: أنه سبحانه أخبر أن ملائكته تسلم عليهم فى الجنة [بصبرهم][٥] كما قال تعالى : ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد :٢٣ ، ٢٤] .

الثانى عشر : أنه سبحانه أباح لهم أن يعاقبوا على ما عوقبوا به، ثم أقسم قسمًا مؤكدًا غاية التأكيد أن صبرهم خير لهم فقال : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦] . فتأمل هذا التأكيد بالقسم المدلول عليه بالواو ثم باللام بعده ثم باللام التى فى الجواب .

الثالث عشر : أنه سبحانه رتب المغفرة والأجر الكبير على الصبر والعمل الصالح فقال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود :١١] ، [فهؤلاء][٦] ثنية الله من نوع الإنسان المذموم الموصوف باليأس والكفر عند المصيبة، والفرح والفخر عند النعمة ،ولا خلاص من هذا الذم إلا بالصبر والعمل الصالح، كما لا تنال المغفرة والأجر [الكبير][٧] إلا بهما .

---

(١) سقط من ط و ب . (٢) سقط من أ .

(٣) أخرجه أحمد (٢٨٠٤) والحاكم (٦٣٠٣) والطبراني في الدعاء (٤١) والبيهقي في الشعب (١٠٤٣) . قال الهيثمي : رواه الطبراني وفيه عليّ بن أبي عليّ القرشي وهو ضعيف . انظر مجمع الزوائد (٧/ ٣٩١) وصححه الألباني . انظر الجامع الصغير (١١٧٥٢) والسلسلة الصحيحة (٢٣٨٢) .

(٤) في أ : الأعداء ومكرهم . (٥) سقط من ط و ب .

(٦) في ط و ب : وهؤلاء . (٧) في أ : الكثير .

الرابع عشر : أنه سبحانه جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور: أى مما يعزم [عليه](١) من الأمور التى إنما يعزم علـى أجلها وأشرفها فقال : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى :٤٣] . وقال لقمـان لابنه: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧] .

الخامس عشر: أنه سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والـظفر، وهى كلمته التى سبقت لهم وهى الكـلمة الحسنى وأخبر أنه إنمـا أنالهم ذلك بالصبر، فـقال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [الأعراف:١٣٧] .

السادس عشر : سبحانه علق محبته بالـصبر وجعلها لأهله، فقال : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦] .

السابع عشر: أنه سبحانه أخبر عن خصال الخـير: إنه لا يلقاها إلا الصابرون فى موضعين من كتابه، فى سورة القصص فـى قصة قارون ،وإن الذين أوتوا العلم قالوا للذين تمنوا [مثل](٢) ما أوتى قارون : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص:٨٠] وفي سورة حم السجدة ،حيـث أمر العبد أن يدفع بالتى هى أحسن ، فإذا فعل ذلك صار الذى بـينه وبينه عداوة كأنه [ولى حميم](٣) ، ثم قال: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥] .

الثامن عشر: أنه سبحانه أخبر أنه إنما لا ينتفع بآياته ويتعظ بها إلا الصبار الشكور فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥] ، [وذكر مـثل ذلك فى آخـر سورة لقمان](٤): ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان:٣١] . وقال تعالى فى قصة سبأ : ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ :١٩] وقال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فهذه أربعة مواضع فى القرآن ، تدل على أن آيات الرب ، إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر.

التاسع عشر : أنه أثنى على عبده أيوب بأحسـن الثناء على صبره، فقال: ﴿ إِنَّا

---

(١) سقط من أ .

(٢) سقط من أ .

(٣) في ط و ب : حبيب قريب.

(٤) في ط و ب : وقال تعالى في لقمان .

وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [الشورى :٣٣] فأطلق عليه قوله : ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾ بكونه وجده صابرا وهذا يدل على أن من لم يصبر إذا ابتلى فإنه بئس العبد.

العشرون : أنه سبحانه حكم بالخسران حكما عاما على كل من لم يكن من أهل الحق [ق/ ١٣٥أ] والصبر ، وهذا يدل على أنه لا رابح سواهم، فقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ولهذا قال الشافعى : [لو أن الناس أخذوا هذه الآية وفكروا فيها لوسعتهم][1]، وذلك أن العبد كماله فى تكميل قوتيه : قوة العلم، وقوة العمل، وهما الإيمان والعمل الصالح، وكما هو محتاج إلى تكميل نفسه فهو محتاج إلى تكميل غيره، وهو التواصى بالحق والتواصى بالصبر وأخية ذلك كله وقاعدته وساقه الذى يقوم عليه إنما هو الصبر .

الحادى والعشرون: أنه سبحانه خص أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والمرحمة الذين قامت بهم هاتان الخصلتان ووصوا بهما غيرهم، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ⑰ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد:١٧ ، ١٨] وهذا حصر لأصحاب الميمنة فيمن قام به هذان الوصفان والناس بالنسبة إليهما أربعة أقسام هؤلاء خير الأقسام، وشرهم من لا صبر له ولا رحمة فيه ،ويليه من له صبر ولا رحمة عنده، ويليه القسم الرابع وهو من له رحمة ورقة ولكن لا صبر له .

الثانى والعشرون: أنه سبحانه قرن الصبر بأركان الإسلام ومقامات الإيمان كلها : فقرنه بالصلاة كقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة:٤٥] وقرنه بالأعمال الصالحة عموما كقوله ﴿إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود:١١] وجعله قرين التقوى كقوله: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [يوسف: ٩٠] وجعله قرين الشكر كقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم : ٥] وجعله قرين الحق، كقوله : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] [وجعله قرين الرحمة ، كقوله : ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:١٧] [وجعله قرين اليقين، كقوله :﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]] [2]وجعله قرين الصدق، كقوله : ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] وجعله سبب محبته ومعيته وعونه ونصره وحسن ثوابه ، ويكفيه بعض ذلك شرفا وفضلا. والله أعلم .

---

(١) في ط و ب : لو فكر الناس كلهم في هذه الآية لوسعتهم .

(٢) سقط من أ .

الباب السادس عشر
فى ذكر ما ورد فيه من نصوص السنة

فى الصحيحين(١) من حديث أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكـى على صبى لها، فـقال لها : «**اتقى اللـه واصبرى**»، فقالت: ومـا تبالى بمصيبتى فلما ذهب قيل لها: إنه رسول الله ﷺ فأخذها مثل الموت فأتت بابه فلم تجد [على بابه](٢) عليه بـوابين، فقالت: يا رسول لم أعـرفك، فقال: « **إنما الصبـر عند أول صدمة** » ، وفي لفظ: «**عند الصدمة الأولى**» .

وقوله: « [**الصبر**](٣) **عند الصدمة الأولى**» . مثل قوله: « **ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملـك نفسه [عند](٤) الغضب** » (٥) فإن مفاجآت المصـيبة [بغتة](٦) لها روعة تزعـزع القلب وتزعجه [بصـدمتها](٧)، فإن صبـر للصدمة الأولى انـكسر حدها وضعفت قوتها فـهان عليه استدامة الصبر. وأيضًا فإن المصيـبة ترد على القلب وهو غير موطن لـها فتزعجه، وهى الصدمة الأولى وأما إذا وردت عـليه بعد ذلك، فقد توطن لها وعلـم أنه لا بد له منها ،فيصير صبره شبـيه الاضطرار . وهذه المرأة لما علمت أن جزعها لا يجـدى عليها شيئًا جاءت تعتذر إلى رسول الـله ﷺ كأنها تقول له قد صبرت، فأخبرها أن الصبر إنما هو عند الصدمة الأولى .

ويدل على هذا المعنـى ما رواه [سعيد بن زربي](٨) عن محمد بـن سيرين، عن أبى هريرة ﷺ قال: مر الـنبي ﷺ [بالبـقيع](٩) على امرأة [جـاثمة](١٠) على قبر تبكى، فـقال لها : « **يا أمة الـله اتقى اللـه واصبرى** » ، قالت : يا عبـد الله [إنى لحزنى] (١١)ثكلى . قال: «**يا أمة الله اتقـى الله واصبرى**»، [قالت: يا عبد الله لو كنت مصابا عذرتنى قال: «**يا أمة الله اتقى الله واصبرى**»](١٢)، قالت: يا عبد الله قد

---

(١)أخرجه البخاري (١٢٨٣) ومسلم (٩٢٦) .
(٢)في أ : عليه .
(٣)سقط من أ
(٤) في ط و ب : وقت .
(٥)أخرجه البخاري (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة .
(٦)سقط من ط و ب .
(٧)في ط و ب : بصدمها .
(٨)في أ : سعيد بن رزين .
(٩)سقط من ط و ب .
(١٠)في أ : جاثية .
(١١)سقط من ط و ب .
(١٢)سقط من ط و ب .

أسمعت فانصرف عنى، فمضى رسول الله ﷺ واتبعه رجل من أصحابه، فوقف على المرأة، فقال لها : ما قال[ق/٣٦أ] لك الرجل الذاهب؟ قالت: قال لى كذا وكذا، وأجبته بكذا. وكذا قال: هل تعرفينه ؟ قالت: لا. قال: ذلك رسول الله ﷺ. قال : فوثبت مسرعة نحوه حتى انتهت إليه وهى تقول: أنا أصبر أنا أصبر يا رسول الله. فقال: «**الصبر عند الصدمة الأولى، الصبر عند المصيبة الأولى**» .

قال ابن أبى الدنيا : حدثنا بشر بن الوليد الكندى ،وصالح بن مالك، قالا: حدثنا [سعيد بن زربي][1] ،فذكره[2] . فهذا السياق يبين معنى الحديث. قال أبو عبيد: معناه أن كل ذى رزية فإن [مصيره إلى][3] الصبر ولكنه إنما يحمد على صبره عند حدة المصيبة وحرارتها .

قلت: وفي الحديث أنواع من العلم:

أحدها : وجوب الصبر على المصائب، وأنه من التقوى التى أمر العبد بها.

الثانى : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن شكوى المصيبة وشدتها لا تسقط عن الآمر الناهى.

الثالث : تكرار الأمر والنهى مرة بعد مرة حتى تعذر المرء إلى ربه.

الرابع : احتج به على جواز زيارة [النساء للقبور][4]، فإنه ﷺ لم ينكر عليها الزيارة، وإنما أمرها بالصبر ولو كانت الزيارة حرامًا لبين لها حكمها. وهذا كان فى آخر الأمر، فإن أبا هريرة إنما أسلم بعد السنة السابعة. وأجيب عن هذا بأن رسول الله ﷺ قد أمرها بتقوى الله والصبر، وهذا إنكار منه لحالها من الزيارة والبكاء . ويدل عليه أنها لما علمت أن الآمر لها [بذلك رسول الله ﷺ وهو][5] [من][6] تجب طاعته انصرفت مسرعة. وأيضا فأبو هريرة لم يخبر أنه شهد هذه القصة، فلا يدل الحديث على أنها بعد إسلامه . ولو شهدها فلعنته ﷺ لزائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج كان بعد هذا فى مرضه الذى مات. وفي عدم تعريفه لها بنفسه، فى تلك الحال التى لا تملك فيها نفسها ، شفقة منه ورحمة بها، [إذ لو][7] عرفها بنفسه فى تلك الحال فربما لم تسمع منه فتهلك ،وكان معصيتها له وهى لا

---

(١) في أ : سعيد بن رزين .

(٢) أخرجه أبو يعلي (٦٠٦٧) من طريق صالح بن مالك حدثنا أبو عبيدة الناجي حدثنا محمد بن سيرين به .

(٣) في ط و ب : قصاراه . (٤) في أ : القبور للنساء .

(٥) سقط من ط و ب . (٦) في أ : ممن .

(٧) في أ : إذا .

تعلم أنه رسول الله ﷺ أخف من معصيتها له لو علمت [به][١] . فهذا من كمال رأفته [ورحمته][٢] صلوات الله وسلامه عليه.

وفي صحيح مسلم عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله تعالى : إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرًا منها . إلا أخلف الله له خيرًا منها** » قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أى المسلمين خير من أبى سلمة؟! أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ، ثم إنى قلتها فأخلف الله لى رسول الله ﷺ، فأرسل إلى رسول الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعة يخطبنى له ، فقلت: إن لى بنتا وأنا غيور، فقال: أما [بنتها][٣] فأدعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة» فتزوجت رسول الله ﷺ[٤] .

وعند أبى داود[٥] فى هذا الحديث عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « **إذا [أصابت][٦] أحدكم مصيبة فليقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك أحتسب مصيبتى فأجرنى فيها وأبدلنى خيرًا منها** » فلما احتضر أبو سلمة قال: اللهم اخلفنى فى أهلى خيرًا منى فلما قبض قالت أم سلمة: إنا لله وإنا إليه راجعون ، عند الله أحتسب مصيبتى. فانظر عاقبة الصبر، والاسترجاع ،ومتابعة الرسول ،والرضاء عن الله إلى ما آلت إليه وأنالت أم سلمة نكاح أكرم الخلق على الله .

وفي جامع الترمذي ، ومسند الإمام أحمد ،وصحيح ابن حبان، عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله قال رسول الله ﷺ : « **إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم. فيقول :قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجعك. فيقول: ابنوا لعبدي بيتًا فى الجنة وسموه بيت الحمد**»[٧] .

---

(١) سقط من ط و ب . (٢) سقط من ط و ب .

(٣) في أ : ابنتها . (٤) أخرجه مسلم (٩١٨) .

(٥) أخرجه أبو داود (٣١١٩) والترمذي (٣٥١١) وابن ماجة (١٥٩٨) وصححه الألباني . انظر صحيح ابن ماجة (١٢٩٩) .

(٦) في أ : أصاب .

(٧) أخرجه الترمذي (١٠٢١) وأحمد (١٩٧٤٠) وابن حبان (٢٩٤٨) والطيالسي (٥٠٨) وحسنه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (١٤٠٨) .

وفي صحيح البخاري من حديث أنس، أن رسول الله ﷺ قال: « **إذا ابتليت عبدي[بحبيبتيه]** (١) [ق / ٣٧ أ] **ثم صبر، عوضته منهما الجنة ـ يريد عينيه** » (٢) .

وعند الترمذي فى هذا الحديث: « **إذا أخذت كريمتي عبدي فى الدنيا، لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة** » (٣) .

وفي الترمذي أيضاً ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله عز وجل : « **من أذهبت حبيبتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثوابًا بدون الجنة** » (٤) .

وفي سنن [النسائي] (٥) ، من حديث [عبد الله بن عمر] (٦) قال: قال رسول الله ﷺ : « **إن الله سبحانه لا يرضى الله لعبده المؤمن إذا ذهب بصفيه من أهل الأرض [واحتسبه]** (٧) **بثواب دون الجنة** » (٨) .

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **يقول الله عز وجل ما لعبدي المؤمن جزاء إذا قبضت صفيه من أهل [الدنيا]** (٩) **[ثم]** (١٠) **احتسبه إلا الجنة** » (١١) .

وفي صحيحه أيضاً عن عطاء بن أبي رباح ،قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى. [قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت] (١٢) : « يا رسول الله، إني أصرع وإني أتكشف، فادع الله لي. قال: « **إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك، فقالت: أصبر. فقالت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها** » (١٣) .

وفي الموطأ ، من حديث عطاء بن يسار، أن رسول الله ﷺ قال: « **إذا مرض**

---

(١) في ط و ب : في حبيبتيه .
(٢) أخرجه البخاري (٥٦٥٣) .
(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٠٠) وصححه الألباني انظر صحيح سنن الترمذي (١٩٥٨) . .
(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٠١) وأحمد (٧٥٤٣) وصححه الألباني انظر صحيح سنن الترمذي (١٩٥٩) .
(٥) في ط : سنن أبي داود .
(٦) في أ : عبد الله بن عمرو .
(٧) في أ : واحتسب .
(٨) أخرجه النسائي (١٨٧١) من حديث عبد الله بن عمرو وحسنه الألباني . انظر صحيح الجامع (١٨٥١) .
(٩) في أ : الأرض .
(١٠) سقط من أ .
(١١) أخرجه البخاري (٦٤٢٤) .
(١٢) سقط من أ .
(١٣) أخرجه البخاري (٥٦٥٢) ومسلم (٢٥٧٦) .

العبد بعُث الله إليه ملكان فقال: « انظرا ماذا يقول لعواده، فإن هو إذ جاؤوه حمد الله وأثنى عليه، رفعا ذلك إلى الله وهو أعلم ، فيقول: إن لعبدي علي إن توفيته أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أبدله لحمًا خيرًا من لحمه ودمًا خيرًا من دمه، وأن أكفر عنه سيئاته » [١] .

وفي صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه ، عن جده ،قال: قال رسول الله ﷺ : **« إذا جمع الله الخلائق نادى منـاد : أين أهـل الصبـر؟ [قال][٢] : فيقـوم ناس وهم [قليلون][٣]، فينطلقون سراعًا إلى الجنة ،[فتـلقاهم][٤] الملائكة فيقـولون :إنا نراكم سراعًا إلى الجنة، فمن أنتم؟ فيقولون: نحـن أهل الفضل. فيقولون : ما كان فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظلمنا صبرنا، وإذا أسيء إلينـا عفونا ، وإذا جهل علينا حلمنا، فيقال لهم: ادخلوا الجنة، فنعم أجر العاملين »** [٥] .

وفي [الصحيحين][٦] :« أن رسول الله ﷺ قسم مالا، فـقال بعض الناس: هذه قسمة [ما][٧] أريد بها وجه الـله ، فأخبر بذلك رسول الـله ﷺ فقال: **« رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر »** [٨] .

وفي الصحيحين من حديث الزهري ،عن عروة، عن عائشة ﵂ ، قالت: قال رسول الله ﷺ : **« ما مـن مصيبـة تصيـب المسلـم إلا كفر اللـه بها [عـنه][٩] حتى الشوكة يـشاكها »**[١٠] . وفيهما[١١] أيضًا من حـديث أبي سعيد وأبـي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: **« ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه »** .

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١٦٨٢) . قال الألباني ـ رحمه الله ـ : وهذا سنده مرسل صحيح . انظر السلسلة الصحيحة (١/ ١٢٣) .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) في أ : قليل .
(٤) في أ : فتتلاقهم .
(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٨٠٨٦) وأبو نعيم فـي الحلية (٣/ ١٣٩) وابن أبي الدنيا في الحلم (٥٦) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الترغيب والترهيب (١٦١٦) .
(٦) في أ : الصحيح .
(٧) في أ : لا .
(٨) أخرجه البخاري (٣٤٠٥) ومسلم (١٠٦٢) من حديث ابن مسعود .
(٩) في أ : عن صاحبها .
(١٠) أخرجه البخاري (٥٦٤٠) ومسلم (٢٥٧٢) .
(١١) أخرجه البخاري (٥٦٤١) ، (٥٦٤٢) ومسلم (٢٥٧٣) .

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة، عن النبي ﷺ أنه قال: « **لا يصيب المؤمن [من]**[(١)] **شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة** » [(٢)] .

وفي المسند من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « **لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة فى جسده وفي ماله وفي ولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة** » [(٣)].

وفي الصحيح من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ، أي الناس أشد بلاء ؟ فقال: « **الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل. يبتلى الرجل على حسب دينه ،فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه، وإن كان فى دينه رقة خفف عنه وما يزال البلاء [بالمؤمن]**[(٤)] **حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة** » [(٥)] .

وفي الصحيحين ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك وعكاً شديدًا [ق/٣٨أ]، قال: فقلت: يا رسول الله، إنك لتوعك وعكًا شديدًا قال: «**أجل إني لأوعك كما يوعك رجلان منكم**، قلت: إن لك لأجرين؟ . **قال: نعم، والذى نفسى بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله عنه به خطاياه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها** » [(٦)] .

وفي الصحيحين أيضًا من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: « ما رأيت الوجع [على أحد] [(٧)]أشد منه على رسول الله ﷺ » [(٨)] .

وفي بعض المسانيد مرفوعًا : « **إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل، حتى يبتلى ببلاء فى جسمه فيبلغها بذلك** » [(٩)] .

ويروى عن عائشة رضى الله عنها عنه ﷺ : «**إذا اشتكى المؤمن أخلصه ذلك**

---

(١) سقط من أ .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٢) .

(٣) أخرجه أحمد (٧٨٤٦) ، (٩٨١٠) والترمذي (٢٣٩٩) وابن حبان (٢٩١٣) والحاكم (١٢٨١) والبيهقي في الكبرى (٦٣٣٥) ، وصححه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (٢٢٨٠) .

(٤) في أ : العبد .

(٥) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨) وابن ماجة (٤٠٢٣) وأحمد (١٤٨١) ، (١٤٩٤)، (١٥٥٥) ، (١٦٠٧) والحاكم (١٢١) والبيهقي في الكبرى (٦٣٢٦) وابن حبان (٢٩٠١) ، والطيالسي (٢١٥) وابن أبي شيبة في مصنفه (٣/ ٢٣٣) والدارمي (٢٧٨٣) وصححه الألباني . انظر صحيح الجامع (٩٩٣) .

(٦) أخرجه البخاري (٥٦٤٨) ومسلم (٢٥٧١) .

(٧) سقط من ط و ب .

(٨) أخرجه البخاري (٥٦٤٦) ومسلم (٢٥٧٠) .

(٩) أخرجه أبو يعلي (٦٠٩٥) وابن حبان (٢٩٠٨) وصححه الألباني . انظر صحيح الجامع (١٦٢٥) .

من الذنوب كما يخلص الكير الخبث من الحديد » [١] .

وفي صحيح البخارى من حديث خباب بن الأرت قال: « شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد ببردة له فـى ظل الكعبة ،فقلنا : ألا تستنصـر لنا ، ألا تدعو لنا ؟ فقال: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيـوضع على رأسـه فيجعـل نصفين ،ويمـشط بأمشـاط الحديد ما دون لحـمه وعظمـه ما يصده ذلك عـن دينه. واللـه ليتمن الـله هذا الأمر حتـى يسير الـراكب من صـنعـاء إلـى حـضرمـوت لا يـخـاف إلا اللـه والـذئب عـلـى غـنمـه ، ولـكـنكـم تستعجلون**»[٢] .

وفي لفظ للبخارى أتيت رسول الله ﷺ وهـو متوسد بردة فى ظل الكعبة، وقد لقينـا من المشركين شدة ، [فـقلت][٣]: ألا تدعو اللـه ؟ فقعد وهو محـمر وجهه، فقال: «**لقد كان الرجل ليمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه**»[٤] .

وقد حمل [بعض][٥] أهل العلـم قول خباب: شكونا إلى رسـول الله ﷺ حر الرمضاء فلم يشكنا [٦] على هذا المحمل ، وقال: شكوا إلـيه حر الرمضاء الذى كان يصيب جـباههم وأكفهم من تـعذيب الكفار فلم يـشكهم ،وإنما دلهم علـى الصبر . وهذا الوجه أنسب من تفـسير من فسر ذلك بالسجود على الرمـضاء، واحتج به على وجوب مباشرة المصلى بالجبهة [الأرض][٧] لثلاثة أوجه :

أحدها : أنه لا دليل فى اللفظ على ذلك .

الثانى : أنهم قد أخبروا أنهم كانوا مع النـبي ﷺ ، فكان أحدهم إذا لم يستطع أن يسجد على الأرض بسط ثوبه فسجد عليـه، والظاهر أن هذا يبلغه ويعلم به ،وقد أقرهم عليه .

الثالث: أن شدة الحر فى الحجاز تمنع من مباشرة الجبهة والكف للأرض، بل يكاد

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص/١٤٦) والقضاعي في مسند الشهاب (١٤٠٦) ، (١٤٠٧) وابن حبان (٢٩٣٦) والطبراني فـي الأوسط (٤١٢٣) ، (٥٣٥) وابن أبي الدنيا في المـرض والكفارات (٣٠) ، (٢٣٥) وعبد بن حميد في المنتخب (١٤٨٧) وصححه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (١٢٥٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٢) .

(٣) في ط و ب : فقلنا .

(٤) أخرجه البخاري (٣٨٥٢) .

(٥) سقط من ط و ب .

(٦) أخرجه مسلم (٦١٩).

(٧) سقط من أ .

يشوى الوجه والكف فلا يتمكن من الطمأنينة فى السجود ، ويذهب خشوع الصلاة، ويتضرر البدن، ويتعرض للمرض، والشريعة لا تأتى بهذا ، فتأمل رواية خباب لهذا والذى قبله ، واجمع بين اللفظين والمعنيين، والله أعلم، ولا تستوحش من قوله: «فلم يشكنا»، فإنه هو معنى إعراضه عن شكايتهم وإخباره لهم بصبر من قبلهم، والله أعلم .

وفي الصحيح من حديث أسامة بن زيد، قال: أرسلت [ابنة](١) النبي ﷺ إليه، أن ابنًا لى احتضر فائتنا ، فأرسل يقري السلام ويقول : «**إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شىء عنده بأجل مسمى ،فلتصبر ولتحتسب** » ، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع الصبى إلى رسول الله [ﷺ](٢)، فأقعده فى حجره ،ونفسه تقعقع كأنها [في](٣) شن ، ففاضت عيناه، فقال سعد : يا رسول الله ﷺ ما هذا قال: «**هذه رحمة جعلها الله فى قلوب من يشاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»(٤).

وفي سنن النسائى ، عن ابن عباس قال: احتضرت [ابنة](٥) لرسول الله ﷺ صغيرة فأخذها رسول الله ﷺ ، وضمها إلى صدره ، ثم وضع يده عليها وهى بين يدى رسول الله ﷺ فبكت أم أيمن ، فقلت [ق/ ٣٩أ] لها : أتبكين ورسول الله ﷺ عندك فقالت: مالى لا أبكى ورسول الله ﷺ يبكى فقال رسول الله ﷺ : « **إنى لست أبكى ولكنها رحمة** » ثم قال رسول الله ﷺ : « **المؤمن بخير على كل حال تنزع نفسه من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل** » (٦).

وفي صحيح البخارى من حديث أنس رضي الله عنه، قال: اشتكى ابن لأبى طلحة فمات ،وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئًا [وسجته](٧) فى جانب البيت ،فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح، فظن أبو طلحة أنها صادقة، [قالت](٨) : فبات معها

---

(١) في أ : بنت . (٢) زيادة من أ .
(٣) سقط من أ . (٤) أخرجه البخاري (٥٦٥٥) ومسلم (٩٢٣) .
(٥) في أ : بنت .
(٦) أخرجه النسائي (١٨٤٣) وأحمد (٢٧٠٤) والبزار في كشف الأستار (٨٠٨) وصححه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (١٦٣٢) .
(٧) في أ : ونحته . (٨) سقط من أ .

فلما أصبح اغتسل فلما أراد أن يخرج أعـلمته أنه قد مات فصلى مع رسول الله ﷺ ثم أخـبره بما كان مـنهمـا فقال: رسول الـله ﷺ « **لعـلَّ اللـه أن يبارك لـكمـا فى ليلتكما**»(١) قال ابن عيينة: فقال رجل من الأنصـار: فرأيت له تسعة أولاد كلهم قد [قرأوا](٢) القرآن .

وفي موطـأ مالك ، عن القاسـم بن محمد ،قـال: «هلكت امرأة لى، فـأتانى محمد بن كعب القرظـى يعزينى [فيها](٣)، فقال: إنه قد كان فى بنى إسرائيل رجل فقيه عـابد، عالم مجتهد، وكـانت له امرأة وكان بها معـجبًا ، فماتت فوجد عـليها وجدًا شديدًا ،حتـى خلا فى بيت وأغلق علـى نفسه ، واحتجب عن الـناس ، فلم يكن يدخل عليه أحد ثم إن امرأة من بنى إسـرائيل سمعت به ، فجاءته فقالت: إن لى إليه حاجة أستفتيه فيها ليس يـجزينى إلا أن أشافهه بها . فذهب الناس ، ولزمت الباب، فأخبـر، فأذن لها، فقالت: أستـفتيك فى أمر. قال: وما هـو ؟ قالت: إنى استعرت من جارة [لي](٤) حليًا ، فكنت ألبسه وأعـيره زمانًا ،ثم [إنهم أرسلت](٥) إلى فيه ، أفأرده [إليها](٦)؟ قال: [نعم والله](٧) قالت: والله إنه مكث عندي زمانًا فقال: ذلك أحق لردك إياه فـقالت له : يرحمك الله أفتأسف عـلى ما أعارك الله ثم أخذه منك وهو أحق به منك؟! فأبصر ما كان فيه ونفعه الله بقولها » (٨) .

وفي جامع الترمـذى ،عن شيخ من بنى مرة، قال: قدمت الكـوفة فأخبرت عن بلال ابن أبى بردة ، فـقلت: إن فيه لمعتبـرًا، فأتيته وهو محبـوس فى داره التى كان بنى، وإذا كل شيء منـه قد تغير من العذاب والضرب ،وإذا هو فـى قشاش، فقلت له: الحمد لله يا بـلال، لقد رأيتك تمر بنا ،وأنت تمسك أنفـك من غير غبار، وأنت فى حالتك هذه، فكيف صبرك اليوم؟ فقال: ممن أنت؟ قلت: من بنى مرة بن عباد . قال: ألا أحدثك حديثًا عسى أن ينفعك الله به؟ قال: هات قال: حدثنى أبو بردة عن أبى موسى: أن رسـول الله ﷺ قال: «**لا يصيـب عبدًا نكبـة فما فوقهـا أو دونها إلا بذنب ،وما [يعفو الله عنه](٩)أكثر** » ، قال: وقرأ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠١) ومسلم (٢١٤٤).
(٢) في أ : قرأ .
(٣) سقط من أ .
(٤) سقط من ط و ب .
(٥) في أ : أنهم أرسلوا .
(٦) في أ : إليهم .
(٧) في أ : تقديم وتأخير .
(٨) أخرجه مالك في الموطأ (٤٣) .
(٩) في أ : يغفره .

أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى : ٣٠] (١) .

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ [قال](٢) : كأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى أن نبيًا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: « **اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون** » (٣) فتضمنت هذه الدعوة العفو عنهم، والدعاء لهم، والاعتذار عنهم ، والاستعطاف بقول : « لقومى» .

وفي الموطأ ، من حديث عبد الرحمن بن القاسم، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليعز المسلمين فى مصائبهم المصيبة بى** » (٤) .

وفي الترمذي من حديث يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ : « **[المؤمن](٥) الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم [خير من](٦) الذى لا يخالط الناس ولا [ق/ ٤٠أ] يصبر على أذاهم** » (٧) .

قال الترمذى: كان شعبة يرى أن الشيخ ابن عمر .

وفي الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر**» (٨) .

وفي بعض المسانيد ، عنه ﷺ أنه قال: «**قال الله عز وجل : إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ،ثم استقبل ذلك بصبر جميل، استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانًا أو أنشر له ديوانًا** » (٩) .

وفي جامع الترمذى عنه ﷺ : « **إذا أحب الله قومًا ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط** » (١٠) .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٥٢) وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وضعف الألباني إسناده. انظر ضعيف سنن الترمذي (٦٤٠) .

(٢) سقط من ط و ب .

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٧٧) ومسلم (١٧٩٢) .

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (٤١) وابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٧٥) وابن المبارك في الزهد (٤٦٧) وصححه الألباني .انظر صحيح الجامع (٥٤٥٩) .

(٥) سقط من ب .

(٦) سقط من ب . وفي ط : أعظم أجراً من المؤمن .

(٧) أخرجه الترمذي (٢٥٠٧) وابن ماجة (٤٠٣٢) وأحمد (٥٠٢٢) والبخاري في الأدب المفرد (ص/١١٧) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٦٥) والبيهقي في الكبرى (١٩٩٦١) من حديث ابن عمر . وصححه الألباني . انظر صحيح الجامع (٦٦٥١) والسلسلة الصحيحة (٩٣٩) .

(٨) تقدم تخريجه .

(٩) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١٤٦٢) وقال العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٤/ ٢٩) أخرجه ابن عدي من حديث أنس بسند ضعيف . وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٤٠٤٤) .

(١٠) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) وابن ماجة (٤٠٣١) من حديث أنس . وحسنه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (١٤٦) .

وفي بعض المسانيد عنه ﷺ مرفوعا : « **إذا أراد الله بعبد خيراً صب عليه البلاء صبًا** »[١].

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله ؓ أن رسول الله ﷺ دخل على امرأة فقال: « **مالك [تزفزفين]**[٢]؟ » قالت: الحمى لا بارك الله فيها. قال: « **لا تسبى الحمى، فإنها تذهب خطايا بنى آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد** » [٣].

ويذكر عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « **من وعك ليلة فصبر ورضى عن الله تعالى، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه** » [٤].

وقال الحسن: إنه ليكفر عن العبد خطاياه كلها بحمى ليلة .

وفي المسند وغيره ، عن أبى سعيد الخدرى ؓ ، قال: دخلت على النبي ﷺ وهو محموم ، فوضعت يدى من فوق القطيفة، فوجدت حرارة الحمى، فقلت: ما أشد حماك يا رسول الله ! قال: « **إنا كذلك معاشر الأنبياء يضاعف علينا الوجع ليضاعف لنا الأجر** ». قال: قلت : يا رسول الله ، فأى الناس أشد بلاء ؟ قال: « **الأنبياء** »، قلت: ثم من؟ قال: « **الصالحون، إن كان الرجل ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباء فيجوبها فيلبسها وإن كان الرجل ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل. وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم** »[٥].

وقال عقبة بن عامر الجهنى: قال رسول الله ﷺ: « **ليس من عمل إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: يا ربنا ، عبدك فلان قد حبسته عن العمل. فيقول الرب تعالى :تعالوا اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت** » [٦] .

وقال أبو هريرة: إذا مرض العبد المسلم نودى صاحب اليمين: أن أجر على عبدى صالح ما كان يعمل وهو صحيح . ويقال لصاحب الشمال: أقصر عن عبدى

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٢٢٠) ، وضعفه الألباني . انظر ضعيف الترغيب والترهيب (١٩٨٦) .

(٢) في أ : ترفرفين . (٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٥) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (٨٣) والصبر (١٨٠) والبيهقي في الشعب (٩٨٦٨) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الترغيب والترهيب (٢٠٠٧) .

(٥) أخرجه أحمد (١١٩١٢) وابن ماجة (٤٠٢٤) والحاكم (١١٩) ، (٧٨٤٨) وأبو يعلي (١٠٤٥) والبيهقي في الكبرى (٦٣٢٥) وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠٦٢٦) وابن أبي الدنيا في « المرض والكفارات » (١) وصححه الألباني . انظر صحيح الترغيب والترهيب (٣٤٠٣) .

(٦) أخرجه أحمد (١٧٣٥٤) والطبراني في الكبير (٧٨٢) والحاكم (٧٨٥٥) وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (١٢) ، وصححه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (٢١٩٣) .

ما دام في وثاقي فقال رجل عند أبي هريرة : يا ليتني لا أزال ضاجعًا، فقال أبو هريرة: كره العبد الخطايا . ذكره ابن أبي الدنيا [(١)].

وذكر أيضًا عن هلال بن يساف قال: كنا قعودًا عند عمار بن ياسر، فذكروا الأوجاع، فقال أعرابي: ما اشتكيت قط ،فقال عمار :ما أنت منا أو لست منا،إن المسلم يبتلى ببلاء، فتحط عنه ذنوبه ،كما يحط الورق من الشجر، وإن الكافر ـ أو قال: الفاجر ـ يبتلى ببلية، فمثله مثل البعير إن أطلق لم يدر لم أطلق، وإن عقل لم يدر لم عقل [(٢)].

وذكر عن [أبي][(٣)] معمر الأزدي، قال: كنا إذا سمعنا من ابن مسعود شيئًا نكرهه سكتنا حتى يفسره لنا ، فقال لنا ذات يوم: ألا إن [السقيم][(٤)] لا يكتب له أجر فساءنا ذلك وكبر علينا، فقال: ولكن يكفر به الخطيئة، فسرنا ذلك وأعجبنا [(٥)].

وهذا من كمال علمه وفقهه ﷺ فإن الأجر إنما يكون على الأعمال الاختيارية ومما تولد منها ،كما ذكر الله سبحانه النوعين في آخر سورة التوبة ،في قوله في المباشر من [للإنفاق][(٦)] وقطع الوادي : ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة:١٢١] ، وفي المتولد من إصابة الظمأ والنصب والمخمصة في سبيله وغيظ الكفار: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠] فالثواب مرتبط بهذين النوعين، وأما الأسقام والمصائب، فإن ثوابها تكفير الخطايا، ولهذا قال تعالى : ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] . والنبي ﷺ إنما قال في المصائب: « **كفر الله بها من خطاياه** » ،كما تقدم ذكر ألفاظه ﷺ وكذا قوله: « **المرض حطة** » [(٧)] .

فالطاعات ترفع الدرجات ، والمصائب تحط السيئات. ولهذا قال ﷺ : « **من يرد الله به خيرا يصب منه** » [(٨)] . وقال ﷺ: « **من يرد الله به خيرا يفقهه في** [ق/ ٤١ب] **الدين**»[(٩)]، فهذا يرفعه وهذا يحط خطاياه .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (١٤) ، والبيهقي في الشعب (٩٩٤٨) وصححه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (١٦١١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (١٥) .

(٣) سقط من أ .

(٤) في ط و ب : السقم .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (١٦) .

(٦) في ط و ب : عن الإنفاق .

(٧) الحديث ذكره ابن تيمية في الإيمان (ص/ ٦٣) وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في تحقيقه لهذا الكتاب .

(٨) أخرجه البخاري (٥٦٤٥) من حديث أبي هريرة .

(٩) أخرجه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية .

وقال يزيد بن ميسرة : إن العبد ليمرض المرض وما له عند الله من عمل خير، فيذكره الله سبحانه بعض ما سلف من خطاياه ،فيخرج من عينه مثل رأس الذباب من الدمع من خشية الله، فيبعثه الله إن بعثه مطهراً ، أو يقبضه إن قبضه مطهراً [١].
ولا يرد على هذا حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فى ثواب من قبض الله ولده وثمرة فؤاده بأن يبنى الله له بيتا فى الجنة ويسميه بيت الحمد[٢] [وإنما نال ذلك البيت بحمد الله واسترجاعه ولذلك سمى بيت الحمد][٣].

وقال زياد بن أبي زياد مولى ابن عباس ﵁ وعن أصحاب النبي ﷺ ، قالوا: « دخلنا على النبي ﷺ وهو موعوك (أى محموم) فقلنا :أح أح ! بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله ، ما أشد وعكك ! قال: «**إنا معاشر الأنبياء يضاعف علينا البلاء تضعيفًا**»، قال: قلنا: سبحان الله !قال: «**أفعجبتم إن [كان النبي من الأنبياء ليقتله القمل**»! قلنا: سبحان الله! قال: «**أفعجبتم إن أشد الناس بلاءً الأنبياء ،ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل**»][٤]، قال: قلنا: سبحان الله! قال: « **أفعجبتم إن كانوا ليفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء**» [٥] . أح: بالحاء المهملة، وهو المعروف من كلامهم . ومن قال: بالخاء المعجمة فقد غلط.

وذكر النسائى[٦]، عن عبيدة بن حذيفة ،عن عمته فاطمة ،قالت: أتيت النبي ﷺ فى نسوة نعوده ،فإذا بسقاء معلقة يقطر ماؤها عليه من شدة ما كان يجد من الحمى ، فقلنا: لو دعوت الله ، يا رسول الله، أن يذهبها عنك؟ فقال: « **إن أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم** » .

وقال مسروق: قالت عائشة ﵂ : ما رأيت أحداً أشد وجعًا من رسول الله ﷺ كان يشدد عليه إذا مرض، حتى [إنه لربما][٧] يمكث خمس عشرة لا ينام ، وكان يأخذه عرق الكلية وهو الخاصرة ،فقلنا :يا رسول الله ، لو دعوت الله فيكشف عنك. قال: « **إنا معاشر الانبياء يشدد علينا الوجع ليكفر عنا** » .

وفي المسند والنسائي ، من حديث أبى سعيد ، قال: قال رجل: يا رسول الله ،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (١٧) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٤٠).
(٢) تقدم تخريجه (٣) سقط من ط و ب . (٤) في أ : تقديم وتأخير .
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٥) وصححه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (٤٧ :٢) .
(٦) أخرجه النسائي في الكبرى (٧٤٨٢) ، (٧٦١٣) وأحمد (٢٧١٢٤) والحاكم (٨٢٣١) وابن سعد في الطبقات (٨/ ٣٢٥ـ ٣٢٦) وحسنه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (١٤٥).
(٧) في أ : ربما .

أرأيت هذه الأمراض التى تصيبنا [ما](١) لنا بها ؟ قال: «**كفارات**»، فقال أبى بن كعب: يا رسول الله ، وإن قلت ؟ قال: « **شوكة فما فوقها** » . قال: فدعا أبى بن كعب على نفسه عند ذلك أن لا يفارقه الوعك حتى [يموت](٢) ولا يشغله عن حج ولا عمرة ولا جهاد فى سبيل الله وصلاة مكتوبة فى جماعة، قال: فما مس رجل جلده بعدها إلا وجد حرها حتى مات(٣) .

وقال: [عبد الله بن عمرو](٤) قال رسول الله ﷺ : «**إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة ، ثم مرض، قيل للملك الموكل به: اكتب له مثل عمله إذا كان طلقًا حتى أطلقه أو [أكفته إلىّ](٥)» [يقال](٦): ناقة طلق ، بضم الطاء واللام. إذا حل عقالها ، ويقال: [كفته](٧) إليه : إذا ضمه إليه ذكره ابن أبى الدنيا** » (٨) .

وذكر أيضًا(٩) ، عن أبى أمامة الباهلى، قال: قال رسول الله ﷺ :« **إن الله ليجرب أحدكم بالبلاء وهو أعلم به كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار. فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز ، فذلك الذى نجاه الله من السيئات . ومنهم من يخرج كالذهب دون ذلك، فذلك الذى شك بعض الشك .ومنهم من يخرج كالذهب الأسود، فذلك الذى قد افتتن**».

وذكر أيضًا(١٠) من مراسيل الحسن البصرى عن النبي ﷺ :« **إن الله ليكفر عن المؤمن خطاياه كلها بحمى ليلة**».

قال ابن أبى الدنيا: قال ابن المبارك : هذا من الحديث الجيد .

قال: « وكانوا يرجون فى حمى ليله كفارة ما مضى من الذنوب ».

وذكر(١١) عن أنس أن رسول الله ﷺ دخل على رجل وهو يشتكى ، فقال:

---

(١) في أ : ماذا . (٢) في أ : يوعك .

(٣) أخرجه أحمد (١١١٩٩) والنسائي في الكبرى (٧٤٨٩) وأبو يعلي (٩٩٥) و ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (١٠) وصححه الألباني . انظر صحيح الترغيب والترهيب (٣٤٣٣) .

(٤) في أ : عبد الله بن عمر (٥) في أ : ألفيه .

(٦) سقط من ط و ب . (٧) في أ : لفيه .

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٢٦) وأحمد (٦٨٩٥) وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠٣٠٨) والبيهقي في الكبرى (٦٣٣٨) وصححه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (١٢٣٢) .

(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٢٧) والحاكم (٧٨٧٨) والطبراني في الكبير (٧٦٩٨) .وضعفه الألباني . انظر السلسلة الضعيفة (٤٩٩٥) .

(١٠) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٢٨) . قال الألباني ـ رحمه الله ـ : منكر مرسل . انظر ضعيف الترغيب والترهيب (٢٠٠٦) .

(١١) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٣٠) وضعفه الألباني . انظر الجامع الصغير وزيادته (١٠٨٣).

« قل: اللهم إنى أسألك تعجيل عافيتك ، وصبراً على بليتك ،وخروجًا من الدنيا إلى رحمتك» .

وقالت عـائشة ﵂ :قال رسول الله ﷺ :« **إن الحمى تحط الخطايا كما تحط الشجرة ورقها** » (١) .

وقال أبو هريرة ،وقد عاد مريضًا ، فقال له : إن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله عز وجل يقول : هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن فى الدنيا [لتكون](٢) حظه من النار فى الآخرة** » (٣) .

وقال مجاهد: الحمى [ق/ ٤٢أ] حظ كل مؤمن من النار، ثم قرأ : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم :٧١] . وهذا لم يرد به مجاهـد تفسير الورود الذى فى القرآن، فإن السياق يأبى حمله على الحمى قطعًا، وإنما مراده أن الله سبحانه وعد عباده كلهـم بورود النار فالحمى للمؤمـن تكفر خطاياه فيسهـل عليه الورود يوم القيامة فينجو منها سريعًا والله أعلم . ويدل عليه حديث أبى ريحانة عن النبي ﷺ: «**الحمى كير من كير جهنم، وهى نصيب المؤمن من النار**» (٤).

و[قد](٥) قال أنس ﵁: قال رسول الله ﷺ:« **مثل المؤمن إذا برأ وصح من مرضه كمثل البردة تقع من السماء فى صفائها ولونها**» **ذكره ابن أبى الدنيا** (٦) .

وذكر ابن أبى الدنيا أيضًا عن أبى أمامة يرفعه:« **ما من مسلم يصرع صرعة من مرض إلا بعث منها طاهراً** » (٧) .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٣٢) .

(٢) في ط و ب : لتكون .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٨٨) وابن ماجة (٣٤٢٠) وأحمد (٩٦٧٤) والحاكم (١٢٧٧) وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (١٩) وابن أبي شيبة (١٠٨٠٢) وهناد وفي الزهد (٣٩١) وصححه الألباني. انظر السلسلة الصحيحة (٥٥٧) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٢١) والبخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٦٣) وصححه الألباني . انظر صحيح الجامع (٣١٩٠) .

(٥) سقط من ط و ب .

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٢٢) والترمذي (٢٠٨٦) والبزار في كشف الأستار (٧٦٢) وابن عدي في الكامل (٧/ ٧٢) والعقيلي في الضعفاء الكبير (٤/ ٣١٨) وابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ٢٠٠)، (٣/ ٢٠١).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٢٣) والطبراني في الكبير (٧٤٨٥) والطبراني في مسند الشاميين (١٥٩٥) والروياني في مسنده (١٢٧٠) وصححه الألباني . انظر صحيح الجامع (٥٧٤٣) .

وذكر عنه ﷺ : « **مثل المؤمن حين يصيبه الوعك مثل الحديدة تدخل النار فيذهب خبثها ويبقى طيبها** »[١] .

وذكر أيضًا عنه مرفوعًا: «**إن العبد إذا مرض أوحى الله إلى ملائكته: يا ملائكتي أنا قيدت عبدي بقيد من قيودي ،فإن أقبضه أغفر له، وإن أعافه فجسد مغفور لا ذنب له**»[٢].

وذكر عن سهل بن أنس الجهني، عن أبيه ،عن جده ،قال: «دخلت على أبي الدرداء في مرضه ، فقلت : يا أبا الدرداء، إنا نحب أن نصح ولا نمرض. فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إن الصداع والمليلة لا يزالان بالمؤمن وإن كان ذنبه مثل أحد حتى لا يدعان عليه من ذنبه مثقال حبة من خردل**» [٣] . المليلة . فعيلة من التململ، وأصلها من الملة التي يخبز فيها .

وقالت أم سلمة عن النبي ﷺ :« **ما ابتلى الله عبدًا ببلاء، وهو على طريقة يكرهها، إلا جعل الله ذلك البلاء [له]**[٤]**كفارة وطهورًا ما لم ينزل ما أصابه من البلاء بغير الله أو يدعو غير الله [يكشفه]**[٥] » [٦] .

وقال عطيه بن قيس: « مرض كعب، فعاده رهط من أهل دمشق، فقالوا: كيف تجدك يا أبا إسحاق ؟ قال: بخير، جسد أخذ بذنبه إن شاء ربه عذبه وإن شاء رحمه. وإن بعثه بعثه خلقًا جديدًا لا ذنب له » .

وقال سعيد بن وهب : دخلنا مع سلمان الفارسي على رجل من كندة نعوده، فقال سلمان : « إن المسلم يبتلى ، فيكون كفارة لما مضى ومستعتبًا فيما بقى. وإن الكافر يبتلى، فمثله كمثل البعير أطلق فلم يدر لم أطلق، وعقل فلم يدر لم عقل» .

وذكر [٧] أيضًا عن أبي أيوب الأنصاري، قال: « عاد رسول الله ﷺ رجلا من

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٢٤) والحاكم (١٢٨٨) ، (٥٨٢٤) والبيهقي في الكبرى (٦٣٣٦) وصححه الألباني . انظر صحيح الترغيب والترهيب (٣٤٣٩) والسلسلة الصحيحة (١٧١٤) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٢٥) والحاكم (٧٨٧١) والطبراني في الكبير (٧٧٠١) من حديث أبي أمامة . وحسنه الألباني . انظر صحيح الجامع (١٦٧٣) .

(٣) أخرجه أحمد (٢١٧٧٦) ، (٢١٧٨٤) وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٤١) ، (٢١٩) والطبراني في الأوسط (٦٣٤) ، (٣١١٩) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (١٤٨٥) .

(٤) سقط من أ .

(٥) في أ : في كشفه .

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٤٣) .

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٣٤) .

الأنصار وأكب عـليه فسأله ،فقـال: يا نبى الله مـا غمضت منذ سبـع، فقال رسول الله: « **أى أخى اصبر أى أخى اصبـر تخرج من ذنـوبك كما دخـلت فيها** » ، ثم قال: رسول الله ﷺ : « **ساعات الأمراض يذهبن ساعات الخطايا**» .

وفي النسائى(١) ،من حديث أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال لأعرابى: «**هل أخذتك أم ملدم؟**» قال: يا رسول اللـه ، وما أم ملدم ؟ قال: «**حر يكون بين الجلد والدم**» قال: ما وجدت هذا . قال: «**يا أعرابى ، هل وجدت هذا الصداع؟**» قال: يا رسول الله ، ومـا الصداع؟ قال: «**عرق يضـرب على الإنسـان فى رأسه**» ،قال: ما وجدت هذا. فلما ولى قال رسول الله ﷺ : «**من أحب أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا**» .

وقالت أم سليم : مرضت فعادنى رسول الله ﷺ ، فقال: « **يا أم سليم أتعرفين النار والحـديد وخبث الحـديد؟**» قلت : نـعم يا رسول اللـه . قال: «**فأبشرى يا أم سليم، فإنـك إن تخلصى من وجعك هذا تخـلصى منه ،كما تخلص الـنار الحديد من خبثه**» (٢).

وخرج أحد الصحابة زائرًا لرجل من إخوانه، فبلغه أنه شاك قبل أن يدخل عليه، فدخل علـيه فقال: أتيتـك زائرًا و أتيتك عائداً ومـبشراً . قال: كيف جـمعت هذا؟ قال: خرجت وأنا أريد زيـارتك فبلغنى شكاتك فـصارت عيادة ، وأبشرك [ق/ ٤٣أ] بشيء سمعته من رسول الله ﷺ قال: « **إذا سبقت للعبد من الله منزلة لم يبلغها ـ أو قال: لم يـنلها ـ بعمـله، ابتلاه اللـه فى جسده أو فى ولده [أو فـى ماله]**(٣) ، **ثم صبره حتى يبلغه المنزلة التى سبقت له من الله عز وجل**»(٤) .

وقال الحسن ـ وذكـر الوجع : أما والله ما هـو بشر أيام المسلـم ، أيام نورت له فيها مراحله ، وذكر فيها ما نسى من معاده ، وكفر بها عنه من خطاياه .

وقال بعض السلف : لولا مصائب الدنيا [لوردنا](٥) الآخرة مفاليس .

---

(١)أخرجـه البيهـقي في الـكبرى (٧٤٩١) وأحمـد (٨٣٧٦) والبخـاري في الأدب المفرد (ص/ ١٤٦) والحـاكم (١٢٨٣) وصححه الألباني . انظر صحيح الأدب المفرد (٣٨١) .

(٢)أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٣٣) والخطيب في تاريخ بغداد (٣/ ٤١٠) .

(٣)سقط من أ .

(٤)أخرجه أبو داود (٣٠٩٠) وأحمد (٢٢٣٩٢) وأبو يعلي (٩٢٣) وابـن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٣٩) والطبرانـي في الكبير (٨٠١) والبـيهقي في الكبرى (٦٣٣٧) وابـن سعد في الطبقـات (٧/ ٤٧٧) من طريق محمد بن خالد عن أبيه عن جده .وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٥٤٠) .

(٥)في أ : وردنا .

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : انتهى رسول الله ﷺ إلى شجرة فهزها حتى سقط من ورقها ما شاء الله ثم قال: « **المصائب والأوجاع فى إحباط ذنوب أمتى أسرع منى فى هذه الشجرة** » (١).

وذكر ابن أبى الدنيا(٢) ، عن أبى هريرة ﷺ يرفعه: « **ما من مسلم إلا وكّل الله به ملكين من ملائكته لا يفارقانه حتى يقضى الله [فى أمره](٣) بإحدى الحسنيين، إما بموت وإما بحياة ،فإذا قال له العواد: كيف تجدك ؟ قال: أحمد الله أجدنى والله المحمود بخير قال له الملكان : أبشر بدم هو خير من دمك ،وصحة هى خير من صحتك. وإن قال: أجدنى مجهوداً فى بلاء شديد قال له الملكان مخيبين : أبشر بدم هو شر من دمك، وبلاء أطول من بلائك** » .

ولا يناقض هذا قول النبي ﷺ فى وجعه : «**وارأساه** » (٤) ، وقول سعد: يا رسول الله، ﷺ قد اشتد بى الوجع وأنا ذو مال (٥)، وقول عائشة: «وارأساه»(٦) فإن هذا إنما قيل على وجه الإخبار لا على وجه شكوى الرب تعالى إلى العواد، فإذا حمد المريض الله ثم أخبر بعلته لم [تكن](٧) شكوى منه ، وإن أخبر بها تبرمًا وتسخطًا كان شكوى منه فالكلمة الواحدة قد يثاب عليها ،وقد يعاقب بالنية والقصد.

وقال ثابت البنانى: انطلقنا مع الحسن إلى صفوان بن محرز نعوده، فخرج إلينا ابنه وقال: هو مبطون لا تستطيعون أن تدخلوا عليه. فقال الحسن :إن أباك إن يؤخذ اليوم من لحمه ودمه فيؤجر فيه خير من أن يأكله التراب .

وقال ثابت أيضًا : دخلنا على ربيعة بن الحارث نعوده وهو ثقيل فقال: إنه من كان فى مثل حالتى هذه ملأت الآخرة قلبه، وكانت الدنيا أصغر فى عينيه من ذباب.

ويذكر عن أنس عن النبي ﷺ قال: « **إذا مرض العبد ثلاثة أيام خرج من ذنوبه**

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٥٧) وأبو يعلي (٤٢٩٩) والبيهقي في الشعب (٩٨٦٤) وقال الهيثمي : رواه أبو يعلي وفيه جابر الجعفي وهو ضعيف . انظر مجمع الزوائد (٣/ ٢٩) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الترغيب والترهيب (٢/ ١٩٥) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٤٧) .

(٣) في ط و ب : بأمره .

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٦٦) من حديث عائشة .

(٥) أخرجه البخاري (١٢٩٥) ومسلم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٦) أخرجه البخاري (٥٦٦٦) من حديث عائشة .

(٧) في ط و ب : يكن .

كيوم ولدته أمه »(١) . ويذكر عنه ﷺ : « **لا ترد دعوة المريض حتى يبرأ** » (٢) .

وذكر ابن أبى الدنيا (٣)، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ جالسًا فتبسم فقلنا : يا رسول الله، مم تبسمت؟ قال: «**تعجبًا للمؤمن من جزعه من السقم، ولو كان يعلم ماله فى السقم، أحب أن يكون سقيمًا حتى يلقى الله**»، ثم تبسم ثانية، ورفع رأسه إلى السماء. قلنا : يا رسول الله ﷺ مم تبسمت ورفعت رأسك إلى السماء ؟ قال: «**عجبت من ملكين نزلا من السماء يلتمسان عبدًا مؤمنًا كان فى [مصلاه]**(٤) **يصلى فلا يجداه، فعرجا إلى الله فقالا: يا رب عبدك فلان المؤمن كنا نكتب له من العمل فى يوم وليلة كذا وكذا ،فوجدناه قد حبسته فى حبالك ،فلم نكتب له شيئًا من عمله، فقال: اكتبوا لعبدى عمله الذى كان يعمله فى يومه وليلته ، ولا تنقصوا منه شيئًا، فعلى أجر ما حبسته ، وله أجر ما كان يعمل** » .

ويذكر عنه ﷺ : « **من وعك ليلة فصبر ورضى بها عن الله عز وجل، خرج من ذنوبه كهيئة يوم ولدته أمه** » (٥) .

ومن مراسيل يحيى بن [أبى](٦) كثير، قال: فقد رسول الله ﷺ سلمان، فسأل عنه، فأخبر أنه عليل ،فأتاه يعوده ،فقال: «**شفى الله سقمك ،وعظم أجرك،وغفر ذنبك، ورزقك العافية فى دينك وجسمك إلى منتهى أجلك. إن لك من وجعك خلالا ثلاثًا: أما [الأولى]**(٧)**: فتذكرة من ربك يذكرك بها، وأما الثانية: فتمحيص لما سلف من ذنوبك، وأما الثالثة: فادع بما شئت فإن المبتلى مجاب الدعوى** » (٨) .

وقال زياد بن الربيع : قلت لأبى بن كعب: آية من كتاب الله قد أحزنتنى .

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (٥١٩) وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٦١) وضعفه الألباني ، انظر ضعيف الجامع (٧٠٢) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٧٠) من حديث ابن عباس . قال الألباني : موضوع . انظر ضعيف الترغيب والترهيب (٢٠٣١) .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٧٥) والطبراني في الأوسط (٢٣١٧) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٦٧) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٣٦٨٢) .

(٤) في أ : الصلاة .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٨٣) من حديث أبي هريرة . وضعفه الألباني . انظر ضعيف الترغيب والترهيب (٢٠٠٧) .

(٦) سقط من ب .　　(٧) في أ : واحدة .

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٣١) والطبراني في الكبير (٦١٠٦) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٥٣) من حديث سلمان وإسناده ضعيف .

قال: ما هي؟ قلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، قال: ما كنت أراك إلا أفقه مما أرى، [ق/ ٤٤أ] إن المؤمن لا تصيبه عثرة قدم ،ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر .

وسئلت عائشة عن هذه الآية ،فقالت: « ما سألنى عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ، فقال النبي: « **يا عائشة هذه [معاقبة][1] الله تعالى لعبده بما يصيبه من الحمى[والنكبة] [2]والشوكة وانقطاع الشسيع حتى البضاعة يضعها فى كمه فيفقدها فيفزع لها فيجدها فى ضبنه حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج الذهب الأحمر من الكير** » [3] .ضبن الإنسان ما تحت يده [يقال][4] اضطبن كذا : إذا حمله تحت يده .

وقال وهب بن منبه :لا يكون الرجل فقيهًا كامل الفقه حتى يعد البلاء نعمة ويعد الرخاء مصيبة ،وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرخاء وصاحب الرخاء ينتظر البلاء .

وفي بعض كتب الله سبحانه وتعالى: « إن الله ليصيب العبد بالأمر يكرهه، وأنه ليحبه، لينظر كيف تضرعه إليه » .

وقال كعب : أجد فى التوراة لولا أن يحزن عبدى المؤمن لعصبت الكافر بعصابة من حديد لا يصدع أبداً .

وقال معروف الكرخى : إن الله ليبتلى عبده المؤمن بالأسقام والأوجاع، فيشكو إلى أصحابه ، فيقول الله تبارك وتعالى: وعزتى وجلالى ما ابتليتك بهذه الأوجاع والأسقام إلا لأغسلك من الذنوب فلا تشكنى .

وذكر ابن أبى الدنيا [5] أن رجلا قال؛ يا رسول الله ما الأسقام؟ قال :« **أو ما سقمت قط**» قال : لا فقال : «**قم عنا فلست [مؤمنا** »] [6] . [وعن بعض أصحاب

---

(١) هكذا في أ و ب . ووقع في بعض المصادر « متابعة » .

(٢) في ط و ب : والبلية .

(٣) أخرجه النسائي (٢٩٩١) وأحمد (٢٥٨٧٧) والطيالسي في مسنده (١٥٨٤) وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (١٠١) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الترغيب والترهيب (٢٠٠٠) .

(٤) في أ : فيقال .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (١٩٦) وأبو داود (٣٠٨٩) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (١٧٦٧) .

(٦) في أ : منا .

ابن مسعود](١) وقد اشتدت به العلة، فدخل عليه بعض أصحابه [يعوده](٢) ، وأهله [يقولون](٣) له : نفسى فداك ما نطعمك؟ ما نسقيك؟ فأجابها بصوت ضعيف: بليت الحراقيف، وطالت الضجعة ،والله ما يسرنى أن الله نقصنى منه قلامة ظفر(٤) .

وطلق خالد بن الوليد امرأة له ،ثم أحسن عليها الثناء، فقيل له: يا أبا سليمان، لأى شيء طلقتها؟ قال: ما طلقتها لأمر رابنى منها ولا ساءنى ،ولكن لم يصبها عندى بلاء. ويذكر عنه ﷺ: «**ما ضرب على مؤمن عرق إلا كتب الله له به حسنة وحط به عنه سيئة ورفع له به درجة**» (٥) .

ولا ينافي هذا ما قدمناه من أن المصائب مكفرات لا غير، لأن حصول الحسنة إنما هو بصبره الاختيارى عليها وهو عمل منه .

وعاد رجل من المهاجرين مريضًا ، فقال :إن للمريض أربعًا: يرفع عنه القلم، ويكتب له من الأجر مثل ما كان يعمل فى صحته ،ويتبع [المرض](٦) . كل خطيئة من مفصل من مفاصله فيستخرجها ،فإن عاش عاش مغفورًا له، وإن مات مات مغفوراً له ،فقال المريض: اللهم لا أزال مضطجعًا .

وفي المسند عنه ﷺ : « **والذى نفسى بيده ،لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيًرا له إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ،وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن** » (٧) وفي لفظ :« **إن أمر المؤمن كله عجيب إن أصابته سراء شكر فكان خيًرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له** » (٨) .

---

(١) في ط و ب : وكان عبد الله بن مسعود .

(٢) في أ : يعودونه . (٣) في ط و ب : تقول .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (١٩٧) وابن المبارك في الزهد (٤٦٣) وأحمد في الزهد (ص/٣٥٩) وابن سعد في الطبقات (٦/ ١٦٠) .

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (١٢٨٤) وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات (٢٠٧) والطبراني في الأوسط (٢٤٦٠) ، قال الهيثمي : رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن . انظر مجمع الزوائد (٣/ ٣٤) ، وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٥٠٩٣) .

(٦) في أ : المريض .

(٧) أخرجه أحمد (١٨٩٥٩) والطبراني في الكبير (٧٣١٦) ، (٧٣١٧) من حديث صهيب وصححه الألباني في تخريجه على الطحاوية (١١١) .

(٨) أخرجه مسلم (٦٤) بلفظ : « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير ...» .

الباب السابع عشر
فى الآثار الواردة عن الصحابة ومن بعدهم فى فضيلة الصبر

قال الإمام أحمد[١]: حدثنا وكيع، عن مالك بن مغول عن [أبى][٢] السفر، قال: مرض أبو بكر رضى الله عنه فعادوه فقالوا : ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: [قد][٣] رآنى الطبيب، قالوا: فأى شيء قال لك؟ قال: إنى فعال لما أريد .

وقال الإمام أحمد [٤]:حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش ،عن مجاهد قال :قال عمر بن الخطاب ﷺ: وجدنا خير عيشنا بالصبر.

وقال أيضًا: أفضل عيش أدركناه بالصبر، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريمًا.

وقال على بن أبى طالب ﷺ :ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا قطع الرأس بار الجسد ،ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له. وقال: الصبر مطية لا تكبو .

وقال الحسن: الصبر كنز من كنوز الخير ،لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبد نعمة، فانتزعها منه فعاضه مكانها الصبر إلا [كان][٥] ما عوضه خيراً مما انتزعه .

وقال ميمون بن مهران : ما نال [ق/ ٤٥أ] أحد شيئًا من [جسيم الخير فما][٦] دونه فما إلا الصبر.

وقال سليمان بن القاسم :كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] . قال: كالماء المنهمر .

وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل وقت [ينظر][٧] فيها، وفيها : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

---

(١) انظر الزهد (ص/١١٣) .
(٢) سقط من ب .
(٣) سقط من أ .
(٤) انظر الزهد (ص/١١٧) .
(٥) سقط من أ .
(٦) في ب : من ختم الخير فما . ووقع في ط : جسيم الخير نبيٌ فمن المثبت .
(٧) في ط و ب : ينظر .

وقال عــمر بن الخطاب ﷺ: «لو كــان الصبــر والشكر بعيــرين لم أبال أيهمــا ركبت».

وكان محمد بن شبرمة إذا نزل به بلاء ،قال :سحابة صيف ثم تنقشع .

وقــال سفــيان بن عــيــينة فى قوله تعــالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [السجدة: ٢٤]. لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوسًا .

وقيل للأحنف بن قيس :ما الحلم؟ قال :أن يصبر على ما يكره قليلاً.

وقال وهب : مكتوب فى الحكمة قصر السفه [النصب][١]، وقصر الحلم الراحة، وقصر الصبر الظفر، وقصر الشيء وقصاراه غايته وثمرته .

وقدم عـروة بن الزبير على الوليــد بن عبــد الملك ومعه ابنه مــحمــد، وكان من أحــسن الناس وجــهًا ،فــدخل [يومــا][٢] على الوليــد فى ثيــاب [موشــاة] [٣] وله غديرتان، وهو يضرب بيده ، فقال الوليد :هكذا يكون فتيان قريش، فعانه فخرج من عنده متوسنًا فوقع فى إصطبل الدواب ،فلم تزل الدواب تطأه بأرجلها حتى مات، ثم إن الأكلة وقعت فى رجل عـروة، فبعث إليه الوليــد الأطباء ،فقالوا: إن لم تقطـعها سرت إلى باقى الجسد فتهلك،فعزم على قطعها ،فنشروها بالمنشار ،فلما صار المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة فـغشى عليه، ثم أفاق والعرق يتحدر على وجهه، وهو يهلل ويكبر، فأخذها وجعل يقلبها فى يده ،ثم قال :أما والذى حملنى عليك إنه ليعلم أنى ما مـشيت بها إلى حرام ،ولا إلى معصـية ولا إلى ما لا يرضى الله .ثم أمر بها فغسلت وطيبت ولفت فى قطيفة ،ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين . فلما قدم من عـند الوليد المدينة ، تلقاه أهل بيتـه وأصدقاؤه يعزونه ،فـجعل يقول : ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف :٦٢] ، ولم يزد عليه ،ثم قال :لا أدخل المدينة، إنما أنا بها بين شامت بنكبـة أو حاسد لنعمة، فمـضى إلى [قصر] [٤] بالعقـيق فأقام هنالك، فلما دخل قصره قال له عيسى بن طلحة: لا أبًا لشانئيك ، أرني هذه المصيبة التي نعزيك [فـيها][٥] فكشف له عن ركبـته، فقال له عـيسى أما والله مـا كنا نعدك للصراع، قد أبقى الله أكثـرك عقلك ولسانك [وسمعك] [٦] وبصرك ويديك وإحدى رجليك، فقال له: [يا][٧] عيسـى ما عزاني أحد بمثل مـا عزيتني به. ولما أرادوا قطع

---

(١) في ط و ب : الغضب .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) في أ : وشى .
(٤) في أ : قصره .
(٥) في أ : عنها .
(٦) سقط من ط و ب .
(٧) سقط من أ .

رجله قالوا له: لو سقيناك شيئًا كيلا تشعر بالوجع فقال: إنما ابتلاني ليرى صبرى، أفأعارض أمره وسئل ابنه هشام: كيف كان أبوك يصنع برجله التي قطعت إذا توضأ؟ فقال: كان يمسح عليها .

وقال الإمام أحمد :حدثنا عبد الصمد ،حدثنا سلام ، قال: سمعت قتادة يقول: قال لقمان وسأله رجل :أى شيء خير ؟ قال :صبر لا يتبعه أذى، قال: فأى الناس خير ؟ قال: الذى يرضى بما أوتى، قال: فأى الناس أعلم؟ قال: الذى يأخذ من علم الناس إلى علمه، قيل : فما خير [الكنز][1] من المال أو من العلم؟ قال: سبحان الله، بل المؤمن العالم الذى إن ابتغى عنده خير وجد ،وإن لم يكن عنده كف نفسه، وبحسب المؤمن أن يكف نفسه.

وقال [حبان][2] بن أبى جبلة: من بث فلم يصبر، ورواه ابن أبى الدنيا مرفوعًا إلى النبي ﷺ [3] وإن صح فمعناه: [من بث][4] إلى المخلوق لا من بث إلى الله .

وقال [حبان][5] بن أبى جبلة أيضًا فى قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:١٨] قال: لا شكوى فيه. ورفعه ابن أبى الدنيا أيضًا[6].

وقال مجاهد : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ، فى غير جزع .وقال عمرو بن قيس: فصبر جميل، قال: الرضا بالمصيبة والتسليم. وقال بعض السلف: فصبر جميل لا شكوى فيه.

وقال همام عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤] ، قال: كظم على [حزن][7] فلم يقل إلا خيرا .

وقال يحيى بن المختار عن الحسن: الكظيم الصبور.

وقال همام عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤] ، أى كميد أى كمد الحزن. وقال الحسن: ما جرعتين أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر، وجرعة غيظ ردها

---

(١) في أ : الكثير .	(٢) في أ : حسان .

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠٠٤٧) والرازي في الفوائد (١١٠١) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٢٥٥٩) .

(٤) سقط من ط و ب	(٥) في أ : حسان .

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصبر (١١٠) وإسناده ضعيف .

(٧) في أ : الحزن .

بحلم .

وقال عبد الله بن المبارك : أخبرنا عبد الله بن لهيعة عن عطاء بن دينار أن سعيد ابن جبير قال : « الصبر اعتراف العبد لله بما [أصابه][١] منه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه . وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر» فـقوله: اعتراف العبد لله بما أصاب منه كـأنه تفسيـر لقوله : ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٥٦] ،فيـعتـرف أنه ملك لله يتصرف فـيه مالكه بما يريد . وقوله: [راجـيا به ما عند الله][٢] كأنه تفسـير لقوله : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦] ، وأن نرد [إليه][٣] فيـجزينا على صـبرنا ولا يضيع أجر المصيبة، وقوله: وقد يجزع الرجل وهو [يتجلد][٤] أى ليس الصبر بالتجلد وإنما هو حبس القلب عن التسخط علـى المقدور ورد اللسان عن الشكوى، فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر .

وقال يونس بن يزيد سألت ربيـعة بن أبى عبد الرحمن: ما منتـهى الصبر؟ قال: أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه .

وقال قـيس بن الحجاج فى قـول الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً﴾ [المعارج:٥]، قال: أن يكون صاحب المصيبة فى القوم لا يعرف من هو .

وكان شمر إذا عزى مصابا قال: اصبر لما حكم ربك .

وقال أبو عقيل: رأيت سالم بن عبد الله بن عمر بيده سوط وعليه إزار فى موت واقد بن عبدالله بن عمر لا يسمع صارخة ينالها[بالسوط][٥] إلا ضربها .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى مـحمد بن جعفر بن مهـران قال: قالت امرأة من قريش:

أما والذى لا خلد إلا لوجهه ... ومن ليس فى العز المنيع له كفـــو
لئن كان بذر الصبر مرا مذاقه ... لقد [اجتنى][٦] مـن غبـه الثمر الحلو

قال: وأنشدنى عمرو بن بكير :

صبرت [فكان][٧] الصبر خيـر مغبــة ... وهل جـزع يجـدى علىَّ فأجزع
ملكت دموع العين حتى رددتهـــا ... إلى ناظرى فالعين فـى القلب تدمع

---

(١) في أ : أصاب.
(٢) في أ : واحتسابه .
(٣) في ط و ب : عليه .
(٤) في أ : متجلد .
(٥) في أ : السوط .
(٦) في أ : يجتني .
(٧) في أ : وكان .

قال: وأنشدني أحمد بن موسى الثقفي:

نبئت خولة أمس قد جزعـــت من أن تنوب نوائب الدهر

لا تجزعي يا خول [واصبرى](١) إن الكرام بنوا على الصبر

قال: وحـدثني عبد الله بن محـمد بن إسماعـيل التيمي: أن رجلا عـزى رجلا [في](٢) ابنه [ق/ ١٤٧أ] فقال: إنما يستوجب على الله وعـده من صبر لله بحقه، فلا تجمع إلى ما أصبت به من المصيبة الفجيعة بالأجر، فإنها أعظم المصيبتين عليك وأنكى الرزيتين لك والسلام.

وعزى ابن أبي السماك رجلا فقال: عليك بالصبر، فبه يعمل من احتسب، وإليه يصير من جزع.

وقال عمر بن عـبد العزيز: أما الرضا فمنزلة عـزيزة أو منيعة ولكن [قد](٣) جعل الله في الصبـر معولا حسنًا، ولما مـات عبد الملك ابنه، صلى عليه، ثـم قال: رحمك الله لقد كنت لي وزيرًا وكنت لي معينًا. قال: والناس يبكون وما يقطر من عينه دمعة.

وأصيب مطرف بن عبد الله بابن له فأتاه قوم يعزونه، فخرج إليهم أحسن ما كان بشرًا، ثم قال: إني لأستحي من الله أن أتضعضع لمصيبة.

وقال عمـرو بن دينار: قال عبيـد بن عمير: ليس الجـزع أن تدمع العين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيئ والظن السيئ.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني [الحسن](٤) بن عبد العزيز الحروزي: قد مات ابن لي نفيس فقلت لأمه: اتقي الله واحـتسبيه واصبري، فقالت: مـصيبتي أعظم من أن أفسدها بالجزع.

قال ابن أبي الدنيـا: وأخبرني [عـمرو](٥) بن بكير، عن شـيخ من قريش قال: مات الحسن بن الحصين أبو عبيد الله بن الحسن، وعـبيد الله يومئذ قاض على البصرة وأمير، فكثر من يعزيه، فتذاكروا ما يتـبين به جزع الرجل من صبره، فأجمعوا أنه إذا ترك شيئًا مما كان يصنعه فقد جزع.

وقال خالد بن أبي عثـمان القرشي: كان سعيد بن جـبير يعزيني [في](٦) ابني،

(١) في أ: واصطبري.
(٢) في أ: على.
(٣) سقط من ط و ب.
(٤) في أ: الحسين بن عبد العزيز الحروي، وما أثبتناه من ط و ب هو الصواب.
(٥) في ط و ب: عمر والصواب ما أثبتناه.
(٦) في أ: على.

فرآني أطوف بالبيت متقنعًا ،فكشف القناع عن رأسى، وقال: الاستكانة من الجزع .

(فصل)

وأما قول كثير من الفقهــاء من أصحابنا وغيرهم: لا بأس أن يجعل المصاب على رأسه ثوبا يعرف به. قالوا :لأن التعزية سنة ،وفي ذلك تيسير لمعرفته حتى [يعزي](١) ففيه نظر، وأنكره شيخنا ،ولا ريب أن السلف لم يكونوا يفعلون شيئًا من ذلك، ولا نقل هذا [القول](٢) عن أحد من الصحابة والتابعين، والآثار المتقدمة كلها صريحة فى رد هذا القول وقد كره إسحاق بن راهويه أن يتـرك لبس ما عادته لبسه وقال: هو من [الجزع](٣) .

وبالجملة فعادتهم أنهم لم يكونوا يغيرون شيـئًا من زيهم قبل المصيبة ولا يتركون ما كانوا يعملونه ،فهذا كله مناف للصبر. والله سبحانه أعلم .

* * * *

(١) في ط و ب : يعزيه .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) في أ : التسلب .

الباب الثامن عشر
في ذكر أمور تتعلق بالمصيبة من البكاء والندب
وشق الثياب ودعوى الجاهلية ونحوها

فمنها البكاء على الميت ، ومذهب أحمد وأبى حنيفة: [أجازه][١] قبل الموت وبعده، واختاره [أبو][٢] إسحاق الشيرازى. وكرهه الشافعى وكثير من أصحابه بعد الموت، ورخصوا فيه قبل خروج الروح ، واحتجوا بحديث جابر بن عتيك : أن رسول الله ﷺ ، جاء يعود عبد الله بن ثابت ،فوجده قد غلب ،فصاح به فلم [يجب][٣] فاسترجع، وقال:« **غلبنا عليك يا أبا الربيع**»، فصاح النسوة وبكين، فجعل ابن عتيك [ق/ ١٤٨أ] يسكتهن فقال رسول الله ﷺ : «**دعهن فإذا وجب فلا تبكين باكية**»، قالوا: وما الوجوب يا رسول الله؟ قال:« **الموت** » رواه أبو داود والنسائى[٤] .

قالوا : وفي الصحيحين [٥] من حديث ابن عمر :ـ [ﷺ][٦] أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه** ». وهذا إنما هو بعد الموت ،وأما قبله فلا يسمى ميتًا.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ـ أن رسول الله لما قدم من أُحد سمع نساء بنى عبد الأشهل يبكين على هلكاهن، فقال:« **لكن حمزة لا بواكى له**»، فجئن نساء الأنصار فبكين على حمزة عنده فاستيقظ فقال : « **ويحهن أتين هاهنا يبكين حتى الآن! مروهن فليرجعن ولا يبكين على هالك بعد اليوم** » . رواه الإمام أحمد [٧] . وهذا صريح فى نسخ الإباحة المتقدمة .

---

(١) في ط و ب : أجازه . (٢) سقط من أ .

(٣) في أ : يجبه .

(٤) أخرجه أبو داود (٣١١١) والنسائي (١٨٤٦) ومالك في الموطأ (٣٦) والحاكم (١٣٠٠) والبيهقي في الكبرى (٦٩٤٥) ، (٦٩٤٧) وابن حبان (٣١٨٩) ، (٣١٩٠)والطبراني في الكبير (١٧٧٩) وصححه الألباني . انظر صحيح أبي داود (٢٦٦٨) .

(٥) أخرجه البخاري (١٢٨٦) ومسلم (٩٢٨) .

(٦) زيادة من أ .

(٧) أخرجه ابن ماجة (١٥٩١) وأحمد (٥٥٦٣) ، (٥٦٦٦) وأبو يعلي (٣٥٧٦)، (٣٦١٠) والحاكم (١٤٠٧) وابن سعد في الطبقات (٣/ ١٧) . قال الهيثمي : رواه أبو يعلي بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح . انظر مجمع الزوائد (٦/ ١٧٤) وحسنه الألباني . انظر صحيح ابن ماجة (١٢٦٣) .

والفرق بين ما قـبل الموت وبعده: [أنه](١) قبل الموت يرجى فـيكون البكاء عليه حذرًا، فإذا مات انقطع الرجاء وأبرم القضاء، فلا ينفع البكاء .

قال المجوزون: قال جابر بن عـبدالله [رضي الله عنه](٢): أصيب أبى يوم أحد فجعلت أبكى، فجـعلوا ينهوننى ورسول الله ﷺ لا ينهانى ،فجعلت عـمتى فاطمة تبكى فقـال النبي ﷺ: « **تبكين أو لا تبكين ،مـا زالت الملائكة تظله بأجنحـتهـا حتى رفعتموه** ». متفق عليه (٣) .

وفي الصحيحين(٤) أيضًا : عن ابن عمر [رضي الله عنه](٥) قال: اشتكى سعد ابن عبادة شكوى له، فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عـبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن مسعود فلما دخل عليه وجده فى [غشية](٦) فقال : « **قد قضى؟** قالوا :لا يا رسول الله، فبكى رسول اللـه ﷺ، فلما رأى القوم بكاءه بكوا ، فقال: **ألا تسـمعـون؟ إن الله لا يعـذب بدمع العين ولا بحـزن القلب ، ولكن يـعذب بهـذا** (وأشار إلى لسانه) **أو يرحم** » .

وفي الصحيحين(٧) أيضًا ،من حديث أسامة بن زيد: « أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته ولها صـبى فى الموت ،فرفع إليه الصبى ونفسه تقعـقع كأنها فى شنة ففاضت عـيناه فقال سعد: مـا هذا يا رسول الله؟ قال :«**هذه رحمة جـعلها الله فى قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء** » .

وفي مسند الإمام(٨) أحمد من حديث ابن عباس قـال :ماتت رقية ابنة رسول الله ﷺ ، فبكت النساء ،فجـعل عمر [رضي الله عنه](٩) يضربهن بسوطه ،فقال النبي ﷺ : « **دعهـن يا عمـر يبكين وإياكن ونعيق الشـيطان** » ثم قال:«**إنه مـهما كـان من العين ومن القلب فـمن الله ومـن الرحمـة ، ومـا كـان من اليـد و[من]** (١٠) **اللسان**

---

(١) في أ : أن . (٢) زيادة من أ .
(٣) أخرجه البخاري (١٢٤٤) ومسلم (٢٤٧١) .
(٤) أخرجه البخاري (١٣٠٤) ومسلم (٩٢٤).
(٥) زيادة من أ . (٦) في أ : غشيته .
(٧) أخرجه البخاري (١٢٨٤) ومسلم (٩٢٣) .
(٨) أخرجه أحمد (٣١٠٣) وابن سعد في الطبقات (٨/ ٣٧) وضـعفه الألباني . انظر السلسلة الضعيفة (١٧١٥) وضعيف الجامع (٢٩٨٩) .
(٩) زيادة من أ . (١٠) سقط من أ .

[فمن][١] **الشيطان»** .

وفي المسند[٢] أيضًا ، عن عائشة رضي الله عنها أن سعد بن معاذ لما مات حضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، قالت : فوالذى نفسى بيده إنى لا أعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر وأنا فى حجرتى».

وفي المسند أيضا[٣] يضا عن أبى هريرة [رضي الله عنه][٤] قال: مر [ق/ ٤٩أ] على النبي ﷺ بجنازة يبكى عليها وأنا معه ومعه عمر بن الخطاب ،فانتهر عمر اللاتى يبكين عليها، فقال النبي ﷺ: **«دعهن يا بن الخطاب، فإن النفس مصابة،وإن العين دامعة، والعهد قريب»** .

وفي جامع الترمذى[٥]، عن جابر بن عبد الله [رضي الله عنه][٦]،قال: أخذ النبي ﷺ بيد عبد الرحمن بن عوف، فانطلق إلى ابنه إبراهيم ،فوجده يجود بنفسه، فأخذه النبي ﷺ فوضعه فى حجره فبكى ،فقال له :أتبكى؟ أو لم تكن نهيت عن البكاء؟ قال: **لا، ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين، صوت عند مصيبة خمش الوجوه وشق الجيوب ،ورنة الشيطان»**. قال الترمذى: هذا حديث حسن .

وقد صح عنه ﷺ **أنه زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله**[٧] **وقد صح عنه** ﷺ: **أنه قبل عثمان بن مظعون حتى سالت دموعه على وجهه**[٨].

وصح عنه ﷺ : **أنه نعى جعفراً وأصحابه وعيناه تذرفان**[٩].

وصح عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه **أنه قبل النبي ﷺ وهو ميت وبكى**[١٠] . فهذه

---

(١) في ط و ب : من .

(٢) أخرجه أحمد (٢٥١٤٠) وابن حبان (٧٠٢٨) والطبراني في الكبير (٥٣٣٠) وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٦٧٩٦) وإسحاق بن راهوية في مسنده (١١٢٦) . قال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله ثقات وفي بعضهم خلاف . انظر مجمع الزوائد (٩/ ٥١١) .

(٣) أخرجه أحمد (٧٦٧٧) والنسائي (١٨٥٩) وابن ماجة (١٥٨٧) وضعفه الألباني . انظر ضعيف ابن ماجة (٣٤٦) .

(٤) زيادة من أ .

(٥) أخرجه الترمذي (١٠٠٥) والحاكم (٦٨٢٥) والبيهقي في الكبرى (٦٩٤٣) وصححه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (٢١٥٧) .

(٦) زيادة من أ .

(٧) أخرجه مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة .

(٨) أخرجه أبو داود (٣١٦٣) والترمذي (٩٨٩) وابن ماجة (١٤٥٦) من حديث عائشة وصححه الألباني . انظر صحيح أبي داود (٢٧٠٩) .

(٩) أخرجه البخاري (٣٦٣٠) من حديث أنس بن مالك .

(١٠) أخرجه البخاري (٤٤٥٥) ، (٤٤٥٦) ، (٤٤٥٧) من حديث عائشة وابن عباس

اثنتا عشرة حجة تدل على عدم كـراهة البكاء، فتعين حمل أحاديث النهى على البكاء الذى معـه ندب ونياحـة ،ولهذا جاء فى بعض ألفـاظ حديث عـمر: « **الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه** » وفي بعضها: « **يعذب بما نيح عليه** » [١] وقال البخارى فى صحيحه[٢]: قال عمر: «دعهن يبكين على أبى سليمان ـ يعنى خالد بن الوليد [رضي الله عنه][٣] ـ مـا لم يكن نقع أو لـقلقـة» والنقع: حـثى [التـراب][٤] على الرأس واللقلقة: [الصوت][٥] .

وأما دعـوى النسخ فى حـديث حمزة فـلا يصح، [إذ][٦] معناه لا يبكين على هالك بعد اليوم من قتلى أحد .

ويدل على ذلك أن نصوص الإباحة ،أكثرها متأخرة عن غزوة أحد، منها حديث أبى هريرة ، إذ إسلامـه وصحبتـه كانا فى السنة السابعـة . ومنها البكاء على جعـفر وأصحـابه وكان استشـهادهم [في السنة][٧] الثامنة. ومنهـا البكاء على زينب وكان موتها فى السنة الثامنة أيضًا ،ومنها البكاء على سعد بن معاذ وكان موته فى الخامسة. ومنها البكاء عند قبر أمه ﷺ وكان عام الفتح فى الثامنة .

وقولهم : إنما جاز قبل الموت حذرًا بخلاف ما بعد الموت، جوابه: أن الباكى قبل الموت يبكى حـزنًا وحزنه بعد الموت أشـد ،فهـو أولى برخصة البكاء مـن الحالة التى يرجى فيها، وقـد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: « **تدمع العين ،ويحزن القلب ،ولا نقول ما يسخط الرب ،وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**» [٨].

[(فصل)][٩]

وأما الندب والنياحة : فنص أحمد على تحريمهما ، قال فى رواية حنبل: النياحة معصية. وقـال أصحاب الشافعى وغيرهم: النوح حرام . وقـال ابن عبد البر: أجمع العلمـاء على أن النيـاحة لا تجـوز للرجال ولا للنسـاء .[وقـال بعض المتأخـرين من

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٢) ومسلم (٩٢٧) .
(٢) أخرجه البخاري معلقاً (٣/ ١٩١) قبل حديث رقم (١٢٩١) باب : ما يكره من النياحة على الميت
(٣) زيادة من أ . (٤) في أ : والنقع : التراب على الرأس .
(٥) في أ : الضرب . (٦) في أ : أن .
(٧) في أ : بالسنة .
(٨) أخرجه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس .
(٩) سقط من ط و ب .

أصحاب أحمد: يكره تنزيهًا. وهذا لفظ أبى الخطاب فى الهداية. قال][١]: ويكره الندب، والنياحة ،وخمش الوجوه، وشق الجيوب، والتحفي.

والصواب القول بالتحريم لما فى الصحيحين[٢] من حديث عبد الله بن مسعود [رضي الله عنه][٣]: أن النبي ﷺ قال :« **ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**» .

وفي الصحيحين [٤]أيضًا عن أبى بردة [رضي الله عنه][٥] قال : وجع أبو موسى وجعًا [ق/ ١٥٠أ] فغشى عليه ورأسه فى حجر امرأة من أهله، [فصاحت امرأة من أهله][٦] فلم يستطع أن يرد عليها شيئًا ،فلما أفاق قال: أنا بريء مما برئ منه رسول الله ﷺ ، فإن رسول الله ﷺ برئ من الصالقة والحالقة والشاقة.

وفي الصحيحين [٧]أيضًا عن المغيرة بن شعبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن من ينح عليه يعذب بما نيح عليه**» .

وفي الصحيحين[٨] أيضًا عن أم عطية ،قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ فى البيعة ألا ننوح فما وفت منا امرأة إلا خمس نسوة.

وفي صحيح البخارى[٩] عن ابن عمر [رضي الله عنهما][١٠] أن النبي ﷺ قال: « **الميت يعذب فى قبره بما نيح عليه** » .

وفي صحيح مسلم [١١]، عن أبى مالك الأشعرى [رضي الله عنه][١٢] ، أن النبي ﷺ قال: « **أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب، والطعن فى الأنساب والاستسقاء بالنجوم، والنياحة** » ، وقال : « **النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**» .

وفي سنن أبى داود [١٣]عن أسيد بن أبي أسيد، عن امرأة من المبايعات [رضي

---

(١) سقط من أ

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٧) ومسلم (١٠٣) .

(٣) زيادة من أ .

(٤) أخرجه البخاري (١٢٩٦) ومسلم (١٠٤) .

(٥) زيادة من أ .

(٦) سقط عن أ .

(٧) أخرجه البخاري (١٢٩١) ومسلم (٩٣٣) .

(٨) أخرجه البخاري (١٣٠٦) ومسلم (٩٣٦) .

(٩) أخرجه البخاري (١٢٨٦) .

(١٠) زيادة من أ .

(١١) أخرجه مسلم (٩٣٤) .

(١٢) زيادة من أ .

(١٣) أخرجه أبو داود (٣١٣١) والبيهقي (٦٩١٣) ، وصححه الألباني . انظر صحيح أبي داود (٢٦٨٥) .

الله عنهن](١) ، قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ فى المعروف الذى أخذ علينا أن لا نعصيه فيه: أن لا نخمش وجـهًا، ولا ندعو ويلا ،ولا نشق جيبًا ، ولا ننفش شعرًا.

وفي المسند(٢)، عن أنس قال : أخذ النبي ﷺ علـى النساء حين بايعهن: أن لا ينحن، فقلن : يا رسول الله ، إن نساء أسعدتنا فى الجاهلية، فنسعدهن فى الإسلام؟ فقال: « **لا إسعاد فى الإسلام** » .

وقد تقدم قوله: « **ما كان من اليد واللسان فمن الشيطان** »(٣) وقوله: « **نهيت عن صـوتين أحمـقين فاجـرين ،صوت عنـد مصـيبـة وخمش وجـوه وشق جيـوب ورنة شيطان**» (٤).

وفي مسند الإمام أحمد(٥) من حديث أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال: « **الميت يعذب ببكاء الحى إذا قالت النائحة :واعضداه ،واناصـراه، واكاسياه ،جبذ الميت وقيل له: أنت عضدها، أنت ناصرها ،أنت كاسيها** » .

وفي صحيح البخارى(٦) ،عن النعمان بن بشير [رضي الله عنه](٧)، قال: أغمى على عبد الله بن رواحة فجعلت أخته عـمرة تبكى وتقول: واجبلاه واكذا واكذا تعدد عليه، فقال حين أفاق: ما قلـت لى شيئًا إلا قيل لى : أنت [كذا](٨) ؟ فلما مات لم تبك عليه » .

وكـيف لا تكون هذه الخـصال مـحـرمـة وهى مشـتـملة على التـسـخط على [الرب](٩)، وفـعل ما يناقض الصـبر ،والإضـرار بالنفس: من لطم الوجـه، وحلق الشعر ونتفـه، والدعاء عليها بالويل والثبور ،والتظلم من الـله سبحانه ،وإتلاف المال بشق الثـيـاب وتمزيقهـا، وذكـر الميت بما ليس فـيـه .ولا ريب أن التحـريم الشـديد [يثبت](١٠) [ق/ ٥١أ] ببعض هذا .

---

(١) زيادة من أ .

(٢) أخرجه أحمد (١٣٠٥٥) والنسائي (١٨٥٢) وعبد الرزاق في مصنفه (٦٦٩٠) وابن حبان (٣١٤٦) والبيهقي (٦٩٠٠) وصححه الألباني ، انظر صحيح النسائي (١٧٤٨) .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) أخرجه أحمد (١٩٧٣) وابن ماجة (١٥٩٤) وصححه الألباني . انظر صحيح الجامع (٦٧٤٠) .

(٦) أخرجه البخاري (٤٢٦٧).

(٧) زيادة من أ .

(٨) في أ : كذلك .

(٩) زيادة من أ .

(١٠) في أ : ثبت .

وقال المبيحون لمجرد الندب والنياحة مع كراهتهم له : قد روى حرب عن واثلة ابن الأسقع وأبى وائل [رضي الله عنه] [(١)] أنهما كانا يسمعان النوح ويسكتان.

قالوا : وفي الصحيحين [(٢)] عن أم عطية [رضي الله عنها] [(٣)]، قالت : لما نزلت هذه الآية : **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾** [الممتحنة:١٢] ، كان منها النياحة، فقلت : يا رسول الله إلا آل فلان فإنهم كانوا أسعدونى فى الجاهلية فلابد لى من أن أسعدهم فقال : « **إلا آل فلان**» .

وفي رواية لهما [(٤)] أنها قالت: بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا: **﴿ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾** ،ونهانا عن النياحة ، فقبضت امرأة منا يدها، فقالت :فلانة أسعدتنى فأنا أريد أن أجزيها . قالت: فما قال لها شيئًا، فذهبت فانطلقت ثم رجعت، [فبايعت] [(٥)].

قالوا : وهذا الإذن لبعضهن فى فعله يدل على أن النهى عنه تنزيه لا تحريم ، ويتعين حمله على المجرد من تلك المفاسد جمعًا بين الأدلة .

قال المحرمون : لا تعارض سنة رسول الله ﷺ بأحد من الناس كائنًا من كان ، ولا تضرب سنته بعضها ببعض ،وما ذكرنا من النصوص صحيحة صريحة لا تحتمل تأويلا ، وقد انعقد عليها الإجماع.

وأما المرأة التى قال لها : « **إلا آل فلان** » والمرأة التى سكت عنها ،فذلك خاص بهما لوجهين:

أحدهما: أنه قال لغيرهما لما سألته ذلك: « **لا إسعاد فى الإسلام** » .

والثانى : أنه أطلق لهما ذلك وهما حديثتا عهد في الإسلام ،وهما لم يميزا بين الجائز من ذلك وبين المحرم، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، فعلم أن الحكم لا يعدوهما إلى غيرهما .

[فصل] [(٦)]: وأما الكلمات اليسيرة ، إذا كانت صدقًا لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم ولا تنافى الصبر الواجب ، نص عليه أحمد [لما رواه] [(٧)] فى

---

(١) زيادة من أ .
(٢) أخرجه مسلم (٩٣٦) .
(٣) زيادة من أ.
(٤) هذا اللفظ للبخاري (٤٨٩٢) .
(٥) في أ : فبايعها رسول الله ﷺ .
(٦) سقط من ط و ب .
(٧) سقط من ط و ب .

مسنده[١]، من حـديث أنس : أن أبا بكر رضي الله عنه دخل على النبى ﷺ بعـد وفـاته ، فوضع فمه بين عينيه ووضع يده على صدغيه ، وقال : وانبياه واخليلاه واصفياه .

وفى صحيح البخارى [٢]، عن أنس ، أيضًا، قال: لما ثقل على النبى ﷺ جعل يتغشاه الكرب ، فقالت فـاطمة : واكرب أبتاه ، فقال : « **ليس على أبيك كرب بعد اليوم** ». فلما مات قالت : يا أبتاه أجـاب ربا دعاه ، ، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جـبريل [أنعاه][٣]. فلما دفن قالت فـاطمة : يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب ؟!

وقال [النبي ﷺ] [٤]: « **وإنا [بفراقك][٥] يا إبراهيم لمحزونون** » [٦] ، وهذا ونحـوه من القول الذى ليـس فيـه تظلم للمـقدور ، ولا تسـخط على الرب ، ولا إسخاط له فهو كمجرد البكاء .

فصل

وأما قول النبى ﷺ : « **إن الميت ليعذب بالنياحة عليه** » [٧] ، فقد ثبت عنه من رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابنه عبـد الله والمغيرة بن شعـبة [رضي الله عنهم][٨]، وروى نحوه عن عمران [ق/ ١٥٢] ابن حصين وأبى موسى [رضي الله عنهما][٩]، فاختلفت طرق الناس فى ذلك فقالت فـرقة : يتصرف الله فى خلقه بما يشـاء ، وأفعال الله لا تعلل ولا فرق بين التـعذيب بالنوح عليـه والتعـذيب بما هو منسوب إليـه ؛ لأن الله خالق الجميع ، والله تعالى يؤلم الأطفال والبهائم والمجانين بغير عمل .

وقالت فرقة : هذه الأحاديث لا تصح عن رسول الله ﷺ ، وقد أنكرتها عائشة أم المؤمنين [رضي الله عنها][١٠]، واحتجت بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الانعام : ١٦٤] ، ولما بلغـها من رواية عمـر وابنه قالت : إنكم لتـحدثون عن غـير كاذبين ولا مـتهـمين ، ولكن السمع يخطئ ، وقـالت : إنما مر النبى ﷺ على قـبر

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٠٧٥) من حديث عائشة وليس من حديث أنس وحسنه الألباني . انظر مختصر الشمائل (٣٢٨) .
(٢) أخرجه البخاري (٤٤٥٢)
(٣) في أ : نتعاه .
(٤) في أ : رسول الله ﷺ .
(٥) في ط و ب : بك .
(٦) تقدم تخريجه .
(٧) تقدم تخريجه .
(٨) زيادة من أ .
(٩) في ط و ب : عنهم .
(١٠) زيادة من أ .

يهودى فقال : « **إن صاحب هذا القبر يعذب وأهله يبكون عليه** » (١) .

وفى رواية متفق عليها عنها : إنما قال رسول الله ﷺ : « **إن الله ليزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله عليه** » (٢) ، وقالت : حسبكم القرآن : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام : ١٦٤] .

وقالت فرقة أخرى منهم المزنى وغيره : أن ذلك محمول على من أوصى به إذا كانت [عادتهم](٣) ذلك . وهو كثير فى أشعارهم كقول طرفة :

إذا مت فانعينى بما أنا أهله ... وشقى على الجيب يا ابنة معبد

وقول لبيد يخاطب ابنتيه حينما حضرته الوفاة:

فقوما فقولا بالذى قد علمتما ... [ولا](٤) تخمشا وجها ولا تحلقا شعر

وقولا هو المرء الذى لا صديقه ... [أضاع](٥) ولا خان [الأمين](٦) ولا [غدر](٧)

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وقالت طائفة: هو محمول على من سنته وسنة قومه ذلك إذا لم ينههم عنه؛ لأن ترك نهيه دليل على رضاه به . وهذا قول ابن المبارك وغيره.

قال أبو البركات ابن تيمية : وهو أصح الأقوال كلها ؛لأنه متى غلب على ظنه فعلهم [له] (٨)ولم يوصهم بتركه ،فقد رضى به وصار كمن ترك النهى عن المنكر مع القدرة عليه.

فأما إذا أوصاهم بتركه فخالفوه، فالله أكرم من أن يعذبه بذلك، وقد حصل بذلك العمل بالآية مع إجراء الخير على عمومه فى كثير من الموارد، وإنكار عائشة [رضي الله عنها](٩) لذلك بعد رواية الثقات لا يعول عليه ،فإنهم قد يحضرون ما لا نحضره ويشهدون ما نغيب عنه، واحتمال السهو والغلط بعيد خصوصًا فى حق خمسة من أكابر الصحابة [رضي الله عنهم](١٠).

وقوله فى اليهودى: لا يمنع أن يكون قد قال ما رواه عنه هؤلاء الخمسة فى

---

(١)أخرجه البخاري (١٢٨٩) ومسلم (٩٣١) .

(٢)أخرجه البخاري (١٢٨٨) ومسلم (٩٢٩) .

(٣)في ط و ب : عاداتهم .

(٤)في ط و ب : فلا .

(٥)في ط و ب : أضاعه .

(٦)سقط من أ .

(٧)في أ : غدره .

(٨)سقط من ط و ب .

(٩)زيادة من أ .

(١٠)زيادة من أ .

أوقات أخر، ثم هى محجوجة بروايتها عنه أنه قال: « **إن الله يزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله عليه** »[١] فإذا لم [يمنع][٢] زيادة الكافر عذابًا بفعل غيـره مع كونه مخالفًا لظاهر الآية لم [يمنع][٣] ذلك فى حق المسلم، إن الله سبـحانه كما لا يظلم عـبده المسلم لا يظلم الكافر. والله أعلم.

(فصل)

ولا تحتـاج هذه [ق/ ١٥٣أ] الأحاديث إلى شيء من هذه التكلفـات، وليس فيـها بحمـد الله إشكال، ولا مخالفـة لظاهر القرآن ،ولا لقـاعدة من قواعـد الشرع ،ولا تتضـمن عقوبة الإنسان بـذنب غيره ،فإن النبي ﷺ لم يـقل: إن الميت يعاقب ببكاء أهله عليـه ونوحهم، وإنما قـال [أنه] [٤] : يعـذب بذلك . ولا ريب أن ذلك يؤلمه ويعـذبه ،والعـذاب هو الألم الذى يحـصل له ،وهو أعم من العـقـاب .والأعم لا يستلزم الأخص .وقد قال النبي ﷺ : « **السفر قطعة من العذاب** »[٥]. وهذا العذاب يحصل للمؤمن والكافـر . حتى الميت ليتألم بمن يعاقب فى قبـره فى جواره ،ويتأذى بذلك كما يتـأذى الإنسان فى الدنيا بما يشاهده من عقـوبة جاره. فإذا بكى أهل الميت عليه البكـاء المحرم وهو البكاء الذى كان أهل الجـاهلية يفـعلونه، والبكاء على الميت عندهم اسم لذلك وهو معـروف فى نظمهم ونثرهم تألم الميت بذلك فى قبـره، فهذا التألم هو عـذابه بالبكاء عليه ، وهذه طريقـة شيخنا فـى هذه الأحاديث . . . وبالله التوفيق.

* * * *

---

(١) تقدم تخريجه .
(٢) في أ : يمتنع .
(٣) في أ : يمتنع .
(٤) سقط من ط و ب .
(٥) أخرجه البخاري (٣٠٠١) ومسلم (١٩٢٧) من حديث أبي هريرة .

الباب التاسع عشر
فى أن الصبر نصف الإيمان

والإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. قال غير واحد من السلف: الصبر نصف الإيمان وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، ولهذا جمع الله سبحانه بين الصبر والشكر فى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥] فى سورة إبراهيم وفي سورة حم عسق، وفي سورة سبأ، وفي سورة لقمان.

وقد ذكر لهذا التنصيف اعتبارات:

أحدها: أن الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية، وهى ترجع إلى شطرين: فعل وترك فالفعل هو العمل بطاعة الله وهو حقيقة الشكر والترك هو الصبر عن المعصية والدين كله فى هذين الشيئين: فعل المأمور، وترك المحظور.

[و](1)الاعتبار الثانى: أن الإيمان مبنى على ركنين: يقين، وصبر. وهما الركنان المذكوران فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فباليقين يعلم حقيقة الأمر والنهى والثواب والعقاب، وبالصبر ينفذ ما أمر به ويكف نفسه عما نهى عنه ولا يحصل له التصديق بالأمر والنهى أنه من عند الله وبالثواب والعقاب إلا باليقين، ولا يمكنه الدوام على فعل المأمور وكف النفس عن فعل المحظور إلا بالصبر، فصار الصبر نصف الإيمان، والنصف الثانى الشكر بفعل ما أمر به وبترك ما نهى عنه.

الاعتبار الثالث: أن الإيمان قول وعمل، والقول قول القلب واللسان، والعمل عمل القلب والجوارح، وبيان ذلك أن من عرف الله بقلبه ولم يقر بلسانه لم يكن مؤمنًا وكما قال عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] وكما قال عن قوم عاد وقوم صالح: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال موسى لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [ق/ ١٥٤] [الإسراء: ١٠٢] فهؤلاء حصل لهم قول القلب، وهو المعرفة والعلم، ولم يكونوا بذلك مؤمنين.

(1) سقط من ط و ب.

وكذلك من قال بلسانه ما ليس فى قلبـه ، لم يكن بذلك مؤمنًا بل كان من المنافقين. وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمنًا حتى يأتى بعمل القلب من الحب والبغض والموالاة والمعاداة .

فيـحب الله ورسـوله ،ويوالى أولياء الله ويعـادى أعداءه ،ويسـتسلم بقلبـه لله وحده، وينقاد لمتابعة رسوله وطاعتـه ،والتزام شريعته ظاهرًا وباطنًا وإذا فعل ذلك لم يكف فى كمال إيمانه حتى يفعل ما أمر به .

فهـذه الأركان الأربعة هى أركـان الإيمان التى قام عليهـا بناؤه، وهى ترجع إلى علم وعـمل. ويدخل فى العـمل كف النفس الذى هو مـتعلق الـنهى، وكلاهمـا لا يحصل إلا بالصـبر، فصار الإيمـان نصفين: أحدهما الصـبر، والثانى مـتولد عنه من العلم والعمل .

الاعتـبار الرابع : أن النفس لها قـوتان قوة الإقدام ،وقوة الإحجـام، وهى دائمًا تتردد بين أحكام هاتين القوتين ،فتقدم على ما تحبه ،وتحجم عما تكرهه. والدين كله إقدام وإحجـام: إقدام على طاعة، وإحجـام عن [معاصي][1] ، وكل منهما لا يمكن حصوله إلا بالصبر .

الاعتـبار الخـامس: أن الدين كله [رغبـة ورهبة][2]، فالمؤمن هو الراغب [و][3] الراهب، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] وفي الدعاء عند النوم الذى رواه البخارى فى صحيحه[4] : «**اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ووجـهت وجهـى إليك، وفوضت أمـرى إليك، وألجـأت ظهـرى إليك ، رغبـة ورهبة إليك**» ، فلا تجد المؤمن أبدًا إلا راغبًا [و][5] راهبًا، فالرغبـة والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فرهبته تحمله على الصبر، ورغبته تقوده إلى الشكر .

الاعتبار السادس: أن جميع ما يبـاشره العبد فى هذه الدار لا يخرج عـما ينفعه فى الدنيا والآخـرة أو يضره فى الدنيا والآخرة أو ينفـعه فى [أحد][6] الدارين ويضره فى الأخرى، وأشرف الأقسـام أن يفعل ما ينفعه فى الآخرة ،ويترك ما يضـره فيها ، وهو حقيقة الإيمان ففعل ما ينفعه هو الشكر ،وترك ما يضره هو الصبر .

الاعتبـار السابع : أن العبد لا ينفك [عن][7] أمر يفـعله ، ونهى يتركـه، وقدر

---

(١) في أ : معصية .
(٢) في أ : تقديم وتأخير .
(٣) سقط من ط و ب .
(٤) أخرجه البخاري (٢٤٧) ومسلم (٢٧١٠) من حديث البراء.
(٥) سقط من أ .
(٦) في أ : إحدى .
(٧) في أ : من .

يجرى عليه وفرضه فى الثلاثة الصبر والشكر، ففعل المأمور هو الشكر، وترك المحظور، والصبر على المقدور هو الصبر .

الاعتبار الثامن: أن العبد فيه داعيان: داع يدعوه إلى الدنيا [وشهواتها][1] ولذاتها، وداع يدعوه إلى الله والدار الآخرة وما أعد فيها لأوليائه من النعيم المقيم. فعصيان داعى الشهوة والهوى هو الصبر وإجابة داعى الله والدار الآخرة هو الشكر .

الاعتبار التاسع: أن الدين [ق/ ٥٥أ] مداره على أصلين : العزم ،والثبات. وهما الأصلان المذكوران فى الحديث الذى رواه أحمد والنسائى[2] عن النبي ﷺ : «**اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر، والعزيمة على الرشد** » وأصل الشكر صحة العزيمة، وأصل الصبر قوة الثبات. فمتى أيد العبد بعزيمة وثبات فقد أيد بالمعونة والتوفيق .

الاعتبار العاشر: أن الدين مبنى على أصلين: الحق ، والصبر. وهما المذكوران فى قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر :٣] ولما كان المطلوب من العبد، هو العمل بالحق [فى نفسه][3] وتنفيذه فى الناس ،وكان هذا هو حقيقة الشكر لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه، فكان الصبر نصف الإيمان. والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) في أ : وشهوتها .

(٢) اخرجه احمد (١٧١٥٥) والنسائي (١٣٠٤) والترمذي (٣٤٠٧) والطبراني في الكبير (٧١٣٥) ، (٧١٥٧) ، (٧١٧٥) ، (٧١٨٠) وأبو نعيم في الحلية (١/٢٦٦) ، (٦/٧٧) كلهم من حديث شداد بن أوس .وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (١١٩٠) .

(٣) سقط من أ .

الباب العشرون
فى بيان تنازع الناس فى الأفضل
[من](١) الصبر والشكر

حكى أبو الفرج بن الجـوزى فى ذلك ثلاثة أقوال: **أحدها** : أن الصبـر أفضل. **والثانى**: أن الشكر أفضل. **والثالث**: أنهما سـواء ،كما قال عـمر بن الخطاب رضى الله عنه: لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت ».

ونحن نذكر ما احتجـت به كل فرقة ،وما لها وعليها فى احتـجاجها، بعون الله وتوفيقه.

قال الصابرون : قد أثنى الله سـبحانه على الصـبر وأهله ، ومدحـه ،وأمر به، وعلق عليه خير الدنيا والآخرة ، وقد ذكره الله فى كتابه فى نحو تسعين موضعًا .

وقد تقدم [من الـنصوص والأحاديث](٢) ما فـيه ، وفي فضلـه ما يدل على أنه أفضل من الشكر.

ويكفي في فضله : قوله ﷺ : « **الطاعم الشـاكر بمنزلة الصائـم الصابر** » (٣) ، فذكـر ذلك فى معرض تفضـيل الصبر ورفع درجـته على الشكر، فإنه ألحق الشـاكر بالصابر وشبهـه به، ورتبة المشبه به أعلى من رتبة المشـبه وهذا كقوله: « **مدمن الخمر كعابد[وثن]**(٤)» (٥). ونظائر ذلك.

قـالوا : وإذا وازنا بين النصـوص الواردة فى الصـبـر والواردة فى الشكر وجـدنا نصوص الصـبر أضعـافهـا. ولهذا لما كانت الصـلاة والجهاد أفـضل الأعمـال كانت

---

(١) في أ : بين . (٢) في أ : في النصوص في الأحاديث ما .

(٣) أخرجـه الترمـذي (٢٤٨٦) وابن ماجـة (١٧٦٤) وأحمـد (٧٧٩٣) وأبو يعلي (٦٥٨٢) وابن حـبان (٣١٥) والحاكم (١٥٣٧) ، (٧١٩٤) وابن خزيمة (١٨٩٨) وعبد الرزاق في مصنفه (١٩٥٧٣) من حديث أبي هريرة وقد بوب عليـه البخاري باباً فقال : الـطاعم الشاكر مثل الصـائم الصابر (الفتح ٩/ ٤٩٦) .وأخرجـه أحمد (١٩٠٣٦) والدارمي (٢٠٢٤) من حـديث سنان بن سنة . وصحـحه الألبـاني ، انظر صحيح ابن مـاجة (١٤٢٧) .

(٤) في أ : الوثن .

(٥) أخرجـه أحمد (٢٤٥٣) وعبـد الرزاق (١٧٠٧٠) والبزار في كشف الأسـتار (٢٩٣٤) والطبراني في الكبـير (١٢٤٢٨) وابن الجوزي في العلل المتناهية (١١١٦) ، (١١١٨) ، (١١١٩) وابن حبان (٥٣٤٧) من حديث ابن عباس . وأخـرجه ابن ماجة (٣٣٧٥) وابن عدي في الكامل (٤/ ٢٢٩) وابن الجـوزي في العلل المتناهية (١١١٧) من حديث أبي هريرة وصححه الألباني . انظر صحيح الجامع (٦٥٤٩) .

الأحاديث فيهما [أكثر من الأحاديث][١] فى سائر الأبواب ،فلا تجد الأحاديث النبوية فى باب أكثر منها فى باب الصلاة والجهاد.

قالوا : وأيضًا ،فالصبر يدخل فى كل باب ،بل فى كل مسألة من مسائل الدين، ولهذا كان من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

قالوا : وأيضًا ، فالله سبحانه وتعالى علقَّ على الشكر الزيادة فقال :﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧] . وعلقَّ على الصبر الجزاء بغير حساب فقال : ﴿ **إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ ، وأيضًا فإنه سبحانه أطلق جزاء الشاكرين، فقال: ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [آل عمران] وقيد جزاء الصابرين بالإحسان فقال: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾ [النحل].

قالوا : وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله تعالى: كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به**» [٢] . وفي لفظ: « **كل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها ، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به** » [٣] . وما ذاك إلا لأنه صبر النفس ومنعها من شهواتها، كما فى الحديث نفسه : « **يدع شهوته وطعامه [ق/ ٥٦أ] وشرابه من أجلى** » ؛ ولهذا قال النبي ﷺ لمن سأله عن أفضل الأعمال: «**عليك بالصوم، فإنه لا عدل له** » [٤] ، ولما كان الصبر حبس النفس عن إجابة داعى الهوى، وكان هذا حقيقة الصوم، فإنه حبس النفس عن إجابة داعي شهوة الطعام والشراب والجماع، فسر الصبر فى قوله تعالى :﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة:٤٥]، أنه الصوم وسمى شهر رمضان شهر الصبر.

وقال بعض السلف: الصوم نصف الصبر .وذلك أن الصبر حبس النفس عن إجابة داعى الشهوة والغضب، [فإن النفس][٥] تشتهى الشىء لحصول اللذة بإدراكه وتغضب لنفرتها من المؤلم لها، والصوم صبر عن مقتضى الشهوة فقط، وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب .ولكن من تمام الصوم وكماله صبر النفس عن

---

(١) سقط من ط و ب .

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٢٧) ومسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة .

(٣) أخرجه مسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة .

(٤) أخرجه النسائي (٢٢٢٢) ، (٢٢٢٣) وأحمد (٢٢٢٠٣) ، (٢٢٣٣٠) وابن حبان (٣٤٢٥) ، (٣٤٢٦) وابن خزيمة (١٨٩٣) وعبد الرزاق (٧٨٩٩) والطبراني في الكبير (٧٤٦٣) ، (٧٤٦٥) والحاكم (١٥٣٣) من حديث أبي أمامة . وصححه الألباني . انظر صحيح سنن النسائي (٢٠٩٩) .

(٥) في أ : فالنفس .

إجابة داعى الأمرين. وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ فى الحديث الصحيح، وهو قوله: « **إذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يجهل، ولا يصخب فإن أحدًا سابه أو شاتمه فليقل إنى صائم**» (١) ، فأرشد ﷺ إلى تعديل قوى الشهوة والغضب ،وأن الصائم ينبغى له أن يحتمى من إفسادهما لصومه، فهذه تفسد صومه وهذه تحبط أجره ،كما قال فى الحديث الآخر :« **من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه** » (٢) .

قالوا: ويكفي فى فضل الصبر على الشكر قوله تعالى : ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون:١١١] ، فجعل فوزهم جزاء صبرهم، [وقال](٣) تعالى : ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ [البقرة:٢٤٩] ، [و](٤) لا شيء يعدل معيته لعبده، كما قال بعض العارفين :ذهب الصابرون بخير الدنيا والآخرة لأنهم نالوا معية الله، وقال تعالى : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[الطور:٤٨] وهذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ [للصابر](٥) لحكمه.

وقد وعد الصابرين بثلاثة أشياء، كل واحد [منها](٦) خير من الدنيا وما عليها، وهى صلواته تعالى عليهم ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية فى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾ [البقرة:١٥٧]. وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم، وأخبر أن الصبر من عزم الأمور فى آيتين من كتابه، وأمر رسوله أن يتشبه بصبر أولى العزم من الرسل ،وقد تقدم ذكر ذلك .

قالوا : وقد دل الدليل على أن الزهد فى الدنيا والتقلل منها مهما أمكن أفضل من الاستكثار منها، والزهد فيها حال الصابر، والاستكثار منها حال الشاكر، قالوا: وقد سئل المسيح صلوات الله وسلامه عليه ـ عن رجلين مرا بكنز فتخطاه أحدهما ولم يلتفت إليه [وأعرض عن](٧)، وأخذه الآخر وأنفقه فى طاعة الله تعالى، أيهما أفضل[عند الله](٨)؟ [فقال: الذى لم يلتفت إليه وأعرض عنه أفضل عند الله](٩) .

---

(١)أخرجه البخاري (١٩٠٤) ومسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة.
(٢)أخرجه البخاري (١٩٠٣) من حديث أبي هريرة .
(٣)في أ : وقوله .
(٤)سقط من ط و ب .
(٥)في ط و ب : للصبر .
(٦)سقط من ط و ب .
(٧)سقط من ط و ب .
(٨)زيادة من أ .
(٩)سقط من أ .

قالوا :ويدل على صحة هذا أن النبي ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فلم يأخذها. وقال : « **بل أجوع يومًا وأشبع يومًا** » [١]، ولو أخذها لأنفقها [كلها][٢] فى مرضاة الله وطاعته، فآثر مقام الصبر عنها والزهد فيها .

قالوا : وقد علم أن الكمال[ق/ ١٥٧أ] الإنسانى فى ثلاثة أمور: علوم يعرفها ،و أعمال يعمل بها، وأحوال [ترتب][٣] له على علومه وأعماله .وأفضل العلم والعمل والحال : العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله ،والعمل بمرضاته ،وانجذاب القلب إليه بالحب والخوف والرجاء. فهذا أشرف ما فى الدنيا ،وجزاؤه أشرف ما فى الآخرة ، وأجل المقاصد معرفة الله ومحبته والأنس بقربه ،والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره . وهذا أجل سعادة الدنيا والآخرة ،وهذا هو الغاية التى تطلب لذاتها ،وإنما يشعر العبد تمام الشعور بأن ذلك عين السعادة إذا انكشف له الغطاء وفارق الدنيا ودخل الآخرة وإلا فهو في الدنيا وإن شعر بذلك بعض الشعور فليس شعوره به كاملا للمعارضات التى عليه ،والمحن التى امتحن بها وإلا فليست السعادة فى الحقيقة سوى ذلك،وكل العلوم والمعارف تبع لهذه المعرفة مرادة لأجلها، وتفاوت العلوم فى فضلها بحسب قرب إفضائها إلى هذه المعرفة [وبعدها][٤]،فكل علم كان أقرب إفضاء إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته فهو أعلى مما دونه ،وكذلك حال القلب، فكل حال كان [أقرب][٥] إلى المقصود الذى خلق له فهو أشرف مما دونه ،وكذلك الأعمال ،فكل عمل كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره [ولهذا][٦] كانت الصلاة والجهاد من أفضل الأعمال و[أفضلها][٧] لقرب إفضائها إلى المقصود وهكذا يجب أن يكون، [فإنه كلما][٨] كان الشيء أقرب إلى الغاية كان أفضل من البعيد عنها . فالعمل المعد للقلب المهيئ له لمعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبته وخوفه ورجائه أفضل مما ليس كذلك، وإذا اشتركت عدة أعمال فى هذا الإفضاء فأفضلها أقربها إلى هذا [المفضي][٩]. ولهذا اشتركت الطاعات فى هذا الإفضاء فكانت مطلوبة لله

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٧) وأحمد (٢٢٢٤٤) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٣٣) من حديث أبي أمامة ، وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٣٧٠٤) .

(٢) سقط من ط و ب .

(٣) في أ : تترتب .

(٤) في أ : وبعده

(٥) في أ : أدنى .

(٦) في أ : فلهذا .

(٧) سقط من ط و ب .

(٨) في أ ، ب : فإن كل ما . والمثبت من ط .

(٩) في أ : المقصود.

واشتركت المعاصى فى حجب القلب وقطعه عن هذه الغاية فكانت منهيا عنها . وتأثير الطاعات والمعاصى بحسب درجاتها.

وها هنا أمر يـنبغى التفطن له ،وهـو أنه قد يكون العمل المعـين أفضل [في حق شخص وغيره أفضل][(١)] منه فى حق غيره، فالغنى الذى بلغ له مال كـثير ونفسه لا تسمح [له][(٢)] ببذل شىء منه فصـدقته وإيثاره أفضل له من قيام اللـيل وصيام النهار نافلة . والشجـاع الشديد [البأس][(٣)] الذى يهاب الـعدو سطوته، وقوفـه فى الصف ساعة وجهـاده أعداء الله أفضل [له][(٤)] من الحج والصوم والصدقة والتطوع والعالم الذى قد عرف السنة والحلال والحرام وطرق [ق/ ٥٨أ] الخير والشر: [و][(٥)] مخالطته للناس وتعليمـهم ونصحهم فى دينهم أفضل من اعـتزاله وتفريغ وقتـه للصلاة وقراءة القرآن والتسـبيح. وولى الأمر الذى قد نصـبه الله للحكم بين عباده :جلوسـه ساعة للنظر فى المظالم وإنصاف المظلوم من الظالم وإقامة الحدود ونصر المحق وقمع المبطل، أفضل من عبادة سنين من غيره ،ومن غلبت عليه شهوة النساء فصومه له أنفع وأفضل من ذكر غيـره وصدقته، وتأمل توليـة النبي ﷺ لعمرو بن العاص وخـالد بن الوليد وغيـرهما من أمـرائه وعماله ،وترك توليـة أبى ذر [رضي الله عنه][(٦)]،بل قال له : «**إنى أراك ضـعيفـا ، وإنى أحب لك مـا أحب لنفسى لا تؤمـرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم** »[(٧)] ،وأمره وغيره بالصيام ،وقال :« **عليك بالصوم ،فإنه لا عدل له** » [(٨)]، وأمر آخر : «**بأن لا يغضب** » [(٩)] ، وأمر ثالثا :« **بأن لا يزال لسـانه رطبا من ذكـر الله**»[(١٠)]. ومتى أراد الله بالعبد كمالا وفقه لاستفراغ وسعه فيما هو مستعد له ،قابل لما قـد هيئ له، فإذا استفـرغ وسعـه فيـه [برز][(١١)] على غـيره وفـاق الناس فيـه، [وصار][(١٢)] كما قيل :

---

(١) سقط من ط و ب .
(٢) سقط من أ .
(٣) سقط من ط و ب .
(٤) سقط من ط و ب .
(٥) سقط من ط و ب .
(٦) زيادة من أ .
(٧) أخرجه مسلم (١٨٢٦) .
(٨) تقدم تخريجه .
(٩) أخرجه البخاري (٦١١٦) من حديث أبي هريرة .
(١٠) أخرجـه الترمذي (٣٣٧٥) وابن مـاجة (٣٧٩٣) وأحـمد (١٧٧٣٤) وابن حبـان (٨١٤) والحاكم (١٨٢٢) وصححه الألباني . انظر صحيح الترمذي (٢٦٨٧) .
(١١) في ط و ب : بز . .
(١٢) سقط من ط و ب .

ما زال يسبق حتى قال حاسده [له](١) طريق إلى العلياء مختصر

وهذا كالمريض الذى يشكو وجع البطن مثلا ، إذا استعمل دواء ذلك الداء [انتفع](٢) به، واذا استعمل دواء وجع الرأس لم يصادف داءه .فالشح المطاع مثلا من المهلكات ولا يزيله صيام مائة عام ولا قيام ليلها .وكذلك داء اتباع الهوى والإعجاب بالنفس، لا يلائمه كثرة قراءة القرآن واستفراغ الوسع فى العلم والذكر والزهد ،وإنما يزيله إخراجه من القلب بضده. ولو قيل :[أيما](٣) أفضل : الخبز أو الماء ؟ لكان الجواب :إن هذا فى موضعه أفضل، وهذا فى موضعه أفضل .

وإذا عرفت هذه القاعدة ،فالشكر ببذل المال عمل صالح يحصل به للقلب حال، وهو زوال البخل والشح بسبب خروج الدنيا منه ،فتهيئ لمعرفة الله ومحبته . فهو دواء للداء الذى فى القلب يمنعه من المقصود .وأما الفقير الزاهد فقد استراح من هذا الداء والدواء، وتوفرت قوته على استفراغ الوسع فى حصول المقصود .

ثم أوردوا على أنفسهم سؤالا، فقالوا :فإن قيل : فقد حث الشرع على الأعمال وانفصلوا عنه ،بأن قالوا [ق/ ٥٩أ] الطبيب : إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء يراد لعينه، [ولا أنه](٤) أفضل من الشفاء الحاصل به. ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب، ومرض القلوب مما لا يشعر به غالبا ،فوقع الحث على العمل المقصود ،وهو شفاء القلب. فالفقير الآخذ لصدقتك يستخرج منك داء البخل كالحجام يستخرج منك الدم المهلك .

قالوا : وإذا عرف هذا أن حال الصابر حال المحافظ على الصحة والقوة ،وأن حال الشاكر حال المتداوى بأنواع الأدوية لإزالة مواد السقم .

(فصل)

قال الشاكرون: لقد تعديتم طوركم ،وفضلتم مقاما غيره أفضل منه، وقدمتم الوسيلة على الغاية ،والمطلوب لغيره على المطلوب لنفسه ،والعمل الكامل على الأكمل ،والفاضل على الأفضل ،ولم تعرفوا للشكر حقه ،ولا وفيتموه مرتبته ،وقد قرن تعالى ذكره الذى هو المراد من الخلق [بشكره](٥) ،وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر ، والصبر خادم لهما ،ووسيلة إليهما ،وعون عليهما ، قال تعالى :

---

(١) في ط و ب : هذا .
(٢) في أ : انقطع .
(٣) في ط و ب : أيما . .
(٤) في أ : ولأنه .
(٥) في ط و ب : بذكره .

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)﴾ [البقرة : ١٥٢] . وقرن سبحانه الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن [شكروا][(١)] وآمنوا به ، فقال تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ﴾ [النساء :١٤٧] ، أي إن وفيتم ما خلقتم له، وهو الشكر والإيمان ، فما أصنع بعذابكم بعد ذلك ؟!

هذا وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده ، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)﴾ [الانعام : ٥٣] . وقسم الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله ، قال تعالى في الإنسان :﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾ [الإنسان : ٣] .

وقال نبيه سليمان : ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾ [النمل : ٤٠] .

وقال تعالى :﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)﴾ [إبراهيم : ٧] .

وقال [ق/ ٦٠] تعالى :﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : ٧] .

وهذا كثير في القرآن ، يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده ، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان ، فلم ينقلبوا على أعقابهم .

وعلق سبحانه المزيد بالشكر ، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره .

وقد وقف سبحانه كثيرا من الجزاء على المشيئة ، كقوله :﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ﴾ [التوبة : ٢٨] . وقوله في الإجابة :﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ ﴾ [الانعام : ٤١] ، وقوله في الرزق :﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢١٢] ، [وقوله][(٢)] في المغفرة : ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [آل عمران : ١٢٩] ، [وقوله][(٣)] في التوبة :﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ﴾ [التوبة : ١٥] وأطلق جزاء الشكر إطلاقا حيث ذكر ، كقوله تعالى:

---

(١) في ط و ب : شكرو. (٢) سقط من أ .
(٣) سقط من أ .

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)﴾ [آل عمران : ١٤٥] ، ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾](١)[آل عمران : ١٤٤].

ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر وأنه [من](٢) أجل المقامات وأعلاها ، جعل غايته أن يسعى فى قطع الناس عنه ، فقال : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) ﴾[الأعراف : ١٧] .

وقد وصف الله سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده ، فقال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾[سبأ : ١٣] .

وذكر الإمام أحمد (٣) رحمه الله ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: بأنه سمع رجلا يقول: اللهم اجعلنى من الأقلين فقال : ما هذا ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله قال : ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) ﴾[هود : ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾[سبأ : ١٣] وقال : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص: ٢٤] ، فقال عمر [رضي الله عنه](٤) : صدقت .

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) ﴾[الإسراء : ٣] . وفى تخصيص نوح ها هنا بالذكر ، وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به ، فانه أبوهم الثانى ، فان الله تعالى لم يجعل [للخلق بعد الغرق](٥) نسلاً إلا من ذريته ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧)﴾[الصافات : ٧٧] . فأمر الذرية [ق/ ٦١أ] أن يتشبهوا بأبيهم فى الشكر ، فإنه كان عبداً شكوراً .

وقد أخبر سبحانه ، إنما يعبده من شكره ، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته، فقال : ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) ﴾[البقرة : ١٧٢] .

وأمر عبده موسى [عليه السلام](٦) أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر ، فقال تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٤] . وأول وصية وصى الله بها الإنسان بعدما عقل عنه الشكر له وللوالدين [فقال](٧) ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ

---

(١) في أ : تقديم وتأخير بين الآيتين .
(٢) سقط من أ .
(٣) انظر الزهد (ص/ ١١٤) .
(٤) زيادة من أ .
(٥) في أ : تقديم وتأخير .
(٦) زيادة من أ .
(٧) في أ : بقوله .

﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] . وأخبر [أن رضاه فى شكره ، فقال تعالى :﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] .

وأثنى][1] سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه ، فقال : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١] ، فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة ، أى قدوة يؤتم به فى الخير، وأنه كان قانتًا لله، والقانت: هو المطيع المقيم على طاعته ، والحنيف: هو المقبل على الله، المعرض عما سواه، ثم ختم له [هذه][2] الصفات بأنه شاكر لأنعمه، فجعل الشكر غاية خليله [ﷺ][3] .

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره، بل هو الغاية التى خلق عبيده لأجلها فقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨] ، فهذه غاية الخلق، [وأما][4] غاية الأمر فقال: [﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[5] [البقرة: ١٥٢] فيجوز أن يكون قوله : تعليلا لقضائه لهم بالنصر، ولأمره لهم بالتقوى، ولهما معًا. وهو الظاهر، فالشكر غاية الخلق والأمر. وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وإرساله الرسول فى قوله تعالى :﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢] .

قالوا : فالشكر مراد لنفسه، والصبر مراد لغيره . والصبر إنما حمد لإفضائه وإيصاله إلى الشكر ، فهو خادم الشكر.

وقد ثبت فى الصحيحين[6] عن النبي ﷺ: أنه قام حتى تفطرت قدماه، فقيل له: [أتفعل][7] هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: « **أفلا أكون عبدا شكورا** » .

وثبت فى المسند والترمذى [8] : أن النبي ﷺ قال لمعاذ : « **والله إنى لأحبك ، فلا**

---

(١) سقط من أ . (٢) في ط و ب : بهذه .

(٣) زيادة من أ . (٤) سقط من ط و ب .

(٥) في ط و ب : لعلكم تشكرون .

(٦) أخرجه البخاري (٤٨٣٦) ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة .

(٧) في أ : هكذا .

(٨) أخرجه أحمد (٢٢١٧٢) ، (٢٢١٧٩) وأبو داود (١٥٢٢) والنسائي (١٣٠٣) وابن حبان (٢٠٢٠) =

تنسى أن تقول [في](١) **دبر كل صلاة : اللهم أعنى على ذكرك [ق/ ٦٢أ] وشكرك وحسن عبادتك»** .

[و](٢) قال ابن أبى الدنيا(٣) : [حدثنا](٤) إسحاق بن إسماعيل، [حدثنا](٥) [أبو معاوية](٦) وجعفر بن عون، عن هشام بن عروة [عن ابن المنكدر](٧) ،قال: كان من دعاء النبي ﷺ : « **اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك** » . قال(٨): وحدثنا محمود بن غيلان ، [حدثنا](٩) المؤمل بن إسماعيل، [حدثنا](١٠) حماد بن سلمة ، [حدثنا](١١) حميد الطويل ،عن طلق ابن حبيب عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ ، قال :« **أربع من أعطيهن، فقد أعطى خير الدنيا والآخرة قلبًا شاكرًا ،ولسانًا ذاكرًا، وبدنا على البلاء صابرًا ، وزوجة لا تبغيه خونًا فى نفسها ولا فى ماله** » .

وذكر أيضًا (١٢)، من حديث القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «**ما أنعم الله على عبد نعمة ،فعلم أنها من عند الله ،إلا كتب الله له شكرها ، وما علم الله من عبده ندامة على ذنب إلا غفر الله له قبل أن يستغفره، وإن الرجل يشترى الثوب بالدينار فيلبسه، فيحمد الله ،فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له**».

وقد ثبت فى صحيح [مسلم](١٣) عنه (١٤) ﷺ أنه قال: «**إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها .ويشرب الشربة فيحمده عليها** » ، فكان هذا الجزاء العظيم، الذى هو أكبر أنواع الجزاء، كما قال تعالى : ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٨٢] . فى مقابلة شكره بالحمد.

[وذكر ابن أبى الدنيا(١٥) من حديث عبد الله بن صالح: حدثنا أبو زهير يحيى

= وابن خزيمة (٧٥١) والطبراني في الكبير (١١٠) ، (٢١٨) ، (٢٥٠) والحاكم (١٠١٠) ، (٥١٩٤) والبخاري في الأدب المفرد (ص/٢٠٢) وصححه الألباني . انظر صحيح أبي داود (١٣٤٧) .

(١) سقط من ط و ب .
(٢) سقط من أ .
(٣) أخرجه في الشكر (٤) .
(٤) في أ : ثنا .
(٥) في أ : ثنا .
(٦) في أ : معوية والمثبت هو الصواب .
(٧) سقط من أ ، ب والمثبت من كتاب « الشكر » لابن أبي الدنيا (١/٦) .
(٨) أخرجه في الشكر (٣٤) .
(٩) في أ : ثنا .
(١٠) في أ : ثنا .
(١١) في أ : ثنا .
(١٢) أخرجه في الشكر (٤٧) . .
(١٣) سقط من أ
(١٤) أخرجه مسلم (٢٧٣٤) من حديث أنس .
(١٥) أخرجه في الشكر (٣) .

بن عطارد القرشى عن أبيه، قـال :قال رسول الله ﷺ: « **لا يرزق الله عبداً الشكر فيحرمه الزيادة لأن الله تعالى يقول** : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم﴾ »[(١)] [إبراهيم: ٧] .

وقال الحسن البصرى : إن الله ليمتع بالنعمـة ما شاء، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابًا(٢) ولهذا كـانوا يسمون الـشكر « الحافظ » ؛[لأنه](٣) يحفظ النـعم الموجودة ، «والجالب»؛ [لأنه](٤) يجلب النعم المفقودة .

وذكـر ابن أبى الـدنيـا (٥) عن على بـن أبى طالب ﷺ: أنه قـــال لرجل من [همدان](٦): «إن النعمة موصولة بالشكر ،والشكر [متعلق](٧) بالمزيد ،وهما مقرونان فى قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد ».

وقال عمر بن عبد العزيز : « قيدوا نعم الله بشكر الله»(٨).

وكان يقال: الشكر قيد النعم.

وقال مطرف بن عبد الله: **لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر**(٩).

وقال الحسن : أكثروا [من](١٠) ذكر هذه النعم ،فإن ذكرها شكر (١١). وقد أمر الله تعـالى نبيـه [ﷺ](١٢) أن يحـدث [بنعمـة ربه](١٣)، فقـال : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] .

والله تعالـى يحب من عبده أن يرى عليـه أثر نعمـته، فإن ذلك شكـرها بلسان الحال.

وقال على بن [الجعدى](١٤) :سمعت سفيان الثورى يقول: إن داود عليه الصلاة والسلام قال : «الحمد لله حمداً كما ينبغى لكرم [وجهه](١٥) وعز جلاله» فأوحى الله إليه: يا داود أتعبت الملائكة .

وقال شـعبـة: [حدثنا](١٦) [الفضيل](١٧) **بن فضـالة ،عن أبى رجاء العطاردى**

---

(١) سقط من أ .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٧) .
(٣) في أ : فإنه الذي .
(٤) في أ : فإنه .
(٥) أخرجه في الشكر (١٨) .
(٦) في أ : همذان والمثبت هو الصواب .
(٧) في ط و ب : يتعلق
(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٢٧) .
(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٢٨) ، (٦٥) ، (١٨٥) .
(١٠) سقط من أ .
(١١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٣٣) .
(١٢) زيادة من أ .
(١٣) في أ : بنعمه .
(١٤) في أ : الجعد .
(١٥) في أ : وجه ربي .
(١٦) في أ : ثنا .
(١٧) في أ : المفضل وفي ب : الفضل .

قال: خرج علينا عمران بن [الحصين][١] وعليه مطرف خز لم نره عليه قبل ولا بعد فقال: إن رسول الله قال: **«إذا أنعم الله على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»**[٢].

وفي صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده [عن النبي ﷺ][٣] قال: **«كلوا واشربوا وتصدقوا فى غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده »**[٤].

وذكر شعبة عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن أبيه، قال: أتيت رسول الله ﷺ **وأنا قشف الهيئة ،فقال: « هل لك من مال؟ »** قال: قلت: نعم. قال: **« من أى المال؟ » قلت من كل المال قد آتانى الله من الإبل والخيل والرقيق والغنم،** قال: **« فإذا آتاك الله مالا فليرى عليك »**[٥] .

وفي بعض المراسيل : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده فى مأكله ومشربه»[٦] .

وروى عبد الله بن يزيد المقرئ عن أبى معمر عن بكر بن عبد الله [يرفعه][٧] : **«من أعطى خيرًا فرؤى عليه سمى حبيب الله محدثًا بنعمة الله ،ومن أعطى خيرًا [فلم]**[٨] **يرعليه سمى بغيض الله معاديًا لنعمة الله »**[٩] .

وقال فضيل بن عياض : كان يقال : من عرف نعمة الله بقلبه، وحمده بلسانه لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة ،لقول الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾

---

(١) في أ : حصين .

(٢) أخرجه أحمد (١٩٩٤٨) والبيهقي في الكبرى (٥٨٨٨) وابن أبي الدنيا في الشكر (٥٠) والطبراني في الكبير (٢٨١) وابن سعد في الطبقات (٤/ ٢٩١) وصححه الألباني . انظر صحيح الجامع (١٧١٢)

(٣) في أ : أن رسول الله ﷺ .

(٤) أخرجه أحمد (٦٧٠٨) والطيالسي في مسنده (٢٢٦١) والحاكم (٧١٨٨) وابن أبي الدنيا في الشكر (٥١) وحسنه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (٢٢٦٠) .

(٥) أخرجه أبو داود (٤٠٦٣) والترمذي (٢٠٠٦) والنسائي (٥٢٩٤) وأحمد (١٥٩٣٠) ، (١٧٢٦٨) والطيالسي (١٣٠٣) ، (١٣٠٤) وابن حبان (٥٤١٦) وابن أبي الدنيا في الشكر (٥٢) والطبراني في الكبير (٦٠٧) ، (٦٠٨) ، (٦٠٩) ، (٦٢١) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (١٦٣٢) وصحيح الجامع (٢٥٤) .

(٦) ضعيف : ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٧١٥) .

(٧) في ط و ب : رفعه .

(٨) في ط و ب : ولم .

(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٥٤) .

[إبراهيم:٧]. وقال: من شكر النعمة أن يحدث بها .

وقد قال تعـالى : فى الحديث القدسى : «**يابن آدم إذا كنت تتقلب فى نعـمتى، وأنت تتقلب فى معصيتى ،فاحذرنى لأصرعك بين معاصى، يابن آدم اتقنى ونم حيث شئت**» .

وقال الشـعبى: الشكر نصف الإيمان [والصـبر نصف الإيمان][١] ،واليقين الإيمان كله .

وقال أبو قلابة :لا تضركم دنيا شكرتموها .

وقال الحسن : إذا أنعم الله عـلى قوم سألهم [عن][٢] الشكر ،فإذا شكروه كان قادرًا على أن يزيدهم ،وإذا كفروه كان قادرًا على أن [يقلب][٣] نعمته عليهم عذابًا.

وقـد ذم الله سبـحانه الكنود ،وهـو الذى لا يشكر نعمـه، قال الحـسن : ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات:٦] ،يعد المصائب وينسى النعم ،وقـد أخبر النبي ﷺ أن النساء أكـثر أهل النار بهذا السـبب. قال: « **لو أحسنت إلى إحـداهن الدهر، ثم رأت منك سوءاً، قالت: [مـا رأيت منك خيرًا][٤] قط**» [٥] [ق/ ٦٤٤أ] فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج، وهى فى الحقيقة من الله فكيف بمن ترك شكر نعمة الله ؟!

يا أيها الظالم فـــى فعله والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى تشكو المصيبات وتنسى النعم

ذكر ابن أبى الـدنيا[٦] من حـديث أبى عبـد الرحمن الـسلمي عن الشعـبى عن النعـمان بن بشـير [رضي الله عنهـما][٧] قال :قـال رسول الله ﷺ: « **[التـحدث بالنعمة][٨] شكر وتركهـا كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثـير، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله والجماعة بركة، والفرقة عذاب**» .

وقال مطرف بن عبـد الله : « نظرت فى العافية والشكر ،فـوجدت فيهمـا خير الدنيا والآخرة ،ولأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر » .

ورأى بكر بن عبد اللـه المزنى حمالا عليه حمله وهو يـقول: الحمد لله أستـغفر

---

(١)سقط من ط و ب . (٢)سقط من ط وب .
(٣)في ط و ب : يبعث . (٤)في أ : تقديم وتأخير .
(٥)أخرجه البخاري (٢٩) ومسلم (٩٠٧) من حديث ابن عباس .
(٦)أخرجه في الشكر (٦٤) وأحمد (١٨٤٧٢) ، (١٩٣٦٩) وحسنه الألباني . انظر صحيح الجامع (٣٠١٤)
(٧)زيادة من أ . (٨)في أ : التحديث بالنعم .

الله ، قـال :فانتظرته حـتى وضع [ما على ظـهره][(١)] ،وقلت له: أمـا تحسن غـير [هذا؟][(٢)] قال: بلى أحـسن خيرًا كثيـرًا ، أقرأ كتاب الله، غـير أن العبد بين نـعمة وذنب، فأحمد الله على نعمائه السابغة، وأسـتغفره لذنوبى. فقلت: الحمال أفقه من بكر .

وذكر الترمذى[(٣)] من حديث جابر بن عبد اللـه رضى الله عنهما ،قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: **لقد قرأتها على الجن ليلة [الجن][(٤)]، فكانوا أحسن ردًا منكم ،كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قـالوا :لا بشىء من نعـمك ربنا نكذب فلك الحمد».**

وقال مسـعر : لما قيل لآل داود : ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ :١٣] ، لم يأت على القوم ساعة إلا وفيهم مصلٍّ.

وقال عون بن عبد الله : قـال بعض الفقهاء : إنى رأيت فى أمرى، [فلم][(٥)] أر خيرًا إلا شر معه إلا المعافاة والشكر ،فرب شـاكر فى بلائه، ورب معافى غير شاكر، فإذا سألتم الله فاسألوهما جميعًا.

وقال أبو أمامة: لبس عمر بن الخطاب قميـصًا، فلما بلغ ترقوته قال: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى، وأتجمل به فى حياتى، ثم مد يديه ،فنظر شيئًا يزيد على يديه، فقطعه ،ثم أنشأ يحدث ،قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **من لبس ثوبًا (أحسبه قال جديدًا) فقال حين يبلغ ترقـوته، أو قال قبل أن يبلغ ركبتيه مثل ذلك ثم عمد إلى ثوبه الخلق فكساه مسكيناً لم يزل فى جوار الله، وفي ذمة الله، وفي كنف الله ،حيًا وميتًا ، حيًا وميتًا ، حيًا وميتًا وما بقى من ذلك الثوب سلك** » [(٦)].

وقال عون بن عبد الله : لبس رجل قميصًا جديدًا ، فحمد الله، فغفر له. فقال

---

(١) في أ : الحمل . (٢) في أ : إذا .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٩١) والحاكم (٣٧٦٦) وابن أبي الدنيا في الشكر (٦٩) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٣٢) وابن عدي في الكامل (٣/ ٢١٩) وحسنه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (٢١٥٠) .

(٤) سقط من أ .

(٥) في ط و ب : لم .

(٦) أخرجه الترمذي (٣٥٦٠) وابن ماجـة (٣٥٥٧) وأحمد (٣٠٥) وابن المبارك في الزهد (٧٤٩) وابن أبي الدنيا في الشكر (٧٥) والحاكم (٧٤١٠) وابن السني في عمل اليوم والليلة وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٥٨٢٧) .

رجل :لا أرجع حتى أشترى قميصًا فألبسه وأحمد الله.

وقال شريح: ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نعم، ألا تكون كانت فى دينه، وألا تكون أعظم[ق/ ١٦٥أ] مما كانت، وأنها لا بد كائنة فقد كانت .

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز: ما قلب عمر بن عبد العزيز بصره إلى نعمة أنعم الله بها عليه إلا قال : «اللهم إنى أعوذ بك أن أبدل نعمتك كفرًا وأن أكفرها][1] بعد أن عرفتها، وأن أنساها ولا أثنى بها».

وقال روح بن القاسم: تنسك رجل فقال .لا آكل الخبيص لا أقوم بشكره، فقال الحسن: هذا أحمق، وهل يقوم بشكر الماء البارد ؟

وفي بعض الآثار الإلهية يقول الله عز وجل: « ابن آدم خيرى إليك نازل ، وشرك إلى صاعد ،أتحبب إليك بالنعم ،وتتبغض إلى بالمعاصى، ولا يزال ملك كريم قد عرج إلى منك بعمل قبيح » [2].

قال ابن أبى الدنيا[3] حدثنى أبو على قال: كنت أسمع جارًا لي يقول فى الليل: يا إلهى خيرك على نازل وشرى إليك صاعد، كم من ملك كريم قد صعد إليك منى بعمل قبيح، وأنت مع غناك عنى تتحبب إلى بالنعم ،وأنا مع فقرى إليك وفاقتى أتمقت إليك بالمعاصى، وأنت فى ذلك تجبرنى وتسترنى وترزقنى .

وكان أبو المغيرة إذا قيل له : كيف أصبحت يا أبا محمد؟ قال: أصبحنا مغرقين فى النعم، عاجزين عن الشكر ،يتحبب إلينا ربنا وهو [غنى عنا][4] ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون.

وقال عبد الله بن ثعلبة: إلهى من كرمك [أنك][5] تطاع ولا تعصى، ومن حلمك أنك تعصى وكأنك لا ترى ،وأى زمن لم يعصك فيه سكان أرضك وأنت عليهم بالخير عواد.

وكان معاوية بن قرة إذا لبس ثوبا جديدا قال: بسم الله والحمد لله.

وقال أنس بن مالك : ما من عبد توكل بعبادة الله إلا غرم الله السموات

---

(١)في أ : أكفر بها .

(٢)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٤٣) والبيهقي في الشعب (٤٢٦٩) وأبو نعيم في الحلية (٢/٣٧٨) قال الألباني : موضوع . انظر السلسلة الضعيفة (٣٢٨٧).

(٣)أخرجه في الشكر (٤٤) .

(٤)في أ : تقديم وتأخير .

(٥)في أ : كأنك .

والأرض يعني رزقه ،فجعله فى أيدى بنى آدم يعملونه حتى يدفع عنهم إليه، فإن [العبد][١] قبله أوجب عليه الشكر ،وإن أباه وجد الغنى الحميد عبادًا فقراء يأخذون رزقه ويشكرون له .

وقال يونس بن عبيد : قال رجل لأبى تميمة: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بين نعمتين، لا أدرى أيتهما أفضل ذنوب سترها الله [عز وجل][٢] فلا يستطيع أن يعيرنى بها أحد، ومودة قذفها الله فى قلوب العباد لا يبلغها عملى.

وروى ابن أبى الدنيا [٣]: عن سعيد المقبرى عن أبيه عن عبد الله بن سلام [رضي الله عنه][٤]، أن موسى عليه السلام قال : « يارب ما الشكر الذى ينبغى لك؟» قال : «لا يزال لسانك رطبًا من ذكرى» .

وروى سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه ،قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ فانطلقنا معه، فلما طعم وغسل يديه، قال: « **الحمد لله الذى يطعم ولا يطعم ،من علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا، وكل بلاء حسن أبلانا ، الحمد لله غير مودع ربى ولا مكافأ [ولا مكفور][٥] ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذى أطعم من الطعام، وسقى من الشراب وكسى من العرى ،وهدى من الضلالة، وبصر من العمى، وفضل على كثير ممن خلق تفضيلا الحمد لله رب العالمين** » [٦].

وفي مسند الحسن بن الصلاح من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :« **ما أنعم الله على عبد نعمة فى أهل ولا مال أو ولد فيقول: ما شاء الله ولا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت** » [٧].

ويذكر عن عائشة رضى الله عنها : أن النبي ﷺ دخل عليها، فرآى كسرة ملقاة فمسحها ، [وقال][٨] :«**يا عائشة أحسنى جوار نعم الله ،فإنها قلما نفرت عن أهل**

---

(١) سقط من ط و ب .
(٢) زيادة من أ .
(٣) اخرجه في الشكر (٣٩) .
(٤) زيادة من أ .
(٥) سقط من أ .
(٦) أخرجه الحاكم (٢٠٠٣) والبيهقي في الشعب (٤٠٦٧) والنسائي في الكبرى (١٠١٣٣) وابن حبان (٥٢١٩) وابن أبي الدنيا في الشكر (١٥) وابن السني (٤٨٦) والطبراني في الدعاء (٨٩٦) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٤٢) .
(٧) أخرجه البيهقي في الشعب (٤٢٠٧) وفي الأسماء والصفات (ص/ ٢٠٧) وابن أبي الدنيا في الشكر (١) وابن أبي يعلي في طبقات الحنابلة (١/ ١٩٣) والطبراني في الأوسط (٤٢٦١) والصغير (٥٨٨) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٥٩) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٥٠٢٦) .
(٨) في أ : فقال .

بيت فكادت أن ترجع إليهم » ذكره ابن أبى الدنيا [١] .

وقال الإمام أحمد [٢]: حدثنا هاشم بن القاسم ،حـدثنا صالح عن أبى عمران الجونى عن أبى الخلد ،قال [ق/٦٦أ] : قرأت فى مـسألة داود أنه قال: « يا رب كيف لى أن أشكر وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنـعمـتك؟ قال فـأتاه الوحى: يا داود أليس تعلم أن الذى بك من النعـم منى ؟ قال: بلى يا رب .قـال فـإنى أرضى بذلك منك شكرًا».

وقال عبد الله بن أحمد [٣]: حدثنا أبو موسى الأنصارى ،حدثنا أبو الوليد عن سعيد بن عبـد العزيز، قال : [كان من][٤] دعاء داود : « سبحان مـستخرج الشكر بالعطاء ، ومستخرج الدعاء بالبلاء » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معـاوية حدثنى الأعمش عن المنهال عن عبد الله ابن الحـارث ،قال: أوحى الله إلـى داود :« أحبنى، وأحب عـبـادتى وحبـبنى إلى عبـادى». قال: يا رب هذا حبك وحب عـبادك. فكيف أحـببك إلى عبـادك؟ قال: «تذكرنى عندهم ، فإنـهم لا يذكرون منى إلا الحسن »[٥] ،فجل جلال ربنا ،وتبارك اسمه، وتعالى جده، وتقدست أسماؤه ،وجل ثناؤه، ولا إله غيره .

وقال أحمد :حـدثنا عبد الرزاق بن عمران، قال: سمـعت وهبًا يقول: وجدت فى كتـاب آل داود : بعزتى [إن][٦] من اعتصـم بى، فإن كادته السموات بمـن فيهن [والأرضون][٧] بمن فيهن، فإنى أجعل له من بين ذلك مخرجًا ومن لم يعتصم بى ، فإنى أقطع يديه من أسباب السماء، وأخـسف به من تحت قدميه الأرض، فأجعله فى الهواء، ثم أكله إلى نفسه. كـفي بى لعبدى مالا ، إذا كان عبـدى فى طاعتى أعطيته قبل أن يسألنى، [وأجبته][٨] له قبل أن يدعونى، وأنى أعلم بحاجته التى ترفق به من نفسه »[٩].

---

(١) أخرجه في الشكر (٢) وابن ماجة (٣٣٥٣) وابن عدي في الكامل (٣/ ٤٢) والبيهقي في الشعب (٤٢٣٦) ، (٤٢٣٧) وضعفه الألباني . انظر الإرواء (١٩٦١) .

(٢) انظر الزهد (ص/ ٧٢) .

(٣) انظر زوائده على الزهد (ص/ ٧٧).

(٤) في أ : تقديم وتأخير .

(٥) ذكره في الإحياء (٤/ ١٤٢) وقال الحافظ العراقي : لم أجد له أصلاً وكأنه من الإسرائيليات .

(٦) في أ : إنه .

(٧) في أ : والأرضين .

(٨) في أ : واستجبت له .

(٩) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣١٨) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٨) .

وقال أحمد (١): حدثنا سيار ثنا [جعفر](٢) حدثنا حفص حدثنا ثابت ، قال: كان داود عليه السلام قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم يكن ساعة من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى فيها .قال : فعمهم تبارك وتعالى فى هذه الآية : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

قال [أحمد](٣): (٤)وحدثنا عبد الرحمن حدثنا جابر بن زيد عن المغيرة بن عيينة، قال داود: يا رب هل [بات] (٥) أحد من خلقك الليلة أطول ذكراً لك منى فأوحى الله إليه: نعم، الضفدع .وأنزل الله عليه: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] ،قال : يا رب ، كيف أطيق شكرك، وأنت الذى تنعم على، ثم ترزقنى على النعمة الشكر ،ثم تزيدنى نعمة، بعد نعمة ، فالنعم منك ، والشكر منك ، فكيف أطيق شكرك؟ قال: الآن عرفتنى يا داود.

[قال أحمد](٦) : (٧) وحدثنا عبد الرحمن ، وحدثنا الربيع بن صبيح،عن الحسن، قال نبى الله داود : « إلهى لو أن لكل شعرة منى لسانين يسبحانك الليل والنهار والدهر ما [وفيت](٨) حق نعمة واحدة ».

وذكر ابن أبى الدنيا(٩)، عن أبى عمران الجونى، عن أبى الجلد، قال: قال موسى ـ عليه السلام : « يا رب كيف لى أن أشكرك وأصغر نعمة وضعتها عندى من نعمك لا يجازى بها عملى كله؟ قال: فأتاه الوحى: «يا موسى الآن شكرتنى» .

قال بكر بن عبد الله :ما قال عبد قط: « الحمد لله » إلا وجبت عليه نعمة بقوله: «الحمد لله» فجزاء تلك النعمة أن يقول : «الحمد لله» فجاءت نعمة أخرى فلا تنفد نعم الله (١٠).

وقال الحسن : سمع النبي ﷺ رجلا يقول : الحمد لله بالإسلام، فقال: « **إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة** »(١١).

---

(١)أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٢٧) من طريق احمد .
(٢)في ط و ب : حفص .
(٣)سقط من أ .
(٤)انظر الزهد (ص/ ٦٩ـ ٧٠).
(٥)في أ : يات
(٦)سقط من أ .
(٧)انظر الزهد (ص/ ٦٩) .
(٨)في أ : قضيت .
(٩)أخرجه في الشكر (٦) . وفيه صالح المرى . متروك .
(١٠)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٧) .
(١١)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٩) .

وقال خالد بن معدان : سمعت عبد الملك بن مروان يقول: ما قال عبد كلمة أحب إلى الله وأبلغ فى الشكر عنده [من][١] أن يقول: « الحمد لله الذى أنعم علينا وهدانا للإسلام »[٢].

وقال سليمان التيمى: إن الله سبحانه أنعم على عباده على قدره ،وكلفهم الشكر على قدرتهم[٣] .

وكان الحسن إذا ابتدأ حديثه يقول: « الحمد لله، اللهم ربنا لك الحمد ،بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرجت عنا ،لك الحمد بالإسلام والقرآن ،ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة ،كبت عدونا وبسطت رزقنا ، وأظهرت أمننا ،وجمعت فرقتنا، وأحسنت معافاتنا، ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا، فلك الحمد على ذلك حمداً كثيراً، لك الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا فى قديم أو حديث أو سر أو علانية، أو خاصة، أو عامة، أو حى، أو ميت، [ق/٦٣أ] أو شاهد أو غائب لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت » [٤].

وقال الحسن :قال موسى: « يا رب ،كيف يستطيع آدم أن يؤدى شكر ما صنعت إليه، خلقته بيدك ، ونفخت فيه من روحك ،وأسكنته جنتك، وأمرت الملائكة فسجدوا له؟ فقال: « يا موسى ،علم أن ذلك منى فحمدنى عليه، فكان ذلك شكر ما صنعت إليه»[٥].

وقال سعد بن مسعود الثقفي :«إنما سمى نوح عبداً شكوراً لأنه لم يلبس جديداً ولم يأكل طعامًا إلا حمد الله»[٦].

وكان على بن أبى طالب إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده وقال :يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها [٧].

وقال مخلد بن الحسين :كان يقال :الشكر ترك المعاصى[٨].

وقال أبو حازم :كل نعمة لا تقرب من الله فهى بلية[٩].

وقال [أبو][١٠] سليمان :ذكر النعم يورث الحب لله[١١].

---

(١) سقط من أ .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٠) .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٨) .
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١١) .
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٢) .
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٤) .
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٣) .
(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٤١) .
(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٢٠) .
(١٠) سقط من أ .
(١١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٢١) .

وقال حماد بن زيد: حدثنا ليث، عن أبى بردة، قال: قدمت المدينة، فلقيت عبد الله ابن سلام، فقال لى: ألا تدخل بيتًا دخله النبي ﷺ وتصلي في بيت صلى فيه النبي ﷺ ونطعمك سويقًا وتمرًا؟ ثم قال: إن الله إذا جمع الناس غدا ذكرهم بما أنعم عليهم. فيقول العبد: ما آية ذلك؟ فيقول: آية ذلك أنك كنت فى كربة كذا وكذا [قد دعوتنى][(١)] فكشفتها، وآية ذلك أنك كنت فى سفر كذا وكذا فاستصحبتنى فصحبتك. قال: يذكره حتى يذكر. فيقول: آية ذلك أنك خطبت فلانة بنت فلان وخطبها معك خطاب فزوجتك ورددتهم[(٢)]. يقف عبده بين يديه، فيعدد عليه نعمه، فبكاهم بكاءً ثم قال: إنى لأرجو الله أن لا يقعد الله عبدًا بين يديه فيعذبه [(٣)].

وروى ليث بن أبى سليم، عن عثمان، عن ابن سيرين، عن [أنس][(٤)] بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: « **يؤتى بالنعم يوم القيامة والحسنات والسيئات فيقول الله عز وجل لنعمة من نعمه: خذى حقك من حسناته، فما تترك [من][(٥)] حسنة إلا ذهبت بها**»[(٦)].

وقال بكر بن عبد الله المزنى: ينزل بالعبد الأمر، فيدعو الله فيصرف عنه، فيأتيه الشيطان، فيضعف شكره، يقول: إن الأمر كان أيسر مما تذهب إليه. قال: أولا يقول العبد كان الأمر أشد مما ذهبت إليه، ولكن الله صرفه عنى[(٧)].

وذكر ابن أبى الدنيا [(٨)]، عن صدقة بن يسار، قال: «[بينا][(٩)] داود عليه السلام فى محرابه، إذ مرت به ذره، فنظر إليها وفكر فى خلقها وعجب منها، وقال: ما يعبأ الله بهذه؟ فأنطقها الله فقالت: يا داود، أتعجبك نفسك؟ فوالذى نفسى بيده لأنا على ما آتانى الله من فضله أشكر منك على ما آتاك الله من فضله».

وقال أيوب: إن نعمة الله على عبده أن يكون مأمونًا على ما جاء به النبي ﷺ[(١٠)].

وقال سفيان الثورى: كان يقال: ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء

---

(١) في أ: فدعوتني.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٢٢).
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٢٣).
(٤) سقط من أ.
(٥) في أ: له.
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٢٤) وفي إسناده صالح بن موسى الطلحي وهو متروك.
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٢٦).
(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٣٥).
(٩) في ط و ب: بينما.
(١٠) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٧٩).

مصيبة[١].

وقال [زاذان][٢]: مما يجب لله على ذى النعمة بحق نعمته أن لا يتوصل بها إلى معصية[٣].

قال ابن أبي الدنيا [٤] أنشدنى محمود الوراق :

إذا كـان شكـرى نعـمة الله نعـمة	على له فى مـثلها يجـب الشكـر
فكيف [بلوغ][٥] الشكر إلا بفضله	وإن طـالت الأيام واتصـل العمر
إذا مـس بالـسراء عـم ســرورهـا	وإن مس بالـضراء أعقبهـا الأجر
ومـا منـهـما إلا لـه فيــــه منـــة	تضـيق بها الأوهام والبـر والبحر

وقد روى الدراوردى ،عن عـمرو بن أبى عمرو، عـن سعيد المقـبرى ،عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :« يعنى قال الله عز وجل: «**إن المؤمن عندي بمنزلة كل خير [ق/ ٦٨أ]، يحمدنى وأنا أنزع نفسه من بين جنبيه**» [٦].

ومر محـمد بن المنكدر بشاب يغامـز امرأة فقال: يا فتى! مـا هذا جزاء نعم الله عليك[٧].

وقال حمـاد بن مسلمة عن ثابت قال :قال أبو العـالية: إنى لأرجو أن لا يهلك عبد بين اثنتين: نعمة يحمد الله عليها، وذنب يستغفر منه [٨].

وكتب ابن السـماك إلى محـمد بن الحسن حين ولى القـضاء بالرقة: أمـا بعد، فلتكن التقـوى من بالك على كل حال ،وخف الله من كل نعمـة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعـصية بها ،فإن فى النعمة حـجة وفيها تبعة، فأمـا الحجة بها فالمعصيـة بها، وأما التبعة فيهـا فقلة الشكر عليها . فعفا الـله عنك كلما ضيعت من شكر، أو ركبت من ذنب أو قصرت من حق [٩] .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٨١) .

(٢) في ط : زياد .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٨٢).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٨٣) .

(٥) في ط و ب : وقوع .

(٦) أخرجه أحمد (١٨١٦) والبزار في كشف الأستار (٧٨١) رابن أبي الدنيا في الشكر (٨٤) وصححه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (١٦٣٢) .

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٨٦) .

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٨٨) .

(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٨٩) .

ومر الربيع بن أبى راشد برجل به زمانة ، فجلس يحمد الله ويبكى، فقيل له: ما يبكيك ؟ قال : ذكرت أهل الجنة وأهل النار، فشبهت أهل الجنة بأهل العافية وأهل النار بأهل البلاء. فذلك الذى أبكانى»[١] .

وقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: « **إذا أحب أحدكم أن يعلم قدر نعمة الله عليه فلينظر إلى من هو تحته ولا ينظر إلى من هو فوقه**»[٢]. قال عبد الله بن المبارك[٣] : أخبرنى يحيى بن عبيد الله قال : سمعت أبى قال سمعت أبا هريرة فذكره .

وقال عبد الله بن المبارك [٤] [حدثنا][٥] يزيد بن إبراهيم، عن الحسن قال : قال أبو الدرداء: من لم يعرف نعمة الله عليه إلا فى مطعمه ومشربه فقد قل عمله وحضر عذابه .

وقال ابن المبارك[٦] : أخبرنا مالك بن أنس ،عن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن أنس ﷺ قال : سمعت عمر بن الخطاب ﷺ سلم على رجل، فرد عليه السلام فقال عمر للرجل: كيف أنت قال الرجل: أحمد إليك الله، قال : هذا ما أردت منك.

قال ابن المبارك[٧] : وأخبرنا مسعر ،عن علقمة بن مرثد ،عن ابن عمر ﷺ قال: لعلنا نلتقى فى اليوم مراراً يسأل بعضنا عن بعض ولم يرد بذلك إلا ليحمد الله عز وجل.

وقال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان: ٢٠] ، قال: لا إله إلا الله[٨] .

وقال ابن عيينة: ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله، قال: وإن لا إله إلا الله لهم فى الآخرة كالماء [البارد][٩] فى الدنيا »[١٠] .

وقال بعض السلف فى خطبته [في][١١] يوم عيد: أصبحتم زهراً وأصبح الناس

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٩٠) .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٩١) .
(٣) أخرجه في الزهد (١٤٣٣) .
(٤) أخرجه في الزهد (١٥٥١) .
(٥) في أ : ثنا .
(٦) أخرجه في الزهد (٢٠٥) .
(٧) أخرجه في الزهد (٣٠٧) وورواه ابن أبي الدنيا في الشكر (٩٤) والبيهقي في الشعب (٤١٣٧) .
(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٩٥)
(٩) سقط من ط و ب .
(١٠) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٩٦) .
(١١) سقط من ط و ب .

غبـرًا، أصبح الناس ينسجـون وأنتم تلبسون ،وأصبح الـناس يعطون وأنتم تأخذون، وأصبح النـاس ينتجون وأنتم تـركبون وأصـبح الناس يزرعون وأنتم تأكلـون، فبكى وأبكاهم» (١) .

وقال عبد الله بن قرط الأزدي ـ وكان من الصحابة ـ على المنبر وفي يوم أضحى ورأى على الناس ألوان الثياب :« يا لها مـن نعمة ما أسبغها، ومن كـرامة ما أظهرها ما زال عن قوم شيـئًا أشد من نعمـة لا يستطيعون ردها ، وإنما تثبـت النعمة بشـكر المنعـم عليه للمنعم» (٢) .

وقال سلمان الفارسي ﷺ :« إن رجلا بسط له من الدنيا ،فانتزع ما في يديه، فجعل يحمد الله ويثنى عليه ،حتـى لم يكن له فراش إلا بارية. قال : فجعل يحمد الله ويثنى عليه ، وبسط لآخـر من الدنيا ، فقال لصـاحب البارية: أرأيتك أنت على ما تحـمد الله؟ قـال : أحمـده على ما لو أعطيت به مـا أعطى الخلق لم أعطهم إياه [به] (٣) . قـال : ومـا ذاك؟ قـال : أرأيت بصـرك ،أرأيت لسـانك، أرأيت يديك، أرأيت رجليك» (٤) .

وجاء رجل إلى يونس بن عبيد يشكو ضيق حاله، فقال له يونس: أيسرك ببصرك هذا مائة ألف درهم؟ قال الرجل :لا، قال : فبيديك مائة ألف؟ قال : لا. فبرجليك مائة ألف؟ قـال : لا، قال : فـذكره نعم الله عليـه ،فقال يونس: أرى عـندك مئين [ألوف] (٥) وأنت تشكو الحاجة» (٦) .

وكان أبو الدرداء [رضي الله عنه] (٧) يقول: «الصحة: الملك» (٨) .

وقال جـعفر بن محـمد ﷺ: «فقـد أبى بغلة له ، فقـال : إن ردها الله على لأحمـدنه بمحامـد [يرضاها] (٩) فمـا لبث أن أتى بسرجهـا ولجامها، فـركبهـا فلما [ق/ ١٦٩أ] استـوى عليها وضـم إليه ثيابه رفع رأسه إلى السمـاء فقال : الحمد لله لم يزد عليها ، فـقيل له في ذلك ، فقال : هل تركت وأبقـيت شيئًا جـعلت الحمد كله لله» (١٠) .

---

(١)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٩٧) .
(٢)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٩٨) .
(٣)سقط من ط و ب .
(٤)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٠٠) .
(٥)في ط : الألوف .
(٦)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٠١) .
(٧)زيادة من أ .
(٨)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٠٢) .
(٩)في ط و ب : يرضاه .
(١٠)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٠٦) .

وروى ابن أبى الدنيا[١] ،من حديث [سعد][٢] بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن أبيه، عن جده، قال : «بعث رسول الله ﷺ بعثًا من الأنصار، وقال :« **إن سلمهم الله وغنمهم فإن لله على فى ذلك شكرًا**، قال : فلم يلبثوا أن غنموا وسلموا، فقال [بعض أصحابه][٣] :سمعناك تقول: إن سلمهم الله وغنمهم فإن لله على فى ذلك شكرًا ،قال : «**قد فعلت، اللهم لك الحمد شكرًا ولك [المن][٤] فضلا**».

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : محمد بن المنكدر لأبى حازم: يا أبا حازم، ما أكثر من يلقانى فيدعو لى بالخير، ما أعرفهم وما صنعت إليهم خيرًا قط! فقال : أبو حازم : لا تظن أن ذلك من قبلك، ولكن انظر إلى الذى ذلك من قبله فاشكره ،وقرأ أبو عبد الرحمن :﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦][٥] .

وقال على بن الجعد: حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون، حدثنى من أصدقه:« أن أبا بكر الصديق ﷺ كان يقول فى دعائه: أسألك تمام النعمة فى الأشياء كلها والشكر لك عليها حتى ترضى وبعد الرضا والخيرة فى جميع ما تكون فيه الخيرة بجميع ميسور الأمور كلها لا معسورها يا كريم»[٦] .

وقال الحسن: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال : الحمد لله إلا كان ما أعطى أكثر مما أخذ»[٧] ،قال ابن أبى الدنيا :وبلغنى عن سفيان بن عيينة أنه قال : هذا خطأ لا يكون فعل العبد أفضل من فعل الله ،ثم قال : وقال بعض أهل العلم: إنما تفسير هذا أن الرجل إذا أنعم الله عليه نعمة وهو ممن يجب عليه أن يحمده عليه عرفه ما صنع به فشكر الله كما ينبغى له أن يشكره ،فكان الحمد له أفضل .

قلت : لا يلزم الحسن ما ذكر عن ابن عيينة، فإن قوله: الحمد لله نعمة من نعم الله، والنعمة التى حمد الله عليها أيضًا نعمة من نعم الله، وبعض النعم أجل من بعض، فنعمة الشكر أجل من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها. والله أعلم.

---

(١) أخرجه في الشكر (١٠٥)
(٢) سقط من أ .
(٣) في أ : بعضهم
(٤) في أ : الحمد .
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٠٨) .
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٠٦) .
(٧) أخرجه في الشكر (١٠٥) .

وهذا لا يستلزم أن يكون فـعل العبد أفضل من فـعل الله ،وإن دل على أن فعل العبد للشكر قد يكون أفضل من بعض مفعول الله ،وفعل العبد هو مفعول الله ،ولا ريب أن بعض مفعولاته أفضل من بعض.

وقال بعض أهل العلم :« لنعم الله علينا فيما زوى عنا من الدنيا أفضل من نعمه علينا فيما بسط لنا منها ،وذلك أن الله لم يرض لنبيه[ﷺ](١) الدنيا، فلئن أكن فيما رضى الله لنبيه وأحب له أحب إلى من أن أكون فيما كره له وسخطه»(٢) .

وقال ابن أبى الدنيا(٣) : وبلغنى عن بعض العلماء أنه قـال :« ينبغى للعالم أن يحمد الله على ما زوى عنه من شهوات الدنيا ،كما يحمده على ما أعطاه ،وأين يقع ما أعطاه اللـه، والحساب يأتى عليـه، إلى ما عافـاه الله ولم يبتله به، فـيشـغل قلبه ويتعب جوارحه، فيشكر [ربه](٤) على سكون قلبه وجمع همه» .

[وحدثت](٥) عن ابن أبى الحوارى قال : جلـس فضيل بن عياض وسـفيان بن عيينة ليلة إلى الصبـاح يتذاكران النعم ،فجعل سفيـان يقول: أنعم الله علينا فى كذا [وكذا](٦) ، أنعم الله علينا فى كذا ،فعل بنا كذا [فعل بنا كذا](٧) »(٨) .

وحدثنا عبد الله بن داود عن سفيان فى قوله : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٢] ،قال : « يسبغ عليهم النعم ،ويمنعهم الشكر»(٩) .

وقال غير سفيان :« كلما أحدثوا ذنبًا أحدث لهم نعمة»(١٠) .

وسئل ثابت البنانى عن الاستدراج ،فقال :« ذلك مكر الله بالعباد المضيعين»(١١).

وقال يونس فى تفسيرها:« إن العبد[ق/ ٧٠أ] إذا كانت له عند الله منزلة فحفظها وبقى عليـهـا، ثم شكر الله بمـا أعطاه، أعطاه أشـرف منهـا .وإذا هو ضـيع الشكر استدرجه الله، وكان تضييعه الشكر استدراجًا »(١٢) .

---

(١)زيادة من أ .
(٢)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١١٢) .
(٣)أخرجه في الشكر (١١٣) .
(٤)في أ : الله .
(٥)في ط و ب : وحدث .
(٦)سقط من أ .
(٧)سقط من ط و ب .
(٨)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١١٤) .
(٩)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١١٥) .
(١٠)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١١٦) .
(١١)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١١٧) .
(١٢)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١١٨) .

وقال أبو حازم: نعمة الله فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطانى منها ،إنى رأيته أعطاها أقوامًا فهلكوا (١) ،وكل نعمة لا تقرب من الله [فهى](٢) بلية، وإذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره» .

وذكر كاتب الليث ،عن هقل ،عن الأوزاعى، أنه وعظهم، فقال فى موعظته: أيها الناس تقووا بهذه النعم التى أصبحتم فيها ،على الهرب من نار الله الموقدة التى تتطلع على الأفئدة ،فإنكم فى دار [الثوى](٣) فيها قليل وأنتم فيها مرجون خلائف من بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا أنفعها وزهرتها، فهم كانوا أطول منكم أعمارًا وأمد أجسامًا وأعظم آثارًا، فقطعوا الجبال ،وجابوا الصخور، ونقبوا فى البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجسام كالعماد، فما لبثت الأيام والليالى أن طوت مددهم،وعفت آثارهم وأخوت منازلهم، وأنست ذكرهم، فما تحس منهم من أحد ، ولا تسمع لهم ركزًا .كانوا يلهون آمنين، [كبيات](٤) قوم غافلين ،أو [كصباح](٥) قوم نادمين .ثم إنكم قد علمتم الذى نزل بساحتهم بياتًا من عقوبة الله، فأصبح كثير منهم فى دارهم جاثمين وأصبح الباقون ينظرون فى آثار [نقمته](٦) ، وزوال نعمة، ومساكن خاوية، فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم، وعبرة لمن يخشى. وأصبحتم من بعدهم فى أجل منقوص ، ودنيا مقبوضة ، وزمان قد ولى عفوه ،وذهب رخاؤه فلم يبق منه إلا حماة شر وصبابة كدر ،وأهاويل عبر ،وعقوبات غير، وإرسال فتن، وتتابع زلازل ،[ورذلة](٧) خلف. بهم ظهر الفساد فى البر والبحر. [فلا](٨) تكونوا أشباهًا لمن خدعه الأمل ،وغره طول الأجل، وتبلغ [بطول الأمانى](٩) ،نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن وعى إنذاره وعقل بشره فمهد لنفسه»(١٠) .

وكان يقال :« الشكر ترك المعصية»(١١) .

وقال ابن المبارك: قال سفيان: «ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة»(١٢) .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٢٠) .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) في أ : المثوى .
(٤) في ط و ب : البيات .
(٥) في ط و ب : لصباح .
(٦) في ط و ب : نقمة .
(٧) في أ : ورذالة .
(٨) في ط و ب : ولا .
(٩) في أ : بالأماني .
(١٠) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٣٠) .
(١١) تقدم تخريجه .
(١٢) تقدم تخريجه .

وكان مـروان بن الحكم إذا ذكر الإسـلام قال :« بنعـمة ربى وصلت إلـيه لا بما قدمت يدى ولا بإرادتى إنى كنت خاطئًا»(١) :

وكم من مدخل لو مت فيه لكنت فيـه نكالا فى العـشيرة

وقيت السوء والمكـروه فيـه [وظفرت](٢) بنعمـة منـه كبـيرة

وكم من نعمـة لله تمـسى وتصبح فى العيان وفي السريرة (٣)

«ودعى عثمان بن عفان ﷺ إلى قوم على ريبة، فانطلق ليأخذهم، فتفرقوا قبل أن يبلغهم، فأعتق رقبة شكرًا لله أن لا يكون جرى على [يديه](٤) خزى مسلم»(٥).

قال يزيد بن هارون: أخبـرنا أصبغ بن [يزيد](٦) أن نوحًا عليه السلام كان إذا خرج من الخـلاء قال : «الحمـد لله الذى أذاقنى لذته ،وأبقى منفـعته فى جـسدى، وأذهب عنى أذاه، فسمى عبدًا شكورًا»(٧) .

وقال ابن أبى الدنيا (٨) : حدثنى العـباس بن جعـفر، [ثنا شاذ بن فـياض](٩) حدثنا الحارث بن شبل، قال : حدثتنا أم النعمان : أن عائشة ﷺ حدثتها عن النبي ﷺ: « أنه لم يقم عن خلاء قط إلا قاله» .

«وقال رجل لأبى حازم: ما شكر العينين يا أبا حـازم؟ قال :إن رأيت بهما خيرًا أعلنته، وإن رأيت بهما شرًا سترته .قـال : فما شكر الأذنين؟ قال :إن سمعت بهما خيرًا وعيته، وإن سمعت بهما شـرًا دفعته .قال : فما شكر اليدين؟[ق/ ٧١أ] قال : لا تأخذ بهـما ما ليس لهمـا ولا تمنع حقاً هو لله هو فيـهما قال: فـما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفله طعامًا وأعلاه علمًا. قال : فما شكر الفرج ؟ قال : قال الله : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:٥ ـ٧] ، قال : فـما شكر الرجلين ؟ قال :إن علمت ميـتًا تغبطه استعملت بـهما عمله ،وإن مقتـه رغبت عن عمله وأنت شاكر لله .وأما من شكر بـلسانه، ولم يشكر بجميع أعضائه، فمـثله كمثل رجل له كساء، فأخذ بطرفه ولم يلبسه، فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر»(١٠) .

---

(١)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٢١)

(٢)في أ : ورحت .

(٣)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٢٣) .

(٤)في أ : يد .

(٥)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٢٤) .

(٦)في أ : زيد .

(٧)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٢٨) .

(٨)أخرجه في الشكر (١٢٧) .

(٩)سقط من ب .

(١٠)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٢٩) .

وذكر عبد الله بن المبارك(١) : أن النجاشى أرسل ذات يوم إلى جعفر وأصحابه، فدخلوا عليه وهو فى بيت عليه خلقان جالس على التراب، قال جعفر :فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال ،فلما رأى ما فى وجوهنا قال : إنى أبشركم بما يسركم، إنه جاءنى من نحو أرضكم عين لى فأخبرنى أن الله قد نصر نبيه ﷺ وأهلك عدوه، وأسر فلان وفلان، وقتل فلان وفلان، التقوا بواد يقال : له بدر كثير الأراك ،كأنى أنظر إليه كنت أرعى به لسيدى - رجل من بنى ضمرة - فقال له جعفر: ما بالك جالسًا على التراب، ليس تحتك بساط ،وعليك هذه الأخلاق قال : إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى عليه السلام أن حقًا على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعًا عندما أحدث الله لهم من نعمه، فلما أحدث الله لى نصر نبيه أحدثت لله هذا التواضع .

وقال حبيب بن عبيد: « ما ابتلى الله عبدًا ببلاء إلا كان له عليه فيه نعمة ألا يكون أشد منه»(٢) .

وقال عبد الملك بن إسحاق (٣) بن أبجر :«ما من الناس إلا مبتلى بعافية لينظر كيف شكره ،أو بلية لينظر كيف صبره» .

وقال سفيان الثورى :«لقد أنعم الله على عبد فى حاجة أكثر من تضرعه إليه فيها»(٤) .

«وكان رسول الله ﷺ إذا جاءه أمر يسره خر لله ساجدًا شاكرًا له عز وجل». ذكره أحمد(٥).

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه :خرج علينا النبي ﷺ، فتوجه نحو صدقته ، فدخل فاستقبل القبلة فخر ساجدًا فأطال السجود، فقلت: يا رسول الله ، سجدت سجدة [خشيت](٦) أن يكون الله قد قبض نفسك فيها ،فقال : « **إن جبريل أتانى فبشرنى أن الله عز وجل يقول لك : من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه، فسجدت لله شكرًا**» ذكره أحمد (٧) .

---

(١) أخرجه نعيم بن حماد في زوائده على الزهد (١٩٢) .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٣١) .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٣٢) .
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٣٤) .
(٥) أخرجه أحمد (٢٠٤٧٣) وأبو داود (٢٧٧٤) والترمذي (١٥٧٨) وابن ماجة (١٣٩٤) وابن أبي الدنيا في الشكر (١٣٥) وصححه الألباني . انظر صحيح أبي داود (٢٤١٢) .
(٦) في ط و ب : حسبت .
(٧) أخرجه أحمد (١٦٦٤) وأبو يعلي في مسنده (٨٤٧) ، (٨٥٨) ، (٨٦٩) والحاكم (٢٠١٩) والبيهقي (٣٧٥٢) ، (٣٧٥٣) وعبد بن حميد في المنتخب (١٥٧) وابن أبي الدنيا في الشكر (٧) وحسنه الألباني . انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٦٥٨) .

وعن سعد بن أبى وقاص ﷺ قال : خرجنا مع النبي ﷺ من مكة نريد المدينة، فلما كنا قـريبًا من [عزوراء][(١)] نزل ثم رفع يديه ودعا الله سـاعة، ثم خر سـاجدًا فمكث طويلا ،ثم قام فرفع يديه ساعـة ،ثم خر ساجدًا ـ فعله ثلاثًا ـ وقال :« **إنى سألت ربى [و][(٢)] شفعت لأمتى، فأعطانى ثلث أمـتى، فخررت ساجداً شكراً لربى، ثم رفعت رأسى فـسألت ربى لأمـتى، فأعطانى ثلث أمتـى ،فخررت سـاجّدا لربى ثم رفعت رأسى فسـألت ربى فأعطانى [الثلث الآخر][(٣)] فخررت ساجداً لربى**». رواه أبو داود [(٤)].

وذكر محمـد بن إسحاق فى كتاب (الفتوح) قال :« لما جـاء المبشر يوم بدر بقتل أبى جهل استحلفه رسول الله ﷺ **ثلاثة أيمان** بالله الذى لا إله إلا هو لقد رأيته قتيلا فحلف له، فخر رسول الله ﷺ ساجدًا»[(٥)] .

وذكـر سعـيد بن منـصور :«**أن أبا بكر الصـديق ﷺ سجـد حين جاءه قـتل مسيلمة**».

وذكر أحمد[(٦)] :« أن عليا ﷺ سجد حين وجد ذات الثدية فى الخوارج» .

«وسجد كعب بن مالك فى عهـد النبي ﷺ لما بشر بتوبة الله عليه، والقصة فى الصحيحين» [(٧)].

فإن قيل : فنعم الله دائمًا مستمـرة على العبد، فما الذى [اقتضى][(٨)] تخصيص النعمة الحادثة بالشكر دون الدائمة ،وقد تكون المستدامة أعظم

[قيل][(٩)] : الجواب من وجوه :

أحدها: أن النعمة المتجددة تذكر المستدامة ،والإنسان موكل بالأدنى[ق/ ٧٢أ].

الثاني: أن هذه النعمـة المتجددة تسـتدعي عبودية مـجددة، وكان أسـهلها على

---

(١) في ط و ب : عزور . (٢) في أ : ثم .

(٣) في أ : ثلث امتي .

(٤) أخرجه أبو داود (٢٧٧٥) والبيهقي في الكبرى (٣٧٥٠) وضعفه الألباني . انظر ضعيف أبي داود (٥٩٠) .

(٥) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٨٩) . عن ابن إسحاق مفصلاً .

(٦) أخرجه أحمد (١٢٥٤) وحسنه الألباني . انظر الإرواء (٤٧٦) .

(٧) أخرجه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) .

(٨) في أ : اختص .

(٩) سقط من أ .

الإنسان وأحبها إلى الله السجود شكراً له .

الثالث : أن المتجددة لـها وقع فى النفوس ،والقلوب بها أعلق، ولهـذا يهنى بها ويعزى بفقدها .

الرابع : أن حدوث النعم توجب فرح النفس وانبساطها ،وكثيراً ما يجر ذلك إلى الأشر والبطر ، والسـجود ذل لله وعبـودية وخضوع؟ فـإذا تلقى به نعمتـه [لسروره وفرح النفس](١) وانبســاطها ،فكان جديراً بدوام تلـك النعمة. وإذا تلقـاها بالفرح الذى لا يحبه الله تعالى والأشر والبطر، كما يفعله الجهال عندما يحدث الله لهم من النعم، كانت سريعة الزوال، وشيكة الانتقال ، وانقلبت نقمة ،وعادت استدراجًا وقد تقدم أمر النجاشى، فإن الله إذا أحدث لعبده نعمة أحب أن يحدث لها تواضعًا .

وقال العلاء ابن المغيرة: «بشرت الحسن بموت الحجاج ، وهو مختف ، فخر لله ساجداً» .

فصل

ومن دقـيق نعم الله علـى العـبد، الـتى لا يكاد يفطن لهـا : أنه يغلق عليـه بابه، فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئًا من القوت، ليعرفه نعمته عليه .

وقال سلام بن أبى مطيع :« دخلت على مريض أعوده ،فإذا هو يئن، فقلت له: اذكر المطروحين على الطريق ، اذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم. قال : ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعتـه يقول لنفسه: اذكرى المطروحين فى الطريق، اذكرى من لا مأوى له ولا له من يخدمه»(٢) .

وقال عبد الله بن أبى نوح : «قـال لى رجل على بعض السواحل: كم عاملته ـ تبارك اسـمه ـ بما يكره فعاملك بما تحب؟ قلت: مـا أحصى ذلك كثرة. قـال : فهل قصـدت إليه فى أمـر كربك فخـذلك ؟ قلت لا والله ،ولكنه أحسـن إلى وأعاننى. قال: فهل سألتـه شيئًا [فلم يعطكه](٣) ؟ قلت : وهل منعنى شيئا سـألته؟ ما سألته شيئًا قط إلا أعطانى،[ولا اسـتغثت به إلا أعاننى](٤) قال : أرأيت لو أن بعض بنى آدم فعل بك بعض هذه الخلال، ما كان جـزاؤه عندك؟ قلت :ما كنت أقدر له مكافأة ولا جزاء. قال : فربك أحق وأحرى أن تذيب نفسك له فى أداء شكره، وهو المحسن

---

(١) في أ : كسر سورة مزح النفس .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٤٠) .

(٣) في أ : فأعطاكه .

(٤) في أ : ولا استغثت به إلا أغاثني .

قديمًا وحديثًا إليك، والله لشكره أيسر من مكافـأة عباده ،إنه تبارك وتعالى رضى من العباد بالحمد شكرًا»[١] .

وقال سفيان الثورى:« ما كان الله لينعم على عبد فى الدنيا فيفضحه فى الآخرة، ويحق على المنعم أن يتم النعمة على من أنعم عليه»[٢] .

وقال ابن أبى الحوارى: «قلت لأبى معاوية :ما أعظم الـنعمة علينا فى التوحيد، نسـأل الله أن لا يسلبـنا إياه قـال : يحق على المنعم أن يتـم النعـمـة على من أنعم عليه»[٣]، و«الله أكرم من أن ينعم بنعمة إلا أتمها ،ويستعمل بعمل إلا قبله»[٤] .

وقال ابن أبى الحوارى:« قالت لى امرأة : أنا فى بيتى أمرُ قد شغل قلبى، قلت: وما هو؟ قالت : أريد أن أعرف نعمة الله على فى طرفة عين، أو أعرف تقصيرى عن شكر النعمة على فى طرفة عين . فقلت: تريدين مالا تهتدى إليه عقولنا»[٥] .

وقـال ابن زيد :« إنه ليكون فى المجلس الرجل الواحـد يحـمد الله عـز وجل، فيقضى [لأهل ذلك][٦] المجلس حوائجهم كلهم »[٧].

قال : «وفي بعض الكتـب التى [أنزلها][٨] الله تعالـى أنه قال : سروا عـبدى المؤمن، فكان لا يأتيـه شىء يحبه إلا قـال : الحمد لله مـا شاء الله. قـال : روعوا عبدى المؤمن، فكان لا يطلع عليه طليعة من طلائع المكروه إلا قال : الحمد لله الحمد لله فقـال الله تبارك وتعـالى : إن عبـدى يحمدنى حـين روعته كـما يحـمدنى حين سـررته، أدخلوا عـبـدى دار [عـزتى][٩] كـمـا يحـمـدنى على كل [حـالاته][١٠] [ق/ ١٧٣][١١] .

وقال وهب : «عبد الله عابد خمسين عامًا ،فأوحى الله إليه إنى قد غفرت لك، قال: أى رب ! وما تغفر لى ولم أذنب؟ فـأذن الله لعرق فى عنقه يضرب عليه، فلم ينم ولم يصل، ثم سكن فنام ، فـأتاه ملك فشكا إليه فـقال : ما لقـيت من ضربان العـرق، فـقال الملك : إن ربك يقـول : إن عبـادتك خـمـسين سنة تعـدل سكون العرق»[١٢] .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٤١) .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٤٢) .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٤٣) .
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٤٤) .
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٤٥) .
(٦) في ط و ب : لذلك .
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٤٦) .
(٨) في أ : أنزل .
(٩) في ط و ب : عزي .
(١٠) في أ : حالة .
(١١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٤٧) .
(١٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٤٨) .

وذكر ابن أبى الدنيا [١]: «أن داود قال : يا رب! أخبرنى ما أدنى نعمك عليَّ؟ فأوحى الله إليه : يا داود ، تنفس فتنفس قال : هذا أدنى نعمتى عليك» .

فصل

وبهذا يتبين معنى الحديث، الذى رواه أبو داود[٢] ، من حديث زيد بن ثابت وابن عباس: « **إن الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم** » .

والحديث الذى فى الصحيح [٣]: « **لن ينجى أحدًا منكم عمله. قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل** » ، فإن أعمال العبد لا توافي نعمة من نعم الله عليه .

وأما قول بعض الفقهاء: إن من حلف أن يحمد الله بأفضل أنواع الحمد، كان بر يمينه أن يقول: الحمد لله حمدًا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، فهذا ليس بحديث عن رسول الله ﷺ ، ولا عن أحد من الصحابة ، وإنما هو إسرائيلى عن آدم. وأصح منه: « **الحمد لله غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا** » [٤].

ولا يمكن حمد العبد وشكره أن يوافي نعمة من نعم الله، فضلا عن موافاته جميع نعمه، ولا يكون فعل العبد وحمده مكافئًا للمزيد ، ولكن يحمل على وجه يصح ، وهو أن الذى يستحقه الله سبحانه من الحمد حمدًا يكون موافيًا لنعمه ومكافئًا لمزيده ، وإن لم يقدر العبد أن يأتى به، كما إذا قال : الحمد لله ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد، وعدد الرمال والتراب والحصى والقطر، وعدد أنفاس الخلائق، وعدد ما خلق الله وما هو خالق، فهذا إخبار عما يستحقه من الحمد، لا عما يقع من العبد من الحمد .

فصل

وقال أبو المليح: «قال موسى: يا رب، ما أفضل الشكر؟ قال : أن تشكرنى على كل حال»[٥].

---

(١) أخرجه في الشكر (١٤٩) .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٤٦٩) وابن ماجة (٧٧) وأحمد (٢١٦٥١) وابن حبان (٧٢٧) والبيهقي في الكبرى (٢٠٦٦٣) والطبراني في الكبير وصححه الألباني . انظر صحيح سنن ابن ماجة (٦٢) .

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٣) ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٥١) .

وقال بكر بن عبد الله قلت لأخ لى: أوصنى، فقـال : ما أدرى ما أقول غير أنه ينبغى لهذا العبد أن لا يفتر من الحمـد والاستغفار ،فإن ابن آدم بين نعمة وذنب، ولا تصلح النعمة إلا بالحمد والشكر ،ولا يصلح الذنب إلا بالتوبة والاستغفار، فأوسعنى علمًا ما شئت(١).

وقال عبد العزيز بن أبى داود: رأيت فى يد مـحمد بن واسع قرحة ،فكأنه رأى ما شق على منها ،فقال لى : أتدرى مـاذا لله على فى هذه القرحة من نعمة حين لم يجـعلهـا فى حـدقتى، ولا طـرف لسانى، ولا عـلى طرف ذكرى، فـهـانت عليـه قرحته(٢).

وروى الجريرى ، عن أبى الورد، عن [اللجلاج](٣) ،عن معاذ بن جبل ﷺ: أن رسول الله ﷺ أتى على رجل وهو يقول: « اللهم إنى أسألك تمـام النعمة فقال : ابن آدم هل تدرى ما تمـام النعمة ،قـال : يا رسول الله دعوة دعـوت بها أرجـو بها الخير، فقال : «**إن [من](٤) تمام النعمة فوز من النار ودخول فى الجنة** » (٥).

وقال [تميم](٦) بن سلمة : حدثت أن الرجل إذا ذكـر اسم الله على أول طعامه وحمده على آخره ،لم يسأل عن نعيم ذلك الطعام (٧).

[(فصل)](٨)

ويدل على فضل [ق/ ٧٤أ] الشكر [على الصـبر](٩)، أن الله سبـحانه يحب أن يسأل العـافية، ومـا سئل شيـئًا أحب إليه من العـافية ،كـما فى المسند (١٠)عن أبى صالح، عن أبى هريرة ﷺ قال : قام أبو بكر ﷺ على المنبر ،ثم قال : « **سلوا**

---

(١)أخرجه ابن أبي الدنيا في االشكر (١٥٠) . (٢)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٥٢) .
(٣)في أ ، ب : الجلاح والمثبت من ط ومن مصادر التخريج .
(٤)سقط من ط و ب .
(٥)أخرجه الترمذي (٣٥٢٧) وأحمد (٢٢٠٧٠) ، وعبد بن حميد في المنتخب (١٠٧) والبخاري في الأدب المفرد (ص/ ٢١٣) وابن أبي الدنيا في الشكر (١٥٦) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٤) وضعفه الألباني . انظر ضعيف سنن الترمذي (٧٠٦).
(٦)في أ ، ب : سهم والمثبت من مصادر التخريج . (٧)أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٤١) .
(٨)سقط من ط و ب . (٩)سقط من أ .
(١٠)أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٧٢٢) ، (١٠٧٢٤) من هذا الطريق. وأخرجه ابن ماجة (٣٨٤٩) وأحمد (٥)، (٧) ، (٤٦) والبخاري في الأدب المفرد (ص/ ٢١٢- ٢١٣) والحاكم (١٩٣٨) والنسائي في الكبرى (١٧١٥) ، (١٠٧١٩) من طريق أوسط بن إسماعيل عن أبي بكر - مرفوعاً - وصححه الألباني . انظر صحيح الجامع (٣٦٣٢) .

الله العافية، فإنه لم يعط عبدا بعد اليقين خيرًا من العافية » .

وفي حديث آخر : « **إن الناس لم يعطوا فى هذه الدنيا شيئًا أفضل من العفو والعافية، فسلوهما الله عز وجل** »[(١)].

وقال ﷺ لعمه العباس: « **يا عم أكثر من الدعاء بالعافية**»[(٢)]، وفي الترمذى[(٣)] [عنه][(٤)] قلت: يا رسول الله ، علمنى شيئًا أسأله الله؟ قال : «**سل الله العافية**» فمكثت أيامًا ثم جئت فقلت: علمنى شيئًا أسأله الله، فقال لى : «**يا عباس يا عم رسول الله ﷺ ، سل الله العافية فى الدنيا والآخرة** » .

وقال [ﷺ][(٥)] فى دعائه يوم الطائف : « **إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، غير أن عافيتك أوسع لى** »[(٦)]، فلاذ بعافيته ،كما استعاذ بها فى قوله: «**أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك** »[(٧)].

وفي حديث آخر :« **سلوا الله العافية والمعافاة**»[(٨)]. وهذا السؤال متضمن للعفو والعافية عما مضى ،والعافية فى الحال ،والمعافاة فى المستقبل بدوام العافية واستمرارها.

وكان عبد الأعلى التيمى يقول : أكثروا من سؤال الله العافية، فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذى لا يأمن البلاء ،وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس ،وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم، ولو كان البلاء يجر إلى خير ما كنا من رجال البلاء ،إنه رب بلاء قد أجهد فى الدنيا وأخزى فى الآخرة، فما [يؤمن][(٩)] من أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقى له فى بقية عمره من البلاء ما يجهده فى الدنيا ويفضحه فى الآخرة ،ثم يقول عند ذلك: الحمد لله الذى إن نعد نعمه لا نحصيها، وإن ندأب له عملا لا نجزيها ،وإن نعمر

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٥٣) .

(٢) أخرجه الحاكم (١٩٣٩) والطبراني في الكبير (١١٩٠٨) وحسنه الألباني . انظر صحيح الجامع (١١٩٨)

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥١٤) والحميدي (٤٦١) وأحمد (١٧٨٣) والبخاري في الأدب المفرد (ص/٢١٣) والطبراني في الدعاء (١٢٩٥) وابن أبي شيبة في مصنفه (٩٢٣٤) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (٢٧٩٠) .

(٤) سقط من أ.

(٥) زيادة من أ .

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة .

(٨) أخرجه الترمذي (٣٥٥٨) وأحمد (٦) وصححه الألباني . انظر صحيح الجامع (٣٦٣٢) .

(٩) في ط : يأمن .

فيها لا نبليها[١]. ومر رسول الله ﷺ برجل يسأل الله الصبر، فقال: « **لقد سألت البلاء فاسأل الله العافية** » [٢] .

وفي صحيح مسلم[٣]: أنه ﷺ عاد رجلا قد [هفت][٤] - أي هزل - فصار مثل الفرخ، فقـال له رسول الله ﷺ: «**هل كنت تدعو اللـه بشيء أو تسأله إياه؟**» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبنى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه، أفلا قلت: اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**» فدعا الله له فشفاه.

وفي الترمذى [٥] من حديث أبى هريرة رضي الله عنه، قال: دعاء حفظته من رسول الله ﷺ لا أدعه: « **اللهم اجعلنى أعظم شكرك وأكثر ذكرك، وأتبع نصيحتك، وأحفظ وصيتك** » .

وقال شيبان: كـان الحسن إذا جلس مجلسًا يقول: لك الحمـد بالإسلام ولك الحمد بالقرآن، ولك الحمد بالأهل والمال، بسطت رزقنا، وأظهـرت أمننا، وأحسنت معافاتنا، ومن كل ما سألناك أعطيتنا، فلك الحمد كثيرا كما تنعم كثيراً، أعطيت خيراً كثيراً، وصرفت شرًا كبيراً، فلوجهك الجليل الباقى الدائم الحمد» [٦].

وكان بعض السلف يقول: اللهم ما أصبح بنا من نعـمة، أو عافية، أو كرامة فى دين، أو دنيا جرت علينا فيما مضى وهى جـارية علينا فيما بقى فإنها منك وحدك لا شريك لك [ق/ ٧٥] فلك الحـمد بذلك علينا، ولك المن ولك الفضل، ولك الحـمد عدد ما أنعمت به علينا وعلى جميع خلقك لا إله إلا أنت [٧].

وقال مجاهد: كان ابن عمر إذا كـان فى سفر، فطلع الفجر رفع صوته ونادى: سمع سامع بحمد الله ونعمه وحسن بلائه علينا - ثلاثاً - اللهم صاحبنا فأفضل علينا، عائذ بالله من النار ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثلاثًا [٨].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٥٧) .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٢٧) وأحمد (٢٢٠٧٠) وعبـد بن حميد في المنتخب (١٠٧) والبخاري في الأدب المفرد (٢١٣) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٤) وصححه الألباني .

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٨٨) من حديث أنس .

(٤) في أ : خفت .

(٥) أخرجه الترمذي (١٤٩٣٧) وأحمد (٨٠٨٧) ، (١٠١٨٢) والطيالسي في مسنده (٢٥٥٣) وضعفه الألباني . انظر ضعيف سنن الترمذي (٧٣٠) .

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٦١) .

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٦٠) .

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٦٣) وأخرجه مسلم (٢٧١٨) مرفوعاً بنحوه من حديث أبي هريرة .

وذكر الإمام أحمد[١] أن الله سبحانه أوحى إلى موسى بن عمران عليه السلام : «يا موسى ،كن يقظان مرتادًا لنفسك أخدانًا ،وكل خدن لا يواتيك على مسرتى فلا تصحبه، فإنه عدو لك ،وهو يقسى قلبك، وأكثر من ذكرى حتى تستوجب الشكر وتستكمل المزيد .

وقال الحسن : خلق الله آدم حين خلقه ،فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى، وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى، فدبوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم والمبتلى، فقال آدم: يا رب ألا سويت بين ولدى؟ قال : يا آدم إنى أردت أن أشكر[٢] .

وفي السنن [٣] عنه ﷺ : « **من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك ،فمنك وحدك لا شريك لك ،فلك الحمد ولك الشكر ،إلا أدى شكر ذلك اليوم**». **ومن قال مثل ذلك حين يمسى، فقد أدى شكر ليلته**» .

ويذكر عن النبي ﷺ:« **من ابتلى فصبر ، وأعطى فشكر، وظلم فغفر وظلم فاستغفر، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**» [٤] .

ويذكر عنه ﷺ: أنه أوصى رجلا بثلاث، فقال :« **أكثر [من]**[٥] **ذكر الموت يشغلك عما سواه، وعليك بالدعاء فإنك لا تدرى متى يستجاب لك، وعليك بالشكر فإن الشكر زيادة**»[٦].

ويذكر عنه ﷺ : أنه كان إذا أكل قال : « **الحمد لله الذى أطعمنى وسقانى وهدانى، وكل بلاء حسن أبلانى، الحمد لله الرزاق ذى القوة المتين، اللهم لا تنزع منا صالحًا أعطيتنا ولا صالحًا رزقتنا ،واجعلنا لك من الشاكرين**» [٧].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٤٩٣٧) وأحمد (٨٠٨٧) ، (١٠١٨٢) والطيالسي في مسنده (٢٥٥٣) وضعفه الألباني . انظر ضعيف سنن الترمذي (٧٣٠) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٦١) .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٦٠) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٦٧) والطبراني في الكبير (٦٦١٣) ، (٦٦١٤) والبيهقي في الشعب (٤١١٧) قال الهيثمي : رواه الطبراني وفيه أبو داود الأعمى وهو متروك. انظر مجمع الزوائد (١٠/٥٠٧) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٥٣٢٣) .

(٥) سقط من أ .

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٦٨) .

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٧٠) .

ويذكر عنـه ﷺ : أنه إذا أكل قال : « **الحـمد للـه الذى أطعم وسقـى وسوغـه وجعل له مخرجا** » (١) .

وكان عـروة بن الزبير إذا أتى بطعام لم يزل مـخمرًا حتى يقـول هذه الكلمات: الحمد لله الذى هدانا وأطعـمنا وسقانا ونعمنا، الله أكبر. اللهم ألفـتنا نعمتك ونحن بكل شر فأصبحنا وأمسينا منها بخـير، نسألك تمامها وشكرها، لا خير إلا خيرك ولا إله غيـرك، إله الصالحين ورب العالمين . الحـمد لله ،لا إله إلا الله، مـا شاء الله لا قوة إلا بالله. اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار (٢) .

وقال وهب بن منبـه :رؤوس النعم ثلاثة : فأولهـا: نعمـة الإسلام التى لا تتم نعمة إلا بهـا ، والثانية : نعمة العافـية التى لا تطيب الحياة إلا بها ، والثالثـة: نعمة الغنى التى لا يتم العيش إلا بها (٣) .

وقدم سـعيد الجريرى من الحج، فـجعل يقول : أنعم الله علينا فى سـفرنا بكذا وكذا، ثم قال : تعداد النعم من الشكر(٤).

ومر وهب بمبتلى أعمى مجذوم مقعد عريان به وضح وهو يقول: الحمد لله على نعمه فقال رجل كان مع وهب: أى شيء بقى عليك من النعمـة تحمد الله عليها فقال له المبتلى: ارم ببصـرك إلى أهل المدينة فانظر إلى كثرة أهلها أفـلا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيرى(٥).

ويذكر عن النبي ﷺ أنه قال : « **إذا أنعم الله على عبد نعمة فـحمده عندها فقد أدى شكرها** » (٦).

وذكر على بن أبى طالب ﷺ: أن بختنصـر أتى بدانيال، فـأمر به فـحبس فى

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٥١) وابن حبـان (٥٢٢٠) والنسائي في الكبري (٦٨٩٤) ، (١٠١١٧) وابن أبي الدنيا في الشكر (١٧١) والطبراني في الكـبير (٤٠٨٢) والأوسط (٥٣٨٤) والدعاء (٨٩٧) والبيهـقي في الشعب (٤١٦٠) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٧١) وصـححه الألباني انظر السلسلة الصحيحة (٢٠٦١) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٦٩) .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٧٢) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٧٣) .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٧٤) .

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٧٥) .

جب وأضرى أسدين ثم خلى بينهما وبينه، ثم فتح عليه بعد خمسة أيام فوجده قائمًا يصلى والأسدان فى ناحية الجب لم يعرضا له، فقال له : ما قلت حين دفع عنك ؟ قال : قلت: « الحمد لله الذى لا ينسى من ذكره ،والحمد الله الذى لا يخيب [ق/ ١٧٦أ] من رجاه ،والحمد لله الذى لا يكل من توكل عليه إلى غيره، والحمد لله الذى هو يقيننا حين تنقطع عنا الحيل، والحمد لله الذى هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا، [والحمد لله الذى يكشف عنا ضرنا بعد كربتنا ،والحمد لله الذى يجزى بالإحسان إحسانًا][(١)]، والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة »[(٢)].

ويذكر عنه ﷺ أنه كان إذا نظر فى المرآة قال : « **الحمد لله الذى أحسن خلقى وخلقى، وزان منى ما شان من غيرى** » [(٣)].

وقال ابن سيرين : كان ابن عمر ﵄ يكثر النظر فى المرآة، وتكون معه فى الأسفار، فقلت له : ولم ؟ قال : أنظر فما كان فى وجهى زين فهو فى وجه غيرى شين أحمد الله عليه[(٤)].

وسئل أبو بكر بن أبى الدنيا: ما تمام النعمة؟ قال : أن تضع رجلا على الصراط ورجلا فى الجنة [(٥)] .

وقال بكر بن عبد الله : يابن آدم ، إن أردت أن تعلم قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك [(٦)].

وقال مقاتل فى قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] ،قال : أما الظاهرة فالإسلام، وأما الباطنة فستره عليكم بالمعاصى [(٧)].

وقال ابن شوذب : قال عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ﵁ ـ إن لله على أهل النار منة لو شاء أن يعذبهم بأشد من النار لعذبهم [(٨)].

وقال أبو سليمان الدارانى: جلساء الرحمن يوم القيامة من جعل فيه خصالا:

---

(١) سقط من أ.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٧٦) .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٧٧) .
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٧٨) .
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٨١) .
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٨٢) .
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٨٣) .
(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٨٤) .

الكرم، والسخاء ،والحلم ، [والرأفة والرحمة][١]، والشكر ،والبر، والصبر[٢].

وقال أبو هريرة ﷺ: [قال رسول الله ﷺ][٣] من رأى صاحب بلاء فـقال : «**الحمد لله الـذى عافانى مما ابتلاك به ،[وفضلـنى على كثير ممن خلق تفـضيلا»]** [٤]، فقد أدى شكر تلـك النعمة[٥]، وقال عبـد الله بن وهب : سمعت عبـد الرحمن بن زيد يقول: الشكر يأخـذ بجذم الحمد وأصله وفرعـه ،قال : ينظر فى [نعم][٦] الله: فى بدنه، وسمعه، وبصره، ويديه، ورجليه، وغير ذلك ،ليس من هذا شىء إلا فيه نعمـة من الله، [حق][٧] على العـبد أن يعـمل فى النعمـة التى هى فى بدنه لله فى طاعتـه ، ونعمة أخـرى فى الرزق، وحق عليه أن يعمل لـله فيما أنـعم عليه به من الرزق بطاعته، فمن عمل بهذا كان قد أخذ بجذم الشكر وأصله وفرعه[٨].

وقال كعب : مـا أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنـيا، فشكرها لله وتواضع بها لله، إلا أعطاه الله نفعها فى الدنيا ،ورفع له بها درجة فى الآخرة. وما أنعم الله على عبد نـعمة فى الدنيا، فلم يشكرها لله ولـم يتـواضع بها إلا منعه الله نفـعها فى الدنيا، وفتح له طبقات من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه [٩].

وقال الحسن : من لا يرى لله عليه نعمة إلا فى مطعم أو مشرب أو لباس، فقد قصر علمه وحضر عذابه [١٠].

وقال : الحـسن يومًا لبكر المزنى: هات يا أبا عبـد الله دعوات لإخوانك فحـمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبى ﷺ ،ثم قال : والله ما أدرى أى النعمتين أفضل على وعليكم: أنعمـة المسلك أم نعمة المخـرج إذا أخرجه منا؟ قال الحـسن: إنها لمن نعمة الطعام[١١]. وقالت عائشة ﵂ : «ما من عبد يشرب الماء القراح ،فيدخل بغير أذى ويخرج بغير الأذى ، إلا وجب عليه الشكر»[١٢] .

---

(١) في أ : تقديم وتأخير
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٨٦) .
(٣) سقط من أ .
(٤) في أ : وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا .
(٥) أخرجـه الترمذي (٣٤٣٢) والبـيهقي فـي الشعب (٤١٢٩) وابن أبي الدنيا في الشكـر (١٨٧) والطبراني في الأوسط (٤٧٢٤) والصغير (٦٧٥) والدعـاء (٧٩٩) ، (٨٠١) وصححه الألباني . انظر السلسلة الصـحيحة (٦٠٢) .
(٦) في أ : نعمة .
(٧) سقط من أ .
(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٨٨) .
(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٨٩) .
(١٠) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٩٠) .
(١١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٩١) .
(١٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٩٢) .

قال الحسن : يالها من نعمـة تدخل كل لذة وتخرج [مسرحًا](١)، لقد كان ملك من ملوك هذه القرية يـرى الغلام من غلمانه يأتى الحب [فـيكتال](٢) منه ثم يجرجر قائمًا، فيـقول: يا ليتنى مثلك ما يشـرب حتى يقطع [عنقه](٣) بالعطش، فإذا شرب كان له فى تلك الشربة موتات يا لها من نعمة (٤).

وكتب بعض العلماء إلى أخ له أما بعد، فقد [ق/١٧٧] أصبح بنا من نعم الله ما لا نحصيه مع كـثرة ما نعصيه ،فمـا يدرى أيهما نشكر: أجميل ما يستـر أم قبيح ما ستر(٥).

وقيل للحسن: ها هنا رجل لا يجـالس الناس فجاء إليه فسـأله عن ذلك فقال : إنى أمسى وأصبح بين ذنب ونعمة ،فرأيت أن أشـغل نفسى عن الناس بالاستغفار من الذنب والشكر لله على النعـمة ، فقال له الحـسن : أنت عندى يا عبد الله أفـقه من الحسن، فالزم ما أنت عليه (٦).

وقال ابن المبارك : سـمعت على بن صالح يقول فى قـوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧] ،قـال : أى من طاعـتى ،والتـحـقيـق أن الزيادة من النعم، وطاعته من أجل نعمه (٧).

وذكر ابن أبى الدنيا أن محارب بن دثار كان يقوم بالليل ويرفع صوته أحيانًا: أنا الصغيـر الذى ربيته فلك الحمد، وأنا الضعـيف الذى قويته فلك الحمد، وأنا الفـقير الذى أغنيتـه فلك الحمد، وأنا الصعلـوك الذى مولته فلك الحمـد ،وأنا العزب الذى زوجته فلك الحمد ،وأنا الساغب الذى أشبعـته فلك الحمد، وأنا العارى الذى كسوته فلك الحمـد، وأنا المسافر الذى صاحـبته فلك الحمـد، وأنا الغائب الذى رددته فلك الحمد، وأنا الراجل الذى حملته فلك الحمـد، وأنا المريض الذى شفيته فلك الحمد ، وأنا السائل الذى أعطيتـه فلك الحمد، وأنا الداعى الذى أجبتـه فلك الحمد،ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا (٨).

وكان بعض الخطباء يقول فى خطبته: اخـتط لك الأنف فأقامه وأتمه فأحسن تمامه ثم أدار منك الحدقة فـجعلها بجفون مطبـقة ،وبأشفار مغلقـة، ونقلك من طبقة إلى

(١) في ط : سرحاً .
(٢) في ط : فيكتار .
(٣) في ط : عنه .
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٩٣) .
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٩٤) .
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٩٦) .
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٩٨) .
(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٩٩) .

طبـقة، وحنن عليك قلب الوالدين برقـة ومقـة، فنعمـه عليك مورقـة، وأياديه بك محدقة[١].

وكان بعض العلمـاء يقول فى قـوله تعالى: **﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾** [إبراهيم:٣٤] ،سبـحان من لم يجعل لحـد معرفة نـعمه إلا بالاعتـراف بالتقصـير عن معرفتها ،كـما لم يجعل لحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك، فجعل مـعرفة نعمه بالتقصير عن معرفتهـا شكرًا كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله إيمانًا علمًا منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك [٢].

وقال عبد الله بن المبارك[٣]: أخبرنا المثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده ،قال : سـمعت رسول الله ﷺ يقول: « **خصلتان من كانتا فـيه كتبه الله صابرًا شاكـرًا ، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله صـابرًا شاكرًا من نظر فى دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ومن نظر فى دنيـاه إلى من هو دونه ،فحمد الله على ما فضله به عليه، كتبه الله صـابرًا شاكرًا .ومن نظر فى دينه إلى من هو دونه ونظر فى دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته منـه ،لم يكتبه الله صابرًا شاكرًا** » ،وبهذا الإسناد عن عبد الله بن عمرو موقوفًا عليه: «**أربع خصال من كن فيه بنى الله له بيتًا فى الجنة: من كان عصمة أمره لا إله إلا الله، وإذا أصابته مصيبة قال : إنا لله وإنا إليه راجعون، وإذا أعطى شيئا قال : الحمد لله وإذا أذنب ذنبًا قال : أستغفر الله**» [٤].

وقال ابن المبارك[٥] : عن شبل ، عن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى : **﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾** [الإسراء:٣] ،قال :« لم يأكل شيئًا قط إلا حمد الله عليه ولم يشرب شرابًا قط إلا حـمد الله عليـه ،ولم يمش شيـئاً ولم يبطش بشيء قط إلا حـمد الله عليه، فأثنى الله عليه إنه كان عبداً شكوراً» .

وقال محـمد بن كعب: «**كان نوح إذا أكل قال : الحمـد لله، وإذا شرب قال : الحمد لله ،وإذا لبس قال : الحمد لله، وإذا ركب قال : الحمد لله، فسماه الله عبداً**

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٢٠٠) . (٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٢٠٢) .

(٣) أخرجـه في زوائد نعيم بن حمـاد على الزهد (١٨٠) والترمذي (٢٥١٢) وابن أبـي الدنيا في الشكر (٢٠٤) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣١٠) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٢٨٣٢) .

(٤) أخرجه ابن المبارك في زوائد نعيم بن حماد على الزهد (١٨٢) وابن أبي الدنيا في الشكر (٢٠٥) .

(٥) أخرجه في الزهد (٩٤١) وأخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٢٠٦) .

شكورًا»(١).

وقال ابن أبي الدنيا (٢): بلغني عن بعض الحكماء قال: «لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغي أن لا يعصى لشكر نعمته».

(فصل)

ولله تبارك وتعالى على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك عنهما:

أحدهما: أمره ونهيه الذي هو محض حق عليه.

والثاني: شكر النعمة التي أنعم بها عليه.

فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه [ق/١٧٨أ] وبالقيام بأمره، فمشهد الواجب عليه لا يزال يشهد بتقصيره وتفريطه وأنه محتاج إلى عفو الله ومغفرته، فإن لم يتداركه بذلك هلك وكلما كان أفقه في دين الله كان شهوده للواجب عليه أتم وشهوده لتقصيره أعظم. وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله. وأكثر الديانين لا يعبؤون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس. وأما الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنصيحة لله ورسوله، وعباده ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم، فضلا عن أن يريدوا فعلها، وفضلا عن أن يفعلوها، وأقل الناس دينًا وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات، وإن زهد في الدنيا جميعها. وقل أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره [في الله] (٣) ويغضب لحرماته، ويبذل عرضه في نصرة دينه. وأصحاب الكبائر أحسن حالا عند الله من هؤلاء.

وقد ذكر أبو عمر وغيره: أن الله تعالى أمر ملكًا من الملائكة أن يخسف بقرية، فقال: يا رب إن فيهم فلانًا العابد الزاهد، قال: به فابدأ، وأسمعني صوته، إنه لم يتمعر وجهه في يوم قط(٤).

(فصل)

وأما شهوده النعمة، فإنه لا يدع له رؤية حسنة من حسناته أصلا، ولو عمل أعمال الثقلين، فإن نعم الله سبحانه أكثر من أعماله، وأدنى نعمة من نعمه تستنفذ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (٢٠٧). (٢) أخرجه في الشكر (٢٠٨).

(٣) في أ: في حق الله.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٦٦١) والبيهقي في الشعب (٧٥٩٥).

عمله، فينبغى للعبد ألا يزال ينظر فى حق الله عليه.

قال الإمام أحـمد(١): حدثنا حـجاج، حدثنا جرير بن حـازم ،عن وهب، قال: «بلغنى أن نبى الله موسى عليه السلام مر برجل يدعو ويتضرع، فقال: يا رب ارحمه فإنى قد رحمته، فأوحى الله إليه لو دعانى حتى تنقطع قواه ما استجبت له حتى ينظر فى حقى عليه».

فمـشاهدة العـبد النعمـة والواجب لا تدع له حسنة يراها ،ولا يـزال مزريًا على نفســه ذامًا لها، ومـا أقربه من الرحمـة إذا أعطى هذين المشهـدين حقهـما . . والله المستعان .

* * * *

(١) أخرجه في الزهد (ص/٨٨) .

الباب الحادى والعشرون
فى الحكم بين الفريقين والفصل بين الطائفتين

[فنقول][١]: كل أمرين طلبت الموازنة بينهما ،ومعرفة الراجح منهما على المرجوح، فإن ذلك لا يمكن إلا بعد معرفة كل [واحد][٢] منهما ،وقد ذكرنا حقيقة الصبر وأقسامه وأنواعه فنذكر حقيقة الشكر وماهيته .

قال فى الصحاح : الشكر الثناء على المحسن بما [أولاكه][٣] من المعروف. يقال: شكرته وشكرت له ،واللام أفصح .وقوله تعالى : ﴿لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا﴾ [الإنسان : ٩] يحتمل أن يكون مصدرًا كالقعود ،وأن يكون جمعًا كالبرود، والكفور، والشكران خلاف الكفران ،وتشكرت له مثل شكرت له ،والشكور من الدواب ما يكفيه العلف القليل، واشتكرت السماء اشتد وقع مطرها ،واشتكر الضرع امتلأ لبنًا تقول: منه شكرت الناقة بالكسر تشكر شكرًا فهى شكرة ، وشكرت الشجرة تشكر شكرًا فهي شكرة إذا خرج منها الشكير وهو ما ينبت حول الشجرة من أصلها .

فتأمل هذا الاشتقاق، [وطابق][٤] بينه وبين الشكر المأمور به ،وبين الشكر الذى هو جزاء الرب المشكور ،كيف تجد فى الجميع معنى الزيادة والنماء .

ويقال أيضًا: دابة شكور إذا أظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف .

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان، لا يكون شكورًا إلا بمجموعها:

أحدها: اعترافه بنعمة الله عليه .

والثاني: الثناء عليه بها .

والثالث: الاستعانة بها على مرضاته [ق/ ١٧٩] .

وأما قول الناس فى الشكر :

فقالت طائفة: هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع .

وقيل: الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه إليه فشكر العبد ثناؤه عليه بذكر إحسانه [إليه][٥] .

---

(١) في ط و ب : نقول .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) في أ : أولاك .
(٤) في ط : قابل .
(٥) سقط من أ .

وقيل: شكر النعمة مشاهدة المنة وحفظ الحرمة والقيام بالخدمة.

وقيل :«شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيليًا» .

وقيل: «الشكر معرفه العجز عن الشكر».

ويقال: « الشكر على الشكر أتم من الشكر، وذلك أن ترى شكرك بتوفيقه وذلك التوفـيق من أجل النعم عليك، وتشكره على الشكر ثم تشكره عـلى شكر إلى ما لا يتناهى الشكر ، وقال الجنيد الشكر ألا ترى نفسك للنعـمة أهلاً وقيل : الشكر إضافة النعم إلى مواليها بتعب الاستكانة ألا ترى نفـسك للنعمة أهلا وقيل : الشكر استفراغ الطاقة فى الطاعة».

وقـيـل: « الشـاكـر الـذى يشكر على الموجـــود ،والشكور الذى يشـكر على المفقـود».وقيل: «الشاكر الذى يشكر على الرفـد، والشكور الذى يشكر على الرد». وقيل :« الشـاكر الذى يشكر على النفع، والشكور الذى يشكـر على المنع». وقيل: «الشاكر الذى يشكر على العطاء، والشكور الذى يشكر على البلاء ».

وقال الجنيد: «كنت بين يدى السرى ألعب وأنا ابن سبع سنين، وبين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر ،فـقال لى : يا غلام ما الشكر؟ فقلت: ألا يعـصى الله بنعمه. فقال: يوشك أن يكون حظك من الله لسـانك. فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالها السرى».

وقال الشبلى :« الشكر رؤية المنعم لا رؤيـة النعم». وهذا ليس بجيد بل من تمام الشكر أن تشهد النعمة من المنعم .

وقيل: «الشكر قيد الموجود وصيد المفقود» .

وقال أبو عثمان: «شكر العامة على المطعم والملبس، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعانى» .

وحبس السلطان رجلا، فأرسل إليه صاحبه اشكر الله فضرب، فأرسل إليه اشكر الله، فجيء بمجوسى مـبطون، فقيد ،وجعل حلقة من قـيده فى رجله، وحلقة فى [قيد][1] الرجل المذكور .فكان المجوسى يقوم بالليل مرات، فيحتاج الرجل أن يقف على رأسه حتى يفـرغ فكتب إليه صاحبه اشكر الله ،فقـال له: إلى متى تقول اشكر الله. وأى بلاء فوق هذا. فـقال :ولو وضع الزنار الذى فى وسطه فى وسطك كـما

(١) سقط من ط و ب .

وضع القيد الذى فى رجله فى رجلك ماذا كنت تصنع؟ فاشكر الله.

ودخل رجل على سهـل بن عبد الله ،فـقال:[إن][١] اللص دخل داري وأخذ متـاعى. فقـال: اشكر الله، فلو دخل اللص قلبك ـ وهو الشـيطان ـ وأفسـد عليك التوحيد، ماذا كنت تصنع؟ [فاشكر الله][٢] .

وقيل: الشكر التلذذ بثنائه على ما لم يستوجبه من عطائه . **وقيل** :إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر . **وقيل** : أربعة لا ثمرة لهم: مسارة الأصم ،ووضع النعمة عند من لا يشكرها، والبذر فى السباخ ،والسراج فى الشمس .

والشكر يتعـلق بالقلب واللسان والجوارح، فـالقلب للمعـرفة والمحبـة ،واللسان للثناء والحمـد، والجوارح لاستعمـالها فى طاعة المشكور وكفـها عن معاصـيه، وقال الشاعر:

أفادتكم النعماء[منى][٣] ثلاثة   يدى ولسانى والضمير المحجبا

والشكر أخص بالأفعال، والحـمد أخص بالأقوال، وسبب الحـمد أعم من سبب الشكر،ومتعلق الشـكر وما به الشكر أعم مما به الحمد [ق/ ١٨٠أ] ، فمـا يحمد الرب تعالى عليـه أعم مما يشكر عليه، فإنه يحـمد على أسمائه وصـفاته وأفعاله ونعـمه، ويشكر على نعـمه ،ومـا يحمد به أخـص مما يشكر به، فإنه يشكر بالقلب والـلسان والجوارح ويحمد بالقلب واللسان.

(فصل)

إذا عرف هذا، فكل من الصبـر والشكر داخل فى حقيقـة الآخر لا يمكن وجوده إلا به، وإنما يعبر عن أحـدهما باسمه الخاص به باعتبـار الأغلب عليه والأظهر منه، وإلا فحقيقة الشكر إنما يلتئم من الصبر والإرادة والفعل، فإن الشكر هو العمل بطاعة الله ـ [تبارك وتعالى][٤] ـوترك معصيته، والصـبر أصل ذلك ، فالصبر على الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر، وإذا كان الصبر مأموراً به ، فأداؤه هو الشكر .

فإن قيل :فهذا يفهم منه اتحاد الصبر والشـكر، وإنهما اسمان لمسمى واحد وهذا محال عقلا ولغة وعرفًا ،وقد فرق الله سبحانه بينهما .

قيل :بل هما معنيان ، متغايران وإنما بينا تلازمهـما وافتقار كل واحد منهما فى

(١)سقط من ط و ب .
(٢)سقط من ط و ب.
(٣)في أ : عندي .
(٤)زيادة من أ .

وجود ماهيته إلى الآخر ، ومتى تجرد الشكر عن الصبر بطل كونه شكراً، وإذا تجرد عن الصبر الشكر بطل كونه صبراً .أما الأول فظاهر، وأما الثانى إذا تجرد عن الشكر كان كافوراً ومنافاة الكفور للصبر أعظم من منافاة [السخوط](١) .

فإن قيل : بل هاهنا قسم آخر ،وهو أن لا يكون كفوراً ولا شكوراً، بل صابراً على مضض وكراهة شديدة، فلم يأت بحقيقة الشكر، ولا خرج عن ماهية الصبر .

قيل : كلامنا فى الصبر المأمور به الذى هو طاعة ،لا فى الصبر الذى هو تجلد كصبر البهائم . وصبر الطاعة لا يأتي به إلا شاكر ،ولكن اندرج شكره فى صبره فكان الحكم للصبر .كما اندرج صبر الشكور فى شكره ، فكان الحكم للشكر، فمقامات الإيمان لا تعدم بالتنقل فيها ،بل تندرج وينطوى الأدنى فى الأعلى، كما يندرج الإيمان فى الإحسان، وكما يندرج الصبر فى مقام الرضا لا أن الصبر يزول، ويندرج الرضا فى التفويض، ويندرج الخوف والرجاء في الحب لا أنهما يزولان، فالمقدور الواحد يتعلق به الشكر والصبر، سواء كان محبوبًا أو مكروهًا، فالفقر مثلا يتعلق به الصبر ،وهو أخص به لما فيه من الكراهة ،ويتعلق به الشكر لما فيه من النعمة. فمن غلب شهود نعمته وتلذذ به واستراح واطمأن إليه عده نعمة يشكر عليها الله ، ومن غلب شهود ما فيه من الابتلاء والضيق والحاجة عده بلية [يصبر](٢) عليها، وعكسه الغنى .

على أن الله سبحانه ابتلى العباد بالنعم كما ابتلاهم بالمصائب. وعد ذلك كله ابتلاء، فقال : ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] . وقال : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر :١٥، ١٦] ، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف:٧] ، وقال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك:٢] ، وقال : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود:٧]

فأخبر سبحانه أنه خلق العالم [ق/ ٨١جـ] العلوى والسفلى، وقدر أجل الخلق، وخلق ما على الأرض، للابتلاء والاختبار . وهذا الابتلاء ،إنما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم فى الخير والشر والسراء والضراء، فالابتلاء [بالنعم](٣) من الغنى والعافية

---

(١) في أ : السخط (٢) في أ : فصبر .

(٣) في ط و ب : من النعم .

والجـاه والقدرة، وتأتى الأسـبـاب أعظم الابتـلاءين. والصبـر على طاعـة الله أشق الصبر، كما قال الصحابـة رضى الله عنهم: «ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر»[١].

[وبالنعمة][٢] بالفقر والمرض وقبض الدنيا وأسـبابها وأذى الخلق قد يكون أعظم النعمتين، وفرض الشكر عليهـا أوجب من الشكر على أضدادها. فالرب تعالى ،يبتلى بنعمـه، وينعم بابتلائه. غير أن الـصبر والشكر حالتـان لازمتان للعبـد فى أمر الرب ونهـيه وقضـائه وقدره، لا يسـتغنى عنـهما طرفـة عين والسؤال عـن أيهما أفـضل، كالسؤال عن الحس والحركـة أيهما أفضل ،وعن الطعام والشراب أيـهما أفضل، وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل.

فالمأمـور لا يؤدى إلا بصبر وشكر ،والمحـظور لا يترك إلا بصبـر وشكر . وأما المقدور الذى يقدر على العبد من المصائب، فمتى صبر عليها اندرج شكره فى صبره، كمـا يندرج صبر الشاكـر فى شكره .ومما يوضح هذا أن الله سبـحانه امتحن العـبد بنفسه وهواه ،وأوجب عليـه جهادهما فى الله ،فهو فى كل وقت فى مـجاهدة نفسه حتى تأتى بالشكر المأمـور به، ويصبر عن الهـوى المنهى عن طاعته ،فلا ينفك الـعبد عنهما غنيًا كان أو فقيرًا معافى أو مبتلى.

وهذه هى مسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر ،أيهما أفضل؟

وللناس فـيها ثلاثة أقـوال، وهى التى حكاها أبو الفـرج بن الجوزى وغـيره فى عموم الصبر والشكر، أيهما أفضل. وقد احتجت كل فرقة بحجج وأدلة على قولها.

والتحقيق أن يقال: أفضلهما أتقاهما لله تعالى، فإن فرض استواؤهما فى التقوى استويا فى الفضل ،فإن الله سبحانه لم يفضل بـالفقر والغنى، كما لم يفضل بالعافيه والبلاء، وإنما فضل بالتقـوى، كما قال تعالى :﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] . وقد قال ﷺ: « لا فضل لعـربى على عجـمى، ولا [فضل][٣] لعجـمى على عربى إلا بالتقوى، الناس[من][٤] آدم وآدم من تراب» [٥].

والتقـوى مبنية على أصلين : الصـبر والشكر .وكل من الغنى والفقـير لا بد له منهما، فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٤) عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه . وقال الألباني : حسن الإسناد .

(٢) في ط و ب : والنعمة . (٣) سقط من أ . (٤) في أ : بنو .

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٥٣٦) وصححه الألباني . انظر تخريج الطحاوية (٤٦١).

فإن قيل: فإن كان صبر الفقير أتم ،وشكر الغنى أتم، فأيهما أفضل؟

قيل: أتقاهما لله فى وظيفته ومقتضى حـاله. ولا يصح التفضيل بغير هذا البتة، فإن الغنى قد يكون أتقى لله فى شكره مـن الفقير فى صبره، وقد يكون الـفقير أتقى لله فى صـبره من الغنى فى شكره ،فـلا يصح أن يقال: هذا بغناه أفـضل، ولا هذا بفقره أفضل. ولا يصح أن يقـال: هذا بالشكر أفضل من هذا بالصبر ،ولا بالعكس؛ لأنهما مطيتان للإيمان لا بد منهما. بل الواجب أن يقال: أقومهما بالواجب والمندوب هو الأفضل، فإن التفضيل تابع لهذين الأمرين، كما قال تعالى فى الأثر الإلهى: « **ما تقـرب إلى عبـدى بمثل [مداومـة]**[١] **مـا افتـرضت [ق/ ١٨٢أ]عليـه ،ولا يزال عبـدى يتقرب إلى بالنوافل حـتى أحبه**» [٢]. فأى الرجلين كان أقوم بالواجـبات وأكثر نوافل كان أفضل .

فإن قيل : فقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: « **يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وذلك خمسمائة عام**» [٣] .

قـيل : هذا لا يدل على فـضلهم علـى الأغنيـاء فى الدرجـة وعلو المنزلة [وإن سبقوهم][٤] في الدخول، فقـد يتأخر الغنى والسلطان العادل فى الدخـول لحسابه، فإذا دخل كانت درجته أعلى ومنزلته أرفع، كسبق الفقير القفل فى المضائق [وغيرها، ويتأخر][٥] صاحب الأحمال بعده.

فإن قيل: فقـد قال النبى ﷺ للفقـراء لما شكوا إليه زيادة عمل الأغنيـاء عليهم بالعتق والصدقة : « **ألا أدلكم على شىء [إذا]**[٦] **فعلتموه أدركـتم به من سبقكم**»، فدلهم على التسـبيح والتحميد والتكـبير عقيب كل صلاة ،فلمـا سمع الأغنياء ذلك عملوا به، فذكروا ذلك للنبىﷺ فقال: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء** » [٧] . وهذا يدل على ترجيح حال الغنى الشاكر.

قيل :هذا حـجة للقول الذى نصـرناه ،وهو أن أفضلهمـا أكثرهمـا نوافل، فإن استويا استويا وهاهنا قد ساوى الأغنياء الفقراء فى أعمالهم المفروضة والنافلة ، وزادوا

(١) في أ : أداء . (٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة .

(٣) أخرجـه الترمـذي (٢٣٥٣) ، (٢٣٥٤) وابن ماجة (٤١٢٢) والنسـائي في التفسير (٣٦٨) مـن حديث أبي هريرة. انظر صحيح سنن ابن ماجة (٣٣٢٦) .

(٤) سقط من أ . (٥) في أ : تقديم وتأخير . (٦) في أ : إن .

(٧) أخرجه البخاري (٨٤٣) دون ذكر سماع الأغنياء لذلك وقول النبي ﷺ لهم: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ومسلم (٥٩٥) بتمامه كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

عليهم [بنوافل العتق][1]والصدقة [وفضلوهم][2] بذلك ،فساووهم فى صبرهم على الجهاد والأذى فى الله والصبر على المقدور، وزادوا عليهم بالشكر بنوافل المال. فلو كان للفقراء بصبرهم نوافل تزيد على نوافل الأغنياء لفضلوهم بها .

فإن قيل : فالنبى ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوز الدنيا فردها، وقال: « **بل أشبع يومًا وأجوع يومًا** » (٣)

وقال هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضى الله عنهما قالت: «خرج رسول الله ﷺ من الدنيا، ولم يشبع من خبز البر» (٤)، «ومات ودرعه مرهونة عند يهودى على طعام أخذه منه » (٥) .

وقال الإمام أحمد: [حدثنا](٦) وكيع [حدثنا](٧) الأعمش ،عن عبادة بن القعقاع، عن أبى زرعة، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: « **اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا** » (٨) .

وقال الإمام أحمد (٩):حدثنا إسماعيل بن محمد ،حدثنا عباد بن عباد، حدثنا مجالد بن سعيد، عن الشعبى ،عن مسروق ،عن عائشة رضى الله عنها ، قالت: «دخلت على امرأة من الأنصار، فرأت فراش النبى ﷺ عباءة مثنية، فرجعت إلى منزلها، فبعثت إلى بفراش حشوه الصوف ،فدخل على رسول الله ﷺ فقال : «**ما هذا؟**» فقلت: فلانة الأنصارية، دخلت على ،فرأت فراشك، فبعثت إلى بهذا ، فقال: «**رديه**»، فلم أرده، وأعجبنى أن يكون فى بيتى ،حتى قال لى ذلك ثلاث مرات. فقال: «**يا عائشة، رديه، فوالله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة**»، فرددته .

ولم يكن الله سبحانه ليختار لرسوله إلا الأفضل ،هذا مع أنه لو أخذ الدنيا لأنفقها كلها فى مرضاة الله، ولكان شكره بها فوق شكر جميع العالمين.

---

(١) في أ : بالعتق . (٢) في أ : ففضلوهم . (٣) تقدم تخريجه .

(٤) أخرجه البخاري (٥٤١٦) ومسلم (٢٩٧٠) من طريق الأسود عن عائشة . وأخرجه أحمد في الزهد (ص/ ٥).

(٥) أخرجه البخاري (٢٩١٦) ، (٤٤٦٧) ومسلم (١٦٠٣) .

(٦) في أ : ثنا . (٧) في أ : ثنا .

(٨) أخرجه أحمد (٩٧٥٢) ومسلم (١٠٥٥) . من هذا الطريق . وأخرجه البخاري (٦٤٦٠) ومسلم (١٠٥٥) من طريق محمد بن فضيل عن أبيه عن عمارة .

(٩) أخرجه في الزهد (ص/ ١٤) وحسنه الألباني . انظر صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٨٧) .

قيل: قد احتج بحال رسول الله ﷺ كل واحدة من الطائفتين .

والتحقيق أن الله سـبحانه وتعالى جمع له بين المقامين كليـهما على أتم الوجوه، [فكان][١]سيد الأغنياء الـشاكرين، وسيد الفقراء الصـابرين، فحصل له [ﷺ][٢]من الصبر على الفقر مـا لم يحصل لأحد سواه، [ق/ ٨٣جـ] ومن الشكر على الغنى ما لم يحصل لغنى سواه .فـمن تأمل سيرته وجد الأمر كـذلك، فكان ﷺ أصبر الخلق فى مـواطن الصبـر، وأشكر الخلق فى مـواطن الشكر ،وربه تعـالى كمل له مـراتب الكمـال فجـعله فى أعلى مـراتب الأغنيـاء الشاكـرين، وفى أعلى مـراتب الفقـراء الصابرين، قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى :٨]، وأجمع المفسرون أن العائل هو الفقيـر ، يقال: عال الرجل يعيل إذا افتـقر، وأعال يعيل إذا صار ذا عـيال ،مثل ألبن وأثمـر وأثرى إذا صـار ذا لبن وثمـر وثروة ،وعال يـعول إذا جـار ،ومنه قـوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾ [النساء:٣] . وقيل: المعنى لا تجوروا. والقول هو الأول لوجوه :

أحدها : أنه لا يعرف فى اللغة عال يعول إذا كـثر عياله، وإنما المعروف فى ذلك عال يعـيل، وأما عال يـعول فهـو بمعنى الجور ليس إلا . هذا الذى ذكـره أهل اللغة قاطبة.

الثانى : أنه سبـحانه قابل ذلك بالعـدل، الذى نقلهم عند خوفهم من فـقده إلى الواحدة أوالتسرى بما شاؤوا من ملك أيمانهم، ولا يحسن هنا التعليل بعدم العيال.

يوضحه الوجه الثالث : أنه سبحانه نقلهم عند الخوف من عدم القسط فى إنكاح اليتامى إلى من سواهن من النساء ،لئلا يقـعوا فى ظلم أزواجهم اليتامى، وجوز لهم نكاح الواحدة فـما فـوقها إلى الأربع، ثم نقلهم عنـد خوف الجور وعـدم العدل فى القسمة إلى الواحدة ،أو النوع الذى لا قسمـة عليهم فى الاستمتاع بهن وهن الإماء ـ فاقتضت الآية بيان الجائز من نكاح اليـتامى والبوالغ ،والأولى من ذينك القسمين عند خوف الظلم والجـائز من نكاح الواحدة ومـا فوقـها والأولى من هذين القـسمين عند خوف[الظلم والجـائز من نكاح الواحدة ومـا فوقـها والأولى من هذين القـسمين عند خوف][٣] العدل، فما لكثرة العيال مدخل هاهنا البتة.

يوضحه الوجه الرابع : أنه لو كان المحذور كثرة العيال لما نقلهم إلى ما شاؤوا من

(١) في أ : فكان . (٢) زيادة من أ . (٣) سقط من ط و ب .

كثرة الإمـاء بلا عدد ، فإن العـيال كما يكونون من الزوجـات يكونون من الإماء ولا فرق، فإنه لم ينقلهم إلى إماء الاستخدام بل إلى إماء الاستفراش.

يوضحه الوجه الخامس : أن كثرة العيال ليس أمرًا محذورًا مكروهًا للرب تعالى كيف وخيـر هذه الأمة أكثرها نسـاء ،وقد قال النبى ﷺ :« **تزوجوا الودود الولود ، فإنى مكاثر بكم الأمم**» [(١)]، فأمـر بنكاح الولود ليحصل منهـا ما يكاثر به الأمم يوم القيامة .

والمقصود أنه سـبحانه جعل نبيه ﷺ غنيـا شاكرًا بعد أن كان فقـيرًا صابرًا ،فلا تحتج به طائفة لحالها إلا كان للطائفة الأخرى أن تحتج به أيضًا لحالها .

فإن قيل: فقد كان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه من الشاكرين، وقد قال الإمام أحمد فى «مسنده »[(٢)]: حدثنا عبد الصمـد قال : حدثنا عمارة ،عن ثابت عن أنس رضى الله عنه قال: بينما عائشة فى بيتهـا سمعت صوتًا فى المدينة ،فقالت :ما هذا؟ فقالوا :عير لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل من كل شىء ،قال: وقد كانت سبعمائة بعير، فـارتجت المدينة من الصوت، فقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **رأيت عبـد الرحمن بن عـوف يدخل الجنة حـبوًا** ،فبلغ ذلك عـبد الرحمن فقال: إن استطعت لأدخلنهـا قائما فجعلها بأحمالها وأقتـابها كلها فى سبيل الله.

قيل: قد قـال الإمام أحمـد :هذا الحديث كـذب منكر. قالوا: وعـمارة يروى أحاديث مناكير، وقال أبو حاتم [ق/ ١٨٤أ] الرازى: عمارة بن زاذان لا يحتج به .

قال أبو الفرج[(٣)] :وقد روى الجراح بن منهال بإسناده عن عبد الرحمن بن عوف أن النبىﷺ قال له : « **يا بن عوف، إنك من الأغنياء، وإنك لا تدخل الجنة إلا زحفًا**

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥٠) والنسائي (٣٢٢٧) والحاكم (٢٦٨٥) والبـيهقي (١٣٢٥٤) وابن حبان (٤٠٥٦) ، (٤٠٥٧) والطبراني في الكبير (٥٠٨) كلهم من حديث معقل بن يسار وصححه الألباني . انظر صحيح أبي داود (١٨٠٥) .

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٨٨٦) قال الهيثمي : فيه عمارة بن راذان ضعفه النسائي والدارقطني . انظر مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٨) وقال الشوكاني : الحديث رواه أحمد وفيه عمارة وهو يروي المناكير وقد قال أحمد : هذا الحديث كذب منكر . قال ابن حـجر : لم يتفرد به عمارة بن زاذان فـقد رواه البزار من طريق أغلب بن تميم وأغلب شبيه عمارة بن زاذان في الضعف لكن لم أر من اتهمـه بالكذب وقد روى من طريق أخرى فيها متروك وقال النسائي : الحديث موضوع . وقال في اللآلئ : إن رجال إسناد البزار ثقات . انظر الفوائد المجموعة (١٤١) .

(٣) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ١٣) .

فأقرض ربك يطلق قدميك » ، قال أبو عبد الرحمن النسائى: هذا حديث موضوع، والجراح متروك الحديث .وقال يحيى :ليس حديث الجراح بشىء، وقال ابن المدينى: لا يكتب حديثه ،وقال ابن حبان: كان يكذب، وقال الدارقطنى: متروك .

فإن قيل: فما تصنعون بالحديث الذى رواه البيهقى من حديث أحمد بن عدى بن إسماعيل بن محمد :[حدثنا][1] سليمان بن عبد الرحمن: أخبرنى خالد بن يزيد بن أبى مـالك، عن أبيـه، عن عطاء بن أبـى رباح ،عن إبراهيم بن عـبـد الرحـمن بن عوف، عن أبيه ،عن رسـول الله ﷺ أنه قال: **« يا بن عوف، إنك من الأغنياء، ولن تدخل الجنة إلا زحفًا، فأقرض الله يطلق لك قـدميك »** ،قال : وما الذى أقرض يا رسول الله؟ قال: تـتبرأ مما أمسيت فـيه . قال: أمن كله أجمع يا رسـول الله؟ قال: **«نعم »** فـخرج ابن عـوف وهو يهتم بذلك، فـأتاه جبـريل فقـال :« مر ابن عـوف فليضف الضيف، وليطعم المساكين ،وليبدأ بمن يعول، وليعط السائل، فإذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه » [2] .

قيل: هذا حديث باطل لا يصـح عن رسول الله ﷺ، فإن أحـد رواته خالد بن يزيد بن أبى مـالك .قال الإمـام أحمد: ليـس بشىء ،وقال ابن مـعين : واه .وقال النسائى: غيـر ثقة، وقال الدارقطنى: ضعيف ، وقـال يحيى بن معين: لم يرض أن يكذب على أبيه حتى كذب على الصحابة .

فإن قيل : فما تصـنعون بالحديث الذى قاله الإمـام أحمد[3] :حدثنا الهذيل بن ميمون، عن مطرح بن يزيد ،عن عبيد الله بن زحر ،عن على بن يزيد ،عن القاسم عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : **« دخلت الجنة فسمـعت فيها خـشفة بين يدى قلت: ما هذا؟ قال : بلال. فمضيت فإذا أكثر أهل الجنة فقراء المهاجرين وذرارى المسلمين. ولم أر فـيـها أحـداً أقل من الأغنيـاء والنسـاء. قـيل لى: أما الأغنـياء فـهم [بالباب][4]يحاسبون ويمحصون، وأما النساء فألهاهن الأحمران: الذهب والحرير. ثم**

(١) في أ : ثنا .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٣٠٦٤) وابن عدي في الكامل (٣/ ١٢) والحـاكم (٥٣٥٨) والطبراني في مسند الشاميين (١٦١٦) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٩)، (٨/ ٣٣٤) . وقال الألباني : ضعيف جداً ، انظر السلسلة الضعيفة (١٧٧٢) .

(٣) أخرجه أحـمد (٢٢٢٨٦) وابن الجوزي في الموضوعـات (٢/ ١٤) وأخرجه الطبراني في الكـبير (٧٩٢٣) من طريق القـاسم بن عبـد الرحمن عن أبي أمـامة به . قـال الألباني : منكر جـداً . انظر السلسلة الضـعيـفة (٥٣٤٦) .

(٤) في أ : في الباب .

خرجنا من أحد أبواب الجنة الثمانية، فلما كنت عند الباب أتيت بكفة فوضعت فيها ووضعت أمتي في كفة فرجحت بها ثم أتي بأبي بكر فوضع في كفة وجيء بجميع أمتي فوضعوا في كفة فرجح أبو بكر، ثم أتي بعمر فوضع في كفة ووضع أمتي في كفة فرجح عمر، وعرضت على أمتي رجلا رجلا فجعلوا يمرون واستبطأت عبد الرحمن ابن عوف، ثم جاء بعد الإياس فقلت: عبد الرحمن. فقال: بأبي وأمي يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق ما خلصت إليك حتى ظننت أني لا أصل إليك إلا بعد المشيبات، قلت: وما ذاك؟ قال: من كثرة مالي أحاسب فأمحص » .

قيل : هذا حديث لا يحتج بإسناده ،وقد أدخله أبو الفرج بن الجوزي هو والذى قبله فى كتاب «الموضوعات » .وقال : أما عبيد بن زحر فقال يحيى: ليس بشيء، وعلى بن يزيد متروك، وقال ابن حبان : عبيد الله يروى الموضوعات عن الأثبات ، وإذا روى عن على ابن يزيد أتى بالطامات، وإذا اجتمع فى إسناد خبر عبيد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم بن عبد الرحمن لم يكن متن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم .

قال أبو الفرج: وبمثل هذا الحديث [ق/ ١٨٥أ] الباطل يتعلق [جهلة][1] المتزهدين، ويرون أن المال مانع من السبق إلى الخير ويقولون: إذا كان ابن عوف يدخل الجنة زحفًا لأجل ماله، كفى ذلك فى ذم المال ،والحديث لا يصح ،وحاشا عبد الرحمن المشهود له بالجنة أن يمنعه ماله [من][2] السبق، لأن جمع المال مباح، وإنما المذموم كسبه من غير وجهه ومنع الحق الواجب فيه، وعبد الرحمن منزه عن الحالين .

وقد خلف [أبو][3]طلحة ثلاثمائة حمل من الذهب ، وخلف ابن الزبير وغيره، ولو علموا أن ذلك مذموم لأخرجوا الكل ،وكم قاص يتسوف بمثل هذا الحديث، يحث على الفقر ويذم الغنى ، فلله در العلماء الذين يعرفون الصحيح ويفقهون الأصول .انتهى. [كلامه][4] .

قلت : وقد بالغ فى رد هذا الحديث ،وتجاوز الحد فى إدخاله فى الأحاديث الموضوعة المختلقة على رسول الله ﷺ .وكأنه استعظم احتباس عبد الرحمن بن عوف، وهو أحد السابقين الأولين المشهود لهم بالجنة ، عن السبق إليها ودخوله الجنة

---

(١) في ب : جملة .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) سقط من أ .
(٤) سقط من أ .

حبوًا، ورأى ذلك مناقـضا لسبقه ومنزلتـه التى أعدها الله له فى الجنة وهذا وهم منه رحمه الله .

وهب أنه وجد السبيل إلى الطعن فى هذين الخبرين، أفيجد سبيلا إلى القدح فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال : « **يدخل فقـراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خـمسمائة عام**»[١] . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وفى حديث ابن [عمر][٢] الذى رواه مسلم فى «صحـيحه »[٣] عن النبى ﷺ : «**إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفًا**» .

وفى «مسند الإمـام أحمد»[٤]، عنه عن النبى ﷺ قال : « **هل تدرون أول من يدخل الجنة؟**» قالوا: الله ورسـوله أعلم قال : « **فـقراء المهـاجرين الذين يتـقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء** » .

وفى «جامع الترمذى»[٥]، من حديث جـابر رضى الله عنه، عن النبى أنه قال: «**يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفًا** » .

فهذا الحديث وأمثاله صحيح صريح فى سبق فقراء الصحابة إلى الجنة لأغنيائهم، وهم فى السبق متفاوتون ،فمنهم من يسبق بـخمسمائة عام، ومنهم من يسبق بأربعين عامًا، ولا يقدح ذلك فى منزلة المتأخرين فى الدخول ، فإنهم قد يكونون أرفع منزلة ممن سـبقـهم إلى الدخول وإن تأخـروا بعدهم للحـساب، فـإن الإمام العـادل يوقف للحسـاب ويسبـقه من لم يل شـيئًا من أمـور المسلمين إلى الجنة . فـإذا دخل الإمام العادل بعده كانت منزلته أعلى من منزلة الـفقير بل يكون أقرب الناس من الله منزلة، كما فى «صحيح مسلم»[٦]، من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: « **المقسطون عند الله يوم القيامـة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا** » .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) هكذا في الأصول .وفي ط : عمرو .

(٣) مسلم (٢٩٧٩) .

(٤) أخرجه أحمد (٦٥٧٠) وعبد بن حميد في المنتخب (٣٥٢) وابن حبان (٧٤٢١) والبيهقي في الشعب (٣٩٥٤) وفي البعث والنشور (٤٥٨) والبزار في كشف الأستار (٣٦٦٥) والآجرى في الشريعة (١١٧٩) وصححه الألباني . انظر صحيح الترغيب والترهيب (٣١٨٣) .

(٥) أخرجه الترمذي (٢٣٥٥) وأحمد (١٤٥١٦) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الترمذي (٤١١) .

(٦) مسلم (١٨٢٧) .

وفي «الترمذي»(١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: « **أن أحب الناس إلى الله يوم القيامة، وأقربهم منه مجلسًا إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة ،وأشدهم عذابًا، إمام جائر** » .

فالإمام العادل والغنى ،قد يتأخر [دخوله](٢) كل منهم للحساب ،ويكون بعد الدخول أرفع منزلة من الفقير السابق. ولا يلزم من احتباس عبد الرحمن بن عوف لكثرة ماله حتى يحاسب عليه، ثم [يلحق](٣)برسول الله ﷺ وأصحابه غضاضة عليه، ولا نقص من مرتبته، ولا يضاد ذلك سبقه وكونه مشهودًا له بالجنة.

وأما حديث دخوله الجنة زحفًا ، فالأمر كما قال فيه الإمام أحمد رحمه الله: إنه كذب منكر .وكما قال النسائي: إنه موضوع [ق/١٨٦أ] .

ومقامات عبد الرحمن [رضي الله عنه](٤)، وجهاده، ونفقاته العظيمة ، وصدقاته تقتضي دخوله مع المارين كالبرق أو كالطرف أو كأجاويد الخيل، ولا يدعه يدخلها زحفًا .

(فصل)

والله سبحانه ،كما هو خالق الخلق، فهو خالق ما به غناهم وفقرهم، فخلق الغنى والفقر ليبتلى بهما عباده أيهم أحسن عملا، وجعلهما سببًا للطاعة والمعصية والثواب والعقاب، قال تعالى : ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ [الأنبياء : ٣٥]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: بالشدة والرخاء ،والصحة والسقم، والغنى والفقر والحلال والحرام، وكلها بلاء .وقال ابن زيد : نبلوكم بما تحبون وما تكرهون، لننظر كيف [صبركم وشكركم](٥) فيما تحبون وما تكرهون، وقال الكلبي: الشر بالفقر والبلاء، والخير، بالمال والولد. فأخبر سبحانه أن الغنى والفقر مطيتا الابتلاء والامتحان .

وقال تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا**﴾ [الفجر:١٥ -١٧] ، **فأخبر سبحانه أنه يبتلى عبده بإكرامه له، وبنعمته له،وبسط الرزق عليه، كما يبتليه بتضييق الرزق**

---

(١) أخرجه الترمذي (١٣٢٩) وأحمد (١١١٩٠) والبيهقي في الكبرى (١٩٩٥٦) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (١٣٦٣) .

(٢) في ط : دخول كل منهم .

(٣) في أ : يلتحق .

(٤) زيادة من أ .

(٥) في أ : تقديم وتأخير .

وتقديره عليه ،وإن كليهما ابتلاء منه وامتحان.

ثم أنكر سبحانه على من زعم أن بسط الرزق وتوسعته إكرام من الله لعبده وأن تضييقه عليه إهانة منه لـه، فقال: كلا، أى ليس الأمر كما يقول الإنسان ،بل قد أبتلى بنعمتى وأنعم ببلائى .وإذا تأملت ألفاظ الآية ،وجدت هذا المعنى يلوح على صفحاتها ظاهرًا للمتأمل.

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧] ، فأخبر سبحانه أنه زين الأرض بما عليها من المال وغيره للابتلاء والامتحان، كما أخبر أنه خلق الموت والحياة لذلك، وخلق السموات والأرض لهذا الابتلاء أيضًا. فهذه ثلاثة مواضع فى القرآن ،يخبر فيها سبحانه أنه خلق العالم العلوى والسفلى وما بينهما وأجل العالم ، وأجل أهله ،وأسباب معائشهم، التى جعلها زينة [للأرض][١] من الذهب، والفضة، والمساكن، والملابس، والمراكب، والزروع، والثمار ، والحيوان ، والنساء، والبنين ،وغير ذلك ،كل ذلك خلقه للابتلاء والامتحان، ليختبر خلقه أيهم [أحسن عملاً][٢] وأرضى [له][٣] فهو الأحسن عملا.

وهذا هو الحق، الذى خلق به وله السموات والأرض وما بينهما ،وغايته الثواب والعقاب، وفواته وتعطيله هو العبث الذى نزه نفسه عنه، وأخبر أنه يتعالى [عنه][٤]، وأن ملكه الحق وتفرده بالإلهية وحده وبربوبية كل شيء،ينفى هذا الظن الباطل والحسبان الكاذب، كما قال تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥ ، ١١٦] .

فنزه سبحانه نفسه عن ذلك، كما نزهها عن الشريك والولد والصاحبة، وسائر العيوب والنقائص من: السنة ، والنوم ،واللغوب، والحاجة ،واكترائه بحفظ السموات والأرض، وتقدم الشفعاء بين يديه بدون إذنه ،كما يظنه أعداؤه المشركون وخفي بعض أمر الخلق عليه كما يظنه أعداؤه لذين يخرجون عن علمه جزئيات العالم أو شيئًا منها .

---

(١) في أ : الأرض .
(٢) في ط و ب : أطوع له .
(٣) سقط من ط و ب .
(٤) سقط من أ .

فكما أن كماله المقدس وكمال أسمائه وصفاته يأبى ذلك ويمنع منه، فكذلك يبطل خلقه لعباده عبثًا وتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يردهم إليه ،فيثيب محسنهم بإحسانه ومسيئهم بإساءته، ويعرف [المبطلون](١) منهم أنهم كانوا كاذبين ، ويشهدهم أن رسله وأتباعهم كانوا أولى بالصدق والحق منهم . فمن أنكر ذلك ،فقد أنكر إلهيته وربوبيته وملكه الحق، وذلك عين الجحود والكفر به سبحانه[ق/ ۱۸۷أ]، كما قال المؤمن لصاحبه الذى حاوره فى المعاد وأنكره : ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ [الكهف:٣٧] . فأخبر أن إنكاره للمعاد كفر بذات الرب سبحانه.

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الرعد:٥]. وذلك أن إنكار المعاد يتضمن إنكار قدرة الرب وعلمه وحكمته وملكه الحق وربوبيته وإلهيته، كما أن تكذيب رسله وجحد رسالتهم يتضمن ذلك أيضًا ،فمن كذب رسله وجحد المعاد فقد أنكر ربوبيته سبحانه، ونفى أن يكون رباً للعالمين .

والمقصود أنه سبحانه وتعالى خلق الغنى والفقر مطيتين للابتلاء والامتحان، ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به ، كما فى «المسند»(٢) عنه ﷺ قال: « **يقول الله تعالى: إنا نزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ،ولو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانيًا، ولو كان له ثان لابتغى له ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب**» .

فأخبر سبحانه أنه أنزل المال ليستعان به على إقامة حقه بالصلاة، وإقامة حق عباده بالزكاة، لا للاستمتاع والتلذذ كما تأكل الأنعام. فإذا زاد المال عن ذلك أو خرج عن هذين المقصودين، [فات](٣) الغرض والحكمة التى أنزل لها [و](٤) كان التراب أولى به فرجع هو والجوف الذى [امتلأ بمحنته وجمعه إلى التراب الذي هو أصله فلم ينتفع صاحبه ولا انتفع الجوف الذي](٥) [الذى امتلأ به](٦) بما خلق له من الإيمان والعلم والحكمة ؛فإنه خلق لأن يكون وعاء لمعرفة ربه وخالقه والإيمان به ومحبته

---

(١) في أ : المبطلين .

(٢) أخرجه أحمد (٢١٩٥٦) والطبراني في الكبير (٣٣٠١) ، (٣٣٠٣) والأوسط (٢٤٤٦) من حديث أبي واقد الليثي ، وله شاهد في الصحيحين من حديث ابن عباس . البخاري (٦٤٣٦) ومسلم (١٠٤٩) .

(٣) سقط من ط و ب .

(٤) سقط من ط و ب .

(٥) سقط من ط و ب .

(٦) في أ : امتلائه .

وذكره، وأنزل عليه من المال ما يستعين به على ذلك. فعطل الجاهل بالله وبأمر الله وبتوحيد الله [وبأسمائه][١]وصفاته جوفه عما خلق له، وملأه بمحبة المال [وجمعه][٢] الفانى الذاهب الذى هو ذاهب عن صاحبه أو بالعكس، وجمعه [والاستكثار][٣] منه .ومع ذلك فلم يمتلئ بل ازداد فقرًا وحرصًا إلى أن امتلأ جوفه بالتراب الذى خلق منه ، فرجع إلى مادته الترابية التى خلق منها هو وماله، ولم [يستكمل][٤] مادته بامتلاء جوفه من العلم والإيمان [اللذين][٥] بهما كماله وفلاحه وسعادته فى معاشه ومعاده .

فالمال إن لم ينفع صاحبه ضره ولا بد ،وكذلك العلم والملك والقدرة ،كل ذلك إن لم ينفعه ضره .فإن هذه الأمور وسائل لمقاصد يتوصل بها إليها فى الخير والشر، فإن عطلت عن التوسل بها إلى المقاصد والغايات المحمودة توصل بها إلى أضدادها . فأربح الناس من جعلها وسائل إلى الله والدار الآخرة، وذلك الذى ينفعه فى معاشه ومعاده .وأخسر الناس من توسل بها إلى هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة، فخسر الدنيا والآخرة ،فهذا لم يجعل الوسائل مقاصد، ولو جعلها كذلك لكان خاسراً ، لكنه جعلها وسائل إلى ضد ما جعلت له ،فهو بمثابة من توسل بأسباب اللذة إلى أعظم الآلام وأدائها .

فالأقسام أربعة لا خامس لها :

أحدها : معطل الأسباب معرض عنها .

الثانى: مكب عليها واقف مع جمعها وتحصيلها .

الثالث: متوصل بها إلى ما يضره ولا ينفعه فى معاشه ومعاده، فهؤلاء الثلاثة فى الخسران .

الرابع: [متوصل][٦] بها إلى ما ينفعه فى معاشه ومعاده وهو الرابح، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥، ١٦].

وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس، حيث فهموا منها أن من كان له

---

(١) في أ : وبأسماء الله .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) في أ : والاستكبار .
(٤) في ط و ب : تتكمل .
(٥) في أ : الذي .
(٦) في أ : يتوصل .

إرادة فى الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد . ثم اختلفوا فى معناها ،فقالت طائفة منهم ابن عباس [رضي الله عنهما][1]: من كان يريد تعجيل الدنيا ،فلا يؤمن بالبعث ،ولا بالثواب، ولا بالعقاب [ق/١٨٨] . قالوا: فالآية فى الكفار خاصة على قول ابن عباس [رضي الله عنه][2].

وقال قتادة : من كانت الدنيا همه وسدمه ونيته وطلبه ،جازاه الله فى الدنيا بحسناته ،ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها. وأما المؤمن فيجزى فى الدنيا بحسناته ،ويثاب عليها فى الآخرة .

قال هؤلاء: فالآية في الكفار بدليل قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٦] .قالوا : المؤمن من يريد الدنيا والآخرة، فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن .

وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى رواية أبى صالح عنه: نزلت فى أهل القبلة.

قال مجاهد :هم أهل الرياء .

وقال الضحاك: من عمل صالحًا من أهل الإيمان من غير تقوى عجل له ثواب عمله فى الدنيا .

واختار الفراء هذا القول، وقال :من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثوابه ولم يبخس.

وهذا القول أرجح، ومعنى الآية على هذا: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها. وهذا لا يكون مؤمنًا البتة ، فإن العاصى والفاسق ولو بالغا فى المعصية والفسق فإيمانهما يحملهما على أن يعملا أعمال البر لله، فيريدان بأعمال البر وجه الله وإن عملا بمعصيته. فأما من لم يرد بعمله وجه الله، وإنما أراد به الدنيا وزينتها، فهذا لا يدخل فى دائرة أهل الإيمان. وهذا هو الذى فهمه معاوية [رضي الله عنه][3] من الآية ،واستشهد بها على حديث أبى هريرة الذى رواه مسلم فى صحيحه[4] فى الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة: القارئ الذى قرأ القرآن ليقال: فلان قارئ ،والمتصدق الذى أنفق [أمواله][5] ليقال: فلان جواد، والغازى الذى قتل

---

(١) زيادة من أ . (٢) زيادة من أ .
(٣) زيادة من أ . (٤) مسلم (١٩٠٥) . (٥) في أ : ماله .

في الجهاد ليقال: هو جريء .

وكما أن خـيار خلق الله هم النبيون والصـديقون والشهداء والصالحـون، فشرار الخلق من تشبه بهم وليس منهم. فمن تشبـه بأهل الصدق والإخلاص وهو مراء كمن تشبه بالأنبياء وهو كاذب .

وقال ابن أبي الدنيا[1]: حدثني محمد بن إدريس، قال: أخـبرني عبد الحميد بن صالـح، حدثنا قطن بن الحـباب ،عن عـبد الوارث، عن أنس بن مـالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا كان يوم القيامة صـارت أمتي ثلاث فرق: فرقة يعبـدون الله عز وجل للدنيـا ،وفرقـة يعبدونه رياء وسـمعـة، وفرقة يعـبدونه لوجـهه ولداره. فيقول للذين كانوا يعبدونه للدنيا : بعزتي وجلالي ومكاني ما أردتم بعبادتي؟ فيقولون: بعزتك وجلالك ومكانك الدنيا ،فـيقول: إني لم أقبل من ذلك شيئًا، اذهبوا بهم إلى النار ويقـول للذين كانوا يعبـدونه رياء وسمعـة؛ بعزتي وجـلالي ومكاني ما أردتم بعبـادتي؟ فيقولون: بعـزتك وجلالك ومكانك رياء وسمـعة. فيقـول : فإني لم أقبل من ذلك شيئًا ، اذهبوا بهم إلى النار. ويقـول للذين كانوا يعبدونه لوجهه وداره : بعزتـي وجلالي ومكاني، مـا أردتم بعبادتـي؟ فيقـولون: بعزتك وجـلالك ومكانك؛ وجهك ودارك فيقول: صدقتم ، اذهبوا بهم إلى الجنة»** .

هذا حديث غني عن الإسناد ،والقرآن والسنة شاهدان بصدقه، ويدل على صحة هذا القول في الآية قـوله تعالى : ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ [هود:١٥] ، وذلك على أنها في قوم لهم أعـمال لم يريدوا بها وجه الله ،وإنما أرادوا بها الدنيـا، ولها عملوا [ق/ ١٨٩] ، فوفاهم الله ثواب أعمالهم فيها من غير بخس،[وأفضوا][2] إلى الآخرة بغير عـمل يستحقـون عليه الثواب. وهذا لا يقع ممن يؤمن بالآخرة إلا كـما يقع منه كبائر الأعمال وقوعًا عارضًا يتوب منه ويراجع التوحيد .

وقال ابـن الأنباري: فـعلى هذا القول المعنى في قـوم من أهل الإسلام يعـملون العمل الحسن لتستـقيم به دنياهم غير مفكرين في الآخرة، وما يـنقلبون إليه ، فهؤلاء يجعل لـهم جزاء حسناتهـم في الدنيا ، فإذا كـانت في الآخرة كـان جزاؤهم عليـها النار، إذا لم يريدوا بها وجه الله ،ولم يقصدوا التماس ثوابه وأجره .

---

(١) أخرجه في ذم الدنيا (٤١٣) وفيه قطري الخشاب بدل قطن بن الحباب .

(٢) في أ : فأفضوا .

ثم أورد صاحب هـذا القول [على أنفسهم][(١)] سؤالا، قـالوا: فإن قـيل: الآية الثانية على هذا القول توجب تخليد المؤمن المريد بعمله الدنيا فى النار.

وأجـابوا عنه : بأن ظاهر الآية يدل عـلى أن من راءى بعـمله ،ولم يلتـمس به ثواب الآخرة، بل كانت نيته الدنيـا ،فإن الله يبطل إيمانه عند الموافاة ، فلا يوافى ربه بالإيمان. قـالوا :ويدل عليه قـوله : ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦] ، وهذا يتناول أصل الإيمان وفروعه.

وأجابت فرقة أخرى : بأن الآية لا تقتضى الخلود الأبدى فى النار، وإنما تقتضى أن الذى يستحقونه فى الآخرة الـنار ،وأنهم ليس لهم عمل صالح يرجون به النجاة، فإذا كـان مع أحـدهم عمـود التوحـيد ،فـإنه يخرج به من النار مع من يخـرج من أصحاب الكبائر الموحدين وهذا هو جواب ابن الأنبارى وغيره رحمة الله عليهم .

والآية بحمد الله لا إشكال فيـها، والله سبحانه ذكر جـزاء من يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها وهو النار ،وأخبر بحبوط عمله وبطلانه، فإذا أحبط ما ينجو به وبطل ، لم يبق معه ما ينجيه. فإن كان معه إيمان لم يرد به الدنيا وزينتها، بل [أراد الله به][(٢)] [ورسوله][(٣)] والدار الآخـرة ،لم يدخل هذا الإيمان فى العـمل الذى حـبط وبطل، وأنجاه إيمانه من الخلود فى النار، وإن دخلها بحبوط عمله الذى به النجاة المطلقة.

فالإيمان إيمانان: إيمان : يمنع من دخول النار، وهو الإيمـان الباعث على أن تكون الأعمـال لله يبتغى بها وجـهه وثوابه . **وإيمان**: يمنع الخلود فى النار[فإن][(٤)] كان مع المرائى شيء منه وإلا كان من أهل الخلود . فالآية لها حكم نظائرها من آيات الوعيد، والله الموفق.

وذلك كقوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] . ومنه قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨ ، ١٩] .

فهذه ثلاثة مواضع من القرآن، يشبه بعضها بعـضًا، ويصدق بعضها بعضًا وتجتمع على معنى واحد :وهو أن من كانت الدنيا مراده ،ولهـا يعمل فى غاية سعيه، لم يكن له فى الآخرة نصيب. ومن كانت الآخرة مراده ولها عمل، وهى غاية سعيه، فهى له.

---

(١) سقط من أ .

(٢) في أ : تقديم وتأخير .

(٣) سقط من ط و ب .

(٤) في ب : وإن .

بقى أن يقال: فما حكم من يريد الدنيا والآخرة، فإنه داخل تحت حكم الإرادتين، فبأيهما يلحق ؟

قيل: من هاهنا نشأ الإشكال ،وظن من ظن من المفسرين [ق/ ١٩٠أ] أن الآية فى حق الكافر، فانه هو الذى يريد الدنيا دون الآخرة وهذا غير لازم طردًا ولا عكسًا، فإن بعض الكفار قد يريد الآخرة ،وبعض المسلمين قد لا يكون مراده إلا الدنيا ،والله تعالى قد علق السعادة بإرادة الآخرة، والشقاوة بإرادة الدنيا ،فإذا تجردت الإرادتان تجرد موجبهما ومقتضاهما، وإن اجتمعتا فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور، والطاعة والمعصية والإيمان والشرك فى العبد .

وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسول ﷺ : ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٣] . وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة ،ولم يكن فيهم منافق. ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: «ما شعرت أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أحد ونزلت هذه الآية»(١).

والذين أريدوا فى هذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم، الذى أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه ، وهم من خيار المسلمين، ولكن هذه الإرادة عارضة حملتهم على ترك المركز ، والإقبال على كسب الغنائم ، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها ، فهذه الإرادة لون ، وإرادة هؤلاء لون .

وها هنا أمر يجب التنبيه له ،وهو أنه لا يمكن إرادة الدنيا وعاجلها بأعمال البر دون الآخرة مع الايمان بالله ورسوله ولقائه أبداً ، فإن الإيمان بالله والدار الآخرة يستلزم إرادة العبد [لرحمة الله](٢) والدار الآخرة بأعماله ، فحيث كان مراده بها الدنيا فهذا لا يجامع الإيمان أبدًا ، وإن جامع الإقرار والعلم فالإيمان وراء ذلك، فالإقرار والمعرفة [حاصلان](٣) لمن شهد الله سبحانه له بالكفر مع هذه المعرفة كفرعون وثمود واليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوه كما عرفوا أبناؤهم وهم من أكفر الخلق . فإرادة الدنيا وعاجلها بالأعمال ، قد تجامع هذه المعرفة والعلم، ولكن الإيمان الذى هو وراء ذلك لا بد أن يريد صاحبه بأعماله الله والدار الآخرة . والله المستعان .

---

(١) اخرجه أحمد (٤٤١٤) وابن أبي شيبة في مصنفه (١٨٦٣٠) والطبراني في الأوسط (١٣٩٩) .
(٢) في أ : وجه الله . (٣) في أ : حاصل .

(فصل)

والمقصود أنه سبحانه جعل الغنى والفقر ابتلاء وامتحانًا للشكر والصبر ، والصدق والكذب ، والإخلاص والشرك ، قال تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم﴾ [سورة المائدة:٤٨] وقال تعالى :﴿الٓمٓ ⑴ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ⑵ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [المائدة:٤٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن:١٥] . فجعل الدنيا عرضًا عاجلاً ومتاع غرور ،وجعل الآخرة دار جزاء وثواب، وحف الدنيا بالشهوات وزينها بها ،كما قال تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:١٤] . فأخبر سبحانه أن هذا الذى زين به الدنيا من ملاذها وشهواتها، وما هو غاية أمانى طلابها ومؤثريها على الآخرة ، وهو سبعة أشياء:

النساء اللاتى هن أعظم زينتها وشهواتها وأعظمها فتنة.

والبنين الذين بهم جمال الرجل وفخره وكثرته [وكرمه](١) [ق/ ٩١أ] وعزه .

والذهب والفضة اللذين هما مادة الشهوات على اختلاف أجناسها وأنواعها.

والخيل المسومة التى هى عز أصحابها وفخرهم وحصونهم وآلة قهرهم لأعدائهم فى طلبهم وهربهم.

والأنعام التى منها ركوبهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم وغير ذلك من مصالحهم .

والحرث الذى هو مادة قوتهم وقوت أنعامهم ودوابهم وفاكهتهم وأدويتهم وغير ذلك .

ثم أخبر سبحانه أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا، ثم شوق عباده إلى متاع الآخرة وأخبرهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى فقال : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:١٥] .

ثم ذكر سبحانه من يستحق هذا المتاع ،ومن هم أهله الذين هم أولى به، فقال: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ⑯ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ

(١) في أ : وكثرته .

وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٦ ، ١٧] .فأخبـر سبحانـه أن ما أعده لأوليائه المتقين من متاع الآخرة خير من مـتاع الدنيا، وهو نوعان: ثواب يتمتعون به، وأكبـر منه وهو رضوانه عليهم، قـال تعالى : **﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا [وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾]**(١) [الحديد: ٢٠]، فأخبـر سبحانه عن حقـيقة الدنيا بما جـعله مشاهدا لأولى البصـائر، وإنها لعب ولهو تلهـو بها النفوس وتلعب بهـا الأبدان، واللعب واللهو لا حقـيقة لهمـا ،وأنما هما مشغلـة للنفس مضيعـة للوقت، يقطع بها الجاهلون العـمر فيذهب ضياعاً فى غير شىء.

ثم أخبـر [سبـحانه](٢) :أنها زينة زينت لـلعيون وللنفـوس، فأخذت بالعـيون والنفوس استـحسانًا ومحبة ،ولو باشـرت القلوب معرفة حقيـقتها ومآلها ومـصيرها لأبغضتها ولآثرت عليها الآخرة، ولما آثرتها على الآجل الدائم الذى هو خير وأبقى .

قال الإمام أحـمد (٣): [حدثنا](٤) وكيع ،[حدثنا](٥) المسعودى، عـن عمرو بن مرة،عن إبراهيم، عن علقمة ،عن عبدالله رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:« **ما لى وللدنيا، إنما مثلى ومـثل الدنيا كمثل راكب قال فى ظل شـجرة، فى يوم صائف ثم راح وتركها**» .

وفى «جامع التـرمذى»(٦)، من حديث سـهل بن سعـد، قال :قـال رسول الله ﷺ: « **لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سـقى كافراً منها شربة ماء**»، قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

---

(١) سقط من أ .　　(٢) زياة من أ .

(٣) أخرجـه أحمـد (٤٢٠٨) والزهد (٨) ، (١٢) والترمـذي (٢٣٧٧) وابن ماجة (٤١٠٩) والطـيالسي (٢٧٧) والحـاكم (٧٨٥٩) ووكـيع في الزهد (٦٤) وهناد في الـزهد (٦٨٣) وابن أبي الدنيـا في ذم الدنيـا (١٣٣) والطبـراني في الأوسط (٩٣٠٧) وأبو يعلـي (٤٩٩٨) ، (٥٢٢٩) ، (٥٢٩٢) وصحـحـه الألبـاني . انظر صحيح سنن الترمذي (١٩٣٦) .

(٤) في أ : ثنا .　　(٥) في أ : ثنا .

(٦) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠) وابن ماجة (٤١١٠) والحاكم (٧٨٤٧) وصـححه الألباني . انظر صحيح ابن ماجة (٣٣٨١) .

وفى «صحيح مسلم»[١] ، من حديث المستورد بن شداد [قال][٢] ، قال رسول الله ﷺ : « **ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم ، فلينظر [بم][٣] ترجع وأشار بالسبابة**» .

وفى «الترمذى »[٤] من حديثه، قال :كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة فقال رسول الله ﷺ : « **أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها ؟** » قالوا: ومن هوانها ألقوها يا رسول الله. قال : « **فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها**» .

وفى «الترمذى»[٥] أيضًا ،من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ،قال: قال رسول الله ﷺ : « **الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ،وعالماً أو متعلمًا** » .

والحديثان حسنان .

قال الإمام أحمد[٦] : [حدثنا][٧] هيثم بن خارجة، أنبأنا إسماعيل بن عياش بن عبد الله ابن دينار النهرانى .قال : قال عيسى عليه السلام للحواريين: بحق أقول لكم إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين ، بحق أقول لكم إن شركم عملا عالم يحب الدنيا ويؤثرها [ق/ ١٩٢أ] على الآخرة، إنه لو يستطيع جعل الناس كلهم فى عمله مثله» .

وقال أحمد[٨] :حدثنا يحيى بن إسحاق قال: أخبرنى سعيد بن عبد العزيز عن مكحول، قال:« قال عيسى ابن مريم عليه السلام : يا معشر الحواريين، أيكم يستطيع أن يبنى على موج البحر داراً ؟ قالوا : يا روح الله ، ومن يقدر على ذلك؟ قال : إياكم والدنيا، فلا تتخذوها قراراً» .

وفى كتاب « الزهد »[٩] لأحمد بن حنبل: أن عيسى ابن مريم عليه السلام كان

---

(١) مسلم (٢٨٥٨) .

(٢) سقط من ط و ب . (٣) في ب : بما .

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٢١) وابن ماجة (٤١١١) وأحمد (١٨٠٤٢) وابن المبارك في الزهد (٥٠٨) وابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢) من حديث شداد بن أوس . وصححه الألباني . انظر صحيح ابن ماجة (٣٣١٨).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢) وابن ماجة (٤١١٢) والبيهقي في الشعب (١٧٠٨) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (١٨٩١) .

(٦) أخرجه في الزهد (ص/ ٩٤) . (٧) في أ : ثنا .

(٨) أخرجه في الزهد (ص/ ٩٤) . (٩) أخرجه في الزهد (ص/ ٥٨) .

يقول: بحق أقول لكم إن أكل [خبز البر][١] وشرب الماء العذب ونومًا على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد أن يرث الفردوس».

وفى «المسند»[٢] عنه ﷺ: « **إن الله ضرب طعام ابن آدم مثلا للدنيا وإن قزحه وملحه فلينظر إلى ماذا يصير**» .

(فصل)

ثم أخبر سبحانه وتعالى عنها أنها يفاخر بعضنا بعضًا بها، فيطلبها ليفخر بها على صاحبه ،وهذا حال كل من طلب شيئًا للمفاخرة من مال، أو جاه أو قوة، أو علم، أو زهد .

والمفاخرة نوعان: مذمومة ومحمودة .

فالمذمومة : مفاخرة أهل الدنيا بها .

والمحمودة: أن يطلب المفاخرة فى الآخرة. فهذه من جنس المنافسة المأمور بها،وهى أن الرجل ينفس على غيره بالشيء أي أن يغار أن يناله دونه ويأنف من ذلك ويحمى أنفه له .

يقال: نفست عليه الشيء أنفسه نفاسة إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه دونك ،والتنافس تفاعل من ذلك، كأن كل واحد من المتنافسين يريد أن يسبق صاحبه إليه، وحقيقة المنافسة الرغبة التامة والمبادرة والمسابقة إلى الشىء النفيس .

(فصل)

ثم أخبر تعالى عنها أنها تكاثر فى الأموال والأولاد ، فيحب كل واحد أن يكاثر بنى جنسه فى ذلك ، ويفرح بأن يرى نفسه أكثر من غيره مالا وولدًا ، وأن يقال فيه ذلك، وهذا من أعظم ما يلهى النفوس عن الله والدار الآخرة ، كما قال تعالى : **﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤)﴾** [الكاثر: ١ ـ ٤] .

والتكاثر فى كل شىء ،فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة ،فهو داخل فى حكم هذه [الآية]. فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال،

---

(١) في ط و ب : الخبز .

(٢) أخرجه في المسند من زوائد عبد الله (٢١٢٧٧) وابن حبان (٧٠٢) والطبراني في الكبير (٥٣١) وابن المبارك في الزهد (٤٩٥) والبيهقي في الشعب (٥٦٥٢) والزهد الكبير (٤١٢) وصححه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (٣٨٢).

ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه [أو](١) بالعلم ،فيجمعه تكاثرًا وتفاخرًا .

وهذا أسوأ حالاً عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه ،فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا، وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها .

(فصل)

ثم أخبر سبحانه عن مصير الدنيا وحقيقتها ،وأنها بمنزلة غيث أعجب الكفار نباته .

والصحيح إن شاء الله أن الكفار هم الكفار بالله، وذلك عرف القرآن حيث ذكروا بهذا النعت فى كل موضع، ولو أراد الزراع لذكرهم باسمهم الذى يعرفون به، كما ذكرهم به فى قوله : ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ [الفتح :٢٩] ، وإنما خص الكفار به بالإعجاب ؛لأنهم أشد إعجابًا بالدنيا، فإنها دارهم التى لها يعملون ويكدحون، فهم أشد إعجابًا بزينتها وما فيها من المؤمنين .

ثم ذكر سبحانه عاقبة هذا النبات ،وهو إصفراره ويبسه، وهذا آخر الدنيا ومصيرها. ولو ملكها العبد من أولها إلى آخرها فنهايتها ذلك. فإذا كانت الآخرة انقلبت الدنيا واستحالت إلى عذاب شديد أو مغفرة من الله وحسن ثوابه وجزائه، كما قال على بن أبى طالب: « الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ،ومطلب نجح لمن سالم فيها مساجد أنبياء الله ،ومهبط وحيه ،ومصلى ملائكته، ومتجر أوليائه، فيها اكتسبوا الرحمة ،وربحوا فيها العافية ،فمن ذا يذمها وقد آذنت ببنيها ونعت نفسها وأهلها ،فتمثلت ببلائها وشوقت بسرورها إلى السرور تخويفًا وتحذيرًا وترغيبًا ، فذمها قوم غداة الندامة، وحمدها آخرون ذكرتهم فذكروا ووعظتهم فاتعظوا، فيا أيها الذام للدنيا المغتر بتغريرها متى استذمت إليك! بل متى غرتك! أبمنازل آبائك فى الثرى؟[ق/١٩٣أ] أم بمضاجع أمهاتك فى البلى، كم رأيت موروثًا؟ كم عللت بكفيك عليلا؟ كم مرضت مريضًا بيديك تبتغى له الشفاء وتستوصف له الأطباء ثم لم تنفعه شفاعتك ولم تسعفه [بطلبتك](٢) ؟مثلت لك الدنيا غداة مصرعه مصرعك ومضجعه مضجعك .

ثم التفت إلى المقابر، فقال: يا أهل الغربة، ويا أهل التربة، أما الدور فسكنت ، وأما الأموال فقد قسمت ،وأما الأزواج فقد نكحت .فهذا خبر ما عندنا، فهاتوا خبر ما عندكم .

---

(١) سقط من أ .

(٢) في ط و ب : طلبتك .

ثم التفت إلينا فقال : أما لو أذن لهم لأخبروكم أن خير الزاد التقوى ».

فالدنيا فى الحقيقة لا تذم، وإنما يتوجـه الذم إلى فعل العبد فيها ،وهى قنطرة أو مـعبـر إلى الجنة أو إلى النار ،ولكن لما غلبـت عليهـا الشهـوات والحظوظ والغـفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة ،فصار هذا هو الغـالب على أهلها وما فيها ،وهو الغـالب على اسمـهـا صار لهـا اسم ،الذم عند الإطلاق، وإلا فـهى مبنى الآخـرة ومزرعتها ،ومنها زاد الجنة، وفيها اكتسـبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاء مرضاته، وخير عيش ناله أهل الجنة فى الجنة إنما كان بما زرعوه فيها ،وكفى بها مدحًا وفضلا لأولياء الله فيها من قرة العيون ،وسرور القلوب ،وبهجة النفوس،ولذة الأرواح، والنعيم الذى لا يشـبهه نعيم، بذكـره ومعرفته ومـحبته وعبـادته ،والتوكل عليه، والإنابة إليه، والأنس به، والفرح بقـربه، والتذلل له ،ولذة مناجاته، والإقبال عليه ،والاشتـغال به عمن سواه ،وفيـها كلامه ووحيـه وهداه وروحه الذى ألقاه من أمره ،فأخبر به من شاء من عباده.

ولقد فضل ابن عقيل وغيـره هذا على نعيم الجنة . وقالوا: هذا حق الله عليهم وذاك حظهم ونعيمهم، وحقه أفضل من [حقهم][(1)] .

قالوا: والإيمان والطاعة أفضل من جزائه.

والتـحقـيق أنه لا يصح التـفضـيل بين أمرين فى داريـن مخـتلفين. ولو أمكن اجتماعهما فى دار واحدة لأمكن طلب التفضيل .

[والطاعة والإيمان][(2)] فى هذه الدار أفضل ما فيها، ودخول الجنة والنظر إلى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والفوز برضاه أفضل ما فى الدار الآخرة .فهذا أفضل ما فى هذه الدار .

وهذا أفضل ما فى الدار الأخرى .ولا يصح أن يقال: فـأى الأمرين أفضل فهذا أفضل الأسباب، وهذا أفضل الغايات، وبالله التوفيق .

(فصل)

ولما وصف سبحانه حقـيقة الدنيا، وبين غايتها ونهايتـها وانقلابها فى الآخرة إلى عذاب شديد ومغفرة [من الله][(3)]وثواب. أمر عباده بالمسابقة والمبادرة إلى ما هو خير وأبقى، وأن يؤثروه على الفانى المنقطع المشوب بالإنكاد والتنغيص.

---

(1) في ا : حظهم . (2) في ا : تقديم وتأخير . (3) سقط من ا .

ثم أخبر أن ذلك فضله يؤتيه من يشاء ،والله ذو الفضل العظيم، وقال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف :٤٥] .

ثم ذكر سبحانه أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، وأن الباقيات الصالحات ،وهي الأعمال والأقوال الصالحة التي يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها خير ما يؤمله العبد ويرجو ثوابه .

وقال تعالى : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس :٢٤]. ولما أخبر عباده عن آفات هذه الدار دعا عباده إلى دار السلام التي سلمت من التغير والاستحالة والزوال والفناء ،وعم عباده بالدعوة إليها عدلا ،وخص من شاء بالهداية إلى طريقها فضلا .

وأخبر سبحانه أن الأموال والأولاد لا تقرب الخلق إليه، وإنما يقربهم إليه تقوى الله ومعاملته فيهم ،وحذر [ق/ ١٩٤] سبحانه عباده أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، وأخبر أن من فعل ذلك فهو الخاسر حقيقة، لا من قل ماله وولده في الدنيا. ونهى نبيه ﷺ أن يمد عينيه إلى ما متع به أهل الدنيا فيها فتنة لهم واختبارًا ، وأخبر أن رزقه الذي أعده له في الآخرة خير وأبقى من هذا الذي متعوا به . وأخبر سبحانه أنه آتاه السبع المثاني والقرآن العظيم ،وذلك خير وأفضل مما متع به أهل الدنيا في دنياهم، وجعل ما آتاه مانعًا له من مد عينيه إلى ذلك. فهذا العطاء في الدنيا ، وما ادخر له من رزق الآخرة خير مما متع به أهل الدنيا، فلا تمدن عينيك .

[(فصل)][1]

وإذا عرف أن الغنى والفقر والبلاء والعافية، فتنة وابتلاء من الله لعبده، تمتحن بها صبره وشكره ،علم أن الصبر والشكر مطيتان للإيمان لا يحمل إلا عليهما ،ولا بد لكل مؤمن منهما ،وكل منهما في موضعه أفضل، فالصبر في مواطن الصبر أفضل، والشكر في مواضع الشكر أفضل. هذا إن صح مفارقة كل واحد منهما للآخر، وأما إذا كان الصبر جزء مسمى الشكر، والشكر جزء مسمى الصبر، وكل منهما حقيقة مركبة من الأمرين معًا كما تقدم بيانه ،فالتفضيل بينهما لا يصح إلا إذا

---

(١) سقط من ط و ب .

جرد أحدهما عن الآخر، وذلك فرض ذهنى يقدره الذهن ، ولا يوجد فى الخارج.

ولكن يصح على وجه ،وهو أن العبد قـد يغلب صبره على شكره الذى هو قدر زائد على مجرد الصـبر من الأقوال والأعمـال الظاهرة والباطنة ،فلا يبقى فـيه اتساع لغير صـبر النفس على ما هو فيـه لقوة الوارد وضيق المحل، فتنصـرف قواه كلها إلى كف النفس وحـبسـها لله . وقـد يغلب شكره [على صـبره][1] بالأقوال والأعـمال الظاهرة والباطنة على قوة كفه [لنفسه][2] وحبسها لله، فتكون قوة إرادته وعمله أقوى من قوة امتناعه وحبس نفسه .

واعتـبر هذا بشـخصين :أحـدهما حاكم علـى نفسه مـتمكن من حـبسـها عن الشهوات،قليل التشكى للمصيبات ،وذلك جل عمله .وآخر كثير الإعطاء لفعل الخير القاصر والمتعدى ،سمح النفس ببذل المعروف .وآخر ضعيف النفس عن قوة الصبر.

فللنفس قوتان : قوة الصـبر والكف وإمـساك النفس، وقوة البـذل وفعل الخـير والإقدام على فعل ما تكمل به، وكمالها باجتماع هاتين القوتين فيها .

والناس فى ذلك أربع طبقـات :فأعلاهم من اجتـمعت له القوتان وسـفلتهم من عدم القوتين ،ومنهم من قوة صبره أكمل من قوة فعله وبذله ،ومنهم من هو[بالعكس في ذلك][3] .

فإذا فضل الشكر على الصبر ،فإما أن يكون باعتبار ترجيح مقام على مقام، وإما أن يكون باعتبار تجريد كل من الأمرين عن الآخر وقطع النظر عن اعتباره وتمام إيضاح هذا بمسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر، فلنذكر لها بابًا يخصها ويكشف عن الصواب فيها .

* * * *

---

(١) سقط من أ .　　(٢) في أ : نفسه .

(٣) في أ : بعكس ذلك .

الباب الثاني والعشرون
في اختلاف الناس في الغني الشاكر والفقير الصابر
أيهما أفضل؟ وما هو الصواب في ذلك ؟

هذه مسـألة كثـر فيـها النزاع بين الأغنيـاء والفقراء ،واحـتجت كل طائفـة على الأخرى بما لم يمكنها دفعه من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار ،ولذلك يظهر للمتأمل تكافؤ الطائفتين،فإن كلا منهما أدلـت بحجج لا تدفع، والحق لا يعارض بعضه بعضًا بل يجب اتباع موجب الدليل أين كان .

وقد أكثر الناس الكلام فى المسألة من الجانبين، وصنفوا فيها من الطرفين ،وتكلم فيـها الفقهـاء والفقراء والأغنيـاء والصوفيـة وأهل الحديث والتفسـير لشمـول معناها وحقيقتها للناس كلهم ،وحكوا فيها عن الإمام أحمد روايتين ،ذكرهما أبو الحسين فى كتاب التمام فقال : مسألة الفـقير الصابر أفضل من الغنى الشاكر فى أصح الروايتين.
وفيه رواية ثانية الغنى الشاكر أفضل .وبها قال جماعة منهم ابن قتيبة .

ووجه الأولى واختارها أبو إسحاق بن شاقلا والوالد [السعيد][(1)].

قوله تعالى ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفقراء : ٧٥] .قال محمد بن على بن الحسين : ﴿الْغُرْفَةَ﴾:[ق/ ١٩٥أ] الجنة ، ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾،قال :على الفقر فى الدنيا.

وعن أنس عن النبى ﷺ أنه قـال: « **اللهم أحـينى مـسكيـنًا ، وأمـتنى مـسكينًا، واحشـرنى فى زمرة المساكين يوم القيـامة**» .فقالت عائشة ﵂:ولم يا رسول الله ؟ قال: «**إنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفًا يا عائشة ،[لا تردى]**[(2)]**المسكين ولو بشق تمرة. يا عائشة ،أحبى المساكين وقربيهم ،فإن الله يقربك يوم القيامة**»[(3)] .

قلت :لا حجة له فى واحـدة من الحجتين .

أما الآية فـإن الصبـر فيهـا يتناول صبـر الشاكر عـلى طاعة الله ،وصـبره عن معصيته ، وصبر المبتلى بالفقر وغيره على بلائه. ولو كان المراد بها الصبـر على الفقر وحـده لم يدل على رجحـانه على الشكر، فإن القـرآن كـما دل على جزاء الصابرين دل على جزاء الشاكرين أيضًا، كما قال تعالى: ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾[آل عمران: ١٤٥]

---

(١)سقط من أ . (٢)في أ : لا تذري .

(٣)أخرجه الترمـذي (٢٣٥٢) والبيهقي في الكبرى (١٢٩٣١) والشعب (١٣٨٠) وابـن الجوزي في الموضوعات (٣/ ١٤١ـ ١٤٢) وصححه الألباني . الجزء الأول منه في صحيح الترمذي (١٩١٧) .

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤] . بل قد أخبر أن رضاه فى الشكر، ورضاه أكبر من جـزائه بالجنات وما فيهـا وإذا جزى الله الصابرين الغرفـة بما صبروا لم يدل ذلك على أنه لا يجزى الشاكرين الغرفة بما شكروا .

وأما الحديث فلا حجة فيه لوجهين :

أحدهما: أنه لا يحتج بإسناده ،فإنه من [رواية مـحمد بن ثابت][(١)] الكوفى عن الحارث بـن النعمـان ،والحارث هذا لم يحـتج به أصحـاب الصحـيح، بل قال فـيه البخـارى: منكر الحديث. ولذلك لم يصـحح الترمـذى حديثـه هذا، ولا حسنه ولا سكت عنه، بل حكم بغرابته .

الجواب الثانى: إن الحـديث لو صح لم يدل على مطلوبهم، فـإن المسكنة التى يحبها اللـه من عبده ليست مسكنة فقـر المال ،بل مسكنة القلب، وهى انكساره وذله وخشوعـه وتواضعه لله ،وهذه المسكنة لا تنافى الغنـى ،ولا يشترط لها الفـقر، فإن انكسار القلب لله، ومسكنته لعظمته وجلاله وكبريائه وأسمائه وصفاته ،أفضل وأعلى من مـسكنة عدم المال، كـما أن صـبر [القـادر][(٢)] الواجد عـن معاصى اللـه طوعًا واختـياراً وخشيـة من الله ومحبـة له أعلى من صبر الفـقير العاجـز . وقد آتى الله سبـحانه وتعـالى جماعـة من أنبيـائه ورسله الغنى والملك، ولم يخرجـهم ذلك عن المسكنة لله .

قال الإمـام أحمـد[(٣)] :[حدثنا][(٤)] يزيد بن هارون، أنبـأنا الجـريرى، عن أبى السليل، قال: كان داود النبى عـليه السلام يدخل المسجد ، فـينظر إلى أغمض حلقة من بنى إسرائيل فيـجلس إليهم ،ثم يقول :«مسكين بين ظهـرانى مساكين » .هذا مع ما آتاه الله من الملك والغنى والبسطة زيادة على النبوة .

قـال أبو الحسين: وروى أبو برزة الأسلمى،قـال: قال رسـول الله:« **إن فقـراء المسلمين ليدخلون الجنة قبل أغنيائهم بمقدار أربعين خريفًا حتى يتمنى أغنياء المسلمين يوم القيامة أنهم كانوا فقراء فى الدنيا** » [(٥)] .

قلت: هذا الحديث ثابت عن النبى ﷺ من رواية جماعة من الصحابة، منهم أبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله ،[وروى][(٦)] عن أبى سعيد وأنس بن

(١) في أ : حديث ثابت بن محمد . (٢) سقط من ط و ب .
(٣) أخرجه في الزهد (ص/ ٧٣) . (٤) في أ : ثنا .
(٥) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٨٨٣) وإسناده ضعيف عنده ؛ فيه نقيع بن الحارث متروك .
(٦) في أ : ويروى .

مـالك رضي الله عنهـمـا ، ولا يدل ذلك على علو درجـتـهم إذا دخلوا الجنة قـبل الأغنياء، بل إنما يدل على السـبق لعدم ما يحاسبـون عليه . ولا ريب أن ولي الأمر العادل يتأخر دخـوله للحساب ،وكذلك الغنى الشاكر ، ولا يلزم من تأخـر دخولهما نزول درجتهـما عن درجة الفقيـر كما تقدم. وإنما تمنى الأغنياء أنـهم كانوا فى الدنيا فقراء، فـإن صحت هذه اللفظة لم تدل على انحطاط درجتهم، وكمـا يتمنى القاضى العادل فى بعض المواطن يوم الـقيامة أن لم يقض بـين اثنين فى تمرة لما يرى من شدة الأمر ،فمنزلة الفقر والخمول، بمنزلة السلامة ومنزلة الغنى والولاية، بمنزلة الغنيمة أو العطب.

قال أبو الحسن : وروى ابن عمر أن النبى ﷺ قام فى أصحابه فقال: « **أى الناس خير؟** » فقال بعـضهم : غنى يعطى حق نفسه ومـاله، فقال ﷺ: « **نعم الرجل هذا وليس به، ولكن خير الناس مؤمن فقير يعطى على جهد** » (١) .

قلت : لم يذكر لهذا الحديث [ق/ ١٩٦أ] إسناد فينـظر فيه ،وحديث لا يعلم حاله لا يحتج به ولو صح لم يكن فيـه دليل ؛لأنه تضمن تفضيل فقير يتـصدق من جهده فمعه فـقر الصابرين وغنى الشاكرين ، فقـد جمع بين موجبي التفضـيل وسببه. ولا ريب أن هذا أفضل الأقسام الثلاثة، ودرهمه الـواحد يسبق مائة ألف درهم من غيره، كما قال النبى ﷺ : « **سبق درهم مائة ألف درهم** » قالوا : يا رسول الله فكيف سبق درهم مائة ألف درهم. قال: « **رجل كان له درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به. وآخر له مال كـثيـر فأخذ من عـرضه مائة ألف فـتصـدق بها**» (٢) رواه النسائى، من حديث صفوان بن عـيسى، حدثنا ابن عجـلان، عن زيد بن أسلم، عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وذكر البيـهقي (٣) من حديث الثورى ،عن أبى إسـحاق ،عن الحارث، عن على رضي الله عنه قـال :«**جاء ثلاثة نفـر إلى النبى** ﷺ ،فـقال أحـدهم: كانت لى مـائة أوقيـة فتصدقت منها بـعشر أواق. وقال الآخر :كانت لى مائة دينار فتصـدقت منها بعشرة

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده (١٨٥٢) وقال الألباني ـ رحمه الله ـ : موضوع. انظر ضعيف الجامع (٢٨٩٨).

(٢) أخرجه النسـائي (٢٥٢٧) ، (٢٥٢٨) وابن خزيمة (٢٤٤٣) وابن حبان (٣٣٤٧) والحاكم (١٥١٩) والبـيهقي في الكبرى (٧٥٦٨) وحسنه الألباني . انظر صحيح سنن النسائي (٢٣٦٨) .

(٣) أخرجه في السـنن الكبرى (٧٥٦٩) وفي الشعب (٣١٨١) وأخرجـه أحمد (٩٢٥) وعبد الرزاق في مـصنفه (٢٠٠٥١) والبزار في البحر الزخار (٨٤١) . قال الهيثمي : فيه الحـارث وفيه كلام كثير وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٢٥٨٨).

دنانير، وقال الآخر: كـان لى عشرة دنانير فتصدقـت منها بدينار. فقال: « **كلكم فى الأجر سواء ،كلكم قد تصدق بعشر ماله**» .

وقال أبو سعـيد بن الأعرابى: حدثنا ابن أبى العـوام، حدثنا يزيد ابن هارون ، حدثنا أبو الأشهب، عن الحـسن، قال: قال رجل لعثمـان بن عفان رضى الله عنه: ذهبتم يا أصحـاب الأموال بالخير، تتصدقـون، وتعتقون ،وتحجون ،وتنفـقون، فقال عثمـان : «وإنكم لتغبطوننا وإنا لنغبطكم ،قـال : فوالله لدرهم ينفقه أحـد من جهد خير من عشرة آلاف درهم غيض من فيض»[١] .

وفى «سنن أبى داود»[٢]، من حـديث الليث ،عن أبـى الزبيـر، عن يحـيى بن جعدة، عن أبى هريرة ،أنه قال : يا رسـول الله ، أى الصدقة أفضل؟ قال: « **جهد المقل، وابدأ بمن تعول** » .

وفى «المسند» و«صحيح ابن حبان»[٣] ،من حديث أبى ذر ﷺ ،قال: قلت: يا رسول الله، أى الصدقة أفضل؟ قال :«**جهد من مقل** » .

وفى «سنن النسائى»[٤] ،من حديث على [الأوزاعي][٥] ، عن عبيد بـن عمير، عن عبد الله ابن حبشى: « أن النبى سـئل : أى الأعمال أفضل ؟ قال :**إيمان لا شك فيـه، وجهـاد لا غلول فيه ،وحـجة مـبرورة** ،قيل :فأى الصـلاة أفضل ؟ قال: **طول القيام**. قيل : فأى الصدقة أفضل ،قال :**جهد من مقل**. قيل: فأى الهجرة أفضل؟ قال: **من هجر ما حرم الله عليه**. **قيل**: فأى الجهاد أفضل؟ قال : **من أهريق دمه وعقر جواده** » .

وهذه الأحاديث كلها، تدل على أن صدقة جهد المقل أفضل من صدقة كثير المال ببعض ماله الذى لا يتبين أثر نقصانه عليه وإن كان كثيراً ؛ ولأن الأعمال تتفاضل عند

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٣١٨٢) وابن المبارك في الزهد (٧٧٠) .

(٢) أخرجـه أبو داود (١٦٧٧) وأحمد (٨٦٨٧) والحـاكم (١٥٠٩) وابن خزيمة (٢٤٤٤) ، (٢٤٥١) وابن حـبان (٣٣٤٦) والبـيهـقي في الكبرى (٧٥٦١) والشـعب (٣١٨٠) وصحـحه الألبـاني . انظر صحـيح أبي داود (١٤٧١) .

(٣) أخرجه أحمد (٢١٥٨٦) والبيهقي في الشعب (٣٢٩٨) وابن حبان (٣٦١) والبزار في كشف الأستار (١٦٠) وأبو نعيم (١/ ١٦٦ـ ١٦٨) من حديث أبي ذر . قال الهيثمي : وفيه أبو عمرو الدمشقي وهو متروك . انظر مجمع الزوائد (٣/ ٢٩٤). وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (١٠١٨) .

(٤) أخرجه النسائي (٢٥٢٦) وأبو داود (١٤٤٩) وأحمـد (١٥٤٣٧) والبيهقي في الكبرى (٤٤٦٦) ، (١٨٣٠٧) والدارمي (١٤٢٤) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٤) وصححه الألباني . انظر صحيح أبي داود (١٢٨٦) .

(٥) هكذا في أ ، ب ووقع في مصادر التخريج على الأزدي .

الله بتفـاضل ما فى القلوب لا بكثـرتها وصـورها ،بل بقوة الداعى وصـدق الفاعل وإخلاصه وإيثار الله على نفسه ،فأين صـدقة من آثر الله على نفسه برغيف هو قوته إلى صدقـة من أخرج مائة ألف درهم من بعض ماله غـيضًا من فيض؟ فـرغيف هذا درهمه فى الميزان أثقل من مائة ألف هذا. والله المستعان.

(فصل)

واحتجـوا بما رواه ابن عدى[١] ،من حديث سليـمان بن عبد الرحـمن، حدثنا خالد ابن يزيد ،عن أبيه، عن عطاء ،سمع أبا سعيـد الخدرى، يقول :سمعت رسول اللهﷺ يقول: «**اللهم توفنى فقيرًا ولا توفنى غنيا** » .

وهذا الحديث لا يصح ،فإن خـالد بن يزيد بن عبد الرحمن بن مـالك الدمشقى أجمـعوا على ضعـفه وعدم الاحتـجاج بحديثـه، قال أحمـد: ليس بشىء وقال ابن معين: واه. ونسبه يحيى إلى الكذب وقد تقدم الكلام فيه.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن هذه المسألة، فقال: قد تنازع كثير من المتأخـرين فى الغنى الشاكر والفقير الصابر، أيهمـا أفضل؟ فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد ، ورجح هذا طائفـة أخرى من العلماء والعباد ،[ق/ ١٩٧أ] وحكى فى ذلك عن الإمام أحمد روايتان .

وأما الصحـابة والتابعون رضى الله عنهم، فلم ينقل عنهم تفـضيل أحد الصنفين على الآخر.

وقد قـالت طائفة ثالثـة: ليس لأحدهمـا على [الآخر][٢] فضيلة إلا بـالتقوى، فأيهما أعظم إيمانًا وتقوى كان أفضل، فإن استويا فى ذلك استويا فى الفضيلة.

قـال :وهذا أصح الأقـوال؛ لأن نصـوص الكتـاب والسنـة إنما تفـضل بالإيمان والتقوى، وقد قال تعالى: ﴿**إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا**﴾ [النساء:١٣٥] ،وقد كان فى الأنبياء والسابقين الأولين من الأغنياء من هو أفضل من أكـثر الفقراء، وكان فيهم من الفقراء من هو أفـضل من أكثر الأغنياء ،والكاملون يقـومون بالمقامين، فيـقومون بالشكر والصبر على التمام، كحال نبينا ﷺ وحال أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

ولكن قد يكون الفقر لبعض الناس أنفع، والغنى لآخرين أنفع كما تكون الصحة لبعضهم أنفع والمرض لبـعضهم أنفع، كما فى الحديث الذى رواه البـغوى وغيره عن

(١) أخرجه في الكامل (٣/ ١١ـ١٢) والطبراني في مسند الشاميين (١٦١٥) والدعاء (١٤٢٦) .
(٢) في ب : الأخرى .

النبى ﷺ فيمـا يروى عن ربه تبارك وتعالى: « **إن من عبـادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك ،وإن من عبادى من لا يصلحـه إلا الفقر ولو أغنيتـه لأفسده ذلك، وإن من عبـادى من لا يصلحه إلا الصـحة ولو أسقـمته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من لا يصـلحه إلا السقم ولوصحـحته لأفسده ذلك، إنى أدبر عـبادى،إنى بهم خبير بصير** » (١) .

وقـد صح عن النـبى ﷺ أنه قـال : «**إن فـقـراء المسلمـين يدخلون الجنة قـبل الأغنياء**» (٢) .

وفى الحديث الآخر : لما علم الفقراء الذكر عـقيب الصلاة سمع بذلك الأغنياء، فقالوا مثل ما قالوا، فـذكر ذلك الفقراء للنبى ﷺ فقال: « **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**» [الحديد: ٢١] (٣) .

فالفقراء يتقدمون فى دخول الجنة لخـفة الحساب عليهم، والأغنياء يؤخرون لأجل الحساب عليهم . ثم إذا حوسب أحدهم فإن كـانت حسناته أعظم من حسنات الفقير كـانت درجتـه فى الجنة فوقـه، وإن تأخر فى الـدخول كـما أن السـبعين ألفًـا الذين يدخلون الجنة بغير حسـاب ومنهم عكاشة بن محصن ،قد يدخل الجنة بحساب من يكون أفضل من أحدهم فى الدرجات لكن أولئك استراحوا من تعب الحساب.

فهذا فى الفـقراء المذكورين فى الكتاب والسنة، وهو ضـد الغنى الذى يبيح أخذ الزكاة أو الذى لا يوجب الزكاة .

ثم قد صـار فى اصطلاح كثـير من الناس أن الفـقر عـبارة عن الزهد والعـبادة والأخلاق، ويسمون من اتصف بذلك فقـيرًا وإن كان ذا مال، ومن لم يتصف بذلك قالوا: ليس بفقـير، وإن لم يكن له مال. وقد يسمى هذا المـعنى تصوفًا، ومن الناس من يفرق بين مسمى الفقير والصوفى، ثم مـن هؤلاء من يجعل مسمى الفقير أفضل، ومنهم من يجعل مسمى الصوفى أفضل .

والتحقيق فى هذا الباب. أنه لا ينظـر إلى الألفاظ المحدثة، بل ينظر إلى ما جاء به الكتـاب والسنة مـن الأسـماء والمـعانـى، والله قـد جـعل وصف أوليـائه الإيمان والتقوى، فمن كان نصيبه من ذلك أعظم كان أفضل، ولا اعتبار بما سوى ذلك والله أعلم .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الأوليـاء (١) وأبو نعيم في الحلية (٨/٣١٨) . وفيه صدقـة بن عبد الله السمين . قال عنه أحمد بن حنبل : ضعيف وليس بشيء . انظر العلل ومعرفة الرجال (١/ ٥٥١) .

(٢) تقدم تخريجه . (٣) تقدم تخريجه .

الباب الثالث والعشرون
فى ذكر ما احتجت به الفقراء
من الكتاب والسنة [والآثار والاعتبار](١)

قالت الفقراء : لم يذكر الله سبحانه الغنى والمال فى القرآن إلا على أحد وجوه:

الأول: على وجه الذم ، كقوله تعالى : ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق : ٦، ٧] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧] . وقوله تعالى :[ق/ ١٩٨أ] ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف : ٣٣ - ٣٥] . وقال تعالى : ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة : ٥٥] . وقال تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف : ٤٦] . وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ الآية [آل عمران : ١٤] . ونظائر ذلك كثيرة .

الوجه الثاني : أن يذكره على وجه الابتلاء والامتحان، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن:١٥] . وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾ [المؤمنون:٥٥] . **وقال تعالى** مخبرا عن ابتلائه بالغنى كما ابتلى بالفقر: ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥)﴾ [الفجر:١٥] الآية. وقال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء :٣٥].

الوجه الثالث: إخباره سبحانه وتعالى أن الأموال والأولاد لا تقرب إليه شيئًا، وإنما يقرب إليه الإيمان والعمل الصالح ،كما قال : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ :٣٧] .

الوجه الرابع: إخباره أن الدنيا والغنى والمال ،إنما جعلها الله متعة لمن لا نصيب له فى الآخرة ،وأن الآخرة جعلها للمتقين، فقال تعالى: ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه:١٣١] . وقال

---

(١) في أ : تقديم وتأخير .

تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] . وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ بقوله لعمر : « **أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة**» [(١)] ، وسيأتى الحديث .

الوجه الخامس: أنه سبحانه لم يذكر المترفين وأصحاب الثروة إلا بالذم ،كقوله : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥] . وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] . وقوله تعالى: ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٣] .

الوجه السادس: أنه سبحانه ذم محب المال ، فقال: ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ١٩، ٢٠] فذمهم بحب المال وعيرهم به .

الوجه السابع : أنه سبحانه ذم متمنى الدنيا والغنى والسعة فيها ورأوا ذلك حظاً عظيماً ومدح من أنكر عليهم وخالفهم ، فقال تعالى عن أغنى أهل زمانه : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠] ، فأخبروا أن ما عند الله خير من الدنيا لمن آمن وعمل صالحًا ،ولا يلقى هذه الوصية، وهى الكلمة التى تكلم بها الذين أوتوا العلم ،أو المثوبة والجنة التى دل عليها قوله: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾، والسيرة والطريقة التى دل عليها قوله : ﴿لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ،وعلى كل حال فلا يلقى ذلك إلا الصابرون على الفقر وعن الدنيا وشهواتها وما أترف فيه الأغنياء ،وقد شهد الله سبحانه لهم أنهم من أهل العلم دون الذين تمنوا الدنيا وزينتها .

الوجه الثامن : أنه سبحانه أنكر على من ظن أن التفضيل يكون بالمال الذى يحتاج إليه لإقامة الملك، فكيف بما هو زيادة وفضلة، فقال تعالى : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [ق/ ٩٩أ] [البقرة: ٢٤٧] ، فرد الله سبحانه قولهم ،وأخبر سبحانه أن الفضل ليس بالمال كما توهموه، وأن الفضل بالعلم [لا][(٢)] بالمال .

وقال سبحانه : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٦٨) ومسلم (١٤٧٩) من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ .

(٢) في أ : ليس .

٨ ٥] ، ففـضله ورحمتـه العلم والإيمان والقرآن. والذى يجـمعونه هو المال وأسـبابه، ومثله قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

الوجه الـتاسع: أنه سبـحانه أخـبر أن التكاثر فى جـمع المال وغيـره ألهى الناس وشغلهم عن الآخـرة والاستعداد لهـا ،وتوعدهم على ذلك، فقـال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④﴾ [التكاثر: ١ ـ ٤] فأخبر سبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا ،وألهاهم عن الله والدار الآخرة، حتى حضرهم المـوت فزاروا المقابر ،ولم يفيـقوا من رقدة من ألهاه التكاثر، وجـعل الغاية زيارة المقابر دون الموت إيذانًا بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين فى القبور ،وأنهم فيها بمنزلة الزائرين ،يحضرونهـا مدة ثم يظعنون عنها، كما كـانوا فى الدنيا كذلك زائرين لها غير مستقرين فيها ،ودار القرار هى الجنة أو النار .

ولم يعين سبـحانه المتكاثر به، بـل ترك ذكره، إما لأن المذمـوم هو نفس التكاثر بالشىء، لا المتكاثر به كما يقال : شغلك اللـعب واللهو ولم يذكر ما يلعب ويلهو به ،وإما إرادة الإطلاق ،وهو كل مـا تكاثر به العبد غـيره من أسباب الدنيـا من مال أو جاه أو[عبيد][1] أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا يبتـغى به وجه الله أو عمل لا يقربه إلى الله، فكل هذا من التكاثر الملهى عن الله والدار الآخرة .

وفى «صحيح مسلم»[2] ، من حديث عبد الله بن الشخـير، أنه قال :« انتهيت إلى النبى ﷺ ،وهو يقرأ : ألهـاكم التكاثر، قال : **«يقول ابن آدم: مـالى مالى، وهل لك يابن آدم من مـالك إلا ما تصـدقت [فأمـضيت][3]، أو أكلت فأفنـيت ،أو لبست فأبليت»**.

ثم أوعد سبـحانه من ألهاه التكاثر وعـيدًا مؤكدًا، إذا عاين تكاثره هـباء منثورًا، وعلم دنياه التى كان يكاثر بها إنما كانت خداعًا وغـرورًا ،فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له ،وخسر هنالك تكاثره كـما خسره أمثاله، وبدا له من الله مـا لم يكن فى حسابه، وصار تكـاثره الذى شغله عن الله والدار الآخـرة من أعظم أسبـاب عذابه ،فـعذب بتكاثره فى دنياه، ثـم عذب به فى البرزخ ، ثم يعـذب به يوم القيامـة .فكان أشقى الخلق بتكاثره، إذ أفاد منه العطب دون الغنيمـة والسلامة ،فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين ولم يحظ به من علوه بـه فى الدنيا بأن حصل مع الأسفلين، فـيا له

---

(١) في أ : عبد . (٢) مسلم (٢٩٥٨) . (٣) في أ : فابقيت .

تكاثرًا ما أقله ؟ ووزراً مـا أجله؟! ومن غنى جالبًا لكل فقـر؟! وخيراً توصل به إلى كل شر ؟! يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: يا ليـتني قدمت لحياتي وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي : ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ [المؤمنون:٩٩ ـ، ١٠٠] ، تلك كلمة يقولها فلا يعول عليـها ، ورجعة يسألها فلا يجاب إليها .

وتأمل قـوله أولا : (رب) اسـتغـاث بربه، ثم التـفت إلى الملائكة الذين أمـروا بإحضـاره بين يدى ربه تبارك وتعـالى، فقـال : (ارجعـونى)، ثم ذكر سـبب سؤال الرجعـة، وهو أن يستقبل العـمل الصالح فيـما ترك خلفه من مـاله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه ،فيقال له: (كلا)، لا سبيل لك إلى الرجعى وقد عمرت ما يتذكر فيه من تذكر .

ولما كان شأن الكريم الرحيم، أن يجيب من استغاث [ق/ ١٠٠أ] ،وأن يفسح له فى المهلة، ليتـدارك ما فاته ، أخبـر سبحـانه أن سؤال هذا المفرط الرجعـة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها ،وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحًا لو أجيب، وإنما ذلك شىء يقولـه بلسانه، وأنه لو رد لعـاد لما نهى عنه.وأنه من الكاذبين ،فحكـمة أحكم الحاكمين وعزته وعلمه وحمده يأبى إجابته الى ما سأل فإنه لا فائدة فى ذلك، ولو رد لكانت حالته الثـانية مثل حالته الأولى كمـا قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الانعام:٢٧ ، ٢٨].

وقد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية وما أوردوا فراجع أقوالهم تجدها لا تشفى عليلا ولا تروى غـليلا ومعناها أجل وأعظم مما فسروها به ولـم يتفطنوا لوجه الاضراب ببل ولا للأمر الذى بدا لهم وكانوا يـخفونه وظنوا أن الذى بدا لهم العذاب فلما لم يروا ذلك ملتئما مع قوله : ﴿ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ قدروا مضافا محذوفا وهو خبر﴿ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه وهو أن القوم لم يكونوا يخـفون شركهم وكفـرهم بل كانوا يظهرونه ويدعون إلـيه ويحاربون عليه ولما علموا أن هذا وارد عليـهم قالوا إن القوم فى بعض موارد القيامـة ومواطنها أخفوا شركهم وجحدوه وقالوا : ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فلما وقفوا على النار بدا لهم جزاء ذلك الذى أخفوه قال الواحدى: وعلى هذا أهل التفسير .

ولم يصنع أرباب هذا القول شيئا فإن السياق والاضراب ببل والاخبار عنهم بأنهم

لو ردوا لعادوا لما نهــوا عنه وقولهم : ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ لا يلتئم بهذا الذى ذكروه فتأمله.

وقالت طائفة منهم الزجاج: بل بدا للأتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير وفيه من التكلف ما ليس بخاف .

وأجود من هذا ما فـهمه المبرد من الآية قال : كـأن كفرهم لم يكن باديا لهم إذ خفيت عليهم مضــرته ومعنى كلامه أنهم لما خفيت عليهم مضــرة عاقبته ووباله فكأنه كان خفيا عنهم لم تظهر لهم حقيقته فلما عاينوا العذاب ظهرت لهم حقيقته وشره.

قال : وهذا كمـا تقول لمن كنت حدثته فى أمـر قبل [وقد][1] ظهر لك الآن ما كنت قلت لك وقد كان ظاهرا له قبل هذا .

ولا يســهل أن يعبـر عن كـفرهــم وشركـهم الذى كـانوا ينادون به على رؤوس الأشهاد ويدعون إليه كل حاضر وباد بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم ولا يقال: لمن أظهر الظـلم والفساد وقـتل النفوس والسـعى فى الأرض بالفســاد أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه

فمعنى الآية والله أعلم بما أراد من كلامــه أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوهـا وعلموا أنهم داخلوها تمنوا أنهم يردون الى الدنـيا فيـؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك وأنهم ليس فى طبائعهم وسجاياهم الإيمان بل سجيتهم الكفر والشـرك والتكذيب وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله وأخبر أنهم كاذبون فى زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا

فإذا تقـرر مقصود الآيـة ومرادها تبين معنى الاضـراب ب ﴿ بل ﴾ وتبين معنى الذى بدا لهم والذى كانوا يخفونه والحامل لهم على قولهم :﴿ يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ﴾ ؛فـالقـوم كـانوا يعلمـون أنهم كـانوا فى الدنيـا على باطل وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله وتيقنوا ذلك وتحققوه ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم بل تواصــوا بكتمـانه فلم يكن الحامل لهم على تمـنى الرجوع والإيمان مـعرفة مـا لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه [ق/١٠١أ] وظهر لهم يوم القيـامة ما كـانوا ينطوون عليه من علمــهم أنهم على باطل وأن الرسل على الحق فعاينوا ذلك عيـانا بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه فلو ردوا لما ســمحت نفوسهم بالإيمان ولعـادوا الى الكفر والتكذيب فـإنهم لم يتمنوا الإيمان لعـلمهم يومئـذ أنه هو

(١) سقط من أ .

الحق وأن الشـرك[هو](١) باطل وإنما تمنـوا لما عـاينوا العـذاب الذى لا طـاقـة لهم باحتماله.

وهذا كمن كـان يخفى محـبة شخص ومـعاشرته وهو يعلم أن حـبه باطل وأن الرشد فى عدوله عنه فقيل لهإن اطلع عليه وليه عاقبك وهو يعلم ذلك ويكابر ويقول بل محبته ومعاشرته هى الصواب فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة تمنى أن يعفى من العقوبـة وأنه لا يجتمع به بعد ذلك وفى قلبه من محـبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاوده بعد معـاينة العقوبة بل بعد أن مسته وأنهكته فظهر له عند العقوبة ما كان يخفى من معرفـته بخطئه وصواب ما نهاه عنه ولو رد لعاد لما نهى عنه .

وتأمل مطابـقـة الإضـراب لهـذا المعـنى ،وهو نفى قـولهم: إنـا لو رددنا لآمنا وصدقنا؛ لأنه ظهـر لنا الآن أن ما [قاله](٢) الرسل هو الحق، أى ليس كذلك، بل كنتم تعلمون ذلـك وتعرفونه وكنتم تخـفونه ،فلم يظهر لكم شـىء لتكونوا عالمين به لتعذروا ،بل ظهر لكم ما كان معلومًا وكنتم تتواصون بإخفائه وكتمانه. والله أعلم .

ولا تستطل هذا الفـصل المعترض فى أثناء هذه المسـألة، فلعله أهم منها وأنفع، وبالله التوفيق .

فلنرجع إلى تمام الكلام فيها . وقوله : ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر : ٥]، جوابه محذوف دل عليه ما تقدم ،أى لما ألهاكم التكاثر وإنما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عـمـا هو أولى بكم لما فـقـد منكم علم اليـقين ،وهو [ق/١٠٢] الـعلم الذى يصل بصـاحبـه إلى حد الضـروريات التى لا يشك ولا يمارى فى صحـتهـا وثبوتهـا ،ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشـرته ،لما ألهاه عن موجبه، وترتب أثره عليه فإن مجـرد العلم بقبح الشىء وسوء عواقـبه قد لا يكفى فى تركه.فـإذا صار له علم اليقين ،كان اقتـضاء هذا العلم لتركه أشد .فإذا صار عين يـقين ،كجملة المشاهدات، كان تخلف مـوجبه عـنه من أندر شىءوفى هذا المعنى قال حـسان بن ثابت ﷺ فى أهل بدر :

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم ... لو يعلمون عين العلم ما ساروا

وقوله : ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر : ٣ ، ٤] : قيل : تأكيد لحصـول العلم كقوله : ﴿كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ : ٤ ، ٥] ،

(١) سقط من ط و ب . (٢) في أ : قالت .

وقيل : ليس تأكيدًا ،بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثانى فى القبر، هذا قول الحسن ومقاتل ،ورواه عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما.

ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه :

أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل وقد أمكن اعتباره مع محامد اليقين وجلالته وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثانى : توسط (ثم) بين العلمين ، وهى مؤذنة بتراخى ما بين المرتبتين زمانًا وخطرًا.

الثالث : إن هذا القول مطابق للواقع ،فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه ثم يعلم فى القبر وما بعده ذلك علمًا هو فوق الأول.

الرابع: أن على بن أبى طالب رضي الله عنه وغيره من السلف، فهموا من الآية عذاب القبر.

قال الترمذى [1] :حدثنا أبو كريب ،حدثنا حكام بن سليم الرازى، عن عمرو بن أبى قيس عن الحجاج بن المنهال بن عمر عن زر عن على رضى الله عنه قال : ما زلنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت :﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ قال الواحدى: يعنى أن معنى قوله: ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ فى [القبر] [2] .

الخامس : إن هذا [ق/١٠٢] مطابق لما بعده من قوله : ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٣] ، فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين ،وتقدم الأولى وتراخى الثانية عنها . ثم ختم السورة بالإخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد والنون الثقيلة عن سؤال النعيم. فكل أحد يسأل عن نعيمه الذى كان فيه فى الدنيا : هل ناله من حله ووجهه أم لا؟ فإذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤالا آخر: هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا؟ فالأول سؤال عن سبب استخراجه. والثانى عن محل صرفه، كما فى جامع الترمذى[3]، من حديث عطاء بن أبى رباح، عن ابن عمر [عن ابن مسعود][4]

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٥٥) والطبراني في جامع البيان (٣٠/ ١٨٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٩٤٥٤) وضعفه الألباني . انظر ضعيف سنن الترمذي (٦٦٥) .

(٢) في أ : القبور .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤١٦) وابو يعلي (٥٢٧١) وابن عدي في الكامل (٢/ ٣٥٣) والطبراني في الكبير (٩٧٧٢) والصغير (٧٦٠) . وحسنه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (٩٤٦) .

(٤) سقط من أ ، ب وأثبتناه من مصادر التخريج .

رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: « **لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن ماذا عمل فيما علم** » .

وفيه أيضًا (١) عن أبى برزة قال : قال رسول الله ﷺ : «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه فيما عمل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقته وعن جسمه فيما أبلاه**» قال : هذا حديث صحيح .

وفيه أيضًا (٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، قال: قال : رسول الله ﷺ : « **إن أول ما يسئل عنه العبد يوم القيامة يعنى من النعيم أن يقال له: ألم نصح جسمك ونرويك من الماء البارد** » .

وفيه أيضًا (٣) ، من حديث الزبير بن العوام رضى الله عنه، لما نزلت: ﴿ **ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** ﴾ [التكاثر:٨] . قال الزبير: يا رسول الله، فأى النعيم نسأل عنه؟ وإنما هو الأسودان التمر والماء ،قال : « **أما إنه سيكون** » قال : هذا حديث حسن .

وعن أبى هريرة نحوه وقال : إنما هو الأسودان والعدو حاضر، وسيوفنا على عواتقنا. قال :« **إن ذلك سيكون**» (٤) .

وقوله: «**إن ذلك سيكون** » ، إما أن يكون المراد به أن النعيم سيكون ويحدث لكم. وإما أن يرجع إلى السؤال، أي أن السؤال يقع عن ذلك. وإن كان تمرًا وماء فإنه من النعيم. ويدل عليه قوله ﷺ فى الحديث الصحيح (٥) ، وقد أكلوا معه رطبًا ولحمًا وشربوا من الماء البارد : «**هذا من النعيم الذى تسألون عنه يوم القيامة**» فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٧) والدارمي (٥٣٧) والروياني في مسنده (١٣١٣) وابو يعلي (٧٤٣٤) وابو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٣٢) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (١٩٧٠) .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٥٨) وعبد الله بن أحمد في زوائده على الزهد (ص/ ٣١) وابن حبان (٧٣٦٤) والحاكم (٧٢٠٣) والبيهقي في الشعب (٤٢٨٧) والطبراني في الأوسط (٦٢) ومسند الشاميين (٧٧٩) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (٢٦٧٤) .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٥٦) وابن ماجة (٤١٥٨) وحسنه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (٢٦٧٢) .

(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٥٧) والسيوطي في الدر المنثور (٦/ ٤٣٤) وحسنه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (٢٦٧٣) .

(٥) أخرجه مسلم (٢٠٣٨) .

وفى الترمذى [١] ،من حديث أنس رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال : «**يجاء بالعبد يوم القيامة كأنه بذج ،فيوقف بين يدى الله تعالى، فيقول الله: أعطيتك وخولتك وأنعمت عليك ،فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب جمعته وثمرته فتركته أوفر ما كان فارجعنى آتك به، فيقول له: أرنى ما قدمت به، فيقول يا رب جمعته وغرته فتركته أكثر ما كان فارجعنى آتك به، فإذا عبد لم يقدم خيراً فيمضى به إلى النار**» .

وفيه[٢] من حديث أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ : «**يؤتى بالعبد يوم القيامة ،فيقول الله له: ألم أجعل لك سمعًا وبصرًا ومالا وولدًا ،وسخرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وتربع ،أفكنت تظن أنك ملاق يومك هذا ؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتنى** » قال : هذا حديث صحيح .

وقد زعم طائفة من المفسرين أن هذا الخطاب خاص بالكفار ،وهم المسؤولون عن النعيم. وذكر ذلك عن الحسن ومقاتل ،واختار الواحدى ذلك. واحتج بحديث أبى بكر لما نزلت هذه الآية: قال : يا رسول الله ! أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبى الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب وماء عذب، أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذى نسأل عنه؟ فقال رسول الله ﷺ: « **إنما ذلك للكافر**» ثم قرأ : ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾[٣] [سبأ :١٧] .

قال الواحدى: والظاهر يشهد بهذا القول ، لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم .والمعنى أيضًا يشهد بهذا القول، وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم حيث أشركوا به وعبدوا غيره ،فاستحقوا أن يسألوا عما أنعم به [ق/١٠٣أ] عليهم توبيخًا لهم، هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة، ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم.

قال : وهذا معنى قول مقاتل ـ وهو قول الحسن قال : لا يسئل عن النعيم إلا أهل النار .

قلت : ليس فى اللفظ ،ولا فى السنة الصحيحة ،ولا فى أدلة العقل ،ما يقتضى اختصاص الخطاب بالكفار ،بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٢٧) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٦٤١٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٢٨) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (١٩٧٨) .

(٣) رواه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٤٣٧) وإسناده ضعيف جداً .

الخطاب لكل من اتصف بـإلهاء التكاثـر له ،فلا وجـه لتـخصـيص الخطاب بيـعض المتصفين بذلك .

ويدل على ذلك قـول النبى ﷺ عند قراءة هذه الـسورة :« **يقول ابـن آدم: مالى مالى، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، [أو لبست فأبليت؟]** [1]» الحديث وهو فى صحيح مسلم [2] .

وقائل ذلك قد يكون مسلمًا ،وقد يكون كافرًا .

ويدل عليه أيضًـا الأحاديث التى تقدمت ،وسـؤال الصحابة النبى ﷺ وفهـمهم العموم ،حـتى قالوا له: وأى نعيم نسأل عنه؟ وإنما هو الأسـودان ،فلو كان الخطاب مخـتصًا بالكفـار لبين لهم ذلك، وقال: ما لكم ولهـا ،إنما هى للكفار .فالصـحابة فهموا التعميم، والأحاديث صريحة فى التعميم، والذى أنزل عليه القرآن أقرهم على فهـم العمـوم .وأما حـديث أبى بكر الذى احتج به أرباب هذا القـول ،فحـديث لا يصح.

والحديث الصـحيح فى تلك القـصة يشهـد ببطلانه ،ونحن نسوقه بـلفظه ،ففى «صحيح مسلم» [3] عن أبى هريرة، قال : « خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبى بكر وعمر ،فـقال : ما أخرجكما من بيوتكمـا فى هذه الساعة ؟ قالا: الجوع يا رسول الله. قـال : وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكمـا .قوما ، فقاما معه فأتى رجلا من الأنصـار، فإذا هو ليس فى بيته ،فلما رأته امرأته قالت: مرحبًا وأهلا، فـقال لها رسول الله ﷺ: «**وأين فلان؟**» قالت : ذهب يستعذب لنا من الماء ،إذ جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، فقال : الحمد لله ما أجد اليوم أكرم أضيافًا منى، قال : فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب ،فقال : كلوا من هذه، فأخـذ المدية .فقـال له رسول الله ﷺ:« **إياك والحلوب**»، فذبح لهم ،فأكلوا من الشاة ومن ذلك الـعذق وشربوا، فلما أن شبعـوا ورووا، قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر : «**والذى نفسى بيـده لتسألن عـن هذا النعيم يوم القيـامة، أخرجكم [للجوع]** [4]**من بيوتكم الجـوع ،ثم لم ترجعوا حتى أصـابكم هذا النعيم** » فهذا .الحديث الصحيح صريح فى تعميم الخطاب ،وأنه غير مختص بالكفار .

وأيضًا فـالواقع يشهـد بعدم اختـصاصه ،وأن الإلهـاء بالتكاثر واقع من المسلمين

---

(١)سقط من أ .
(٢)(٢٩٥٨) من حديث عبد الله بن الشخير .
(٣)مسلم (٢٠٣٨) .
(٤)سقط من ط و ب .

كثيرًا ، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر . وخطاب القرآن عام لمن بلغه ،وإن كان أول من دخل فيه المعاصرين لرسول الله ﷺ ، فهو متناول لمن بعدهم. وهذا معلوم بضرورة الدين، وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المستأخرين ،فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣] ، ونظائره ،كما دخل تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين فقوله : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف، وهم فى الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله .

فإن قيل : فالمؤمنون لم يلههم التكاثر، ولهذا لم يدخلوا فى الوعيد المذكور كمن ألهاه؟ .

قيل : هذا هو الذى أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار ؛لأنه لم يمكنهم حمله على العموم ، ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصوهم به. وجواب هذا : أن الخطاب للإنسان من حيث هو إشارة ، على طريقة القرآن فى تناول الذم له من حيث هو إنسان ، كقوله :﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾ [الإسراء : ١١] ، ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا (١٠٠) ﴾ [الإسراء : ١٠٠] ، ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) ﴾ [العاديات : ٦] ، ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ، ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ [الزخرف : ١٥] ، ونظائره كثيرة . فالإنسان من حيث هو عار عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح ،وإنما الله سبحانه هو الذى يكمله بذلك ويعطيه إياه ،وليس له ذلك من نفسه ، بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم ،والظلم المضاد للعدل،وكل علم وعدل وخير فيه [ق/١٠٤]،فمن ربه لا من نفسه .فإلهاء التكاثر [طبيعة العبد][1] وسجيته التى هى له من نفسه، ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له وجعله مريدًا للآخرة مؤثرًا لها على التكاثر بالدنيا .فإن أعطاه ذلك ، وإلا فهو ملته بالتكاثر فى الدنيا ولا بد .

وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار ،فيقال : الوعيد المذكور مشترك، وهو العلم عند معاينة الآخرة .فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلا له فى الدنيا .وليس فى قوله :﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما يقتضى دخول النار ، فضلاً عن التخليد فيها. وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها ، فإن أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عيانًا . وقد أقسم الرب تبارك وتعالى أنه لا بد أن يراها

(١) في ط و ب : طبيعته .

الخلق كلهم : مؤمـنهم وكافرهم ،وبرهم وفـاجرهم .فليس فى جـملة من جمل هذه السورة ما ينفى عموم خطابها .

وأما ما ذكره عن الحسن ، أنه لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار. فباطل قطعًا إما عليه وإما منه، والأحاديث الصحيحة الصريحة ترده ، وبالله التوفيق .

ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشـدة تخويفها ،وما تضمنته من تحذير التكاثر الملهى ، وانطباق معناه على أكثر الخلـق ،يأبى اختصاصها من أولها الى آخـرها بالكفار ، ولا يليق ذلك بهـا، ويكفى فى ذلك رد تأمل الأحـاديث المرفوعـة فيها، والله أعلم .

وتأمل ما فى هذا العتاب الموجع لمن استمـر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور ،ولم يسـتيقظ من نوم الإلهاء ، بل أرقد التكاثر قلبـه ،فلم يستفق منه إلا وهو فى عسكر الأموات .

وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود.

وتأمل تعليقه سبـحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تـقييد بمتكاثر به [معين](١) ،ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها.

وأيضًـا فـإن التكاثر تفـاعل، [وهو](٢) طلب كل مـن المتكاثرين أن يكـثـر صاحـبه،فـيكون أكثـر منه فيـما يكاثره به ،والحـامل له على ذلك توهمـه أن العزة للكاثر، كما قيل :

ولست بالأكثر منهم [حظاً](٣) وإنما العزة [للتكاثر](٤)

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره ،كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة ولم تضرهم؛ إذ لم يتكاثروا بها ،وكل من كاثر إنسانًا فى دنياه أو جاهه أو غيـر ذلك ، شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخـرة .فالنفوس الشـريفة العلوية، ذات الهمـم العالية ، إنما تـكاثر بما يدوم عليهـا نفعه . وتـكمل به وتزكو ،وتصـير مفـلحة ، فلا تحـب أن يكثرها غـيرها فى ذلك وينافـسهـا فى هذه المكاثرة وتسابـقه إليه،فـهذا هو التكاثر الذى هو غاية سـعادة العبـد، وضده تكاثر أهل الدنيا بأسـباب دنياهم.فهـذا تكاثر مله عن الله والدار الآخرة ، وهو صائر إلى غاية القلة ، فعـاقبة هذا التكاثر قلة وفقر وحرمان .

---

(١) سقط من ط و ب .
(٢) في أ : وهي .
(٣) في ط : حصى .
(٤) في ط : للكاثر .

والتكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال بذكر بالله ولقائه ،وعاقبته الكثرة الدائمة التى لا تزول ولا تفنى، وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولاً وأحسن [منه][1] عملاً وأغزر علمًا .وإذا رأى غيره أكثر منه فى خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرى هو قادر على المكاثرة بها. وليس هذا التكاثر مذموماً ولا قادحًا فى إخلاص العبد ،بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات . وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج رضى الله عنهم فى تصاولهم بين يدى رسول الله ﷺ ، ومكاثرة بعضهم لبعض فى أسباب مرضاته ونصرته ، وكذلك كانت حال عمر مع أبى بكر رضى الله عنهما .فلما تبين له مدى سبقه له قال : والله لا أسابقك إلى شىء أبدا [2] .

(فصل)

ومن تأمل حسن موقع « كلا » فى هذا الموضع ، فإنها تضمنت ردعًا لهم ، وزجراً [ق/ ١٠٥أ] عن التكاثر، ونفيًا وإبطالاً لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكمالهم به، فتضمنت اللفظة نهيًا ونفياً . وأخبرهم سبحانه أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علمًا بعد علم، وأنهم لا بد أن يروا دار المتكاثرين بالدنيا التى ألهتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية، وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم : من أين استخرجوها ؟! وفيما صرفوها ؟فلله ما أعظمها من سورة ! وأجلها وأعظمها فائدة ! وأبلغها موعظة وتحذيراً ! وأشدها ترغيبًا فى الآخرة وتزهيدًا فى الدنيا على غاية اختصارها ، وجزالة ألفاظها،وحسن نظمها ، فتبارك من تكلم بها حقا وبلغها رسوله عنه وحيا .

(فصل)

وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حى، زائرين غير مستوطنين،بل هم مستودعون فى المقابر مدة ، وبين أيديهم دار القرار .فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين ، فكيف بهم وهم فى الطريق فى هذه الدار ؟! فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة ، ثم ينتقلون من محل الزيارة إلى المستقر .

فها هنا ثلاثة أمور : عبور السبيل فى هذه الدنيا ، وغايته زيارة القبور ، وبعدها

---

(١) سقط من أ .

(٢) اخرجه أبو داود (١٦٧٨) والترمذي (٣٦٧٥) والدارمي (١٦٦١) من حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ وحسنه الألباني . انظر صحيح سنن أبو داود (١٤٧٢) .

النقلة إلى دار القرار .

(فصل)

فلنرجع إلى تمام المناظرة . قالوا : فالله تعالى حمى أولياءه عن الدنيا ، وصانهم عنها ، ورغب بهم عنهـا تكريماً لهم ، وتطهيراً عـن أدناسها ، ورفعـة عن دناءتها . وذمها لهم. وأخبرهم بهوانها عليه ، وسقوط قدرها عنده .وأعلمهم أن بسطها فتنة، وأنه سبب الطغيان والفسـاد فى الأرض ،وإلهاء التكاثر بها عن طلب الدار الآخرة ، وأنها متاع الغرور .وذم محبيها ومؤثريها .

وأخبر أن من أرادها وأراد زينتها وحرثها، فليس له فى الآخرة من نصيب

وأخبر أن بسطها فتنة وابتلاء لا كرامة ومـحبة .وإن إمداد أهلها بها ليس مسارعة لهم فى الخيرات ،وأنها لا تقرب إليه ولا تزلف لديه. وأنه لولا تتابع الناس فى الكفر لأعطى الكفار منهـا فوق مناهم ، ووسعـها عليهم أعظم التـوسعة ، بحـيث يجعل سقوف بيوتهم وأبوابهم ومعارجهم وسررهم كلها من فضة. وأخبر أنه زينها لأعدائه، ولضعـفاء العقول الذين لا نصـيب لهم فى الآخرة ،ونهى رسوله ﷺ عن مد عـينيه إليها وإلى ما متع به أهلها. وذم من أذهب طيباته فيها واستمتع بها.

وقال : لنبيه ﷺ : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [الحجر: ٣] . وفى هذا [تعزية](١) لما منعه أولـياءه من التمـتع بالدنيا وكـثرة الأكل فيـها ، وتأديب لمن بسط له فيها ألا يطغى فيها ، ولا يعطى نفسه شهواتها ولا يتمتع بها .

وذم سبحانه محبيها ، المفتخرين بها،المكاثرين بها ، الظانين أن الفضـل والكرامة فى سعتـها وبسطها ، فأكـذبهم الله سبحانه وأخـبر أنه ليس كما قـالوه ولا توهموه .ومثلها لعـباده بالأمثلة التى تدعو كل لبـيب عاقل إلى الزهد فيهـا وعدم الوثوق بها والركون إليها . فأحضر صورتها وحقيقتها فى قلوبهم بما ضربه لها مثلاً : كماء أنزله من السمـاء فخالط نبات الأرض، فلمـا أخذت به الأرض زخرفـها وتزينت به بأنواع النبات. أتاها أمره ،فجعل تلك الزينة يبـسًا هشيمًا تذروه الرياح كأن لم يكن قط منه شيء .

وأخبر سـبحانه عن فنائها وسرعـة انقضائها ، وأنه إذا عاين العـبد الآخرة فكأنه لبث فيها ساعة من نهار أو يوماً أو بعض يوم .ونهى سبحانه عباده أن يغتروا بها .

وأخبرهم أنها لهو ولعب ، وزينة وتفاخر ،وتكاثر ومتاع الغرور ، وطريق ومعبر

---

(١) في أ : معرفة .

إلى الآخرة وأنها عرض عاجل لا بقاء له ، ولم يذكر مريدها بخير قط ، بل حيث ذكره ذمه ،وأخبر أن مريدها مخالف لربه تعالى فى إرادته ،فالله يريد شيئاً ومريد [ق/ ١٠٦أ] الدنيا يريد خلافه، فهو مخالف لربه بنفس إرادته .وكفى بهذا بعداً عنه سبحانه . وأخبر سبحانه عن أهل النار أنهم إنما دخلوها بسبب غرور الدنيا وأمانيها لهم .

قالوا : وهذا كله تزهيد لهم منه سبحانه فيها، وترغيب فى التقلل منها ما أمكن.**قالوا** : وقد عرضها سبحانه وعرض مفاتيح كنوزها على أحب الخلق إليه وأكرمهم عليه عبده ورسوله محمد ﷺ ، فلم يردها ولم يخترها .ولو آثرها وأرادها، لكان أشكر الخلق بما أخذه منها ، وأنفقه كله فى مرضاة الله وسبيله قطعًا ، بل اختار التقلل منها، وصبر على شدة العيش فيها .

وقال الإمام أحمد [1] : حدثنا إسماعيل بن محمد ،حدثنا عباد ـ يعنى ابن عباد ـ حدثنا مجالد بن سعيد ،عن الشعبى ،عن مسروق ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت: «دخلت على امرأة من الأنصار، فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية، فرجعت إلى منزلها فبعثت إلى بفراش حشوه الصوف. فدخل على رسول الله ﷺ فقال: **ما هذا؟**، فقلت :فلانة الأنصارية دخلت على فرأت فراشك ، فبعثت إلى بهذا، فقال : **رديه**، فلم أرده ، وأعجبنى أن يكون فى بيتى ، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فقال : **يا عائشة ، رديه والله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة** » .

وعرض عليه مفاتيح كنوز الدنيا ،فلم يأخذها ،وقال :« **بل أجوع يومًا وأشبع يومًا، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ،وإذا شبعت حمدتك وشكرتك** » .

وسأل ربه أن يجعل رزقه ورزق أهله قوتاً ، كما فى « الصحيحين»[2] من حديث أبى هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا**» .وفيهما[3] عنه قال :« **والذى نفس أبى هريرة بيده ما شبع نبى الله ﷺ وأهله ثلاثة أيام تباعًا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا** » .

وفى «صحيح البخارى»[4] ، عن أنس رضى الله عنه قال :« ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفاً مرققاً ولا شاة قط سميطاً حتى لحق بربه » .وفى «صحيحه»[5]

---

(١) تقدم تخريجه .
(٢) تقدم تخريجه .
(٣) أخرجه البخاري (٥٤١٤) ومسلم (٢٩٧٦) .
(٤) (٥٤٢١) .
(٥) (٥٤١٤) .

أيضًا عنه ،قال :« خرج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير».

وفى« الصحيحين»[١] عن عائشة ﵂ قالت :« مـا شبع آل محمـد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعًا حتى قبض » .

وفى «صحيح مسلم »[٢] عن عمر ﵁ :« لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى ما يجد دقلاً يملأ بطنه» .

وفى [المسند و][٣] «الترمذى »[٤] عن [عبد الله][٥] ابن عباس ﵄ :« كان رسول الله ﷺ يبـيت الليالى المتتـابعات طاوياً وأهله لا يجـدون عشاء ،وكان أكـثر خبزهم خبز الشعير » قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح .

وفى الترمذى [٦] ،من حديث أبى أمـامة قال :« ما كـان يفضل عن أهل بيت رسول الله ﷺ خبز الشعير » .

وفى «المسند»[٧] ، عن عائشة ﵂ :« والذى بعث محمداً بالحق ما رأى منخلا، ولا أكل خبزاً منخولاً منذ بعثه الله عـز وجل إلى أن قبض».قال عروة: فقلت: فكيف كنتم تأكلون الشـعيـر ؟ قالت: كنا نقـول: أف ـ أى تنفخـه ـ فيطيـر ما طار ونعـجن الباقى».وفى «صحيح البخارى»[٨] ، عن أنس ﵁ ،قال : :« لقد رهن رسول الله ﷺ درعه بشعـير». ولقد سمعـته يقول :« **ما أصبح لآل محمد صـاع ولا أمسى ، وإنهم لتسعة أبيات**».

وفى مسند الحارث [بن][٩] أبى أسامة ،عن أنس أن فاطمة ﵂ جاءت بكسرة خبز إلى النبي ﷺ فقال : «**ما هذه الكسرة يا فاطمة؟**» قالت: [خبز] [١٠] خبزته فلم تطب نفسى حـتى أتيتك بهذه الكسرة ،فـقال :« **أما إنه أول طعام دخل فى فم أبيك**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤١٦) ومسلم (٢٩٧٠) .

(٢) (٢٩٧٨) . (٣) سقط من أ .

(٤) أخرجـه أحمد (٢٣٠٣) والتـرمذي (٢٣٦٠) وابن ماجـة (٣٣٤٧) وصححـه الألباني . انظر صـحيح سنن الترمذي (١٩٢٣) .

(٥) سقط من أ .

(٦) أخرجه الترمذي (٢٣٥٩) وأحمـد (٢٢٢٣٨) ، (٢٢٢٩٨) ، (٢٢٣٥٠) وابن سعد في الطبقات (١/ ٤٠١) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (١٩٢٢) .

(٧) أخرجه أحـمد (٢٤٤٦٦) قال الهيثـمي : فيه سليمان بن رومـان ولن أعرفه وبقية رجـاله وثقوا . قال ابن حجر: لا يدري من هو ، وقال في الإكمال مجهول. انظر تعجيل المنفعة (١/ ١٦٤) .

(٨) (٢٥٠٨) . (٩) في ب : عن . (١٠) في ط و ب : قرص .

منذ ثلاثة أيام»[١].

وقال الإمام أحمد[٢] : حدثنا وكيع حدثنا عبد الواحد [ق/١٠٧أ] بن أيمن، عن أبيه عن جابر رضى الله عنه قال : « لما حفر رسول الله ﷺ الخندق أصابهم جهد شديد حتى ربط النبي ﷺ على بطنه حجراً من الجوع ».

وقد أسرف أبو حاتم بن حيان فى تقاسيمه فى رد هذا الحديث، وبالغ فى إنكاره، وقال : المصطفى ﷺ أكرم على ربه من ذلك .

وهذا من وهمه ،وليس فى هذا ما ينقص مرتبته عند ربه ، بل ذلك رفعة له ، وزيادة فى كرامته، وعبرة لمن بعده من الخلفاء والملوك وغيرهم. وكأن [أبا][٣] حاتم لم يتأمل سائر الأحاديث فى معيشة النبي ﷺ وهل ذلك إلا من أعظم شواهد صدقه ؟ فإنه لو كان كما يقول أعداؤه وأعداء ربه أنه ملك طالب ملك ودنيا لكان عيشه عيش الملوك وسيرته سيرتهم .ولقد توفاه الله وإن درعه مرهونة عند يهودى على طعام أخذه لأهله وقد فتح الله عليه بلاد العرب ،وجبيت إليه الأموال ومات ولم يترك درهمًا واحدًا ولا ديناراً ولا شاة ولا بعيراً ولا عبداً ولا أمة .

قال الإمام أحمد[٤] :حدثنا حسين [بن][٥] محمد بن مطرف، عن أبى حازم، عن عروة أنه سمع عائشة رضي الله عنهما تقول: كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد فى بيت من بيوت رسول الله ﷺ نار. قلت: يا خالة ،فعلى أى شيء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين: التمر والماء » .

وقد تقدم حديث أبى هريرة فى قصة أبى الهيثم بن التيهان:« أنه خرج رسول الله ﷺ من بيته ،فرأى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما، فقال : **ما أخرجكما ؟** قالا : الجوع، قال: **وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما** »[٦].

وذكر أحمد[٧] من حديث مسروق، قال : « دخلت على عائشة رضي الله عنها ،فدعت

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠٤٣٠) وقال في تخريج أحاديث الإحياء : أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده بسند ضعيف .

(٢) أخرجه أحمد (١٤٢٥٨) وأبو يعلي (٢٠٠٤) والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٢٢) ، وصححه الألباني . انظر تخريج أحاديث الإحياء (٦)

(٣) في أ : ابن .

(٤) أخرجه أحمد (٢٤٤٦٦) وأصلد في الصحيحين البخاري (٦٤٥٩) ومسلم (٢٩٧٢) .

(٥) في الأصول « بن » والمثبت من مصادر التخريج .

(٦) تقدم تخريجه .

(٧) أخرجه الترمذي (٢٣٥٦) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٩٢٠) .

لى بطعام، وقالـت: ما أشبع من طعام فأشـاء أن أبكى إلا بكيت؟ قال: قلت: لم؟ قالت: أذكر الحال التى فارق عليها رسول الله ﷺ الدنيا، والله ما شبع فى يوم مرتين من خبز البر حـتى قبض» .وفيه(١) عنها: «ما شبع رسول الله ﷺ من خـبز شعير يومين متتابعين حتى قبض» .والحديثان صحيحان .

وفيه(٢) [أيضًا عنها](٣) : «ما شبع آل مـحمد من خبز مـأدوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله عز وجل» .

وفى «الصحـيحين»(٤) ، عن أبى هريرة ﷺ: «ما شـبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثا تباعًا من خبز البر حتى فارق الدنيا» .

وفى «الترمذى»(٥) ، عن ابن عباس ﷺ ،قال : «كان النبي ﷺ يبـيت الليالى المتتابعة طاويًا وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير» .

وفيه أيضًا (٦) ،عن أنس عنه ﷺ : «**لقد أخفت فى الله ومـا يخاف أحد، ولقد أوذيت فى الله ومـــا يؤذى أحـد، ولقـد أتت عـلى ثلاثون من بين يوم وليـلة ومـا لى ولبلال من طعام يأكله ذو كبد إلا شىء يواريه إبط بلال** » . والحديثان صحيحان .

وفيه (٧) أيضًا ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن أبى طلحة رضى الله عنه قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا حجرًا حجرًا، فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه حجرين» .

وفيه(٨) أيضًا عن علقمة ، عن عـبد الله رضى الله عنه قال : «نام رسول الله ﷺ على حصير ،فقام وقد أثر فى جنبيه، فقلنا : يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء. فقـال : «**مـا لى وللدنيـا، مـا أنا فى الدنيـا إلا كراكب استظل تحت شـجـرة ثم راح وتركها**». حديث صحيح .

وفيه(٩) عن على بن أبي طالب رضى الله عنهما قال : «خرجت فى يوم شات

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص/ ٣٠) ومسلم (٢٩٧٠) .
(٢) أخرجه أحمد (٢٥٠٠٦) ، (٢٥٥٨١) والبخاري (٦٦٨٧) .
(٣) في أ : تقديم وتأخير .　　(٤) تقدم تخريجه .　　(٥) تقدم تخريجه .
(٦) أخرجه الترمذي (٤٧٢٦) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٠١٢) .
(٧) أخرجه الترمذي (٢٣٧١) وصححه الألباني انظر في السلسلة الصحيحة (١٦١٥) .
(٨) تقدم تخريجه .
(٩) أخـرجه التـرمذي (٢٤٧٣) وأبو يعلي في المسنـد (٥٠٢) وضعـفه الألبـاني . انظر ضعـيف سنن الترمـذي (٤٣٨).

من بيت رسول الله ﷺ وقد أخذت إهابًا معطونًا ، فجوبت وسطه[ق/١٠٨أ]، وأدخلته فى عنقى، فشددت به وسطى، فحزمته بخوص من النخل، وإنى لشديد الجوع ،ولو كان فى بيت رسول الله ﷺ طعام لطعمت منه، فخرجت ألتمس شيئًا ، فمررت بيهودى فى مال له ،وهو يسقى ببكرة له، فاطلعت عليه من ثلمة من الحائط، فقال : ما لك يا أعرابى ؟ وهل لك فى كل دلو بتمرة؟ قلت: نعم ،فافتح الباب حتى أدخل ،ففتح فدخلت، فأعطانى دلوه، فكلما نزعت دلوًا أعطانى تمرة ، حتى إذا امتلأت كفى، أرسلت دلوه، وقلت :حسبى فأكلتها ،ثم جرعت من الماء فشربت، ثم جئت[المسجد](١) فوجدت رسول الله ﷺ فيه » .

وقال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهما:« لقد رأيتنا نغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا من طعام إلا الحبلة وهذا السمر»(٢) . والحبلة : ثمر العضاة ذات الشوك ، وهو حديث صحيح .

وكان ﷺ يصلى من الليل أحيانًا، وعليه كساء صوف، بعضه عليه وبعضه على عائشة(٣) . قال الحسن: أثمان ستة دراهم [أو](٤) سبعة.

وقال أحمد(٥) :حدثنا أبو [أسامة](٦) ، حدثنا أبو زائدة ،حدثنا عطاء، عن أبيه عن على رضي الله عنه، قال: «جهز رسول الله ﷺ فاطمة فى خميل وقربة ووسادة من أدم حشوها ليف » .والخميل: الكساء الذى له خمل.

قال (٧) : وحدثنا بهز بن أسد، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد، قال: قال أبو بردة:« دخلت على عائشة ،فأخرجت إلينا إزارًا غليظا مما يصنع باليمن وكساء من هذه التى تدعونها الملبدة . فقالت: قبض رسول الله ﷺ فى هذين الثوبين » .

قالوا : ولو كان الغنى مع الشكر أفضل من الفقر مع الصبر، لاختاره رسول الله ﷺ إذ عرضت عليه الدنيا ،ولأمره ربه أن يسأله إياه كما أمره أن يسأله زيادة العلم.

---

(١) في أ ، ب : «الماء» والمثبت من مصادر التخريج .
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٥٣) ومسلم (٢٩٦٦) .
(٣) أخرجه أحمد (٢٤٠٩٠) وأبو عوانة في مسنده (٢/ ٦٠) والطبراني في الأوسط .
(٤) في أ : و .
(٥) أخرجه أحمد (٦٤٣) والنسائي (٣٣٨) وابن ماجة (٤١٥٢) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن ابن ماجة (٣٣٤٩) .
(٦) في أ ، ب : سعيد والمثبت من مصادر التخريج .
(٧) أخرجه أحمد (٢٥٠٤١) والبخاري (٥٨١٨) ومسلم (٢٠٨٠) .

ولم يكن رسول الله ﷺ [ليختار](١) إلا ما اختاره الله له ،ولم يكن الله ليختار له إلا الأفضل ؛ إذ كان أفضل خلقه وأكملهم .

قالوا :وقد أخبر النبي ﷺ أن خير الرزق ما كان بقدر كفاية العبد، فلا يعوزه ما يضره ولا يفضل عنه ما يطغيه ويلهيه .

قال الإمام أحـمد(٢) :حدثنا ابن مـهدى ،حدثنا هـمام ،عن قتـادة ،عن خليد العصرى، عن أبى الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان يسـمعان أهل الأرض إلا الثقلين : يا أيهـا الناس هلموا إلى ربكم ،فإن ما قل وكفى خير مما كثـر وألهى. ولا آبت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان يسمـعان أهل الأرض إلا الثقلين: اللهم أعط منفقـاً خلفاً، وأعط ممسكا تلفًا** » .

وقال الإمام أحمد (٣) :حدثنا وكيع ،حـدثنا أسامة بن زيد، عن محمـد بن عبد الرحمن بن أبى لـبيبـة، عن سعد بن مـالك رضى الله عنه ،قال : قـال رسول الله ﷺ: «**خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى**» .

وتأمل جـمعـه فى هذا الحـديث بين رزق القلب والبـدن ،رزق الدنيا والآخـرة وإخباره أن خير الرزقين ما لم يتجـاوز الحد، فيكفى من الذكر إخفاؤه، [فإن] (٤) زاد على الإخفاء خـيف على صاحبه الرياء والتكبر به على الغـافلين، وكذلك رزق البدن الذي زاد على الكفاية خيف على صاحبه الطغيان والتكاثر .

قالوا : وقد غبط رسول الله ﷺ المتقلل من الدنيا ما لم يغبط به الغنى.

قال الإمام أحمد(٥) : حدثنا وكيع ،حدثنا على بن صالح، عن أبى المهلب، عن

---

(١) في أ : يختار .

(٢) أخرجـه أحمد (٢١٧٦٩) وفي الزهد (ص/ ١٩) والحـاكم (٣٦٦٢) وابن حبان (٦٨٦) وعـبد بن حمـيد في المنتخب (٢٠٧) والطيـالسي في مسنده (٩٧٩) والقـضاعي في مسند الشـهاب (٨١٠) وأبو نعـيم في الحلية (١/ ٢٢٦) وصححه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (٤٤٣) .

(٣) أخرجه أحمد (١٤٧٧) وفي الزهد (ص/ ١٠) وابن أبي شيـبة في مصنفه (٩٧١٢) وأبو يعلي مسنده (٧٣١) والطبراني في الدعاء (١٨٨٣) وعبـد بن حميد في المنتخب (١٣٧) وابن حبـان (٨٠٩) والقضاعي في مسند الشهاب وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده ضعيف لانقطاعه .

(٤) في أ : فإذا .

(٥) أخرجـه أحمـد (٢٢٢٢١) والزهد (ص/ ١١) والتـرمذي (٢٣٤٧) والحـاكم (٤٨/ ٧) والطيالسي في مـسنده (١١٣٣) والروياني في مسنده (١٢٠٥) ، (١٢١٩) والحميدي في مسنده (٩٠٩) والبـيهقي في الزهد الكبير (١٩٦، ١٩٧) ووكيع فـي الزهد (١٣٣) والطبراني في الكبـير (٧٨٢٩، ٧٨٦٠) وضـعفه الألبـاني . انظر ضعيف الجامع (١٣٩٧) .

عبيـد الله بن زحر، عن على بن يزيد، عن القاسم، عن أبى أمـامة رضى الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن أغبط أوليائى عندى : مؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من صلاة، أحسن عبـادة ربه، وكان غامضًا فى الناس لا يشار إليـه بالأصابع، فعجلت منيته ،وقل تراثـه وقلت بواكيه**» قال عبد الله بن أحـمد:[ق/ ١٠٩ أ] سألت أبى: ما تراثه؟ قال: ميراثه.

قالوا : وحميـة الله لعبده المؤمن عن الدنيا، إنمـا هـو من محـبته له وكـرامته [عليه] [١].

قال الإمام أحمد[٢] : حدثنا أبو سعيد ،حـدثنا سليمان بن بلال، عن عمرو بن أبى عمـرو، عن عاصم بن عمـر بن قتادة عن مـحمود بن لبـيد رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال :« **إن الله تبارك وتعالى يحمى عبـده المؤمن من الدنيا وهو يحبه، كما تحمون مرضاكم الطعام والشراب تخافون عليهم**» .

قالوا :وقل أن يقع إعطاء الدنيا وتوسعتها إلا اسـتدراجًا من الله لا إكرامًا ومحبة لمن أعطاه .

قال الإمام أحـمد[٣] : حدثنا يحـيى بن غيلان ،حـدثنا رشدين بن سـعد عن حرملة بن عمران النجـيبى ،عن عقبة بن مسلم، عن عقـبة بن عامر رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: « **إذا رأيت الله يعطى العـبد من الدنيـا على معـاصيه ومـا يحب ،فإنما هو استدراج**» ثم تلا قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ الآية [الانعام:٤٤] .

قالوا: ولهوان الدنيا على الله منعها أكثر أوليائه وأحبائه .

قال الإمام أحـمد[٤] : حدثنا أبو مـعاوية ،حدثنا الأعـمش، عن سالم بن أبى الجعـد، قال: قـال رسول الله ﷺ : « **إن من أمـتى لـو أتـى باب أحـدكم فسـأله دينارًا لم يعطه إياه، ولو سـأله فلسًا لم يعـطه إياه ، ولو سأل الله تعـالى الجنة لأعطاها إياه ، ولو سأله الدنيا لم يعطها إياه ، وما يمنعـها إياه ،لهوانه عليه . ذو طمرين لا يؤبه**

(١) سقط من ط و ب .

(٢) أخـرجه أحـمـد (٢٣٦٨٢) والزهد (ص/ ١١) والتـرمـذي (٢٠٣٦) والحاكم (٧٤٦٥) وابـن حبـان (٦٦٩) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (١٦٥٩).

(٣) أخرجه أحـمد (١٧٣٤٩) والزهد (ص/ ١٢) والبيهقي في الشـعب (٤٢٢٠) وابن أبي الدنيا في الشكر (٣٢) والطبراني في الكبير (٩١٣) وصححه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (٤١٣) .

(٤) أخرجه في الزهد (ص/ ١٢) وحسنه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (٢٦٤٣) .

له لو أقسم على الله لأبره» وهذا يدل على أنه إنما يمنعـه إياها لهوانها عليـه لا لهوانه هو عليه، ولهذا يعطـيه أفضل منها وأجل فإن الله تعـالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الآخرة إلا من يحب.

فالوا : وقد أخبر النبي ﷺ أن أقـربهم منه[يوم القيامة] (١) مجلسًا ذوو التقلل من الدنيا الذين لم يستكثروا منها.

قال الإمام أحمد (٢) : حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا محـمد بن عمرو، قال : سمـعت عراك بن مالك ،يقول: قـال أبو ذر : إنى لأقربكم مجلسًـا من رسول الله ﷺ يوم القيامة ، وذلك أنى سـمعته يقول:« **إن أقربكم منى مجلسًا يوم القيامة من خرج من الدنيا كـهيئة ما تركتـه فيها** ،وأنه ـ والله ـ **ما منكم من أحد إلا وقد تشبث منها بشيء غيرى»** .

قالوا: وقد غبط النبي ﷺ من كان عيشه كفافاً ،وأخبر بفلاحه .

قال الإمام أحمد(٣) : حدثنا عبد الله بن يزيد ،حدثنا حيوة، قال : أخبرنى أبو هانئ أن أبا على الجنبى أخبره أنه سـمع فضالة بن عبيد يقـول : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول:« **طوبى لمنْ هدى إلى الإسلام وكان عيشه كفافًا وقنع** » .

وذكر أيضًا (٤) ،من حديث عبد الله بن عـمرو: أن رسول الله ﷺ قال :« **قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه»** .

قالوا : ولو لم يكن فى التقلل إلا خفة الحساب لكفى به فضلا على الغنى.

قال: عبد اللـه ابن الإمام أحمد(٥) : حدثنا بيـان بن الحكم ،حدثنا محـمد بن حـاتم، **قال:** حـدثنى بشـر بن الحارث، حـدثنا عيـسى بن يونس، عن هشـام عن الحسن، **قال** : قال رسول الله ﷺ « **ثلاثة لا يحاسب بهن العـبد، ظل خص يستظل به، وكسرة يشد بها صلبه، وثوب يوارى عورته** ».

---

(١) سقط من أ .

(٢) أخرجه أحمد (٢١٤٩٦) والزهد (ص/١٤٧) وأبو نعيم في الحليـة (١/ ١٦١) . قال الهيثمي : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح . انظر مجمع الزوائد (١٠/ ٢٦٧) .

(٣) أخرجـه أحمـد (٢٣٩٨٩٢) والزهد (ص/٨ـ٩) والترمـذي (٢٣٤٩) والحاكم (٩٨) ، (٧١٤٤) وابن حـبان (٧٠٥) والقضاعي في مـسند الشهاب (٦١٦) ، (٦١٧) وابن المبارك في الزهد (٥٥٣) والطبـراني في الكبير (٧٨٦) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (١٩١٥).

(٤) أخرجه أحمد (٦٥٧٢) ، (٦٦٠٩) وفي الزهد (ص/٨) ومسلم (١٠٥٤).

(٥) أخرجه في الزهد من زوائده (ص/١٢) .

وقال الإمام أحمد :حدثنا سيار، حدثنا جعفر، حدثنا ليث ،عن أبى عثمان، قال : لما افتتح المسلمون جوجى ،دخلوا يمشون فيها ،وأكداس الطعام فيها أمثال الجبال، وكان رجل يمشى إلى جنب سلمان ،فقال : يا أبا عبد الله، ألا ترى إلى ما فتح الله علينا؟ ألا ترى إلى ما أعطانا الله، فقال سلمان: وما يعجبك مما ترى؟ إلى جنب كل حبة مما ترى حساب!

قالوا: وقد شهد النبي ﷺ لأصحابه: أنهم يوم فقرهم وفاقتهم خير منهم يوم غناهم وبسط الدنيا عليهم .

قال الإمام أحمد[1] : حدثنا عبد الصمد أبو الأشهب، عن الحسن، قال: قال نبى الله ﷺ :« **يا أهل الصفة ،كيف أنتم؟** قالوا: نحن بخير. قال: **أنتم اليوم خير أم يوم تغدو على أحدكم جفنة وتروح أخرى، ويغدو فى حلة ويروح فى أخرى، وتسترون بيوتكم مثل أستار الكعبة؟** ، قالوا:[ق. ١١٠أ] يا نبى الله، نحن يومئذ خير، يعطينا ربنا تبارك وتعالى فنشكر. قال : **بل أنتم اليوم خير**» فهذا صريح فى أنهم فى وقت صبرهم على فقرهم خير منهم فى وقت غناهم مع الشكر .

وقال عبد الله بن أحمد[2] : حدثنا ابن نمير، حدثنا حفص بن غياث ،عن داود بن أبى هند، عن أبى حرب بن أبى الأسود ،عن طلحة البصرى، قال: قدمت المدينة ولم يكن لى بها معرفة ،فكان يجرى علينا مد من تمر بين اثنين، فصلى بنا رسول الله ﷺ صلاة، فهتف به هاتف من خلفه فقال : يا رسول الله ، قد أحرق بطوننا التمر، وتخرقت عنا الكنف، فخطب فحمد الله وأثنى عليه، وقال : « **والله لو أجد لكم اللحم والخبز لأطعمتكموه ،وليأتين عليكم زمان تغدو على أحدكم الجفان وتراح ، ولتلبسن بيوتكم مثل أستار الكعبة** ». قالوا : يا رسول الله ، نحن اليوم خير منا أو يومئذ؟ قال : **بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ، أنتم اليوم خير منكم يومئذ، يضرب بعضكم رقاب بعض** » .

قال الإمام أحمد[3] : وحدثنا عبد الوهاب عن سعيد، عن قتادة ،قال : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ دخل على أهل الصفة فذكر نحوه .

قالوا: ولو لم يكن فى الغنى والمال إلا أنه فتنة ،وقل من سلم من إصابتها له

(١) أخرجه في الزهد (ص/ ٣٧) .
(٢) أخرجه في زوائده على المسند (ص/ ٢٥، ٢٦) .
(٣) أخرجه في الزهد (ص/ ٣٧) .

وتأثيرها في دينه ،كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥] ، وفى الترمذى[١]، من حديث كعب بن عياض، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتى المال**». قال : هذا حديث حسن صحيح .

قالوا : والمال [والغنى][٢] يدعو إلى النار، والفقر يدعو إلى الجنة .

قال الإمام أحمد[٣]: حدثنا يزيد، حدثنا أبو الأشهب ،حدثنا سعيد بن أيمن مولى كعب بن سور، قال : بينما رسول الله ﷺ يحدث أصحابه إذ جاء رجل من الفقراء فجلس إلى جنب رجل من الأغنياء، فكأنه قبض من ثيابه عنه، فقال رسول الله ﷺ: « **أخشيت يا فلان أن يغدو غناك عليه أو يغدو فقره عليك** ،قال: يا رسول الله، وشر الغنى؟ قال : **نعم، إن غناك يدعوك إلى النار، وإن فقره يدعوه إلى الجنة** ، قال : فما ينجينى منه؟ قال : تواسيه قال : إذن أفعل، فقال الآخر لا إرب لى فيه ، قال : **فاستغفر وادع لأخيك**».

قالوا : وحق الغنى أعظم من أن يقوم العبد بشكره، وقد روى الترمذى فى جامعه[٤]. من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه ،أن النبي ﷺ قال : « **ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يوارى به عورته، وجلف الخبز، والماء** ». قال : هذا حديث حسن صحيح .

وفى «صحيح مسلم» [٥] ، [عن][٦] أبى أمامة ﷺ، قال : قال : رسول الله ﷺ: «**يا ابن آدم ، إنك إن تبذل الفضل خير لك، وأن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى** » .

وفى «صحيحه» [٧] أيضًا ،من حديث أبى نضرة ،عن أبى سعيد رضى الله عنه، قال: بينما نحن فى سفر مع رسول الله ﷺ، إذ جاء رجل على راحلة له،

---

(١) أخرجه االترمذي (٢٣٣٦) وأحمد (١٧٥٠٦) والحاكم (٧٨٩٦) وابن حبان (٣٢٢٣) والقضاعي في مسند الشهاب (١٠٢٢) ، (١٠٢٣) والطبراني في الكبير (٤٠٤) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (١٩٠٥).

(٢) سقط من ط و ب .

(٣) أخرجه في الزهد (ص/٣٨) .

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٤١) وأحمد (٤٤٠) والطيالسي في مسنده (٨٣) والحاكم (٧٨٦٦) وعبد بن حميد في المنتخب (٤٦) والطبراني في الكبير (١٤٧) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٦١) وضعفه الألباني . انظر السلسلة الضعيفة (١٠٦٣) .

(٥) (١٠٣٦) .

(٦) في أ : من حديث .

(٧) (١٧٢٨) .

فجعل يضرب يمينًا وشمالا ،فقال رسول الله ﷺ : « **من كان معه فضل من ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له**»، قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى ظننا أنه لا حق لأحد منا في فضل .

قالوا: فهذا موضع النظر في تفضيل الغني الشاكر ببذل الفضل كله ،وأما غني يمتع بأنواع الفضل ،ويشكر بالواجب وبعض المستحب، فكيف يفضل على فقير صابر راض عن الله في فقره ؟!

قالوا: وقد أقسم رسول الله ﷺ لأصحابه ،وهم أئمة الشاكرين، أنه لا يخاف عليهم الفقر، وإنما يخاف عليهم الغنى ،ففي« الصحيحين»(١) من حديث عمرو بن عوف ـ وكان شهد بدرا ـ أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ صالح أهل البحرين ،وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة ، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف، فتعرضوا له ،فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: «**أظنكم[ق/ ١١١أ][سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء](٢) من البحرين؟** فقالوا : أجل، يا رسول الله . قال : «**فأبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوا فيها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم**».

قال الإمام أحمد: حدثنا روح حدثنا هشام عن الحسن ،قال : قيل لأبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه : أين دنياكم والتي كنتم تعدون يا أصحاب محمد؟ قال : ليبشر الآخر بدنيا قد [ظلت] (٣) تأكل ـ والله الذي لا إله إلا هوَ ـ الإيمان كما تأكل النار الحطب الجزل.

وقال أحمد (٤) :حدثنا يزيد ،حدثنا هشام بن حسان، قال : سمعت الحسن، يقول: **والله ما أحد من الناس بسط الله له دنياه ،فلم يخف أن يكون قد مكر به فيها، إلا كان قد نقص علمه وأعجز رأيه .وما أمسكها الله عن عبد، فلم يظن أنه قد خير له فيها، إلا كان قد نقص علمه [وعجز] (٥) رأيه** ».

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٢٥) ومسلم (٢٩٦١) .

(٢) في أ : سمعتم بقدوم أبي عبيدة وأنه جاء بشيء .

(٣) في أ : أظلت . (٤) أخرجه في الزهد (ص/ ٣٧) . (٥) في أ : وأعجز .

قالوا: وقد مر على النبي ﷺ فقير وغنى، فقال عن الفقير: « **هذا خير من ملء الأرض مثل هذا** » (١) .

وروى البخارى فى« صحيحه» (٢) ، عن سهل بن سعد رضى الله عنه، قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال : «**ما تقولون فى هذا ؟**» فقالوا : حرى إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن يسمع، قال : ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال : «**ما تقولون فى هذا ؟**» ، قالوا : حرى إن خطب أن لا ينكح وإن يشفع ألا يشفع ، وإن قال أن لا يسمع لقوله . فقال رسول الله ﷺ: « **هذا خير من ملء الأرض مثل هذا** » .

وقد بشر رسول الله ﷺ الفقراء الصابرين بما لم يبشر به الأغنياء ، ففى الترمذى(٣) من حديث فضالة بن عبيد : أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم فى الصلاة من الخصاصة، وهم أصحاب الصفة، حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين، فإذا صلى رسول الله ﷺ انصرف إليهم وقال : « **لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة** » قال فضالة : وأنا يومئذ مع رسول الله ﷺ » .

وبشرهم بسبقهم الأغنياء إلى الجنة . وقد اختلفت الروايات فى مدة هذا السبق، ففى صحيح مسلم(٤) ، عن عبد الله بن عمر: أنه جاء ثلاثة نفر فقالوا : يا أبا محمد، والله ما نقدر على شىء : لا نفقة، ولا دابة. ولا متاع. فقال لهم : ما شئتم، إن شئتم دفعتم إلينا فأعطيناكم [ما] (٥) يسر الله لكم، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان، وإن شئتم صبرتم ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفًا** . قالوا: نصبر ولا نسأل شيئًا.

وقال الإمام أحمد (٦) : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو وعن أبي سلمة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال : «**يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم، وهو خمسمائة عام**» ، قال الترمذى:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩١) . (٢) (٥٠٩١) .

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٦٨) وأحمد (٢٩٨٣) وابن حبان (٧٢٤) والطبراني في الكبير (٧٩٩) وأبو نعيم في الحلية (٢/١٧) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (١٩٣٠) .

(٤) تقدم تخريجه . (٥) في أ : مما .

(٦) تقدم تخريجه .

حديث حسن صحيح .

وفى الترمذى أيضًا [١] : من حديث أبى سعيد رضي الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ: « **فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة** » . وهو حديث حسن .

وفيه أيضًا [٢] ، من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال : « **يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفًا** » . وهو حديث حسن .

وهو موافق لحديث عبد الله بن عمرو ، ولحديث أنس الذى فى الترمذى[٣] [أيضا][٤] : « **إن المساكين يدخلون قبل الأغنياء بأربعين خريفًا** » ، فهؤلاء ثلاثة: جابر، وأنس ، وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم، وقد اتفقوا على الأربعين. وهذا أبو هريرة وأبو سعيد رضي الله عنهما ، قد اتفقا على التقدير بخمسمائة سنة. ولا تعارض بين هذه الأحاديث، إذ[التأخر والسبق][٥] درجات بحسب الفقر والغنى فمنهم من يسبق بأربعين ، ومنهم من يسبق بخمسمائة، ولا يتقيد السبق بهذا المقدار، بل يزيد عليه وينقص .

وقد روى أبو داود فى «سننه»[٦] ، من حديث أبى هريرة، عن النبي ﷺ : « **إن أول الأمة دخولا إلى الجنة أبو بكر الصديق** » رضي الله عنه. ومعلوم أن المدة[ق/ ١١٢أ] التى بينه وبين أقرانه من فقراء المهاجرين لا تطول؛ وأنها أطول مدة بين دخوله وبين دخول آخر من يدخل الجنة.

وقد روى الإمام أحمد فى «مسنده »[٧] ، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال : « **هل تدرون أول من يدخل الجنة؟** » قالوا: الله ورسوله أعلم. قال : « **فقراء المهاجرين، الذين تتقى بهم المكاره ، يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء. تقول الملائكة :يا ربنا ، نحن ملائكتك وخزنتك وسكان سمواتك، لا تدخلهم الجنة قبلنا. فيقول :عبادى لا يشركون بى شيئًا، يتقى بهم**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٥١) وأبو داود (٣٦٦٦) وأحمد (٩٨٢٢) وأبو يعلي (١١٥١) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (١٩١٦) .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) أخرجه الترمذي بنحوه (٢٣٥٢) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الترغيب والترهيب (١٨٥٥) .

(٤) زيادة من أ

(٥) في أ : تقديم وتأخير .

(٦) أخرجه أبو داود (٦٤٥٢) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٦٥) .

(٧) تقدم تخريجه .

المكاره، يموت أحـدهم وحاجـته فى صـدره لا يستطيع لها قـضاء .فـعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

وقال الإمام أحـمد [١] : حدثنا حـسين بن محمد حـدثنا دويد، عن مسلم بن بشير، عن عكرمة ،عن ابن عباس رضي الله عنهما،قال : قال رسول الله ﷺ: « **التقى مؤمنان على باب الجنة ،مؤمن غنى ومؤمن فـقير، كانا فى الدنيا، فأدخل الفـقير الجنة ،وحبس الغنى مـا شاء الله أن يحبس، ثم أدخل الجنة، فلقيـه الفقـير، فـيقـول: أى أخى، ماذا حبسك؟ والله لقد احتبـست حتى خـفت عليك !؟ فـيقول: أى أخى، إنى حـبست بعدك محبـسًا فظيعاً كريهاً ما وصلت إليك حـتى سال منى من العرق ما لو ورده ألف بعير كلها أكلت حمضًا لصدرت عنه رواء »** .

وقال الطبرانى فى «معجمه »[٢] :حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى وعلى بن سعيد الرازى، قالا :حدثنا على بن بهـران العطار ،حدثنا عبد الملك بن أبى كريمة ، عن الثورى، عن محمد بن زيد ،عن أبى حازم ،عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :« **إن فقـراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيـائهم بنصف يوم، وذلك خمـسمـائة سنة** ،فقـال رجل : أمنهم أنا يا رسول الـله ؟ قال : **إن تغديت رجعت على عشاء، وإذا تعشيت يبيت معك غداء ؟**،قال : نعم . قال : **لست منهم**، فقام رجل فقـال : أمنهم أنا يارسول الله ؟ قال : **هل سمعت مـا قلنا لهذا ؟** قال : نعم ، ولست كذلك . قال: **هل تجد ثوباً ستيراً سوى ما عليك ؟** قال : نعم. قال : **فلست منهم** .فقام آخر فقـال: أمنهم أنا يا رسول الله ؟ فقال : **هل سمعت ما قلت لهذين قبلك ؟** قال : نعم، قال : **هل تجد قرضًـا كلما شئت أن تسـتقرض؟** قال : نعم .قال : **فلست منهم**، فقـام آخر فقـال : أمنهم أنا يارسول الله ؟ فـقال : **هل سمعت ما قلت لهؤلاء ؟** قال : نعم ، قال : **تقدر أن تكتسب ؟** قال : نعم .قال : **فلست منهم** ،قال : فقام خامس فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟ فقال : **هل سمعت ما قلت لهؤلاء ؟**، قال : نعم، قال : **هل تمسى عن ربك راضيـاً وتصبح كذلك؟**، قال : نعم ،قال : **فأنت منهم**.

قال النبى ﷺ: «**إن سادات المؤمنين فى الجنـة من إذا تغدى لم يجد عـشاء ،وإذا**

---

(١) اخرجه أحمد (٦٥٧٠) وفي الزهد (ص/٣٩٦) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الترغيب والترهيب (١٨٥٢).

(٢) اخرجه ابو نعيم في الحلية (٧/ ٩٩، ١٠٠) من طريق الطبراني وإسناده ضعيف .

تعشى لم يبت عنده غداء ،وإن استقرض لم يجد قرضاً ، وليس له فضل كسوة إلا ما يوارى به ما لا يجد منه بدًا ولا يقدر على أن يكتسب ما يعشيه به ويمسى عن الله راضيًا ويصبح راضيًا » ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩].

قال الطبرانى: هذا حديث غريب من حديث سفيان الثورى عن محمد بن زيد يقال: هو العبدى تفرد به عبد الملك .

قلت : محمد [ابن زيد] (١) هذا هو العبدى ،وثقه قوم وضعفه آخرون ،قال الدارقطنى: ليس بالقوى. وقال أبو حاتم : صالح الحديث .وذكره ابن حبان فى الثقات .وروى له الترمذى وابن ماجه.

وفى هذه الطبقة محمد بن زيد الشامى يروى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، وهو متروك ونخاف أن يكون هذا هو ، الثورى لم ينسبه ، وإنما يقال: هو العبدى. فالله أعلم.

وقال الإمام أحمد(٢) :حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ،حدثنا هشام الدستوائى، عن يحيى ابن أبى كثير ، [عن عامر العقيلى](٣) ،عن أبيه ،عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال :قال رسول الله ﷺ [ق/١١٣أ]: **« عرض على أول ثلاثة يدخلون الجنة ،وأول ثلاثة يدخلون النار .فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة : فالشهيد ،وعبد مملوك لم يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه ، وفقير متعفف ذو عيال .وأما أول ثلاثة يدخلون النار: فأمير [متسلط](٤) ،وذو ثروة من مال لا يؤدى حق الله فى ماله ، وفقير فخور »** .

وروى الترمذى(٥) منه ذكر الثلاثة الذين يدخلون الجنة فقط .

قالوا : ويكفى فى فضل الفقير أن عامة أهل الجنة الفقراء ،وعامة أهل النار الأغنياء .

قال الإمام أحمد (٦) :حدثنا عبد الله بن محمد بن أبى شيبة ،حدثنا شريك ،

---

(١) سقط من أ .

(٢) أخرجه أحمد (٩٤٨٨) والطيالسي (٢٥٦٧) والحاكم (١٤٢٩) وابن خزيمة (٢٢٤٩) والبيهقي في الكبرى (٧٠١٩) .قال الألباني : ضعيف جداً . انظر ضعيف الجامع (٣٧٠٥) .

(٣) سقط من أ . (٤) في أ : مسلط .

(٥) أخرجه الترمذي (١٦٤٢) وابن حبان (٤٣١٢) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٣٧٠٢) .

(٦) أخرجه أحمد (٦٦١١) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (١٠١٠) .

عن أبى إسحاق، عن السائب بن مالك ،عن عبـد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ :« **اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء** » .

وفى صحيـح البخارى [١] ،عن أبى رجاء، قـال : جاء عمـران بن حصين إلى امرأته من عند رسول الله ﷺ ، فقالت :حدثنا ما سمعت من النبى ﷺ، فقال : إنه ليس من حديث ! فلم تدعه (أو قـال) فأغضبته ،فقـال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **نظرت فى الجنة فرأيت أكـثر أهلها الفـقراء ، ونظرت فى النار فرأيت أكـثر أهلها النساء** » .

وفى « الصحـيحين»[٢] من حديث أسـامة بن زيد : أن رسـول الله ﷺ قال: «**قمت على باب الجنة، فإذا عامة من دخلها المساكين ،وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء** » .

وفى «صحـيح مسلم »[٣] ، عن ابن عبـاس :أن النبي ﷺ اطلع فى النار فرأى أكثر أهلها النساء ،واطلع فى الجنة فرأى أكثر أهلها الفقراء .

قالوا : ويكفى فى فضل الفقر أن كل أحد يتمناه يوم القيامة من الأغنياء .

قال الإمام أحمد [٤] :حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا إسماعيل ـ يعنى ابن أبي خالد ـ عن نفـيع ،عن أنس ابن مالك رضى الله عنه ،قال : قـال رسول الله ﷺ : «**ما من أحـد يوم القيامـة غنى ولا فقيـر إلا ود أن ما كان أوتى فى الدنيـا أو من الدنيا قوتاً**. قال البخارى :« يتكلمون فى نفيع، وهذا ألين ما قيل فيه » .

قالوا : وقد صرح رسول الله ﷺ بتـفضيل الفقراء فى غير حـديث ، فمنها ما تقدم من حديث سهل بن سعد .

وقال الإمام أحمد[٥] :حدثنا أبو معاوية ،حدثنا الأعمش ،عن زيد بن وهب ، عن أبى ذر رضى الله عنه قال :قـال رسول الله ﷺ: « **يا أبا ذر، ارفع بصرك فانظر**

---

(١) (٣٢٤١) .
(٢) أخرجه البخاري (٥١٩٦) ومسلم (٢٧٣٦) .
(٣) (٢٧٣٧) .
(٤) أخرجه أحمد (١٢١٨٤) وابن ماجه (٤١٤٠) وعبد بن حميد في المنتخب (١٢٣٥) . وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٥١٤٧) .
(٥) أخرجه أحمد (٢١٥٣١) والبزار في كشف الأستار (٣٦٢٩) والطبراني في الأوسط (٥٨٦٢) وصححه الألباني . انظر صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٠٤) .

أرفع رجل تراه فى المسجد . قال : فنظرت فإذا رجل جالس عليه حلة له . قال : فقلت : هذا، قال : فقال : **يا أبا ذر ارفع بصرك فانظر أوضع رجل تراه فى المسجد،** قال : فنظرت فإذا رجل ضعيف عليه أخلاق ، قال : فقلت : هذا ، قال : فقال رسول الله ﷺ : «**والذى نفسى بيده لهذا أفضل عند الله يوم القيامة من قراب الأرض من هذا**».

وقال (١) : حدثنا وكيع ووافقه زائدة ، حدثنا الأعمش، عن سليمان بن [يسار](٢)، عن خرشة بن الحر ، عن أبى ذر رضي الله عنه، فذكره ، وقال : لهذا خير عند الله يوم القيامة من ملء الأرض مثل هذا .

قال الإمام أحمد(٣) : وحدثنا أبو معاوية ، ووافقه يعلى، قال : حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب ، عن أبى ذر، فذكره [بنحوه] (٤) .

قالوا : والذى يفصل بيننا فى هذه المسألة ويشفى العليل : أن الفقر يوفر أجر صاحبه ومنزلته عند الله، والغنى ولو شكر ، فإن ما ناله فى الدنيا بغناه يحسب عليه من ثوابه يوم القيامة ، وإن تناوله بأحل وجه ، فقليل الفضل فى الدنيا نقص من كثير الآخرة .

وفى «صحيح مسلم» (٥) ، من حديث عبد الله بن عمرو : أن رسول الله ﷺ قال : «**ما من غازية تغزو فى سبيل الله ، فيصيبون الغنيمة ، إلا تعجلوا ثلثى أجرهم من الآخرة، ويبقى لهم الثلث. وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم**» .

وفى «الصحيحين» (٦) ، عن خباب بن الأرت رضي الله عنه، **قال** : هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله ، فوقع أجرنا على الله . فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً، منهم [ق/ ١١٤أ] مصعب بن عمير رضى الله عنه ، قتل يوم أحد وترك نمرة، فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه ، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه ، فأمرنا رسول الله ﷺ **أن نغطى رأسه** ، ونجعل على رجليه شيئًا من الإذخر . ومنا من أينعت له ثمرته

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٤٣٣) وفي الزهد (٢٧) ، (٢٨) وابن حبان (٦٨١) ووكيع في الزهد (١٤٤) وصححه الألباني . انظر صحيح الترغيب والترهيب (٣٢٠٤) .

(٢) هكذا في أ ، ب . وفي ط : مسهر .

(٣) أخرجه أحمد (٢١٤٣٣) وابن أبي شيبة في مصنفه (١٦١٦٣).

(٤) سقط من أ .

(٥) (١٩٠٦) .

(٦) أخرجه البخاري (١٢٧٦) ومسلم (٩٤٠) .

فهو يهدي بها».

وفى «الصحـيحين» (١) ، عن قيس بن أبى حـازم ،قال :« دخلنا على خـباب نعوده ، وقـد اكتـوى سبع كيـات ، فقـال : إن أصحـابنا الذين سلفوا مـضوا ولم تنقصهم الدنيا» . وذكر الحديث .

وقال سعيـد بن منصور :حدثنا معاوية ، عن الأعـمش ،عن مجاهد ، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : «ما من عبـد يصيب من الدنيا شيئًا إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كريمًا ».

وفى «صحيـح البخارى»(٢) ، عن إبراهيم بن عـبد الرحمن بن عـوف،قال : «أوتى عبد الرحمن رضى الله عنه بطعام وكان صائماً فقال : قتل مصعب بن عمير ، وهو خيـر منى، وكفن فى بردة: إن غـطى رأسه بدت رجلاه ،وإن غطـى رجلاه بدا رأسه .وقتـل حمزة ﷺ ،وهو خير منى ،فلم يوجـد له كفن إلا بردة .ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا .وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا .ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام .

قال أبو سـعيد بن الأعـرابى: وليس عبـد الرحمن بن عوف وخـباب رضي الله عنهـما قالا ذلـك دون غيرهمـا ،لقد قـاله الأكابر مـن أصحاب رسـول الله ﷺ ، وكرهوا ما فتح الله عليهم من الدنيا وأشفقوا منه، وعلموا أن ما اختاره الله لنبيه كان ﷺ أفـضل ،وأن ما أخـروا له كـان أنقص منهم : أبو بكر ، وعـمر ، وعـثمـان، وعلى، وأبو عبيدة ،وعمار بن ياسر ، وسلمـان ، وعبد الله بن مسعود ،وعائشة أم المؤمنين ،وأبو هاشم بن عتـبة، وجماعـة لم نذكرهم للاختـصار ، رضى الله عنهم أجمعين.

فأما أبو بكر رضى الله عنه، فـحدثنا ابن أبى الدنيا(٣) ،حدثنا عبد الرحمن بن ريان الطائى ،حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ،حدثنا عبد الواحد بن زيد ،حدثنى [أسلم](٤) عن مـرة ، عن زيد بن أرقم ﷺ ، قـال :« كنا مع أبى بكر الصـديق رضى الله عنه ، فدعـا بشراب ،فأتى بماء وعسل ، فلما أدناه مـن فيه ، بكى وبكى

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٢) ومسلم (٢٦٨١) .
(٢) (٤٠٤٥) .
(٣) أخرجه في ذم الدنيا (١١) .
(٤) هكذا في أ ، ب . والمثبت من مصادر التخريج .

حتى أبكى أصحابه ، فسكتوا وما سكت ، ثم عاد وبكى ،حتى ظنوا أنهم لم يقدروا على مسألته، قال : ثم مسح عينيه ،فقالوا : يا خليفة رسول الله، ما أبكاك ؟ فقال: كنت مع رسول الله ، فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ،ولم أر معه أحدًا ، فقلت : يا رسول الله ،ما الذى تدفع عن نفسك ؟ قال :« **هذه الدنيا مثلت لى، فقلت لها:إليك عنى ، ثم رجعت فقالت: إنك إن أفلت منى فلن يفلت منى من بعدك**» .

وذكر ليث ،عن ابن سعد ، عن صالح بن كيسان، عن حميد بن عبد الرحمن ابن عوف ، عن أبيه : أنا أبا بكر ﷺ قال فى مرضه الذى مات فيه :« إنى وليت أمركم وإنى لست بخيركم ، وكلكم ورم أنفه من ذلك أن يكون هذا الأمر له ، وذلك لما رأيت الدنيا قد أقبلت وأقبلت [ولم][1] تقبل حتى تتخذوا نضائد الحرير وستور الديباج ، وحتى يألم أحدكم من الاضطجاع على الصوف كما يألم من الاضطجاع على الحسك والسعدان ، ثم أنتم أول ضال بالناس . تصفقون بهم يمينًا وشمالاً . ما هذا الطريق أخطأت إنما هو البحر أو الفجر ، والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حدٍّ خير له من أن يخوض غمرات الدنيا »[2] .

وذكر محمد بن عطاء بن خباب ، قال : كنت جالسًا مع أبى بكر ، فرأى طائرًا، فقال :« طوبى لك يا طائر ، تأكل من هذا الشجر ، ثم [تبعث][3] ، ثم لا تكون شيئًا ، وليس عليك حساب ، وددت أنى مكانك » . فقلت له : أتقول هذا وأنت صديق رسول الله ﷺ!

وأما عمر رضى الله عنه ، فإنه لما أتى بكنوز كسرى بكى ، فقال له عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه: ما الذى يبكيك يا أمير المؤمنين ، فوالله إن هذا ليوم شكر ويوم سرور ويوم فرح؟! فقال عمر رضي الله عنه:« إن هذا لم يعطه قوم إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء » .

ودخل عليه [ق/ ١١٥أ] أبو سنان الدؤلى ، وعنده نفر من المهاجرين ، فأرسل عمر[رضي الله عنه][4] إلى سفط أتى به من قلعة بالعراق ، وكان فيه خاتم ، فأخذه بعض ولده فأدخله فى فيه، فانتزعه عمر منه ثم بكى ، فقال له من عنده : لم تبكي وقد فتح الله لك وأظهرك وأقر عينك ؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول :« لا

---

(١) في أ : ولما .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٣) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٤) .

(٣) في ط و ب : بتعر .

(٤) زيادة من أ .

تفـتح الدنيا على أحـد إلا ألقى الله بينهم العـداوة والبغـضاء إلى يوم القـيامـة » وأنا مشفق من ذلك [١] .

قال أبو سعيد[٢] : وجدت فى كتاب بخط يدى ، عن أبى داود ، قال : حدثنا محمد بن عـبيد ، حدثنا حماد ، حدثنا يونـس ، عن الحسن : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى بقلنسـوة بغزوة كسـرى بين يديه ، وفى القوم سراقـة بن مالك ، فألقى إليه سوارى كسرى ، فجعلهما فى يديه فبلغا منكبيه ، فلما رآهما فى يد سراقة قال : « الحمد لله سوار كسرى بن هرمز فى يد سراقة بن مالك بن جعشم أعرابى من بنى مدلج . ثم قـال : اللهم، قد علمت أن رسـولك قد كان يحب أن يصـيب مالاً فينفقه فى سبيلك وعلى عـبادك فزويت ذلك عنه نظرًا منك له واختيارًا ، اللهم إنى أعوذ بك أن يكون هذا مكراً منك بعـمر. ثم قال : ﴿ **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ (٥٦)** ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ـ ٥٦] .

والمقصود أن سعة الدنيا وبسطها، تعجيل من أجر الآخرة ،وتضييق من سعتها.

قال عبد الرزاق[٣] : أخبرنا معمر ، عن الزهرى ،عن ابن أبى [صعير] [٤] ، عن جابر بن عـبد الله رضى الله عنهمـا ، قال : لما كان يوم أحـد أشرف النبى ﷺ على الشهداء الذين قتلوا يومئذ، فقال : « **إنى شهيد على هؤلاء فزملوهم بدمائهم** » .

قال معـمر[٥] : وأخبـرت فيمن سـمع الحسن يقـول : قال : النبى ﷺ : « **إن هؤلاء قد مضـوا،وقد شهدت عليـهم، لم يأكلوا من أجورهم شيئًا ، وإنكم قد أكلتم من أجوركم ، وإنى لا أدرى ما تحدثون بعدى** » .

وقال ابن المبارك [٦]: أنبأنا جرير بن حازم ، قال : سمعت الحسن يقول : خرج رسول الله ﷺ بأصحابه إلى بقـيع الغرقد، فقال : « **السلام عليكم يا أهل القبور، لو**

---

(١) أخرجه أحمد (٩٣) وأبو يعلي في المسند الكبير (١٩٧١) وضعـفه الألباني . انظر ضعيف الترغيب والترهيب (١٨٩٣) .

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٣٢٥) .

(٣) أخرجه في المصنف (٦٦٣٣) ، (٩٥٨٠) والنسائي (١٩٥٥) وأحمد (٢٣٧٠٦) والبـيهقي (٦٥٩١) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن النسائي (١٨٩٢).

(٤) في أ ، ب : صغيرة والمثبت من مصادر التخريج .

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦٦٣٤) ، (٩٥٨١) وقال الهندي : رواه ابن المبارك عن المسن مرسلاً . انظر كنز العمال (١١/ ٢٦٤) .

(٦) أخرجه في الزهد (٤٩٨) .

تعلمون ما نجاكم الله منه مما هو كائن بعدكم » . ثم أقبل على أصحابه فقال : **«هؤلاء خير منكم »** فقالوا : يا رسول الله ، إخواننا ، أسلمنا كما أسلموا ، وهاجرنا كما هاجروا وجاهدنا كما جاهدوا، وأتوا على آجالهم فمضوا فيها، وبقينا في آجالنا، فما يجعلهم خيراً منا ؟ فقال : **« إن هؤلاء خرجوا من الدنيا ،ولم يأكلوا من أجورهم شيئًا ، وخرجوا وأنا شهيد عليهم ،وأنتم قد أكلتم من أجوركم ،ولا أدرى ما تحدثون بعدى»** قال : فلما سمعها القوم، والله عقلوها ،وانتفعوا بها ، فقالوا: وإنا لمحاسبون بما أصبنا من الدنيا بعدهم، وإنه لمنتقص به من أجورنا. فأكلوا طيبًا، وأنفقوا قصدًا وقدموا فضلا .

وقال عبد الله بن أحمد[1]: قرأت على أبى هذا الحديث: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل ،عن ثوير ،عن مجاهد، عن ابن عمر[رضي الله عنهما][2] ،قال : ما أعطى رجل من الدنيا إلا نقص من درجته .

قالوا: وقد صرح سادات الأغنياء بأنهم ابتلوا بالضراء فصبروا ،وابتلوا بالسراء فلم يصبروا، قال ذلك عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وغيره ،وكان هذا مصداقًا لما رواه مصعب بن سعد عن أبيه، قال : قال رسول الله ﷺ :**« لأنا من فتنة السراء أخوف عليكم من فتنة الضراء إنكم ابتليتم بالضراء، فصبرتم، وإن الدنيا حلوة خضرة »** [3] .

قالوا :وهاهنا قضيتان صادقتان بهما يتبين الفضل:

إحداهما :أن [الأكثرين هم الأقلون][4] فقد تقدم الدليل عليها بما فيه الكفاية .

وأما الثانية : ففى « الصحيحين»[5]، من حديث أبى ذر رضى الله عنه، قال : خرجت ليلة من الليالى، فإذا رسول الله يمشى وحده ليس معه إنسان، قال : فظننت أنه يكره أن يمشى معه أحد ،فجعلت أمشى فى ظل القمر[ق/١١٦أ] ، فالتفت **فرآنى، فقال: من هذا؟ قلت:** أبو ذر جعلنى الله فداك ،قال : **« يا أبا ذر تعال** فمشيت معه ساعة»، فقال : **«إن [المكثرين][6]هم المقلون يوم القيامة إلا من أعطاه**

(١)تقدم تخريجه . (٢)زيادة من أ .

(٣)في أ : تقديم وتأخير .

(٤)أخرجه أبو يعلي في مسنده (٧٨٠) والبزار في البحر الزخار (١١٦٨) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٩٣) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٤٦٤٨) .

(٥)أخرجه البخاري (٦٤٤٣) ومسلم (٩٤) .

(٦)في أ : الأكثرين .

الله خيراً فنفح فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيراً» . وذكر الحديث .

قالوا : ولو كان الغنى أفضل من الفقـر لما حض الله رسوله على الزهد فى الدنيا والإعراض عنها ،وذم الحـرص عليها والرغبة فـيها، بل كان ينبـغى أن يحض عليها وعلى اكتسـابها [والإكثار][١] منها، كمـا حض على الزهد فيها والتقليل واكـتساب الفضائل التى بها كمال العبد من العلم والعمل. فلما حض على الزهد فيها والتقلل، دل على أن الزاهدين فيها المتقللين منها أفضل الطائفتين .

وقد أخبر أنها لو ساوت عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء[٢]، وأنها أهون على الله من السخلة الميتة على أهلها[٣]، وأن مثلها فى الآخرة كمثل ما يعلق بإصبع من أدخل أصبعه فى البحر [٤] ،وأنها ملعونة ملعون ما فـيها سوى ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم [٥]، وأنها سجن المؤمن وجنة [الكافر][٦] »[٧].

وأمر العـبد أن يكون فيهـا كأنه غريب أو عـابر سبيل ،وأن يعد نفـسه من أهل القبور ،وإذا أصبح فلا ينتظر المساء، واذا أمسى فلا ينتظر الصباح[٨].

ونهى عن اتخـاذ ما يرغب فيـها ،ولعن عـبد الدينار وعـبد الدرهم ودعـا عليه بالتعس والانتكاس، وعدم إقالة العثرة بالانتقاش [٩].

وأخبر أنها خضرة حلوة ؛أى تأخذ العيـون بخضرتها ،والقلوب بحلاوتها. وأمر باتقائها والحذر منها .كما تتقى النساء ويحذر منهن [١٠] .

وأخبـر أن الحرص عليهـا وعلى الرياسة والشرف يفـسد الدين كـإفسـاد الذئبين الضاريين إذا أرسلا فى زريبة غنم أو أشد إفساداً [١١] .

وأخـبـر أنه فى الدنيـا كـراكب اسـتظل تحت شـجـرة فى يوم صـائف ثم راح وتركها[١٢].

---

(١) في أ : الاستكثار .
(٢) تقدم تخريجه .
(٣) تقدم تخريجه .
(٤) تقدم تخريجه .
(٥) تقدم تخريجه .
(٦) في أ : الكافر .
(٧) أخرجه مسلم (٢٩٥٦) من حديث أبي هريرة .
(٨) أخرجه البخاري (٦٤١٦) من حديث ابن عمر .
(٩) أخرجه البخاري (٦٤١٦) من حديث أبي هريرة .
(١٠) أخرجه مسلم (٢٧٤٢)من حديث أبي سعيد الخدري .
(١١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦) وأحمد (١٥٨٢٢، ١٥٨٣٢)، والدارمي (٢٧٣٠) وابن حبان (٣٢٢٨) والطبراني في الكبير (١٨٩) وابن المبارك في الزهد (١٨١) وصححه الألباني . انظر صحيح ابن ماجه (٣٣١٧) .
(١٢) تقدم تخريجه .

وهذه فى الحقيقة حال سكان الدنيا كلهم ،ولكن هو ﷺ شهد هذه الحال [ونهى][1] عنها [بني][2] آدم . ومر بهم وهم يعالجون خصًا لهم قد وهى، فقال : «ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك»[3] .

وأمر بستر على بابه فنزع وقال : « إنه يذكرنى الدنيا» [4] .

وأعلم الناس: « أنه ليس لأحد منهم حق فيها سوى بيت يسكنه ،وثوب يوارى عورته، وقوت يقيم صلبه » [5] .

وأخبر: أن الميت يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله[6].

وأخبر:« أن للمتخوض فيما شاءت نفسه من مال الله بغير حق له النار يوم القيامة» [7] .

وأقسم: « أنه لا يخاف الفقر على أصحابه، وإنما يخاف عليهم الدنيا وتنافسهم فيها وإلهائها لهم» [8] .

وأخبر :أنه ليس لابن آدم من ماله إلا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى[9] .

وأخبر أن حسب ابن آدم من الدنيا لقيمات يقمن صلبه فإن لم يقتصر عليها، فثلث بطنه لطعامه ،وثلثه لشرابه، وثلثه لنفسه[10] .وفى هذا الحديث الإرشاد إلى صحة القلب والبدن والدين والدنيا .

وأخبر:« أن غنى العبد فيها غنى نفسه لا كثرة عرضه » [11] .

وسأل الله أن يجعل رزقه فيها قوتًا[12].

---

(١) في ط و ب : وعمي . (٢) في ط و ب : بنو .

(٣) أخرجه أبو داود (٥٢٣٥) ، (٥٢٣٦) والترمذي (٢٣٧٦) وابن ماجه (٤١٦٠) من حديث عبد الله بن عمرو وصححه الألباني . انظر صحيح أبي داود (٤٣٦٢) .

(٤) أخرجه مسلم (٢١٠٧) والترمذي (٢٤٦٨) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ .

(٥) تقدم تخريجه .

(٦) أخرجه البخاري (٦٥١٤) ومسلم (٢٩٦٠) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه .

(٧) أخرجه البخاري (٣١١٨) من حديث خولة الأنصارية .

(٨) تقدم تخريجه . (٩) تقدم تخريجه .

(١٠) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) وابن ماجه (٣٣٤٩) من حديث المقدام بن معدي كرب وصححه الألباني . انظر صحيح ابن ماجه (٢٧٠٤) .

(١١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦) ومسلم (١٠٠١) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه .

(١٢) تقدم تخريجه .

وغبط من كان رزقه فيها كفافاً بعد أن هدى للإسلام (١) .

وأخبر: « أن من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وشتت عليه شمله، ولم يأته منها إلا ما كتب له» (٢) .

وعرض عليه ربه أن يجعل له بطحـاء مكة ذهبًا، فقال : « **لا يارب ولكن أشبع يومًـا وأجـوع يومًا ، فـإذا جـعت تضـرعت إليك وذكـرتك ، وإذا شـبعت حـمـدتك وشكرتك**» (٣) .

وأعلمهم أن: « **من أصبح منـهم آمنًا فى سربه، معـافى فى جسـده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا**»(٤) .

وأخبر: أن بذل العبد ما فضل عن حاجته خير له، وإمساكه شر له ، وأنه لا يلام على الكفاف (٥) .

ونهى أمته: أن ينظر أحدهم إلى من هو فـوقه فى الدنيا، وأمره أن ينظر إلى من هو دونه فى الدنيا (٦) .

وأخبـر : « أنه لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة وضـر ، مثلها [ق/ ١١٧أ] مـثل ما يخرج من ابن آدم عند خلائه، وإن كان أوله طيباً لذيذًا فهذا آخره» (٧) .

وأخبر : أن عباد الله ليسـوا بالمتنعمين فيها (٨) ، فإن أمامهم دار النعيم ، فهم لا يرضون بنعيمهم فى الدنيا عوضًا من ذلك النعيم .

وأخبـر : أن نجاة أول هذه الأمة بالـزهد واليقين ، وهلكة آخرها بـالبخل وطول الأمل (٩) .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخـرجه الـترمـذي (٢٤٦٥) من حـديث أنس بن مـالك ـ رضي الله عنه ، وابن مـاجـه (٤١٠٥) وأحمـد (٢١٦٣٠) من حديث زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ وصححه الألباني . انظر صحيح ابن ماجه (٣٣١٣).

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) أخرجه التـرمذي (٢٣٤٦) وابن ماجه (٤١٤١) والبـخاري في الأدب المفرد (ص/ ٩١) والحميـدي في مسنده (٤٣٩) من حديث عبيد الله بن محصن وحسنه الألباني . انظر صحيح ابن ماجه (٣٣٤٠) .

(٥) تقدم تخريجه . (٦) تقدم تخريجه .

(٧) تقدم تخريجه .

(٨) أخرجه أحمد (٢٢١٥٨) ، (٢٢١٧١) وأبو نعيم في الحلـية (٥/ ١٥٥) من حديث معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ وصححه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (٣٥٣) .

(٩) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٦٥٠) والخطيب في تاريخ بغـداد (٧/ ١٨٦) وحسنه الألباني . انظر صحيح الجامع (٦٧٤٦) .

وكان النبى [ﷺ][١] يقول: لبيك لا عيش إلا عيش الآخرة[٢] .

وأخبر: « أنه تعالى إذا أحب عبدًا حماه الدنيا كما يحمى الإنسان مريضه من الطعام والشراب» [٣] .

ودخل النبي [ﷺ] [٤] على عثمان بن مظعون وهو فى الموت ، فأكب عليه يقبله، ويقول: «**رحمك الله يا عثمان، ما أصبت من الدنيا، ولا أصابت منك** » فغبطه بذلك[٥] .

وكان يقول : « **الزهد فى الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة فى الدنيا تطيل الهم والحزن** » [٦].

وكان يقول: « **من جعل الهموم كلها هماً واحداً كفاه الله سائر همومه ،ومن تشعبت به الهموم فى أحوال الدنيا لم يبال الله فى أى أوديتها هلك** » [٧] .

وأخبر :« **أنه يؤتى يوم القيامة بأنعم الناس كان فى الدنيا ،فيقول الله عز وجل: اصبغوه فى النار صبغة فيصبغونه صبغة ،ثم يؤتى به ،فيقول :يا بن آدم ،هل أصبت نعيمًا قط ؟هل رأيت قرة عين قط ؟هل أصبت سرورًا قط ؟ فيقول :لا وعزتك .ثم يقول: ردوه إلى النار، ثم يؤتى بأشد الناس كان بلاء فى الدنيا [وأجهدهم]**[٨] **جهدًا ، فيقول تبارك وتعالى :اصبغوه فى الجنة صبغة ،فيصبغ فيها ،ثم يؤتى به ،فيقول : يا بن آدم، هل رأيت ما تكره قط ؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت شيئًا قط أكرهه** » [٩] .

وفى حديث مناجاة موسى [عليه السلام] [١٠]، الذى رواه الإمام أحمد فى كتاب «الزهد»[١١]: حدثنا إسماعيل ابن عبد الكريم بن معقل، حدثنا عبد الصمد بن معقل،

---

(١) زيادة من أ .

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٣) ومسلم (١٨٠٥) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه .

(٣) تقدم تخريجه . (٤) زيادة من أ .

(٥) أخرجه أحمد في الزهد (ص/ ١١) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٠٥) .

(٦) أخرجه أحمد في الزهد (ص/ ١٠) وابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١٣١) عن طاووس مرسلاً وأخرجه أيضاً في ذم الدنيا (٢٨٩) عن الفضيل بن عياض وأخرجه الطبراني في الأوسط (٦١٢٠) وابن عدي في الكامل (١/ ٣٧٦) من حديث أبي هريرة . وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٥٩٣) من حديث عمر بن الخطاب .

(٧) أخرجه ابن ماجه (٢٥٧) ، (٤١٠٦) من حديث ابن مسعود ، وأخرجه الحاكم (٣٦٥٨) من حديث ابن عمر وحسنه الألباني . انظر صحيح ابن ماجه (٣٣١٤) .

(٨) في أ : وأجهده .

(٩) أخرجه مسلم (٢٨٠٧) من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه .

(١٠) زيادة من أ . (١١) انظر الزهد (ص/ ٦١ـ٦٦) .

قال : سمعت وهب بن منبه، فذكره ، وفيـه : « ولا تعجبكما زينته ولا ما متع به ، ولا تمدان إلى ذلك أعينكما ،فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين .وإنى لو شئت أن أزينكما من الدنيـا بزينة، يعلم فرعون حين ينظر إليهـا أن مقدرته تعجـز عن مثل ما أوتيتـما فعلت ،ولكنى أرغب بكمـا عن نعيمـها ذلك وأزويه عنكما ،وكـذلك أفعل بأوليائى، وقديمًا ما خرت لهم فى ذلك ،فإنى لأذودهم عن نعيمها ورخائها كما يذود الراعى الشفيـق غنمه عن مراتع الهلكة، وإنى لأجنبهم سلوتهـا وعيشهـا كما يجنب الراعى الشـفيق إبله عن مـبارك الغـرة ،وما ذلك لهـوانهم على، ولكن ليسـتكملوا نصيبهم من كرامتى سالمًا موفرًا لم تكلمه الدنيا ولم يطغه الهوى .واعلم أنه لم يتزين لى العبـاد بزينة هى أبلغ من الزهد فى الدنيا ،فإنهـا زينة[المترفين][1] المتقين ،عليهم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع ،سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، أولئك أوليائى حقًا فإذا لقيـتهم ،فاخفض لهم جناحك، وذلل لهم قلبك ولسانك». وذكر الحديث .

وقال الإمام أحمد[2]: حدثنا غوث بن جابر ،قال : سمعت محمد بن داود،عن أبيه، عن وهب ،قـال : قال الحواريون: يا عـيسى ،من أوليـاء الله الذين لا خوف عليـهم ولا هم يحزنون ؟ قـال : الذين نظروا إلى باطن الدنيـا حين نظر الناس إلى ظاهرها والذين نظروا إلى آجل الدنيـا حين نظر الناس إلى عاجلهـا ،فأماتوا منهـا ما يخشون أن يميتهم ، وتركوا ما علموا أنه سيتركهم ،فصار استكثارهم منها استقلالاً ، وذكرهم إيـاها فواتًا ، وفـرحهم بما أصابـوا منها حـزناً ، فما عـارضهم من نائـلها رفضوه، ومـا عارضهم من رفعتهـا بغير الحق وضعوه ،خلقت الدنيـا عندهم فليسوا يجددونها ،وخربت بينهم فليسوا يعمرونها ، وماتت فى صدورهم فليسوا يحيونها ، يهدمونها فـيبنون بها آخرتهم ويبيعونهـا فيشترون بها ما يبـقى لهم ،ورفضوها فكانوا [ق/١١٨أ] بها هم الفرحين ،ونظروا إلى أهلها صرعى قد حلت بهم المثلات ،فأحيوا ذكر الموت ، وأمـاتوا ذكر الحيـاة ، يحبون الله ويحـبون ذكره ،ويسـتضيـئون بنوره ويضيئون به ،لهم خبر عجيب ،وعندهم الخـبر العجيب، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ،وبهم علم الكتاب وبه عـلموا، ليسوا يرون نائلاً مع ما نالوا ،ولا أماناً دون ما [يرجون] [3]،ولا خوفاً دون ما يحذرون .

(١) سقط من ط و ب . (٢) أخرجه في الزهد (ص/ ٦٠) .
(٣) في ط و ب : يرجعون .

وحدثنا روح ،حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ،قال : قيل لعيسى ابن مريم: [يا رسول الله][1] ، لو اتخذت حماراً تركبه لحاجتك ؟قال : أنا أكرم على الله من أن يجعل لى شيئاً يشغلنى به»[2] .

وقال : «اجعلوا كنوزكم فى السماء ،فإن قلب المرء عند كنزه»[3].

وقال : « اتقوا فضول الدنيا ،فإن فضول الدنيا عند الله رجز» .

وقال : يا بنى إسرائيل اجعلوا بيوتكم كمنازل الأضياف ،فما لكم فى العالم من منزل ، إن أنتم إلا عابرى سبيل.

وقال : يا معشر الحواريين ،أيكم يستطيع أن يبنى على موج البحر داراً؟ قالوا : ياروح الله، ومن يقدر على ذلك ؟ قال : إياكم والدنيا ،فلا تتخذوها قراراً.

وقال : أكل الخبز البر،وشرب ماء عذب ، ونوم على المزابل مع الكلاب كثير، لمن يريد أن يرث الفردوس .

قال أحمد وحدثنا بهز ،عن الأعمش ،عن خيثمة ،قال : قال المسيح بشدة :«ما يدخل الغنى الجنة » .

وقال المسيح :«حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ،ومرارة الدنيا حلاوة الآخرة»[4].

وقال :« يا بنى إسرائيل ، تهاونوا بالدنيا تهن عليكم ،وأهينوا الدنيا تكرم عليكم الآخرة،ولا تكرموا الدنيا تهن عليكم الآخرة ، فإن الدنيا ليست بأهل الكرامة وكل يوم تدعو إلى الفتنة والخسارة» .

وقال إسحاق بن هانئ فى مسائله :قال أبو عبد الله وأنا أخرج من داره : قال الحسن:« أهينوا الدنيا ،فوالله لأهنأ ما تكون حين تهان»[5].

وقال الحسن :« والله ما أبالى شرقت أم غربت» .

قال : وقال لى أبو عبد الله: « يا إسحاق ما أهون الدنيا على الله عز وجل».

وقال :« الدنيا قليلها يجزى وكثيرها لا يجزى» .

قالوا : وقد تواتر عن السلف أن حب الدنيا رأس كل الخطايا وأصلها .

---

(١) سقط من أ .

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص/٥٥) وابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١٣٠) .

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (ص/٥٦) .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢١٥) وابن المبارك في الزهد (٨٤٨) .

(٥) أخرجه أحمد في الزهد (ص/٥٨) .

وقد روى فيه حديث مرفوع لا يثبت ،ولكنه يروى عن المسيح .

قال عبد الله بن أحمد[١] :حدثنا عبيد الله ابن عمـر القواريرى ،حدثنا معاذ بن هشام ،حـدثنى أبى، عن بديل بن ميـسرة ،قـال : حدثنى جعـفر بن خـرفاش :أن عـيسى ابن مـريم عليه السـلام قال : «رأس الخطـيئـة حـب الدنيا، والنسـاء حبـالة الشيطان، والخمر جماع كل شر» .

وقال الإمـام أحمـد [٢]:[حدثنا][٣] عـمر بن سـعـد أبو داود الحفـرى، عن سفيان، قال : كان عيسى ابن مريم يقول : حب الدنيا أصل كل خطيئة ،والمال فيه داء [كبير][٤] .قالوا: وما داؤه؟ قال : لا يسلم [صاحبه][٥] من الفخر والخيلاء .قالوا: فإن سلم؟ قال : يشغله إصلاحه عن ذكر الله عزوجل .

قالوا : وذلك معلوم بالتـجربة والمشـاهدة ،فإن حبـها يدعو إلى خطيـئة ظاهرة وباطنة، ولا سيما خطيئة يتوقف تحصيلها عليها ،فيسكر عاشقها حبها عن علمه بتلك الخطيـئة وقبـحهـا ،وعن كراهتـها واجـتنابها ،وحـبها يوقـع فى الشبهـات ،ثم فى المكروهات ،ثم فى المحـرمـات . وطالما أوقع فى الكفـر، بل جـمـيع الأمم المكذبة لأنبيـائهم إنما حملهم على كفـرهم وهلاكهم حب الدنيا ،فـإن الرسل لما نهوهم عن الشـرك والمعاصى التى كـانوا يكسـبون بهـا الدنيا حـملهم حـبهـا على مخـالفتـهم وتكذيبـهم. فكل خطيئـة فى العالم أصـلها حب الدنيـا ، ولا تنس خطيئـة الأبوين قديمًا، فـإنما كان سـببهـا حب الخلود فى الدنيـا .ولا تنس ذنب إبليس وسبـبه حب الرياسة التي محبتهـا شر من محبة الدنيا ، وبسببها كـفر فرعون وهامان وجنودهما ، وأبو جهل وقومه واليهود ، فحب الدنيا والرياسة هو الذى عمر النار بأهلها ، والزهد فى الدنيا والرياسة هو الذى عمـر الجنة بأهلها ،والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بشرب الخـمر بكثـير ، وصـاحب هذا السكر لا يفيق منه [ق/١١٩أ] إلا فى ظـلمة اللحد، ولو انكشـف عنه غطاؤه فى الدنيا لعلم ما كـان فيه مـن السكر وأنه أشد من سكر الخمر . والدنيا تسحر العقول أعظم سحر .

قال الإمام أحمد[٦] :حدثنا سيار ، حدثنا جعفر، قال : سمعت مالك بن دينار

(١) أخرجه في زوائد الزهد (ص/ ٩٢) .
(٢) أخرجه في الزهد (ص/ ٩٢) .
(٣) في أ : ثنا .
(٤) في ط و ب : كثير .
(٥) سقط من أ ، ب وأثبتناه من ط .
(٦) أخرجه في الزهد (ص/ ٣١٩) .

يقول: اتقوا السحارة ،اتقوا السحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء .

وقال يحيى بن معاذ الرازى: الدنيا خمر الشيطان ، من سكر منها فلا يفيق إلا فى عسكر الموتى نادماً بين الخاسرين .

وأقل ما فى حبها أنه يلهى عن حب الله وذكره .ومن ألهاه ماله عن ذكر الله فهو من الخاسرين ، وإذا لها القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان وصرفه حيث أراد .ومن فقهه فى الشر أنه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل فيها الخير وقد تعبد لها قلبه ، فأين يقع ما يفعله من البر مع تعبده لها؟ وقد لعنه رسول الله ﷺ ودعا عليه ،فقال :« **لعن عبد الدينار والدرهم** »[1] .

وقال :« **تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم : إن أعطى رضى وإن منع سخط**»[2]. وهذا تفسير منه ﷺ وبيان لعبوديتها .

وقد عرضت الدنيا على النبى ﷺ بحذافيرها وتعرضت له ، فدفع فى صدرها باليدين، وردها على عقبيها .

ثم عرضت بعده على أصحابه وتعرضت لهم ، فمنهم من سلك سبيله ودفعها عنه وهم القليل ، ومنهم من استعرضها وقال : ما فيك ؟ قالت :فى الحلال والشبهة والمكروه والحرام،فقالوا : هاتى حلالك ولا حاجة لنا فيما عداه ، فأخذوا حلالها.

ثم تعرضت لمن بعدهم فطلبوا حلالها وحده فلم يجدوه فطلبوا [مكروهها وشبهها][3]، فقالت: قد ذهب به من قبلكم ،فقالوا : هاتى حرامك فأخذوه ،فطلبه من بعدهم ،فقالت: هو فى أيدى الظلمة قد استأثروا به عليكم فتحيلوا على تحصيله منهم بالرغبة والرهبة، فلا يمد فاجر يده إلى شىء من الحرام إلا وجد أفجر منه وأقوى قد سبقه إليه. هذا وكلهم ضيوف وما بأيديهم عارية، كما قال ابن مسعود رضى الله عنه : ما أصبح أحد فى الدنيا إلا ضيف وماله عارية، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة ».

قالوا : وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا ومفسداً للدين من وجوه :

أحدها : أن حبها يقتضى تعظيمها ، وهى حقيرة عند الله، ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقر الله .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٥) من حديث أبي هريرة وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٤٦٩٥) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٨٦) من حديث أبي هريرة .

(٣) في أ : تقديم وتأخير .

وثانيها : أن الله لعنها ومقتـها وأبغضها إلا ما كان له فـيها ، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه ،فقد تعرض للفتنة ومقته وغضبه.

وثالثها : أنه إذا أحبـها صيرها غـايته ،وتوسل إليهـا بالأعمال التى جـعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة ، فعكس الأمـر وقلب الحكمة، فانتكس قلبه وانعكس سيره إلى وراء .

فهاهنا أمران :

أحدهما :جعل الوسيلة غاية .

والثانى : التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا .

وهذا شر معكوس من كل وجه ،وقلب منكوس غاية الانتكاس .وهذا هو الذى انطبق عليه حذو القذة بالقذة وقوله تعالى :﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦)** ﴾ [هود : ١٥ ، ١٦] ، وقوله تعالى :﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨)** ﴾ [الإسراء : ١٨] ، وقوله تعالى :﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)** ﴾ [الشورى : ٢٠] . فهـذه ثلاث آيات يشبه بعضـها بعضاً ،وتدل على معنى واحد ،وهو أن من أراد بعـمله الدنيا وزينتها دون الله والدار الآخرة ،فحظه ما أراد، وهو نصيبه ليس له نصيب غيره .والأحاديث عن رسول الله ﷺ مطابقة لذلك مـفسرة له ،كحديث أبـى هريرة رضى الله عنه، فى الثلاثة الذين هم أول من تسعـر بهم النار: « **الغـازى ، والمتصـدق، والقـارئ، الذين أرادوا بذلك الدنيا والصيت** » ، وهو فى صحيح مسلم (١) .

وفى سنن النسائى (٢) عن أبى أمامة رضى الله عنه [ق/ ١٢٠أ] قال : «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقـال : يا رسول الله ، رجل غزا يلتـمس الأجر والذكر ما له؟ فـقال رسول الله: «**لا شىء له**»، فأعادها ثلاث مرات. يقول له رسول الله :**لا شىء له**». ثم قال : «**إن الله تعـالى لا يقبل إلا ما كـان خالصًـا وابتغى به وجـهه** » ،فهـذا قد [بطل أجره وحبط عمله](٣) ،مع أنه قصد حـصول الأجر، لما ضم إليه قـصد الذكر

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥) .

(٢) أخرجه النسائي (٣١٤٠) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن النسائي (٢٩٤٣) .

(٣) في أ : تقديم وتأخير .

بين الناس، فلم يخلص عمله لله ،فبطل كله .

وفى مسند الإمام أحمد، عن أبى هريرة : « أن رجلا قال : يارسول الله، الرجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرض الدنيا ؟ فقال له رسول الله ﷺ: **«لا أجر له»**، فأعظم الناس ذلك، وقالوا للرجل :عد إلى رسول الله ﷺ لعله لم يفهم، فعاد فقال: يا رسول الله ،الرجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرض الدنيا فقال رسول الله ﷺ :« **لا أجر له**»، ثم أعاد الثالثة، فقال رسول الله: **«لا أجر له »** .

وفى المسند أيضًا «وسنن النسائى»[1] عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ،قال :« إن رسول الله ﷺ قال : **«من غزا فى سبيل الله عز وجل وهو لا ينوى فى غزاته إلا عقالا فله ما نوى »** .

وفى المسند و«السنن »[2]،عن يعلى بن [منية][3]،قال : كان رسول الله ﷺ يبعثنى [في سرايا فبعثني ذات يوم][4] فى سرايا، فبعثنى ذات يوم فى سرية ،وكان رجلا يركب بغلا فقلت له: ارحل ، فإن النبى ﷺ قد بعثنى فى سرية ،فقال : ما أنا بخارج معك حتى تجعل لى ثلاثة دنانير، ففعلت فلما رجعت من غزاتى ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال النبى ﷺ :« **ليس له من غزاته هذه ومن دنياه وآخرته إلا ثلاثة دنانير »** .

وفى «سنن أبى داود »[5]: أن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : يا رسول الله، أخبرنى عن الجهاد والغزو ،فقال : « **يا عبد الله بن عمر، إن قاتلت صابراً محتسبًا بعثك الله صابراً محتسبًا، وإن قاتلت مرائيًا مكاثراً بعثك الله مرائيًا مكاثراً يا عبد الله ابن عمر، على أى حال قاتلت أو قتلت بعثك الله على تلك الحال »** .

---

(١)أخرجه النسائي (٣١٣٨) ، (٣١٣٩) وأحمد (٢٢٧٤٤) ، (٢٢٧٨٠) وعبد الله في زوائده على المسند (٢٢٨٤٠) والدارمي (٢٤١٦) وابن حبان (٤٦٣٨) والحاكم (٢٥٢٢) والبيهقي (١٢٦٨٧) وحسنه الألباني . انظر صحيح سنن النسائي (٢٩٤١).

(٢)أخرجه أبو داود (٢٥٢٧) وأحمد (١٧٩٨٦) والحاكم (٢٥٢٣) والبيهقي في السنن الكبرى (١٢٦٨٥) ، (١٧٦٢٥) والطبراني في الكبير (١٤٦) وحسنه الألباني . انظر صحيح سنن أبي داود (٢١٩٦) .

(٣)سقط من ط و ب .

(٤)في أ ، ب : منبه والمثبت من مصادر التخريج .

(٥)أخرجه أبو داود (٢٥١٩) والحاكم (٢٤٣٧) والبيهقي في السنن الكبرى (١٨٣٢٩) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٦٣٩٧) .

وفى « المسند» و«السنن»(١)، عن أبى أيوب رضى الله عنه، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **إنها ستفتح عليكم الأمصار ،وتضربون فيها بعوثًا، فيكره الرجل منكم البعث، فيخلص من قومه ويعرض نفسه على القبائل يقول : من أكفيه بعث كذا وكذا. إلا وذلك الأجير إلى آخر قطرة من دمه»** .

فانظر محبة الدنيا ،ماذا حرمت هذا الجاهد من الأجر، وأفسدت عليه عمله، وجعلته أول الداخلين إلى النار.

فصل

ورابعها : أن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه فى الآخرة، لاشتغاله عنه بمحبوبه .

والناس هاهنا مراتب :

فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه ، ومنهم من يشغله عن الواجبات التى تجب عليه لله ولخلقه ، فلا يقوم بها ظاهرًا ولا باطنا .

ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات .

ومنهم من يشغله حبها عن واجب يعارض تحصيلها وإن قام بغيره .

ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب فى الوقت الذى ينبغى على الوجه الذى ينبغى ، فيفرط فى وقته وفى حقوقه .

ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه فى الواجب وتفريغه لله عند أدائه ، فيؤديه ظاهرًا لا باطنًا . وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها ؟ هذا من أندرهم .

وأقل درجات حبها أن يشغل عن أعظم سعادة العبد ، وهو تفريغ قلبه لحب الله، ولسانه لذكره ، وجمع قلبه على لسانه ، وجمع لسانه وقلبه على ربه . فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة ولابد ، كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا،وفى هذا حديث قد روى مرفوعًا : « **من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى** » (٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٢٥) وأحمد (٢٣٥٤٧) والبيهقي في السنن الكبرى (١٧٦١٥) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٣٢٥٢) .

(٢) في الكبير (٤٥١) وعبد بن حميد في المنتخب (٥٦٨) والقضاعي في مسند الشهاب (٤١٨) من حديث أبي موسى . وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٥٣٤٠) .

[فصل](١)

وخامسها : أن محبتها تجعلها أكبر هم العبد ، وقد روى « الترمذى»(٢) في جامعه، من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ [ق/ ١٢١أ] : « من كانت الآخرة [أكبر](٣) همه جعل الله غناه فى قلبه ،وجمع له شمله وأتته الدنيا وهى راغمة. ومن كانت الدنيا [أكبر](٤) همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله ،ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له »

وسادسها: أن محبها أشد الناس عذابًا بها ، وهو معذب فى دوره [الثلاث](٥) : يعذب فى الدنيا بتحصيلها ،والسعى فيها ،ومنازعة أهلها ،وفى دار البرزخ بفواتها، والحسرة عليها،وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبدًا ، ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه ،فهذا أشد الناس عذابًا فى قبره ،يعمل الهم والغم والحزن والحسرة فى روحه ما تعمل الديدان وهوام الأرض فى جسمه، كما قال الإمام أحمد(٦): حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، حدثنا عبد الصمد بن معقل، عن وهب بن منبه: أن حزقيل كان ممن سبى بختنصر .

فذكر عنه حديثًا طويلا،وفى آخره قال : « فبينما أنا نائم على شط الفرات ،إذ أتانى ملك ،فأخذ برأسى فاحتملنى حتى وضعنى بقاع من الأرض ، قد كانت معرك،قال : وإذا فيه عشرة آلاف قتيل قد بددت الطير والسباع لحومهم وفرقت أوصالهم، قال لى: إن قومًا يزعمون أن من مات منهم أو قتل فقد انفلت منى وذهبت عنه قدرتى فادعهم. قال حزقيل: فدعوتهم فإذا كل عظم قد أقبل إلى مفصله الذى انقطع منه،ما الرجل بصاحبه بأعرف من العظم بمفصله الذى فارقه ،حتى أم بعضها بعظائم نبت عليها اللحم ،ثم نبتت عليها العروق ، ثم انبسطت الجلود وأنا أنظر إلى ذلك. ثم قال : ادع أرواحهم قال : فدعوتها ،فإذا كل روح قد أقبل إلى جسده الذى فارق ،فلما جلسوا سألتهم :فيم كنتم ؟ قالوا : إنا لما متنا وفارقنا الحياة لقينا ملك فقال : هلموا أعمالكم،وخذوا أجوركم ، كذلك سنتنا فيكم وفيمن كان قبلكم وفيمن هو كائن بعدكم. قال : فنظر فى أعمالنا فوجدنا نعبد الأوثان،فسلط الدود على أجسادنا وجعلت الأرواح تألمه، وسلط الغم على أرواحنا وجعلت أجسادنا

---

(١) سقط من ط و ب .
(٢) تقدم تخريجه .
(٣) سقط من أ .
(٤) سقط من أ .
(٥) في أ : الثلاثة .
(٦) أخرجه في الزهد (ص/ ٨١، ٨٢) .

تأله ،فلم نزل كذلك نعذب حتى دعوتنا . ولا يستريح عاشق الدنيا .

فقولهم: كنا نعبد الأوثان فسيان عبادة الأثمان وعبادة الأوثان: تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم .

والمقصود أن محب الدنيا يعذب فى قبره ويعذب يوم لقاء ربه .

قال تعالى : ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة : ٥٥] .

قال بعض السلف: يعذبهم بجمعها ، وتزهق أنفسهم بحبها،وهم كافرون بمنع حق الله فيها .

فصل

وسابعها :أن عاشقها ومحبها الذى يؤثرها على الآخرة، من أسفه الخلق وأقلهم عقلاً، إذ آثر الخيال على الحقيقة ، والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم [الدائم][١]،والدار الفانية على الدار الباقية ،وباع حياة الأبد فى أرغد عيش بحياة إنما هى أحلام نوم أو كظل زائل .إن اللبيب بمثلها لا يخدع ،كما نزل أعرابى بقوم، فقدموا له طعامًا فأكل، ثم قام إلى ظل خيمة فنام، فاقتلعوا الخيمة فأصابته الشمس فانتبه ، وهو يقول:

وإن امرؤ دنياه أكبر همه ... لمستمسك منها بحبل غرور

وكان بعض السلف يتمثل بهذا البيت:

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها ... إن اغترارًا بظل زائل حمق

قال يونس بن عبد الأعلى :ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى فى منامه ما يكره وما يحب ،فبينما هو كذلك انتبه [٢].

وقال ابن أبى الدنيا [٣] :حدثنى أبو على الطائى، حدثنا عبد الرحمن المحاربي عن ليث،قال : رأى عيسى ابن مريم الدنيا فى صورة عجوز عليها من كل زينة ، فقال [لها][٤]: كم تزوجت؟ قالت :لا أحصيهم. قال : فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك؟ قالت : بل كلهم قتلته .فقال عيسى : بؤسًا لأزواجك الباقين ،كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين؟! تهلكينهم واحدًا واحدًا ولا يكونون منك على حذر !

---

(١) في أ : المقيم .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٤٩) بنحوه .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٧) .

(٤) سقط من أ .

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها ... على أنهم فيها عراة وجوّع
أراها وإن كانت تحب فإنها ... سحابة صيف عن قليل تقشّع[ق/ ١٢٢أ]

[أشبه الأشياء بالدنيا][1] الظل، تحسب له حقيقة ثابتة [وتحسبه ساكنا][2] وهو فى تقلص وانقباض، فتتبعه لتدركه فلا تلحقه .وأشبه الأشياء بها السراب ، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ،ووجد الله عنده فوفاه حسابه ،والله سريع الحساب . وأشبه الأشياء بها المنام، يرى فيه العبد ما يحب وما يكره ،فإذا استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة له .

وأشبه الأشياء بها امرأة عجوز شوهاء قبيحة المنظر والمخبر ،غرارة بالأزواج، تزينت للخطاب بكل زينة وسترت كل قبيح، فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها فطلب النكاح،فقالت: لا مهر إلا نقد الآخرة،فإننا ضرتان واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح ،فآثر الخطاب العاجلة ، وقالوا:ما على من وصل حبيبته من جناح . فلما كشف قناعها ، وحل إزارها ،إذا كل آفة وبلية ،فمنهم من طلق واستراح ،ومنهم من اختار المقام، فما استتمت ليلة عرسه إلا بالعويل والصياح . تالله لقد أذن مؤذنها على رؤوس الخلائق بحي على غير الفلاح، فقام المجتهدون والمسلمون لها، [فواصلوا] [3] فى طلبها الغدو بالرواح ،وسرى القوم ليلهم فلم يحمد القوم السرى عند الصباح ،طاروا فى صيدها فما رجع أحد منهم إلا وهو مكسور الجناح، فوقعوا فى شبكتها فأسلمتهم للذباح .

قال ابن أبى الدنيا [4] :حدثنا محمد بن على بن شقيق ، حدثنا إبراهيم بن الأشعث، قال : سمعت الفضيل بن عياض، قال : قال ابن عباس رضى الله عنهما: **يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء ،زرقاء أنيابها بادية ،مشوه خلقها، فتشرف على الخلائق ،فيقال : أتعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه ،فيقال : هذه الدنيا التى تشاجرتم عليها ،بها تقاطعتم الأرحام ،وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم. ثم يقذف بها فى جهنم فتنادى : يا رب أين أتباعى وأشياعى؟ فيقول الله عزوجل: ألحقوا بها أتباعها وأشياعها .**

قال ابن أبى الدنيا[5] : وحدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا روح بن عبادة ،

---

(١) في أ : أشبه شيء في الدنيا .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) في ب : فواصلوها .
(٤) أخرجه في ذم الدنيا (١٢٣) .
(٥) أخرجه في ذم الدنيا (١٢٨) وأخرجه أحمد في الزهد (ص/ ٢٥٥) .

حدثنا عوف [عن أوفى][١] ، عن أبى العلاء ،قال : «رأيت فى النوم عجوزًا كبيرة ، عليهـا من كل زينة الدنيا، والناس عكوف عليـها متـعجبـون ينظرون إليها ،فـجئت فنظرت، فتـعجـبت من نظرهم إليها وإقـبالهم عليـها ،فقلت لهـا: ويلك من أنت؟ قالت: أما تعرفنى؟ قلت: لا .قالت: أنا الدنيا. قال : قلت: أعوذ بالله من شرك . قالت : فإن أحببت أن تعاذ من شرى فابغض الدرهم» .

قال ابن أبي الدنيا[٢] : حدثنى إبراهيم بن سـعيد الجوهرى، حدثنا سـفيان بن عيـينة، قال: قـال لى أبو بكر بن عيـاش: «رأيت الدنيا فى النوم عـجوزًا مـشوهة، شمطاء، تصفق بيـديها ، وخلفها خلق يتبعـونها ،ويصفقون ويرقصـون، فلما كانت بحذائى أقبـلت على فقالت: لو ظفرت بك صنعت بك مـا صنعت بهؤلاء. ثم بكى أبو بكر».

قال[٣] : وحدثنا محـمد بن على، حدثنا إبراهيم بن الأشعث، قـال : سمعت الفضيل، قال : بلغنى أن رجلا عرج بروحه [قال][٤] : فإذا امرأة على قارعة الطريق عليها من كل زينة الحلى [والثياب][٥] ، وإذا هى لا يمر بها أحد إلا جرحته، وإذا هى أدبرت كـانت أحسن شيء رآه الناس، وإذا أقبلت أقـبح شىء عجـوز شمطـاء زرقاء عمـشاء ،فقلت: أعـوذ بالله. قالت: لا والله لا يعـيذك الله حتـى تبغض الدرهم. قال: قلت: من أنت؟ قالت: أنا الدنيا .

ووصف على رضى الله عنه الدنيا، فقال : «دار من صح فيها سقم، [ومن سقم فيها ندم][٦] ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها فتن ،فى حلالها الحساب ، وفى حرامها النار»[٧] .

وقال ابن مسعود رضـى الله عنه: الدنيا دار من لا دار له ،ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»[٨] .

وذكر ابن أبى الدنيا[٩] :« أن الحسن كتب إلى عـمر بن عبد العـزيز: أما بعد،

(١) سقط من أ ، ب وأثبتناه من مصادر التخريج .
(٢) أخرجه في ذم الدنيا (٢٩) ، (٣٠) .
(٣) أخرجه في ذم الدنيا (١٢٤) .
(٤) سقط من ط و ب .
(٥) سقط من أ .
(٦) سقط من أ .
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١٨) .
(٨) أخرجه أحمد في الزهد (ص/ ١٦١) وابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١٦) .
(٩) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٣٤ـ ١٤٣) .

فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة ،وإنما أنزل ابن آدم إليها عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها ،والغناء فيها فقرها ،لها فى كل [حال][(١)] قتيل، تذل من أعزها، وتفقر من جمعها. وهى كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه .فكن فيها كالمداوي جراحاته ،يحتمى قليلا مخافة ما يكره طويلا ،ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء. فاحذر هذه [ق/١٢٣أ] الدار الغرارة الخيالة الخداعة ،التى قد تزينت بخدعها، وفتنت بغرورها، وخيلت بآمالها، وتشوقت لخطابها ،فأصبحت كالعروس المجلوة ،فالعيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة،وهى لأزواجها كلهم قاتلة، فلا الباقى بالماضى معتبر، ولا الآخر بالأول مزدجر، والعارف بالله تعالى له حين أخبره عنها مدكر، فالعاشق لها قد ظفر منها بحاجته، فاغتر وطغى ونسى المعاد، فشغل فيها لبه حتى زلت عنها قدمه، فعظمت ندامته، وكبرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وأله، وحسرات الفوت ونغصه، فذهب منها فى كمد، ولم يدرك منها ما طلب، ولم يرح نفسه من التعب، فخرج بغير زاد. وقدم على غير مهاد ،فاحذرها يا أمير المؤمنين ،وأسر ما يكون فيها أحذر ما يكون لها ،فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، السار فيها غذاء ضار .وقد وصل الرخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى فناء، فسرورها مشوب بالحزن يرجع منها ما ولى فأدبر، ولا يدرى ما هو آت فينتظر، أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر ، وعيشها نكد .فلو كان الخالق لها لم يخبر عنها خبرًا، ولم يضرب لها مثلا، لكانت قد أيقظت النائم ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر، وفيها واعظ ،فما لها عند الله عز وجل قدر ولا وزن، وما نظر إليها منذ خلقها. ولقد عرضت على نبينا ﷺ بمفاتيحها وخزائنها لا تنقصه عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها، وكره أن يحب ما أبغض الله خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه. فزواها عن الصالحين اختيارًا ،وبسطها لأعدائه اغترارًا ،فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها، ونسى ما صنع الله لمحمد ﷺ حين شد الحجر على بطنه.

وقال الحسن أيضًا : ابن آدم، لا تعلق قلبك فى الدنيا فتعلقه بشر معلق، اقطع حبالها وغلق أبوابها. حسبك يا بن آدم منها ما يبلغك المحل[(٢)] .

---

(١) في أ : حين .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٤٠٥) .

وكان يقول: إن قـومًا أكرموا الدنيا فـصلبتهم على الخشب ، فأهـينوها فأهنًا ما تكون إذا أهنتـمـوها، هيهـات هيـهات، ذهبت الدنـيا وبقـيت الأعـمال قـلائد فى الأعناق [١] .

وقال المسيـح عليه السلام :لا تتخـذوا الدنيا ربًا فتتـخذكم عبيـدًا واعبروها ولا تعمروها، واعلموا أن أصل كل خطيئـة حب الدنيا ، ورب شهوة أورثت أهلها حزنًا طويلا. مـا سكنت الدنيا فى قلب عـبد إلا التـاط قلبه منهـا بثلاثة :شـغل لا ينفك عناؤه، وفقـر لا يدرك غناؤه ، وأمل لا يدرك منتهـاه. الدنيا طالبـة مطلوبة، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فتأخذ بعنقه . يا معشر الحـواريين ، ارضوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدين. كما رضى أهل الدنيا بدنيء الدين مع سلامة الدنيا [٢] .

وقال ابن أبى الـدنيا [٣] :حـدثنا هارون بن عبـد الله ،حـدثنا سـيار، حـدثنا جعفر،حـدثنا مالك بن دينار، قال : قال أبو هريرة ﷺ: الدنيا موقوفـة بين السماء والأرض منذ خلقـها الله تعالـى إلى يوم يفنيها ،تـنادى ربها: يا رب لم تبـغضنى؟ فيقول: اسكتى يا لا شىء ،اسكتى يا لا شىء .

وقال الفضيل: «تجىء الدنيا يوم القيامة، فتتبختر فى زينتها ونضرتها، فتقول: يا رب اجعلنى لأحسن عبادك دارًا . فيقول: لا أرضاك له، أنت لا شىء، فكونى هباء منثورًا»[٤] .

(فصل)

فى ذكر أمثلة تبين حقيقة الدنيا

المثال الأول: للعبـد ثلاثة أحوال :حـالة لم يكن فيـها شيـئًا، وهى مـا قبل أن يوجد. وحالة أخـرى وهى من ساعة موته إلى مـا لا نهاية له فى البقاء أكـثر مدى، فلنفســه وجود بعد خروجـها من البدن إما فى الجنة وإمـا فى النار، ثم تعاد إلى بدنه فيجازى بعمله ،ويسكن إحدى الدارين فى خلود دائم.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٤٠٥) .
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٣١) ، (٣٣) ، (٣٥) ، (٤٤٩) .
(٣) أخرجه في ذم الدنيا (٣٦٠) .
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١٢٥) .

ثم بين هاتين الحالتين،[ق/ ١٢٤أ] [وهى ما بعد وجوده وما قبل موته] (١)، حالة متوسطة وهى أيام حياته [في الدنيا] (٢) فانظر إلى مقدار [زمانها وأنسبه إلى الحالتين، يعلم أنه أقل من طرفة عين فى مقدار] (٣) عمر الدنيا .

ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها، ولم يبال كيف تقضت أيامه فيها فى ضر وضيق أو فى سعه ورفاهية .

ولهذا لم يضع رسول الله ﷺ لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة، وقال : **«ما لى وللدنيا إنما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب قال فى ظل شجرة ثم راح وتركها »** (٤).

وقال : **«ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر[بم](٥) يرجع »** (٦) .

وإلى هذا أشار المسيح عليه السلام بقوله: «الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها».

وهذا مثل صحيح، فإن الحياة معبر إلى الآخرة، والمهد هو الركن الأول على أول القنطرة ،واللحد هو الركن الثانى على آخرها ،ومن الناس من قطع نصف القنطرة، ومنهم من قطع ثلثيها ،ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها، وكيفما كان فلا بد من العبور، فمن وقف يبنى على القنطرة، ويزينها، بأصناف الزينة، وهو يستحث العبور، فهو فى غاية الجهل والحمق.

(فصل)

المثال الثانى : شهوات الدنيا فى القلب كشهوات الأطعمة فى المعدة، وسوف يجد العبد عند الموت لشهوات الدنيا فى قلبه من الكراهة والنتن والقبح ما يجده للأطعمة اللذيذة إذا انتهت فى المعدة غايتها . وكما أن الأطعمة كلما كانت ألذ طعمًا وأكثر دسماً وأكثر حلاوة كان رجيعها أقذر ،فكذلك كل شهوة كانت فى النفس ألذ وأقوى، فالتأذى بها عند الموت أشد، كما أن تفجع الإنسان بمحبوبه إذا فقده يقوى بقدر محبة المحبوب .

وفى المسند (٧): أن النبى قال : للضحاك بن سفيان: **« ألست تؤتى بطعامك وقد**

---

(١) في أ : وهي ما قبل وجوده وما بعد موته .
(٢) سقط من ط و ب .
(٣) سقط من أ .
(٤) تقدم تخريجه .
(٥) في ب : بما .
(٦) تقدم تخريجه .
(٧) أخرجه أحمد (١٥٧٨٥) والطبراني في الكبير (١٨١٣٨) وقال في تخريج أحاديث الإحياء : فيه عليّ بن زيد ابن جدعان مختلف فيه . وحسنه الألباني . انظر صحيح الجامع (١٧٣٩) .

ملح وقزح ،ثم تشرب عليه الماء واللبن؟ قال : بلى، قال : فإلام يصير؟ قال : إلى ما قد علمت ،قـال : فإن الله عزوجل ضرب مثل الدنيا لما يصـير إليه طعام ابن آدم» كان بعض السلف يقول لأصحابه: انطلقـوا حتى أريكم الدنيا ،فيذهب بهم إلى مزبلة، فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم .

(فصل)

المثال الثالث: لها ولأهلها فى اشـتغالهم بنعيـمها عن الآخرة، وما يعـقبهم من الحسرات: مـثل أهلها فى غفلتهم مثل قـوم ركبوا سفينة، فـانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاح بالخـروج لقضاء الحاجـة، وحذرهم الإبطاء ،وخوفهم مـرور السفينة، فتفرقوا فى نواحى الجزيرة، فقضى بعضـهم حاجته وبادر إلى السفينة ،فصادف المكان خاليًا، فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده .

[ووقف][1] بعضـهم فى الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العـجيبـة ،ويسمع نغمات طيـورها ،ويعجبه حـسن أحجارها، ثم حدثته نفـسه بفوت السفـينة وسرعة مرورها وخطر ذهابها ،فلم يصادف إلا مكانًا ضيقًا فجلس فيه.

وأكب بعضهم على تلك الحجارة المستحـسنة والأزهار الفائقة فحمل منها حمله، فلما جاء لم يجد فى السفينة إلا مكاناً ضيقاً ،وزاده حمله ضيقًا ،فصار محموله ثقلا عليه ووبالاً، ولم يقدر على نبذه، بل لم يجد مـن حمله بدًا ولم يجد له فى السفينة موضعًا ،فحمله على عنقـه، وندم على أخذه ،فلم تنفعه الندامة ،ثم ذبلت الأزهار، وتغيرت أريجها ،وآذاه نتنها.

وتولج بعـضهم فى تلك الغـياض، ونسى السفـينة، وأبعد فى تنـزهه، حتى أن الملاح نادى بالناس عند دفع السـفينة فلم يبلغـه صوته لاشـتغـاله بملاهيه ،فـهو تارة يتناول من الثمـر، وتارة يشم تلك الأنوار ،وتارة يعجب من حسن الأشـجار ، وهو على ذلك خائف من سبع يخـرج عليه ، غير منفك من شوك يتشـبث بثيابه ويدخل فى قـدميـه [ق/١٢٥أ] ، أو غصن يـجرح بدنه ، أو عـوسج يخـرق ثيابه ويهـتك عورته،أو صوت هائل يفـزعه ، ثم من هؤلاء من لحق السفينة ولم يبق فيـها موضع فمات على الساحل . ومنهم من شغله لهوه فافترسته السباع ونهشته الحيات . ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك .

---

(١) في أ : وتوقف .

فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ، ونسيانهم موردهم وعاقبة أمرهم . وما أقبح بالعاقل أن تغره أحجار ونبات يصير هشيمًا قد شغل باله وعوقه عن نجاته ولم يصحبه .

(فصل)

المثال الرابع : لاغترار الناس بالدنيا وضعف إيمانهم بالآخرة :

قال ابن أبى الدنيا(١) : حدثنا إسحاق بن إسماعيل ، وحدثنا روح بن عبادة ، حدثنا هشام بن حسان ، عن الحسن، قال : بلغى أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « **إنما مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء ، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أم ما بقى، أنفدوا الزاد ، وحسروا الظهر ، وبقوا بين ظهرانى المفازة ، لا زاد ولا حمولة ، فأيقنوا بالهلكة . فبينما هم كذلك ، إذ خرج عليهم رجل فى حلة يقطر رأسه ، فقالوا : إن هذا قريب عهد بريف ، وما جاءكم هذا إلا من قريب . فلما انتهى إليهم قال : يا هؤلاء علام أنتم ؟ قالوا: على ما ترى . قال : أرأيتم إن هديتكم على ماء رواء ورياض خضر ، ما تجعلوا لى؟ قالوا : لا نعصيك شيئًا . قال : عهودكم ومواثيقكم بالله . قال : فأعطوا عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئًا . قال : فأوردهم ماء ورياضًا خضراء . قال : فمكث فيهم ما شاء الله ثم قال: يا هؤلاء الرحيل : قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى ماء ليس كمائكم وإلى رياض ليست كرياضكم. قال : فقال جل القوم وهم أكثرهم : والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده ، وما نصنع بعيش هو خير من هذا ؟ قال : وقالت طائفة وهم أقلهم : ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه شيئًا ، وقد صدقكم فى أول حديثه ، فوالله ليصدقنكم فى آخره قال : فراح فيمن اتبعه وتخلف بقيتهم ، فبادرهم عدوهم فأصبحوا بين أسير وقتيل** » .

(فصل)

المثال الخامس للدنيا وأهلها : ما مثلها به النبى ﷺ كظل شجرة ، والمرء مسافر فيها إلى الله ، فاستظل فى ظل تلك الشجرة فى يوم صائف، ثم راح وتركها (٢) .

فتأمل حسن هذا [المثال](٣) ، ومطابقته للواقع سواء ، فإنها فى خضرتها كشجرة ، وفى سرعة انقضائها وقبضها شيئًا فشيئًا كالظل ، والعبد مسافر إلى ربه ،

(١) أخرجه في ذم الدنيا (٨٨) وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٥٠٧) .
(٢) تقدم تخريجه .   (٣) في أ : المثل .

والمسافـر إذا رأى شجرة فى يوم صائف لا يحـسن به أن يبنى تحتها داراً ولا يتـخذها قراراً ، بل يستظل بها بقدر الحاجة، ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق.

(فصل)

المثال السادس: تمثيله لها ﷺ فىمدخل أصبعه فى اليم[١] فالذى يرجع به أصبعه من البحر هو مثل الدنيا بالنسبة إلى الآخرة .

وهذا أيضًا من أحسن الأمثال، فإن الدنيا منقطعة فانية، ولو كانت مدتها أكثر مما هى ،والآخرة أبدية لا انقطـاع لها ،ولا نسبـة للمحصـور إلى غير المحـصور بل لو فرض أن السـموات والأرض مملوءتان خردلا، وبعد كل ألـف سنة طائر ينقل خردلة لفنى الخردل ،والآخـرة لا تفنى .فنسبة الدنيا إلى الآخـرة فى التمثيل،كنسـبة خردلة واحدة إلى ذلك الخردل .

ولهذا لو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر وأشجار الأرض كلها أقلام يكتب بها كلام الله ،لنفـدت الأبحر والأقلام،ولم تنفـد كلمات الله؛ لأنهـا لا بداية لها، ولا نهاية لها، والأبحر والأقلام متناهية .

قال الإمام أحمـد وغيره : لم يزل الله متكلمًا إذا شاء ،وكمـاله المقدس مقتض لكلامه، وكـماله من لوازم ذاته فـلا يكون إلا كاملا، والمتكلم أكـمل ممن لا يتكلم. وهو سبحانه [لم][٢] يلحقه كلل ولا تعب ولا سآمة من الكلام. وهو يخلق ويدبر خلقه بكلماته، فكلماته هى التى أوجد بها خلقه وأمـره .وذلك حقيقة ملكه وربوبيته وإلهيته. وهو لا يكون [ق/ ١٢٦أ] إلا ربًا ملكًا إلهًا لا إله إلا هو.

والمقصود أن الدنيا نفس من أنفاس الآخرة ،وساعة من ساعاتها .

(فصل)

المثال السابع: ما مـثلها به ﷺ فى الحديث المتـفق على صحتـه من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قـام رسول الله ﷺ :فخطب الناس فقال : « **لا والله ما أخـشى عليكم إلا ما يخرج الله لـكم من زهرة الدنيا**. فقـال رجل: يا رسول الله ، أو يأتى الخير بالشر؟ فـصمت رسول الله ﷺ ثم قال: **كيف قلت؟** قال : يا رسول الله ، أو يأتى الخير بالشر؟ فقال رسول الله ﷺ : **إن الخير لا يأتى إلا بالخير، وإن مما ينبت الربيع مـا يقـتل حبطـا أو يلم، إلا آكلة الخضـر أكلت حـتى إذا امتـلأت**

---

(١)تقدم تخريجه . (٢)فى أ : لا .

خاصرتاها، استقبلت الشمس فثلطت وبالت، ثم اجترت فعادت فأكلت .فمن أخذ مالا بحقه بورك له فيه، ومن أخذ مالا بغير حقه فمثله كمثل الذى يأكل ولا يشبع»[١] .

فأخبر ﷺ أنه إنما يخاف عليهم الدنيا، وسماها زهرة تشبيهاً [بالزهر][٢] فى طيب رائحته وحسن منظره وقله [بقائه][٣] ، وأن وراءه ثمرًا خيرًا وأبقى منه .

وقوله: « **إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم**»، هذا من أحسن التمثيل المتضمن للتحذير من الدنيا والانهماك عليها والمسرة فيها ،وذلك أن الماشية يروقها نبت الربيع، فتأكل منها بأعينها ،فربما هلكت حبطًا ،والحبط: انتفاخ بطن الدابة من الامتلاء أو من المرض يقال :حبط الرجل والدابة تحبط حبطًا : إذا أصابه ذلك .

ولما أصاب الحارث بن مازن ابن عمرو بن تميم ذلك فى سفره ،فمات حبطًا فنسب إليه الحبطى كما يقال السلمى.

فكذلك الشره فى المال يقتله شرهه وحرصه .فإن لم يقتله قارب أن يقتله. وهو قوله:« أو يلم». وكثير من أرباب الأموال، إنما قتلتهم أموالهم، فإنهم شرهوا فى جمعها واحتاج إليها غيرهم، فلم يصلوا إليها إلا بقتلهم أو ما يقاربه من إذلالهم وقهرهم.

وقوله: « إلا آكلة الخضر » .هذا تمثيل لمن أخذ من الدنيا حاجته، مثله بالشاة الآكلة من الخضر بقدر حاجتها : أكلت حتى إذا امتلأت خاصرتاها . وفى لفظ آخر: امتدت خاصرتاها ، وإنما تمتد من امتلائها من الطعام. وثنى الخاصرتين لأنهما جانبا البطن.

وفى قوله : « استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت» ، ثلاث فوائد:

إحداها : إنها لما أخذت حاجتها من الرعى، تركته وبركت مستقبلة الشمس، لتستمرئ بذلك ما أكلته.

الثانية : إنها أعرضت عما يضرها من الشره فى الرعى ،وأقبلت على ما ينفعها من استقبال الشمس ،التى يحصل لها بحرارتها إنضاج ما أكلته وإخراجه.

الثالثة : أنها استفرغت بالبول والثلط ما جمعته من الرعى فى بطنها، فاستراحت

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٢٧) ومسلم (١٠٥٢) .
(٢) في أ : بهذا الزهر . (٣) في أ : مقامة .

بإخراجه، ولو بقى فيـها لقتلها . فكذلك جامع المال مصلحته أن يفـعل به كما فعلت هذه الشاة .

وأول الحديث : « مثل للشـره فى جمع الدنيا الحريص على تحصيلهـا» ، فمثاله مثـال الدابة التى حملها شـره الأكل على أن يقتلها حـبطا أو ألم بقتلها، فـإن الشره الحريص إما هالك وإمـا قريب من الهلاك . فإن الربيع ينبت أنواع البـقول والعشب، فتـستكثر منه الدابة حـتى ينتفخ بطنها، لما جـاوزت حد الاحتـمال، فتنشق أمـعاؤها وتهلك. كذلك الذى يجمع الدنيا من غير حلها ،ويحبسه أو يصرفه فى غير حقها.

وآخر الحديث : مثل للمقتصد بآكل الخضر الذى تنتفع الدابة بأكله، ولم يحملها شرههـا وحرصها على تناولهـا منه فوق ما تحتـمله، بل أكلت بقدر حاجتـها وهكذا .هذا أخذ مـا يحتاج إليه ثم أقـبل على ما ينفعـه. وضرب بول الدابة وثلطها مـثلا لإخراجه المال فى حقه ،حـيث يكون حبسه وإمساكه مضرًا بـه. فنجا من وبال جمعه بأخذ قدر حاجـته منه ، ونجا من وبال إمساكه بإخراجـه، كما نجت الدابة من الهلاك بالبول والثلط .

وفى هذا الحـديث إشارة إلى الاعـتـدال والتوسط بين الشـره فى الرعى القـاتل بكثرته،وبين الإعراض عنه وتركه بالكلية فتهلك جوعًا .

وتضمن الخبـر أيضًا إرشاد المكثر من المال إلى مـا يحفظ عليه قوته وصـحته فى بدنه وقلبه ،وهو الإخراج منه وإنفاقـه ، ولا يحبسه فيضره حبـسه. وبالله التوفيق . [ق/١٢٧]

(فصل)

المثال الثامن : ما رواه عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن سليمان بن يسار ، عن ميمونة ﵂، قالت : قال رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص: « **الدنيا خضرة حلوة ، فمن اتقى الله فيها وأصلح ، وإلا فهـو كالآكل ولا يشبع . وبين الناس فى ذلك كبعد الكوكبين: أحدهما يطلع فى المشرق والآخر يغيب فى المغرب** » [(١)] .

فنبه بخضرتها على استحسان العيون لها، وبحلاوتها على استحلاء الصدور لها، وبتلك الخضرة والحلاوة زينت لأهلـها وحببت إليهم ، لاسيمـا وهم مخلوقون منها

(١) أخرجه أبو يـعلي في مسنده (٧٠٩٩) . قال الهيـثمي : فيه المثنى بن الصـباح وهو ضعيف . انظـر مجمع الزوائد (١٠/ ٤٣٠) .

وفيها ، كما قيل :

نحب بني الدنيا ومنها نباتنا وما أنت منه فهو شيء محبب

وجعل الناس فيها قسمين :

أحدهما : منفق مصلح متقى ، فهذا تقواه وإصلاحه لا يدعانه ينهمك عليها ويشره فيها ويأخذها من غير حلها ويضعها في غير حقها ، فإن لم ينفق ويصلح صرف نهمته وقواه وحرصه إلى تحصيلها ، فكان كالذي يأكل ولا يشبع .

وهذا من أحسن الأمثلة ، فإن المقصود من الأكل حفظ الصحة والقوة ، وذلك تابع لقدر الحاجة ، وليس المقصود منه ذاته ونفسه . فمن جعل نهمته فوق مقصوده لم يشبع . ولهذا قال الإمام أحمد : الدنيا قليلها يجزى وكثيرها لا يجزى .

وأخبر عن تفاوت الناس في المنزلتين ـ أعنى منزلة التقوى والإصلاح ، ومنزلة الأكل والشره – وأن بين الرجلين في ذلك كما بين الكوكبين الغارب في الأفق والطالع منه ، وبين ذلك منازل متفاوتة .

(فصل)

المثال التاسع : ما تقدم من حديث المستورد بن شداد قال : كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة . فقال رسول الله ﷺ : « **أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها ؟** » قالوا : ومن هوانها ألقوها يا رسول الله ؟ قال : **فوالذى نفس محمد بيده للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها** »[1] قال : الترمذى : حديث حسن صحيح .

فلم يقتصر ﷺ على تمثيلها بالسخلة الميتة ، بل جعلها أهون على الله منها .

وفي مسند الإمام أحمد[2] في هذا الحديث : « **فوالذى نفسى بيده للدنيا عند الله أهون عليه من تلك السخلة على أهلها** » ؛ فأكد ذلك بالقسم الصادق . فإذا كان مثلها عند الله أهون وأحقر من سخلة ميتة على أهلها ، فمحبها وعاشقها أهون على الله من تلك السخلة ، وكونها سخلة أهون عليهم من كونها شاة كبيرة ؛ لأن تلك ربما انتفعوا بصوفها أو دبغوا جلدها ، وأما ولد شاة صغيرة ميت ففي غاية الهوان . فالله المستعان .

---

(١) تقدم تخريجه . (٢) تقدم تخريجه .

(فصل)

المثـال العاشـر : مـثلها مـثل البحـر ، الذى لا بدل للخلق كلهم من ركـوبه ، ليقطعوه إلى الساحل الذى فيه دورهم وأوطـانهم ومستقرهم ، ولا يمكن قطعه إلا فى سفينة النجاة ، فـأرسل الله رسله لتعرف الأمم اتخاذ سفن النجاة ، وتـأمرهم بعملها وركـوبهـا ، وهى : طاعتـه [عـز وجل][١] ، وطاعـة رسله ، وعـبادته وحـده ، وإخلاص العـمل له ، والتشـميـر للآخرة وإرادتها ، والسـعى لها سـعيهـا . فنهض الموفقون وركبـوا السفينة ، ورغبوا عن خوض البحـر ، لما علموا أنه لا يقطع خوضًا ولا سباحة .

وأما الحمقى فاسـتصعبوا عمل السفينة وآلاتها والركوب فـيها ، وقالوا: نخوض البحـر ، فإذا عجزنا قطعناه سـباحة ، وهم أهل الدنيا فـخاضوه، فلما عـجزوا عن الخوض أخذوا فى السباحة حتى أدركهم الغـرق . ونجا أصحاب السفينة كما نجوا مع نوح عليه السلام ، وغرق أهل الأرض .

[ق / ١٢٧]أ فتأمل [هذا المثل][٢] ، وحال أهل الدنيا فيهـا ، يتبين لك مطابقته للواقع . وقد ضرب هذا المثل للدنيا والآخرة والقـدر والأمر ، فإن القدر بحر والأمر فيه سفينة لا ينجو إلا من ركبها.

(فصل)

المثال الحادي عشر : مثالها مثال إناء مملوء عـسلا ، [رآه الذباب ، فأقبل نحوه ، فبعضه][٣] قعد على حـافة الإناء ، وجعل يتناول من العسل حتى أخذ حـاجته ثم طار ، [وبعضه][٤] حمله الشـره على أن رمى بنفسه فـى لجة الإناء ووسطه ، فلم [يدعه][٥] انغماسه فيه أن يتهنأ [به][٦] إلا قليلا حتى هلك فى وسطه .

(فصل)

المثال الثانى عشر : مثال حب قد نثر على وجـه الأرض ، وجعلت كل حبة فى فخ ، وجعل حول ذلك الحب حب ليس فى فخاخ ، فجاءت الطير ، فمنها من قنع بالجوانب [ق/١٢٨أ] ولم يرم نفسه فى وسط الحب فأخذ حاجته ومضى ، ومنها من حمله الشـره على اقتحام معظم الحب ووسـطه فما استتم اللقـاط إلا وهو يصيح من

(١) زيادة من أ .
(٢) في أ : هذه الدنيا .
(٣) في أ : رآته الذباب فأقبلت نحوه فبعضها .
(٤) في أ : وبعضها .
(٥) في أ : يدعها .
(٦) في أ : بها .

أخذة الفخ له .

(فصل)

المثال الثـالث عشر : كمثل رجل أوقـد نارًا عظيمة ، فجـعلت الفراش والجنادب يرون ضوءها فـيقـصدونها ويتـهافتـون فيهـا ، ومن له علم بحالهـا جعل يسـتضىء ويستدفئ بها من بعيد .

وقـد أشـار النبى ﷺ إلـى هذا المثل بعـينه فى الحـديـث الذى رواه مـالك بن إسماعيل، عن حفص بن حمـيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ؤ، عن عمر رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « **إنى ممسك بحجزكم النار وتتقاحـمون فيها تقاحم الفراش والجنادب ويوشك أن أرسل بحجزكم** »(١) .

وفى لفظ آخر : « **مثلى ومثلكم كـمثل رجل اسـتوقد نـارًا ، فلما أضـاءت ما حوله، جعلت الفراش والجنادب يـتقاحمن فيها ، فأنا آخـذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تغلبونى وتقاحمون فيها** »(٢) .

وهذا المثال منطبق على أهل الدنيا المنهمكين فيها ، فالرسل تدعوهم إلى الآخر، وهم يتقاحمون فى الدنيا تقاحم الفراش .

(فصل)

المثال الرابع عـشر : مثل قـوم خرجوا فى سفـر بأموالهم وأهليهم ، فـمروا بواد مشعب كثير المياه والفواكه ، فنزلوا به وضربوا خيمهم، وبنوا هنالك الدور والقصور، فمر بهم رجل يعرفون نصحه وصدقـه وأمانته ، فقال :إنى رأيت بعينى هاتين الجيش خلف هذا الوادى وهو قاصدكم ، فاتبعونى أسلك بكم على غير طريق العدو فتنجوا منه . فأطاعته طائفـة قليلة ، فصاح فيهم: يا قوم النجاة النجـاة أتيتم أتيتم ، وصاح السامـعون له بأهليهم وأولادهم وعـشائرهم ، فقـالوا : كيف نرحل من هذا الوادى وفيـه مواشينا وأمـوالنا ودورنا وقد استـوطناه ؟ فقال لهم النـاصح : لينج كل واحد منكم بنفسه وبما خف عليـه من متاعه، وإلا فهـو مأخوذ وماله مجتـاح .فثقل على أصحاب الجد والأموال ورؤسـاء القوم النقلة ومفارقة ما هم فيـه من النعيم والرفاهية والدعة ، وقال كـل أحمق : لى أسوة بالقاعـدين، فهم أكثر منى مـالا وأهلا ، فما

---

(١) أخرجه البزار في البحر الزخار (٢٠٤) وحسنه الألباني . انظر ضعيف الترغيب والترهيب (٧٩٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه .

أصابهم أصابني معهم ، ونهض الأقلون مع الناصح ، ففازوا بالنجاة ،وصبح الجيش أهل الوادي فقتلهم واجتاح أموالهم .

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المثل بعينه في الحديث المتفق على صحته من حديث أبي بردة عن أبي موسى [رضي الله عنه][1] عن النبي ﷺ قال: « **إنما مثلي ومثل ما بعثني الله بـه كمثل رجل أتى قـومه فقـال: يا قوم إني رأيت الجيش بعـيني وأنا النذير العريان فـالنجاة النجاة فـأطاعه طائفة من قـومه فأدلجـوا وانطلقوا على مـهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فـأصبحوا مكانهم فصـبحهم الجيش فأهلكهم واجتـاحهم فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق**» [2].

(فصل)

المثال الخامس عشر : رجل هيأ دارًا وزينها، ووضع فيها من جميع الآلات، ودعا الناس إليهـا ،فكلما دخل داخل أجلسه على فـراش وثير، وقدم إليه طبـقًا من ذهب عليه لحم، ووضع بين يديه أوان مفتـخرة فيها من كل ما يحتاج إليه، وأخـدمه عبيده ومماليكه .

فعـرف العاقل أن ذلك كله متـاع صاحب الدار وملكه وعبيـده، فاستـمتع بتلك الآلات والضيافة مدة مقامه في الدار ،ولم يعلق قـلبه بها، ولا حدث نفسه بتملكها، بل اعتمد مع صاحب الدار ما يعتمده الضيف، يجلس حيث أجلسه، ويأكل ما قدمه له ،ولا يسأل عما وراء ذلك ، اكتفـاء منه بعلم صاحب الدار وكرمه، وما يفعله مع ضيوفه، فدخل الدار كريمًا وتمتع فيها كريمًا، وفارقها كريماً ،ورب الدار غير ذام له .

وأمـا الأحمـق، فحـدث نفـسه بـسكنى الدار ، وحـوز تلك الآلات إلى ملكه وتصرفه فـيها بحسب شهـوته [ق/ ١٢٩] وإرادته، فتخير المجلس لنفـسه وجعل ينقل تلك الآلات إلى مكان في الدار يخبؤها فـيه، وكلما قدم إليه ربها شـيئاً أو آلة حدث نفسه بملكـه واختصاصه به عن سـائر الأضياف ورب الدار يشاهد مـا يصنع، وكرمه يمنعه من إخـراجه من داره، حـتى إذا ظن أنه استبـد بتلك الآلات، وملك الدار ، وتصرف فيها وفي آلاتها تصرف المالك الحـقيقي، واستوطنها واتخذها دارًا له، أرسل إليه مالكها عبيده ،فأخرجوه منها إخراجاً عنيفًا، وسلبوه كل ما هو فيه، ولم يصحبه

---

(١) زيادة من أ .

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٣) ومسلم (٢٢٨٣)

من تلك الآلات شيء ، وحصل على مقت رب الدار وافتضاحه عنده وبين مماليكه وحشمه وخدمه .

فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل، فإنه مطابق للحقيقة .والله المستعان.

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه :«كل أحد فى هذه الدنيا ضيف وما له عارية، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة»[١] .

وفى «الصحيحين»[٢] ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال: مات ابن لأبى طلحة من أم سليم، فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة حتى أكون أنا أحدثه، فجاء فقربت إليه عشاء، فأكل وشرب وقال: ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها. فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت :يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم ؟ قال: لا . قالت: فاحتسب ابنك. قال: فغضب قال: تركتينى حتى إذا تلطخت ثم أخبرتينى بابنى فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان منها فقال رسول الله ﷺ: « **بارك الله لكما فى ليلتكما** » وذكر الحديث .

(فصل)

المثال السادس عشر: قوم سلكوا مفازة، [فاجأهم][٣] العطش، فانتهوا إلى البحر، وماؤه أمر شيء وأملحه ،فلشدة عطشهم لم يجدوا طعم مرارته وملوحته، فشربوا منه، فلم يرووا، وجعلوا كلما ازدادوا شربًا ازدادوا ظمأ، حتى تقطعت [أمعاؤهم][٤] وماتوا عطشًا.

وعلم عقلاؤهم أنه مر مالح ،وأنه كلما ازداد الشارب منه ازداد ظمأ ، فتباعدوا عنه مسافة حتى وجدوا أرضًا حلوة ،فحفروا فيها قليبًا فنبع لهم ماء عذب فرات، فشربوا وعجنوا وطبخوا، ونادوا إخوانهم الذين على حافة البحر: هلموا إلى الماء الفرات، وكان منهم المستهزئ، ومنهم المعرض الراضى بما هو فيه ،وكان المجيب واحداً بعد واحد .

وهذا المثل بعينه قد ضربه المسيح عليه السلام ،فقال: « مثل طالب الدنيا كمثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا حتى يقتله»[٥] .

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠١) ومسلم (٢١٤٤) .

(٣) في أ : فأصابهم .

(٤) في أ : أعناقهم .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٣٤٢) .

(فصل)

المثال السابع عشر: مثل الإنسان فيها ومثل مـاله وعمله وعشيرته، مثل رجل له ثلاثة إخوة، فقضى له سفر بعيـد طويل لا بد له منه، فدعا إخوته الثلاثة، وقال: قد حضر ما ترون من هذا السفر الطويل ،وأحوج ما كنت إليكم الآن .

فـقـال أحـدهـم: أنا كنت أخـاك إلى هذه الحـال، ومـن الآن فلست بأخ ولا صاحب، وما عندى غير هذا .فقال له: لم تغن عنى شيئاً .

فقال للآخر : ما عندك؟ فقال: كنت أخاك وصاحبك إلى الآن، وأنا معك حتى أجهزك إلى سـفرك وتركب راحلتك ،ومن هنالك لست لك بصاحب. فـقال له: أنا محتاج إلى مرافقتك فى مسـيرى. فقال :لا سبيل لك إلى ذلك. فقال: لم تغن عنى شيئًا.

فقال للثالث: ما عندك أنت ؟ فقـال: كنت صاحبك فى صحتك ومرضك، وأنا صاحبك الآن، وصاحـبك إذا ركبت راحلتك ،وصاحبك فى مسـيرك، فإن سرت سرت معك، وإن نزلت نزلت معك ، وإذا وصلت إلى بلدك كنت صاحبك فيها لا أفـــارقك أبدًا فـــقـــال: إن كنت لأهـون الأصـــحـاب عـلى، وكنت أوثر عـليك صاحبيك[ق/ ١٣٠أ] ، فليتنى عرفت حقك وآثرتك عليهما.

فالأول: ماله .

والثانى: أقاربه وعشيرته وأصحابه.

والثالث: عمله.

وقد روى فى هذا المثـل بعينه حديث مـرفوع، لكنه لا يثـبت .رواه أبو جعـفر العقيلى فى كتاب الضعفـاء من حديث ابن شهاب ،عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها. وعن ابن المسـيب، عن عائشة مـرفوعًا . وهو مـثل صحيح فى نفـسه مطابق للواقع.

(فصل)

المثال الثامن عشر : وهو من أحسن الأمثلة: ملك بنى دارًا ، لم ير الراؤون، ولم يسمع السامـعون أحسن منها ولا أوسع ،ولا أجمع لكل مـلاذ النفوس منها. ونصب لها طريقًا، وبعث داعياً يدعو الناس إليهـا ،وأقعد على الطريق امرأة جميلة قد زينت بأنواع الزينة، وألبـست أنواع الحلى والحلل ،وممر الناس كلهـم عليهـا ، وجعل لهـا

أعوانًا وخدمًا تحت يدها ويد أعوانها زادًا للمارين السائرين إلى الملك فى تلك الطريق، وقال لها ولأعوانها : من غض طرفه عنك. ولم يشتغل بك عنى وابتغى منك زادًا يوصله إلى فاخدميه وزوديه ، ولا تعوقيه عن سفره إلى ، بل أعينيه بكل ما يبلغه فى سفره .

ومن مد إليك عينيه ورضى بك، وآثرك على ،وطلب وصالك، فسوميه سوء العذاب، وأوليه غاية الهوان، واستخدميه، واجعليه يركض خلفك ركض الوحش. ومن نال منك، فاخدعيه به قليلا، ثم استرديه منه واسلبيه إياه كله ، وسلطى عليه أتباعك وعبيدك. وكلما بالغ فى محبتك وتعظيمك وإكرامك ، فقابليه بأمثاله قلى وإهانة وهجرًا ، حتى تتقطع نفسه عليك حسرات.

فتأمل هذا المثال ،وحال خطاب الدنيا، وخطاب الآخرة. والله المستعان. وهذا المثل مأخوذ من الأثر المروى عن الله عز وجل : يا دنيا اخدمى من خدمنى، واستخدمى من خدمك » .

(فصل)

المثال التاسع عشر: ملك خط مدينة فى أصح المواضع، وأحسنها هواء، وأكثرها مياهًا، وشق أنهارها ،وغرس أشجارها ،وقال لرعيته: تسابقوا إلى أحسن الأماكن فيها، فمن سبق إلى مكان فهو له ، ومن تخلف سبقه الناس إلى المدينة فأخذوا منازلهم وتبؤوا مساكنهم فيها وبقى مع أصحاب الحسرات ونصب لهم ميدان السباق وجعل على الميدان شجرة كبيرة، لها ظل مديد ،وتحتها مياه جارية ، وفى الشجرة من كل أنواع الفواكه، وعليها [طيور عجيبة][1] الأصوات ،وقال لهم : لا تغتروا بهذه الشجرة وظلها، فعن قليل، تجتث من أصلها ، ويذهب ظلها، وينقطع ثمرها ، وتموت أطيارها. وأما مدينة الملك، فأكلها دائم، وظلها مديد، ونعيمها سرمد ،وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر فسمع الناس بها ،فخرجوا فى طلبها على وجوههم ، فمروا في طريقهم بتلك الشجرة على أثر تعب ونصب وحر وظمأ ،فنزلوا كلهم تحتها ،واستظلوا بظلها، وذاقوا حلاوة ثمرها، وسمعوا نغمات أطيارها ،فقيل لهم : إنما نزلتم لتحموا أنفسكم، وتضمروا مراكبكم للسباق ،فتهيئوا للركوب ،وكونوا على أهبة، فإذا صاح النفير [استدركتم][2] حلبة

---

(١) في أ : الطيور العجيبة .
(٢) في أ : تبدرتم .

السبـاق، فقال الأكثـرون: كيف ندع هذا الظل الظليل ،والماء السلسـبيل، والفاكـهة النضـجة، والدعـة، والراحـة،ونقتـحم هذه الحلبة فـى الحر، والغـبار، والتـعب، والنصب، والسفر البعيد، والمفاوز المعطشة التى تنقطع فيها [الأمعاء][1] ؟وكيف نبيع النقد الحاضـر بالنسيئة الغائبـة إلى الأجل البعيد، ونتـرك ما نراه إلى مالا نراه؟ وذرة منقودة فى اليـد أولى من ذرة موعودة بعـد غد، خذ ما تـراه ودع شيئًا سـمعت به، ونحن بنو اليوم، وهذا عيش حاضر كيف نتركه[ق/ ١٣١أ] لعيش غائب فى بلد بعيد لا ندرى متى نصل إليه؟ ونهض من كل ألف واحد، وقـالوا: والله ما مقامنا هذا فى ظل زائل ،تحت شجرة قـد دنا [قلعها][2] ، وانقطاع ثمرها، وموت أطيارها، ونترك المسابقة إلى الظل الظليل الذى لا يزول، والعيش الهنيء الذى لا ينقطع إلا من أعجز العجز وهل يليق بالمسافر إذا استراح تحت ظل أن يضرب خباءه عليه ويتخذه وطنه، خشية التأذى بالحر وبالبرد؟ وهل هذا إلا أسفه السفه؟ فالسباق السباق والبدار البدار:

حكم المنية فـى البرية جـارى ... ما هـذه الدنـيا بدار قـرار
اقضـوا مآربكـم سراعا إنما ... أعماركم سفر من الأسـفار
وتراكضوا خيل السباق وبادروا ... أن تستـرد فإنهـن عـوارى
ودعوا الإقامـة تحت ظل زائل ... أنتم على سفر بهذى الـدار
من يرجو طيب العيش فيها إنما ... يبنى الرجاء على شفير هـار
والعيش كل العيش بعد فراقـها ... فى دار أهل السبق أكـرم دار

فاقتحموا حلبة السباق ، ولم يستوحشوا من قلة الرفاق، وساروا [فى][3] ظهور العزائم، ولم تأخذهم فى سيرهم [في الله][4] لومة لائم ،والمتخلف فى ظل الشجرة نائم. فوالله ما كـان إلا قليل حتى ذوت أغصان تلك الشجرة ،وتسـاقطت أوراقها، وانقطعت ثمارها، ويبـست فروعها، وانقطع مـشربها، فقلعـها قيمهـا من أصلها ، فـأصبح أهلهـا فى حـر السـموم يتـقلبـون، وعلى مـا فاتهم من العـيش فى ظلهـا يتحـسرون. ثم أحرقـها قيمـها ،فصـارت هى وما حولهـا نارًا تلظى، وأحاطت النار [بمن][5] تحتها، فلم يستطع أحد منهم الخروج منها ،فقالوا: [أين][6] الركب الذين اسـتظلوا معنـا تحت ظلها ثم راحـوا وتركـوه ؟ فقـيل لهـم: ارفـعوا أبصـاركم تروا

(١) في أ : الأعناق .
(٢) في أ : قطعها .
(٣) في أ : على .
(٤) سقط من ط و ب .
(٥) في أ : من .
(٦) في أ : ما فعل .

منازلهم. فرأوهم من البعد فى قصور مدينة الملك وغرفها ، يتمتعون بأنواع اللذات ، فتضاعفت عليهم الحسرات ألا يكونوا معهم، وزاد تضاعفها بأن حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقيل هذا جزاء المتخلفين : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:١١٨] .

(فصل)

المثال العشرون: ما مثلها به النبى ﷺ من الثوب الذى شق وبقى معلقًا بخيط فى آخره، فما بقاء ذلك الخيط؟ .

قال ابن أبى الدنيا[١] : حدثنى الفضل بن جعفر، حدثنا وهب بن [حبان][٢] ، حدثنا يحيى بن سعيد القطان، حدثنا أبو سعيد خلف بن حبيب، عن أنس بن مالك رضى الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ :« **مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره، فبقى معلقًا بخيط فى آخره، فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع** ».

وإن أردت لهذا [المثال][٣] زيادة إيضاح ،فانظر إلى ما رواه الإمام أحمد فى «مسنده»[٤] ، من حديث أبى نضرة ،عن أبى سعيد: قال : صلى بنا رسول الله ﷺ العصر بنهار، ثم [قام][٥] فخطبنا، فلم يترك شيئاً قبل قيام الساعة إلا أخبر به،حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، وجعل الناس يلتفتون إلى الشمس: هل بقى منها شىء ؟ فقال: « **ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه** » .

وروى حفص بن غياث ،عن ليث عن المغيرة بن حكيم، عن ابن عمر[رضي الله عنهما][٦] ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعف، فقال: « **ما بقى من الدنيا إلا مثل ما بقى من يومنا هذا فيما مضى منه** » [٧] .

وروى ابن أبى الدنيا[٨] ، عن إبراهيم بن سعد ،حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا موسى بن خلف عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ :خطب

---

(١) أخرجه في ذم الدنيا (٢٢) وضعفه الألباني . انظر السلسلة الضعيفة (١٩٧٠) .
(٢) في ط و ب : بيان . (٣) في أ : المثل .
(٤) أخرجه أحمد (١١١٥٩) والترمذي (٢١٩١) وضعفه الألباني . انظر ضعيف سنن الترمذي (٣٨٥) .
(٥) سقط من أ .
(٦) زيادة من أ .
(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل (١٢٠) .
(٨) أخرجه في قصر الأمل (١٢١) .

عند مغبران الشمس فقال: « **ما بقى من الدنيا فيمـا مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه** » .

فالدنيا [ق/ ١٣٢أ] كلهـا كيوم واحد بعث رسول الله ﷺ في آخـره قبل غروب شمسه بيسير.

وقـال جـابر وأبو هريرة رضى الله عنهـمـا، عنه ﷺ : «**بعـثت أنا والسـاعـة كهاتين**»، وقرن بين [أصابعه][1] السبابة والوسطى[2] .

وكان بعض السلف يقول: تصبروا ، فإنما هى أيام قلائل، وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى أحدكم فـيجيب ولا يلتفت، وإنه قد نعـيت إليكم أنفسكم، والموت جسر لا بد منه، والله بالمرصاد ،وإنما تخرج هذه النفوس على آخر سورة الواقعة.

(فصل)

المثال الحادى والعشرون: مثال الدنيا كحوض كبير ملئ ماء، وجعل موردًا للأنام والأنعام، فجعل الحوض ينقص على كثرة الوارد ،حتى لم يبق منه إلا وشل كدر فى أسـفله قـد بالت فـيـه الدواب، وخـاضتـه الناس والأنعـام كـمـا روى مـسلم فى «صحيحه»[3] عن عتبة بن غزوان أنه خطبـهم فقال فى خطبته :« **إن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء، ولم يبق منهـا إلا صبابة كصبـابة الإناء يتصابها صاحـبها، وإنكم منتقلون عنها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم** » .

وقال عبد الله بن مـسعود: إن الله تعالى جعل الدنيا كلها قليـلا، فما بقى منها إلا قليل من قليل .ومثل ما بقى منها: كالثـغب شرب صفوه وبقى كدره [4] الثغب: الغدير.

(فصل)

المثال الثانى والعشرون: قوم سكنوا مدينة مدة من الزمان، فكثرت فيها الأحداث والآفات، [وطرقتها][5] المحن ،وأغارت عليها عساكـر الجور والفساد، فبنى ملكهم مـدينة فى محل [لا يطرقـه][6] آفة ولاعـاهة، وعزم على تخـريب المدينة الأولى، فأرسل إلى سكانها فنودى فيهم بالرحيل بعد ثلاث، ولا يتخلف منهم أحد، وأمرهم أن ينقلوا إلى مـدينة الملك الثانية خـير مـا فى تلك المدينة وأنفعه وأجـله من الجواهر

---

(١) في أ : أصابعة .
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٥) ومسلم (٨٦٧) .
(٣) (٢٨٦٧) .
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٨٠) .
(٥) في أ : وطرقها .
(٦) في أ : يطرقها .

واللآلى والذهب والفضة، وما خف حمله من المتاع وعظم قدره وصلح للملوك ، وأرسل إليهم الادلاء وآلات [النقل](١) ونهج لهم الطريق ،ونصب لهم الأعلام ، وتابع الرسل يستحثونهم بعضهم فى إثر بعض، فانقسموا فرقًا .

فالأقلون علموا قصر مدة مقامهم فى تلك المدينة، وتيقنوا أنهم إن لم يبادروا بتحصيل خير ما فيها وحمله إلى مدينة الملك ،وإلا فاتهم ذلك فلم يقدروا عليه، فرأوا غبنا أن يقطعوا تلك المدة فى جمع المفضول والاشتغال به عن الفاضل، فسألوا عن خير ما فى المدينة وأنفسه وأحبه إلى الملك وأنفعه فى مدينته، فلما عرفوه لم يلتفوا إلى ما دونه، ورأوا أن أحدهم إذا وافى بجوهرة عظيمة كانت أحب إلى الملك من أن يوافيه بأحمال كثيرة من الفلوس والحديد ونحوها .فكان همهم فى تحصيل ما هو أحب إلى الملك وأنفس عنده ولو قل فى رأى العين .

وأقبلت فرقة أخرى على تعبئة الأحمال المحملة، وتنافسوا فى كثرتها، وهم على مراتب ،فمنهم من أحماله أثمان ،ومنهم من [أحماله](٢) دون ذلك ،على قدر هممهم وما يليق بهم، لكن هممهم مصروفة إلى تعبئة الأحمال والانتقال من المدينة.

وأقبلت فرقة أخرى على عمارة القصور فى تلك المدينة والاشتغال بطيباتها ولذاتها ونزهها، وحاربوا العازمين على النقلة ،وقالوا :لا ندعكم تأخذون من متاعنا شيئًا ، فإن شاركتمونا فى عمارة المدينة واستيطانها وعيشنا فيها، وإلا لم نمكنكم من النقلة، ولا من شيء من المتاع . فوقعت الحرب بينهم ،فقاتلوا السائرين [وعدموا كل](٣) أموالهم وأهليهم وما [ق/١٣٣أ] نقموا منهم إلا بسيرهم إلى دار الملك وإجابة داعيه ،والرغبة عن تلك الدار متى أمرهم بتركها .

وأقبلت فرقة أخرى على التنزه والبطالة والراحة والدعة ، وقالوا: لا نتعب أنفسنا فى عمارتها ولا ننتقل منها ،ولا نعارض من أراد النقلة، ولا نحاربهم، ولا نعاونهم .وكان للملك فيها قصر فيه حريم له ،وقد أحاط عليه سورًا، وأقام عليه حرسًا ،ومنع أهل المدينة من قربانه، وطاف به القاعدون ،فلم يجدوا فيه بابًا يدخلون منه، فغدوا على جدرانه فنقبوها، ووصلوا إلى حريمه ،فأفسدوهم ، ونالوا منهم ما أسخط الملك وأغضبه وشق عليه، ولم يقتصروا على ذلك حتى دعوا غيرهم إلى إفساد حريمه والنيل منهم. فبينما هم على تلك الحال ،و إذا بالنفير قد صاح فيهم

(١) في أ : النقلة .
(٢) في ط و ب : احمالهم .
(٣) في أ : فعدموا كل .

كلهم، فلم يمكِّن أحداً منهم من التـخلف، فحملوا على تلك الحـال، وأحضروا بين يدى الملك ،فاستـعرضهم واحداً واحـداً، وعرضت بضائعهم وما قـدموا به من تلك المدينة عليه، فقبل منها ما يصلح له، [مثله][1] وأعاض أربابه أضعاف أضعاف قيمته وأنزلهم منـازلهم من قـربه ،ورد منهـا مـا لا يصـلح له، [وضـرب به][2] وجـوه أصحابه، وقابل من نقب حـماه وأفسد حريمه بما يقابل به المفسدون، فـسألوا الرجعة إلى المدينة، ليعمروا قصره ،ويحفظوا حريمه ويقدموا عليه من البضائع بمثل ما قدم به التجار، فـقال: هيهات قد خـربت المدينة خرابًا لا تعمر بعـده أبدًا، وليس بعدها إلا المدينة التى لا تخرب أبدًا.

(فصل)

المثال الثالـث والعشرون :وقد مثلت الدنيا بمنام، والعـيش فيها بالحلم، والموت باليقظة ،ومثلت بمزرعـة، والعمل فيها بالبذر ،والحصـاد يوم المعاد .ومثلت بدار لها بابان: باب يدخل منه الناس، وباب يـخرجـون منه .ومثلت بجنيـة ناعمـة الملمس، حسنة اللون ،وضربتـها الموت. ومثلث بطعام مسـموم، لذيذ الطعم، طيب الرائحة، من تناول منه بقدر حـاجته كان فيـه شفاؤه، ومن زاد على حاجـته كان فيه حـتفه، ومثلت بالطعام فى المعـدة إذا أخذت الأعضاء منه حاجـتها، فحبسـه قاتل أو مؤذ، ولا راحة لصـاحبه إلا فى خروجـه كما أشـار إليه النبى ﷺ فى آكلة الخضـر .وقد تقدم.

ومثلت بامرأة من أقـبح النساء. قد انتقبت على عينين فـتنت بهما الناس، وهى تدعو الناس إلى منزلهـا ،فإذا أجابوها ،كشـفت لهم عن منظرها، دعتهم لمساكـنتها وذبحتهم بسكاكـينها، وألقتهم فى الحفـر، وقد سلطت على عشاقـها تفعل بهم ذلك قديمًا وحديثًا . والعـجب أن عشاقها يرون إخوانهم صـرعى قد حلت بهم الآفات ، وهم ينافسون فى مـصارعهم: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:٤٥] ، ويكفى فى تمثيلها ما مثلها الله سبحانه فى كتابه، فهو المثل المنطبق عليها .

قالوا: وإذا كان هذا شأنها ،فـالتقلل منها ،والزهد فيها خيـر من الاستكثار منها والرغبة فيها .

(١) سقط من ط و ب .
(٢) في أ : وضربه .

قالوا: ومن المعلوم أنه لا تجتمع الرغبة فيها مع الرغبة فى الله والدار الآخرة أبدًا. ولا تسكن هاتان الرغبتان فى مكان واحد إلا وطردت إحداهما الأخرى واستبدت بالمسكن، ولا تجتمع [ابنة][1] رسول الله ﷺ [وابنة][2] عدو الله عند رجل واحد أبدًا .

قالوا: ويكفى أن رسول الله ﷺ عرضت عليه مفاتيح كنوزها، ولو أخذها لكان أشكر خلق الله بها ،ولم تنقصه [مما له][3] عند الله شيئًا، فاختار جوع يوم وشبع يوم، ومات ودرعه مرهونة على طعام لأهله، كما تقدم ذكره .

قالوا: وقد انقسم الناس بعد رسول الله ﷺ أربعة أقسام: **قسم:** لم يريدوا الدنيا ولم [ق/ ١٣٤أ] تردهم، كالصديق ومن سلك سبيله. **وقسم:** أرادتهم الدنيا ولم يريدوها، كعمر ابن الخطاب [رضي الله عنه][4] ومن سلك سبيله. **وقسم:** أرادوا الدنيا وأرادتهم الدنيا، كخلفاء بنى أمية ومن سلك سبيلهم ، حاشا عمر بن عبد العزيز فإنها أرادته ولم يردها. **وقسم:** أرادوها ولم تردهم، كمن أفقر الله منها يده، وأسكنها فى قلبه وامتحنه بجمعها .

ولا يخفى أن خير الأقسام القسم الأول. والثانى إنما فضل لأنه لم يردها، فالتحق بالأول.

قالوا : وقد سأل رجل رسول الله ﷺ : أن يدله على عمل إذا فعله أحبه الله وأحبه الناس، فقال له : « **ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس**»[5]، فلو كان الغنى أفضل لدله عليه .

قالوا: وقد شرع الله سبحانه قتال الكفار ،وشرع الكف عن الرهبان لاعتزالهم عن الدنيا وزهدهم فيها ،فمضت السنة بأن لا يقاتلوا ولا يضرب عليهم جزية. هذا وهم أعداؤه وأعداء رسله ودينه! فعلم أن الزهد فيها عند الله بمكان .

قالوا: وكذلك استقرت حكمته فى شرعه على أن عقوبة الواجد أعظم من عقوبة الفاقد ،فهذا الزانى المحصن عقوبته الرجم ،وعقوبة من لم يحصن الجلد والتغريب. وهكذا يكون ثواب الفاقد أعظم من ثواب الواجد .

---

(١) في أ : بنت .
(٢) في أ : وبنت .
(٣) في أ : من ماله .
(٤) زيادة من أ .
(٥) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢) والحاكم (٧٨٧٣) والقضاعي في مسند الشهاب (٦٤٣) وابن عدي في الكامل (٣/ ٣١) والطبراني في الكبير (٥٩٧٢) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن ابن ماجه (٣٣١٠) .

قالوا: وكيف يستوى عند الله سبحانه ذلة الفقر وكسرته، وخضوعه وتجرع مرارته، وتحمل أعبائه ومشاقه ،وعزة الغنى ولذته، وصولته ،والتمتع بلذاته ، ومباشرة حلاوته؟! فبعين الله ما يتحمل الفقراء من مرارة فقرهم وصبرهم ورضاهم به عن الله ربهم تبارك وتعالى. وأين أجر مشقة المجاهدين ، إلى أجر عبادة القاعدين فى الأمن والدعة والراحة ؟

قالوا : وكيف يستوى أمران :أحدهما حفت به الجنة، والثانى حفت به النار؟ فإن أصل الشهوات من قبل المال ،وأصل المكاره من قبل الفقر.

قالوا : والفقير لا ينفك فى خصاصة من مضض الفقر والجوع والعرى والحاجة وآلام الفقر وكل واحد منها يكفر ما [يقاومه](١) من السيئات وذلك زيادة على أجره بأعمال البر فقد شارك الأغنياء في أعمال البر، وامتاز عنهم بما يكفر سيئاته .وما امتازوا به عليه من الإنفاق والصدقة والنفع المتعدي ،فله سبيل إلى لحاقهم فيه ،وله مثل أجورهم، وهو أن يعلم الله من نيته أنه لو أوتى مثل ما أوتوه. لفعل كما يفعلون، فيقول: لو أن لى مالا لعملت بأعمالهم ،فهو بنيته، وأجرهما سواء، كما أخبر به الصادق المصدوق فى الحديث الصحيح، الذى رواه الإمام [أحمد](٢) والترمذى من حديث أبى كبشه الأنمارى (٣).

قالوا : والفقير فى الدنيا بمنزلة المسجون، إذ هو ممنوع [من](٤) الوصول إلى شهواته وملاذها . والغنى متخلص من هذا السجن. وقد قال النبى ﷺ: « **الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر** » (٥) ، فالغنى إن لم يسجن نفسه عن دواعى الغنى وطغيانه، وأرسلها فى ميادين شهواتها، كانت الدنيا جنة له ،فإنما نال الفضل بتشبهه بالفقير الذى هو فى سجن فقره.

قالوا : وقد ذم الله ورسوله من عجلت له طيباته فى الحياة الدنيا ، وأنه لحرى أن يكون عوضاً عن طيبات الآخرة أو منقصة لها ،ولا بد كما تقدم بيانه، بخلاف من استكمل طيباته فى الآخرة لما منع منها فى الدنيا، وأتى رسول الله ﷺ بسويق لوز،

---

(١) في ط و ب : يقارفه . (٢) سقط من أ .

(٣) أخرجه أحمد (١٨٠٥٦) ، (١٨٠٥٧) والترمذي (٢٣٢٥) وابن ماجه (٤٢٢٨) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (١٨٩٤) .

(٤) في ط و ب : عن .

(٥) أخرجه مسلم (٢٩٥٦) من حديث أبي هريرة .

فأبى أن يشربه، وقال: « **هذا شراب المترفين** »(١) .

قالوا : وقد سئل الحسن البصرى، فقيل له : «رجلان أحدهما تارك للدنيا، والآخر يكتسبها ويتصدق بها ؟ فقال: التارك لها أحب إلى» . **قالوا**: وقد سئل المسيح قبله عن هذه المسألة: عن رجلين مر أحدهما بلبنة ذهب فتخطاها ولم يلتفت إليها ، ومر بها الآخر [ق/ ١٣٥أ] فأخذها وتصدق بها . فقال: «الذى لم يلتفت إليها أفضل». ويدل على هذا أن رسول الله ﷺ مر بها ولم يلتفت إليها، ولو أخذها لأنفقها فى سبيل الله . **قالوا**: والفقير الفقيه فى فقره يمكنه إلحاق الغنى فى جميع ما ناله بغناه بنيته وقوله، فيساويه فى أجره ، ويتميز عنه بعدم الحساب على المال، فساواه في ثوابه، وتخلص من حسابه، كما تميز عنه بسبقه إلى الجنة بخمسمائة عام ، وتميز عنه بثواب صبره على ألم الفقر وخصاصته .

قال الإمام أحمد(٢) : حدثنا عبد الله بن محمد بن نمير عن عبادة بن مسلم،حدثنى يونس بن خباب، عن أبى البحترى الطائى، عن أبى كبشة ،قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **ثلاث أقسم عليهن، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه، فأما الثلاث التى أقسم عليهن: فإنه ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزوجل بها عزًا ،ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله له باب فقر . وأما الذى أحدثكم حديثًا فاحفظوه فإنه قال: إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا وعلماً ، فهو يتقى فيه ربه ،ويصل فيه رحمه ،ويعلم فيه لله حقًا فهذا بأفضل المنازل عند الله، وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالا، فهو يقول: لو كان لى مال عملت فيه بعمل فلان. قال : فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علماً ،فهو يتخبط فى ماله بغير علم، لا يتقى فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم الله فيه حقًا، فهذا بأخبث المنازل عند الله ،وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علمًا فهو يقول: لو كان لى مال لفعلت بفعل فلان ،قال: فهو بنيته ووزرهما سواء** » .

فلما فضل الغنى بفعله ألحق الفقير الصادق به بنيته، والغنى هناك إنما نقص بتخلفه عن العمل ،والفقير إنما نقص بسوء نيته . فلم ينفع الغنى غناه مع التخلف، ولا ضر الفقير فقره مع حسن النية ،ولا نفعه فقره مع سوء نيته .

قالوا: ففى هذا بيان كاف شاف فى المسألة ،حاكم بين الفريقين. وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٦) ونعيم بن حماد في زوائد على الزهد لابن المبارك (٢٠٠) وابن سعد في الطبقات (١/ ٣٩٥) .

(٢) تقدم تخريجه .

الباب الرابع والعشرون
فى ذكر ما احتجت به الأغنياء
من الكتاب والسنة والآثار والاعتبار

قالت الأغنياء: لقد أجلبتم علينا أيها الفقراء بخيل الأدلة ورجلها، ونحن نعلم أن عندكم مثلها وأكثر من مثلها ،ولكن توسطتم بين التطويل والاختصار ،وظننتم أنها حكمت لكم بالفضل دون ذوى اليسار، ونحن نحاكمكم إلى ما حاكمتمونا إليه، ونعرض بضاعتنا على من عرضتم بضاعتكم عليه، ونضع أدلتنا وأدلتكم فى ميزان الشرع والعقل الذى لا يعزل ،فحينئذ يتبين لنا ولكم الفاضل من المفضول، ولكن أخرجوا من بيننا من تشبه بالفقراء الصادقين الصابرين، ولبس لباسهم على قلب أحرص الناس على الدنيا وأشحهم عليها ،وأبعدهم من الفقر والصبر ،من كل مظهر للفقر مبطن للحرص، غافل عن ربه، متبع لهواه ، مفرط فى أمر معاده ،قد جعل زى الفقر صناعتة ، وتحلى بما هو أبعد الناس منه بضاعة ، أو فقير حاجة فقره اضطراراً لا اختياراً ،فزهده زهد إفلاس لا زهد رغبة فى الله والدار الآخرة، أو فقير يشكو ربه بلسان قاله وحاله ،غير راض عن ربه فى فقره، بل إن أعطى رضى، وإن منع سخط ، شديد اللهف على الدنيا والحسرة عليها ، وهو أفقر الناس فيها ، فهو أرغب شيء فيها وهى أزهد شيء فيه، وأخرجوا من بيننا ذى الثروة الجموع ،المنوع المتكاثر بماله المستأثر به ،الذى عض عليه بناجذه، وثنى عليه [خناصره][1]، يفرح بزيادته ، ويأسى على نقصانه .فقلبه به مشغوف ،وهو على تحصيله ملهوف، إن عرض سوق الإنفاق والبذل أعطى قليلا وأكدى، وإن دعى إلى الإيثار أمعن فى الهرب جداً وأخلصونا وإخواننا من سباق الطائفتين ،وسادات الفريقين الذين تسابقوا إلى الله والدار الآخرة بإيمانهم وأحوالهم ،ونافسوا فى القرب منه بأعمالهم وأموالهم، فقلوبهم عاكفة عليه، وهمتهم [إلى] [2]المسابقة إليه،[ق/١٣٦أ] ينظر غنيهم إلى فقيرهم، فإذا رآه قد سبقه إلى عمل صالح شمر إلى اللحاق به، وينظر فقيرهم إلى غنيهم فإذا رآه قد فاقه بإنفاق فى طاعة الله أنفق هو من أعماله وأقواله وصبره وزهده نظير ذلك أو أكثر منه. فهؤلاء إخواننا الذين تكلم الناس فى التفضيل بينهم وأيهم

---

(١) في أ : خنصره .

(٢) سقط من أ .

أعلى درجة، وأمـا أولئك فإنما ينظر أيهم تحت الآخر فى العـذاب وأسفل منه. والله المستعان .

إذا عرف هذا ،فقد مـدح الله سبحانه فى كتابه أعمـالا، وأثنى على أصحابها ، ولا تحصل إلا بالغنـى : كالزكاة ،والإنفـاق فى وجوه البر، والجـهاد فى سـبيل الله بالمال، وتجهيز الغزاة ، وإعانة المحاويج ،وفك الرقاب، والإطعام فى زمن المسغبة .

وأين يقع صبـر الفقير من فـرحة الملهوف المضطر المشرف على الهـلاك إذا أعانه الغنى ونصره على فـقره ومخمـصته ؟ وأين يقع صبـره من نفع الغنى بماله فى نصرة دين الله وإعلاء كلمته وكسر أعدائه ؟

وأين يقع صبـر أبى ذر على فقره، إلى شكر الصديق ربه، وشـرائه المعذبين فى الله وإعتاقهم ،وإنفاقه على نصرة الإسلام، حين قال النبى ﷺ: « **ما نفعنى مال أحد ما نفعنى مال أبى بكر؟** » [1].

وأين يقع صبـر أهل الصفة من إنفـاق عثمان بن عـفان [رضي الله عنه][2] تلك النفقات العظيمة، التى قال له رسول الله ﷺ: فى بعضها « **ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم**» [3]، ثم قال: «**غفر الله لك يا عـثمان ما أسررت وما أعلنت ومـا أخفيت وما أبديت**» ، أو كما قال ﷺ .

وإذا تأملتم القـرآن ،وجدتم الثناء فيـه على المنفقين أضـعاف الثناء على الفـقراء الصابرين. وقد شهد رسول الله ﷺ بأن اليد العليـا خير من اليد السفلى، وفسر اليد العليا بالمعطية ،والـسفلى بالسائلة [4] . وقد عدد الله سبـحانه على رسوله ﷺ من نعمه أن أغناه بعد فـقره ،وكان غناه هو الحالة التى نقله إليها ،وفـقره الحالة التى نقله منها .وهـو سبحـانه كان ينقله من الشىء إلى مـا هو خيـر منه .وقد قيـل فى قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى : ٤] ، أن المراد به الحالتان أى كل حالة

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٩٤) والترمذي (٣٦٦١) والنسائي في الكبرى (٨١١٠) وابن حبان (٦٨٦٨) وابن أبي شيبة في مصنفـه من حديث أبي هريرة وأخـرجه الحـميدي (٢٥٠) وابو يعلـى (٤٤١٨) ، (٤٩٠٥) من حديث عائشة . وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (٢٨٩٤) .

(٢) زيادة من أ .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧٠١) وأحمد (٢٠٦٤٩) والحاكم (٤٥٥٣) والطبراني في الأوسط (٩٢٢٦) والآجري في الشريـعة (١٤٦٨) من حديـث عبد الرحـمن بن سمـرة . وحسنه الألبـاني . انظر صـحيح سنن التـرمذي (٢٩٢٠) .

(٤) أخرجه البخاري (١٤٢٩) ومسلم (١٠٣٣) من حديث عبد الله بن عمر .

خير لك مما قبلها. ولهذا أعقبه بقوله : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ فهذا يدخل فيه عطاؤه فى الدنيا والآخرة .

قالوا: والغنى مع الشكر زيادة فضل ورحمة : ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥] .

قالوا: والأغنياء الشاكرون سبب لطاعة الفقراء الصابرين، لتقويتهم إياهم بالصدقة عليهم والإحسان إليهم، وإعانتهم على طاعتهم، فلهم نصيب وافر من أجور الفقراء، زيادة إلى نصيبهم من أجر الإنفاق وطاعاتهم التى تخصهم، كما فى «صحيح ابن خزيمة»[1]، من رواية سلمان الفارسى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ ، وذكر شهر رمضان، فقال : **«من [فطر][2] فيه صائمًا كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار. وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شىء »** . فقد جاز الغنى الشاكر أجر صيامه ومثل أجر الفقير الذى فطره .

قالوا : ولو لم يكن للغنى الشاكر إلا فضل الصدقة التى لما تفاخرت الأعمال كان الفخر لها عليهن ،كما ذكر النضر بن شميل ،عن قرة عن سعيد بن المسيب: أنه حدث عن عمر بن الخطاب ،قال: ذكر أن الأعمال الصالحة تتباهى، فتقول الصدقة: أنا أفضلكم.

قالوا : والصدقة وقاية بين العبد وبين النار ،والمخلص المسر بها مستظل بها يوم القيامة فى ظل العرش .

وقد روى عمرو بن الحارث ويزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن عقبة بن عامر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال:« **إن الصدقة لتطفئ على أهلها حر القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة فى ظل صدقته** » [3] .

وقال يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن عقبة يرفعه: « **كل امرئ فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس**» [4] قال يزيد: وكان أبو الخير لا يأتى عليه يوم إلا[ق/١٣٧أ] تصدق فيه ولو بكعكة أو بصلة .

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (١٨٨٧) وضعفه الألباني . انظر السلسلة الضعيفة (٨٧١).

(٢) في أ : افطر .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٨٨) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (١٤٨٨) .

(٤) أخرجه أحمد (١٧٣٧١) وأبو يعلى (١٧٦٦) وابن حبان (٣٣١٠) وابن خزيمة (٢٤٣١) والحاكم (١٥١٧) والطبراني في الكبير (٧٧١) وابن المبارك في الزهد (٦٤٥) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (١٤٨٨).

وفى حـديث معـاذ عن النبى ﷺ: « **والصـدقة تـطفئ الخطيـئة كـمـا يطفئ الماء النار**»[١].

وروى البيهقى[٢] ،من حديث أبى يوسف القاضـى، عن المختار بن فلفل، عن أنس يرفعه : « **باكروا بالصدقة ،فإن البلاء لا يتخطى الصدقة** » .

وفى «الصحيحين »[٣]، من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ ،قال : « **إذا تصدق العبد من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلاطيباً ـ أخذها الله بيمينه فيربيها لأحدهم ،كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله ،حتى تكون مثل الجبل العظيم** » . وفى لفظ للبيهقى[٤] فى هذا الحديث : « **حتى أن التمرة أو اللقمة لتكون أعظم من أحد** » .

وقال محمد بن المنكدر: « من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان » .وقد روى مرفوعاً من غير وجه[٥] .

وإذا كان الله سبحانه قد غفر لمن سقى كلباً على شدة ظمئه [٦]، فكيف بمن سقى العطاش ،وأشبع الجياع ،وكسا العراة من المسلمين؟ وقد قال رسول الله ﷺ : « **اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة** » [٧] . فجعل الكلم الطيب عوضاً عن الصدقة لمن لا يقدر عليها .

قالوا : وأين لذة الصدقة والإحسان .وتفريحهما القلب ،وتقويتهما إياه ،وما يلقى الله سبحانه للمتصدقين من المحبة والتعظيم فى قلوب عباده ،والدعاء لهم والثناء عليهم، وإدخال المسرات عليهم ،من أجر الصبر على الفقر ؟ نعم إن له لأجراً عظيماً ،لكن الأجر درجات عند الله .

قالوا : وأيضاً فالصدقة والإحسان والإعطاء وصف الرب تعالى ، وأحب عباده

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) وابن ماجة (٣٩٧٣) ، والنسائي في الكبرى (١١٣٩٤) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن الترمذي (٢١١٠) .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧٦٢٠) وفي الشعب (٣٠٨٣) موقوفاً وأخرجه في الشعب (٣٠٨٢) مرفوعاً . قال الشوكاني : في إسناده وضاع ومجهول وكذاب . انظر الفوائد المجموعة (١/ ٦١) وقال الألباني : ضعيف جداً . انظر ضعيف الجامع (٢٣١٧) .

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٠) ومسلم (١٠١٤) .

(٤) أخرجه في الشعب (٣٢٠١) .

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٣٠٩٤) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٩٠) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٢٠١٣) .

(٦) أخرجه البخاري (٦٠٠٩) ومسلم (٢٢٤٤) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه .

(٧) أخرجه البخاري (٦٥٦٣) ومسلم (١٠١٦) من حديث عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه .

إليه من اتـصف بذلك ، كما قـال النبى ﷺ : « **الخلق عيـال الله فأحب الخلـق إليه أنفعـهم لعـياله** » (١) .

قالوا : وقد ذكر الله سبـحانه أصناف السعداء ، فبدأ بالمتـصدقين أولهم ، فقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** ﴾ [الحديد: ١٨ ـ ١٩] ، فهؤلاء أصناف السعداء ،ومقتدموهم المصدقون والمصدقات .

قالوا : وفى الصدقة فوائد ومـنافع لا يحصيها إلا الله ،فمنهـا أنها تقى مصارع السوء، وتدفـع البلاء ،حتى أنهـا لتدفع عن الظالـم .قال إبراهيم النخـعى : وكانوا يرون أن الصـدقة تدفع عن الـرجل الظلوم ،وتطفئ الخطيـئة ،وتحـفظ المال ،وتجلب الرزق ،وتفرح القلـب، وتوجب الثقة بالله وحـسن الظن به ،كمـا أن البخل يوجب سوء الظن بالله ،وترغم الـشيطان ـ يعنى الصدقـة ـ وتزكى النفس وتنميهـا ،وتحبب العبـد إلى الله وإلى خلقه، وتستـر عليه كل عيـب ـ كما أن البخـل يغطى عليه كل حسنة ـ وتزيد فى العمـر ، وتستجلب أدعية الناس ومـحبتهم، وتدفع عن صاحـبها عذاب القبر ،وتكـون عليه ظلاً يوم القيامة ،وتشفع له عند الله ،وتهـون عليه شدائد الدنيا والآخرة ،وتدعوه إلى سـائر أعمال البر فلا تستعصى عليه ،وفـوائدها ومنافعها أضعاف ذلك .

قالوا : ولو لم يكن فى النفع والإحسان إلا أنه صفة الله، وهو سبحانه يحب من اتصف بموجب صفاته وآثارها ، فيحب العليم والجواد والحيي والستير، والمؤمن القوى أحب إليـه من المؤمن الضـعيف ، ويحب العـدل والعـفو والرحـيم والشكور والبـر والكريم، فصفته الغنى والجود ويحب الغنى الجواد .

قالوا : ويكفى فى فضل النفع المتـعدى بالمال أن الجزاء عليـه من جنس العمل ، فمن كـسا مؤمناً كسـاه الله من حلل الجنة ، ومن أشبع جـائعاً أشبعـه الله من ثمار الجنة، ومن سقى ظمـآناً سقاه الله من شـراب الجنة، ومن أعتق رقبـة أعتق الله بكل عضو منه عـضواً من النار حتى فرجه بـفرجه ،ومن يسر على[ق/١٣٨أ] معـسر يسر الله عليه [فى الدنيا والآخرة](٢) ،ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله

---

(١) أخرجـه أبو يعلى (٣٣١٥)، (٣٣٧٠) ، (٣٤٧٨) والبـزار في كشف الأسـتار (١٩٤٩) من حـديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال الألباني : ضعيف جداً . انظر ضعيف الجامع (٢٩٤٥) .

(٢) في أ : والآخرة في الدنيا .

عنه كربة من كرب يوم القيامة ،والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه .

قالوا : ونحن لا ننكر فضيلة الصبر على الفقر ،ولكن أين تقع من هذه الفضائل، وقد جعل الله لكل شيء قدراً .

قالوا : وقد جعل رسول الله ﷺ الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر (١) ، ومعلوم أنه إذا تعدى شكره إلى الإحسان إلى الغير ازداد درجة أخرى ،فإن الشكر يتضاعف إلى ما لا نهاية له ، بخلاف الصبر فإن له حداً يقف عليه. وهذا دليل مستقل فى المسألة ، يوضحه أن الشكر أفضل من الرضا الذى هو أعلى من الصابر. فإذا كان الشاكر أفضل من [الراضى](٢) ، الذى هو أفضل من الصابر ،كان أفضل من الصابر [فى درجتين](٣) .

قالوا : وفى الصحيحين ، من حديث الزهرى ، عن سالم ، عن أبيه قال : قال: رسول الله ﷺ : « **لا حسد إلا فى اثنتين :رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ،ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل والنهار** » (٤) . فجعل الغنى مع الإنفاق بمنزلة القرآن مع القيام به .

قالوا : وقد صرح فى حديث أبى كبشة الأنمارى(٥) أن صاحب المال إذا عمل فى ماله بعلمه ، واتقى فيه ربه . ووصل به رحمه ، وأخرج منه حق الله فهو فى أعلى المنازل عند الله ، وهذا صريح فى تفضيله . وجعل الفقير الصادق إذا نوى أن يعمل بعمله وقال ذلك بلسانه ثانياً ، وأنه بنيته وقوله وأجرهما سواء .فإن كلاً منهما نوى خيراً وعمل ما يقدر عليه فالغنى نواه ونفذه بعلمه ، والفقير العالم نواه ونفذه بلسانه فاستويا فى الأجر من هذه الجهة ، ولا يلزم من استوائهما فى أصل الأجر استواؤهما فى كيفيته [وتفاصيله](٦)، فإن الأجر على العمل والنية له مزية على الأجر على مجرد النية التى قارنها القول ومن نوى الحج ولم يكن له مال يحج به وإن أثيب على ذلك فإن ثواب من باشر أعمال الحج مع النية له مزية عليه .

وإذا أردت فهم هذا فتأمل قول النبى ﷺ : « **من سأل الله الشهادة صادقًا من قلبه بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه** » (٧). ولا ريب أن ما حصل لمقتول فى

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٢٩) ومسلم (٨١٥) من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ .
(٢) في أ : الرضى .
(٣) في أ : بدرجتين .
(٤) تقدم تخريجه .
(٥) تقدم تخريجه .
(٦) في أ : تفاضله .
(٧) أخرجه مسلم (١٩٠٩) من حديث سهل بن حنيف ـ رضي الله عنه.

سبيل الله من ثواب الشهـادة تزيد كيفيته وصفـاته على ما حصل لناوى ذلك إذا مات على فراشه ،وإن بلغ منزلة الشهـيد ،فهاهنا [أجران][(١)] : أجر وقرب ، فإن استويا فى أصل الأجر لكن الأعمال التى قام بها العـامل تقتضى أثرًا زائدًا وقربًا خاصًا وهو فضل الله يؤتيه من يشـاء ،وقد قال ﷺ :« **إذا تواجه المسلمـان بسيفـيهما فـالقاتل والمقتـول فى النار** » ،قـالوا : هذا القاتل فـما بال المقـتول ؟ قـال : « **إنه أراد قتل صاحبه** » [(٢)]، فاسـتويا فى دخول النار ولا يلزم اسـتواؤهما فى الدرجة ومـقدار العذاب ،فأعط ألفاظ رسول الله حقها ونزلها منازلها يتبين لك المراد .

يوضح هذا أن فقراء المهاجـرين شكوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور الأجور ،يصلون كمـا نصلى ويصومون كما نصـوم ، ولهم فضول أموال يحـجون بها ويعـتمرون ويجـاهدون ويتصدقـون .قال :« **أفلا أعلمكم شـيئًا تدركون به من سـبقكم وتسبـقون به من بعدكم . ولا يكون أحـد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟** » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : :« **تسبحـون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين** » . فرجع فقراء المهـاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله ﷺ :« **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**». فلو كانوا يلحقون بهم فى مقـدار الأجر بمجرد النية لقال لهم انووا أن تفعلوا مـثل فعلهم فتنالـوا مثل أجرهم ،فلما أعـاضهم عمـا فاتهم من ثواب الصدقة [ق/ ١٣٩أ] والعـتق والحج والاعتمار بما يتحـصل نظيره بالذكر علم أن الأغنياء قد فضلوهـم بالإنفاق ، فلما شاركوهم فى الذكر بقيـت مزية الإنفاق فشكوا إلى رسول الله أن الامتياز لم يزل. وأنهم قد ساوونا فى الذكر كما ساوونا فى الصوم والصـلاة ، فأخـبرهم أن ذلك فـضل الله يؤتيـه من يشاء فلو كـان لهم سبـيل إلى مساواتهم من كل وجه بالنيه والقول لدلهم عليها .

قال الفقراء : هذا الحديث حجة لنا إذا فهم على الحـقيقة ، وذلك أن معناه أنهم وإن كانوا قد ساووكم فى الإيمان والإسلام والصـلاة والصيام ثم فضلوكم فى الإنفاق ففى التكبير والتسبيح والتهليل ما يلحقكم بدرجتهم وقد ساويتموهم أيضًا بحسن النية إذ لو أمكنكم لأنفقتم مـثلهم وفى بعض ألفاظ هذا الحديث : « **إن أخذتم به سبـقتم من قبلكم ولم يلحـقكم من بعدكم** ». وهذا يدل على أن الأغنياء لا يلحـقونهم وإن

---

(١) في أ : أمران .

(٢) أخرجه البخاري (٣١) ومسلم (٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة ـ رضي الله عنه ـ .

قالوا ،مثل قـولهم وقوله ﷺ : « **ذلك فضل الله يؤتيـه من يشاء** » ، معناه أن فضل الله ليس مقصورًا عليكم دونهم، فكما أتاكم الله من فضله بالذكر كذلك يؤتيهم إياه إذا عملوا مثلكم أيضًا وليس في هذا دليل أنهـما أفضل منكم وإنما معناه أن فضل الله الذي بينا لكم بذكـره تناولهم مـثلكم أيضاً فـأنتم فـهمـتم من الفضل التـخصـيص فوضعـتموه فى غيـر موضعه .وإنما معناه العـموم والشمول . وأن فـضله عام شامل للأغنياء فلا تذهبون به دونهم . فأين في هذا الحديث التفضيل لكم علينا.

قالوا : ويحتمل قوله :« **ذلك فضل الله** » ثلاثة أمور : أحدها : سـبقهم لكم فى الإنفـاق .والثاني: مـساواتكم لهم فى فـضـيلة الذكر فلم يختـصـوا به دونهم. والثـالث: سـبقكـم لهم إلى الجنة بنصف يوم . وهذا وإن كـان لا ذكـر له فى هذه الرواية فهـو مذكور فى بعض طـرقه . قال البـزار فى «مسنده»[1] :حدثنا الوليد بن عمر، حدثنا مـحمد بن الزبرقان ،حدثنا موسى بن عبـيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: اشـتكى فقراء المهاجرين على رسول الله ﷺ مـا فضل به أغنياؤهم ، فقالوا: يا رسول الله إخواننا صدقوا تصديقنا، وآمنوا إيماننا ، وصاموا صيامنا ، ولهم أموال يتصدقون منها ويصلون منها الرحم وينفقونها فى سبيل الله .ونحن مساكين لا نقدر على ذلك ،فقال :« **ألا أخبركم بشيء إذا أنـتم فعلتموه أدركتم مـثل فضلهم ؟ قولوا : الله أكبر فى كل صلاة إحدى عـشرة مرة والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، وسبحان الله مـثل ذلك تدركون مـثل فضلهم** » ، ففعلـوا فذكروا ذلك للأغنيـاء ففعلـوا مثل ذلك ، فرجـع الفقراء إلـى رسول الله ﷺ فذكـروا ذلك له، فقالوا: هؤلاء إخواننا فعلوا مـثل ما نقول ،فقال: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء يا معشـر الفقراء ألا أبشـركم أن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قـبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمـسمـائة عام** ». وتلا موسى بن عـبيدة :﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج : ٤٧].

قالوا : فهـذا خبر واحـد وكلام متـصل ذكره ببشـارة لهم عندما ذكروا مـساواة الأغنياء لهم فى القول المذكور فأشبه أن يرجع الفضل إلى سبق الفقراء للأغنياء وأنهم بهـذه البشـارة مخـصـصـون فكان السـبق لهم دون غيـرهم وإن ساووهم فى القـول وساووهم فى الإنفـاق بالنية: كمـا فى حديث أبى كبشـة المتقدم وحـصلت لهم مزية

(١) أخرجه في كشف الأستار (٣٠٩٤) قال الهيثمي : إسناده ضعيف . انظر مجمع الزوائد (١٠/١٠١) .

الفقراء .

قالت الأغنياء : لقد بالغتم فى صرف الحديث عن مقصوده إلى جهتكم وهو صريح فى تفضيل هذا الجانب لمن أنصف ، فإن قوله :« **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء** » خرج جوابًا للفقراء عن قولهم: إن أهل الدثور قد ساووهم فى الذكر كما ساووهم فى الصلاة والصوم والإيمان ، وبقيت مزية الإنفاق ، ولم يحصل لهم ما يلحقهم فيها وما علمتنا من الذكر قد لحقونا فيه ،فقال لهم حينئذ :« **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء** » وهذا صريح جدا فى مقصوده ، فلما انكسر القوم لتحقيق السبق بالإنفاق الذى عجزوا عنه أخبرهم بالبشارة بالسبق إلى دخول الجنة [ق/ ١٤٠أ] بنصف يوم ، وأن هذا السبق فى مقابلة ما فاتكم من فضيلة الغنى والإنفاق .ولكن لا يلزم من ذلك رفعتهم عليهم فى المنزلة والدرجة ، فهؤلاء السبعون ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، من الموقوفين للحساب من هو أفضل من أكثرهم وأعلى منه درجة .

قالوا : وقد سمى سبحانه المال خيراً فى غير موضع من كتابه ، كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ ﴾ [البقرة : ١٨٠] ، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ⑧﴾ [العاديات : ٨] ، وأخبر رسول الله ﷺ أن الخير لا يأتى إلا بالخير كما تقدم وإنما يأتى بالشر معصية الله فى الخير لا نفسه . وأعلم الله سبحانه أنه جعل المال قواماً للأنفس وأمر بحفظها ،ونهى أن يأتى السفهاء من النساء والأولاد وغيرهم، ومدحه النبى ﷺ بقوله :« **نعم المال الصالح مع المرء الصالح** »(١) .وقال سعيد بن المسيب : لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله ، يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه ويعطى حقه . وقال أبو إسحاق السبيعى: كانوا يرون السعة عونًا على الدين . وقال محمد بن المنكدر : نعم العون على التقوى الغنى.وقال سفيان الثورى : المال فى زماننا هذا سلاح المؤمن . وقال يوسف بن أسباط : ما كان المال فى زمان منذ خلقت الدنيا أنفع منه فى هذا الزمان ، والخير كالخيل لرجل أجر ولرجل ستر ،وعلى رجل وزر .

قالوا : وقد جعل الله سبحانه المال سببًا لحفظ البدن ، وحفظه سبب لحفظ النفس

---

(١) اخرجه احمد (١٧٧٩٨) ، (١٧٨٣٥) وابن حبان (٣٢١٠) ، (٣٢١١) والحاكم (٢١٣٠) ، (٢٩٢٦) والبيهقي في الشعب (١١٩٠) وأبو يعلي (٧٣٣٦) والبخاري في الأدب المفرد (ص/ ٩٠، ٩١) من حديث عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ وصححه الألباني . انظر صحيح الأدب المفرد (٢٩٩) .

التى هى محل معرفة الله والإيمان به ،وتصديق رسله ومحبته والإنابة إليه، فهو سبب عمارة الدنيا والآخرة ، وإنما يذم منه ما استخرج من غـير وجهه وصرف فى غير حقه واستعـبد صاحبه وملك قـلبه وشغله عن الله والدار الآخرة، فيـذم منه ما توصل به صاحـبه إلى المقاصـد الفاسدة ،أو شـغله عن المقاصـد المحمودة ،فـالذم للجاعل لا للمجعول قال النبى ﷺ :« **تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم**» (١) ، فذم عبدهما دونهما.

قال الإمام أحمد(٢) : حدثنا أبو المغيرة حدثنا صـفوان عن يزيد بن ميسرة قال : كان رجل ممن مضى جمع مالا فأوعى ثم أقبل عـلى نفسه وهو فى أهله فقال: أنعمر سنين، فأتاه ملك الموت فقـرع الباب فى صورة مسكين فخرجوا إليـه فقال :ادعوا لى صاحب الدار. فـقالوا :يخرج سيـدنا إلى مثلك ثم مكث قليلا، ثم عاد فـقرع الدار وصنع مثل ذلك وقال: أخبروه أنى ملك الموت .فلما سمع سـيدهم فقام فزعًا وقال: لينوا له الكلام قالوا :مـا تريد غير سـيدنا ،بارك الله فيك .قال: لا ، فـدخل عليه فقال: قم فأوص ما كنت موصيًا فإنى قابض نفسك قبل أن أخرج. قال: فصرخ أهله وبكوا ثم قال : افتحوا الصناديق وافتحوا أوعية المال فـفتحوها جميعاً فأقبل على المال يلعنه ويسـبه. يقول: لعنـت من مال، أنت الذى أنسيـتنى ربى وشغلتنى عـن العمل لآخرتى حتى بلغنى أجلـى؛ فتكلم المال فقال: لا تسبنى، ألم تكن وضـيعًا فى أعين الناس فـرفعـتك . [ألم ير عليك من أثرى](٣). وكنت تحـضر سدد الملـوك والسادة فـتدخل ويحـضر عـباد اللـه الصالحـون فلا يدخلون؟ ألم تـكن تخطب بنات الملوك والسادة فـتنكح ويخطب عبـاد الله الصالحـون فلا ينكحون ؟ . ألم تكن تنـفقنى فى سبيل الخبث فلا أتعاصى ولو أنفقتنى فى سبيل الله لم أتعاص عليك؟ وأنت ألوم منى إنما خلقت أنا وأنتم يا بنى آدم من تـراب ، فمنطلق ببـر ومنطـلق بإثم فهـكـذا يقول المال فاحذروا.

وفى أثر يقول الله تبـارك وتعالى : « أموالنا رجـعت إلينا سعد بها من سـعد ، وشقى بها من شقى » .

قالوا : ومن فـوائد المال أنه قوام العـبادات والطاعـات. وبه قام سـوق بر الحج

---

(١)تقدم تخريجه .

(٢)أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٤٠، ٢٤١) من طريق أحمد بن حنبل به .

(٣)سقط من أ .

والجهاد وبه حصل الإنفاق الواجب والمستحب وبه حصلت قربات العتق والوقف وبناء المساجد والقناطر وغيرها وبه يتوصل إلى النكاح الذى هو أفضل من التخلى لنوافل العبادة، وعليه قام سوق المروءة .وبه ظهرت صفة الجود والسخاء وبه وقيت الأعراض وبه اكتسب الإخوان والأصدقاء .وبه توصل الأبرار إلى الدرجات العلى ومرافقة الذين أنعم الله عليهم، فهو مرقاة [ق/١٤١أ] يصعد فيها إلى أعلى غرف الجنة، ويهبط منها إلى أسفل سافلين، وهو مقيم مجد الماجد. كان بعض السلف يقول: لا مجد إلا بفعال. ولا فعال إلا بمال. وكان بعضهم يقول :اللهم إنى من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى.

وهو من أسباب رضا الله عن العبد كما يكون من أسباب سخطه عليه .وهؤلاء الثلاثة الذين ابتلاهم الله به : الأبرص والأقرع والأعمى. قال : به الأعمى رضا ربه، ونالا به سخطه .

والجهاد ذروة سنام العمل ،وتارة يكون بالنفس وتارة يكون بالمال وربما كان الجهاد بالمال أنكى وأنفع ،وبأى شئ فضل عثمان على على وعلى أكثر جهادًا بنفسه وأسبق إسلامًا من عثمان؟ وهذا الزبير وعبد الرحمن بن عوف، أفضل من جمهور الصحابة مع الغنى الوافر وتأثيرهما فى الدين أعظم من تأثير أهل الصفة .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعته، وأخبر أن ترك الرجل ورثته أغنياء خير له من تركهم فقراء، وأخبر أن صاحب المال لن ينفق نفقة يبتغى بها وجه الله إلا ازداد بها درجة ورفعة . وقد استعاذ رسول الله ﷺ من الفقر وقرنه بالكفر فقال:« **اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر** » (١) ،فإن الخير نوعان: خير الآخرة والكفر مضاده وخير الدنيا والفقر مضاده ،فالفقر سبب عذاب الدنيا ،والكفر سبب عذاب الآخرة، والله سبحانه وتعالى جعل إعطاء الزكاة وظيفة الأغنياء ،وأخذها وظيفة الفقراء، وفرق بين اليدين شرعًا وقدرًا ،وجعل يد المعطى أعلى من الآخذ. وجعل الزكاة أوساخ المال، ولذلك حرمها على أطيب خلقه وعلى آله صيانة لهم وتشريفًا ورفعا لأقدارهم .

ونحن لا ننكر أن رسول الله ﷺ كان فقيرًا ثم أغناه الله ، والله فتح عليه

---

(١) أخرجه النسائي (٥٤٨٥) من حديث أبي سعيد الخدري . وأخرجه أحمد (٢٠٣٩٧) ، (٢٠٤٤٦) والحاكم (٩٩) ، (٩٢٧) والنسائي في الكبرى (١٢٧٠) من حديث أبي بكرة . وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (١٢١٠) .

وخوله ووسع عليه ،وكان يدخر لأهله قوت سنة ،ويعطى العطايا التى لم يعطها أحد غيره، وكان يعطى عطاء من لا يخاف الفقر ومات عن فدك والنضير وأموال خصه الله بها وقال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الحشر:٧] ، فنزهه ربه سبحانه عن الفقر الذى يسوغ الصدقة ،وعوضه عما نزهه عنه بأشرف المال وأحله وأفضله وهو ما أخذه بظل رمحه وقائم سيفه من أعداء الله الذين كان مال الله بأيديهم ظلمًا وعدوانًا ،فإذا رجع إلى أوليائه وأهل طاعته فاء إليهم ما خلق لهم، ولكن لم يكن غنى رسول الله ﷺ وملكه من جنس غنى بنى الدنيا وأملاكهم ،فإن غناهم بالشيء وغناه ﷺ عن الشىء وهو الغنى العالى، وملكهم ملك يتصرفون فيه بحسب إرادتهم، وهو ﷺ إنما يتصرف فى ملكه تصرف العبد الذى لا يتصرف إلا بأمر سيده .

وقد اختلف الفقهاء فى الفيء هل كان ملكًا للنبى ﷺ على قولين : هما روايتان عن أحمد .والتحقيق أن ملكه له كان نوعًا آخر من الملك، وهو ملك يتصرف فيه بالأمر كما قال ﷺ : « **والله لا أعطى أحدًا ولا أمنع أحدًا إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت**»(١) . ذلك من كمال مرتبة عبوديته ،ولأجل ذلك لم يورث فإنه عبد محض من كل وجه لربه عز وجل والعبد لا مال له فيورث عنه .

فجمع الله له سبحانه بين أعلى أنواع الغنى وأشرف أنواع الفقر، فكمل له مراتب الكمال فليست إحدى الطائفتين بأحق به من الأخرى .

فكان ﷺ فى فقره أصبر خلق الله وأشكرهم وكذلك فى غناه، والله تعالى جعله قدوة للأغنياء والفقراء ،وأى غنى أعظم من غنى من عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض، وعرض عليه أن يجعل له الصفا ذهباً . وخير بين أن يكون ملكًا نبيًا وبين أن يكون عبدًا نبيًا ، فاختار أن يكون عبدًا نبيًا ومع [ق/ ١٤٢أ] هذا فجبيت إليه أموال جزيرة العرب واليمن فأنفقها كلها ولم يستأثر منها بشىء . بل تحمل عيال المسلمين ودينهم فقال: « **من ترك مالا فلورثته. ومن ترك كلا فإلى وعلى**»(٢) . فرفع الله سبحانه قدره أن يكون من جملة الفقراء الذين تحل لهم الصدقة ،كما نزهه أن يكون

---

(١) اخرجه البخاري (٣١١٧) من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أبو داود (٢٩٠٠) وابن ماجة(٢٧٣٨) وأحمد (١٧٢١٤) ، (١٧٢٤٣) والطيالسي(١١٥٠) وابن حبان (٦٠٣٦) والدارقطني (٥٧) والبيهقي في الكبرى (١١٩٨٩) وصححه الألباني . انظر صحيح سنن ابن ماجه (١٩٦٠) .ص٣٩٤

من جملة الأغنيـاء الذين أغناهم بالأموال الموروثة ،بل أغناه به عن سـواه وأغنى قلبه كل الغنى ، ووسع عليـه غاية السعة فـأنفق غاية الإنفاق وأعـطى أجل العطايا ، وما استأثر بالمال ولا اتخذ منه عقاراً ولا أرضًـا .ولا ترك شاة ولا بعيراً ولا عبدًا ولا أمة ولا ديناراً ولا درهمًا .

فإذا احتج الغنى الشاكر بحاله ﷺ لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يفعل فعله ، كما أن الفقـير الصابر إذا احـتج بحاله ﷺ لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يصـبر صبـره ، ويترك الدنيا اخـتياراً لا اضطراراً فـرسول الله ﷺ وفى كل مرتبـة من مرتبتى الفـقر والغنى حقها وعبـوديتها. وأيضاً فإن الله سبحانه أغنى به الفقـراء . فما نالت أمته الغنى إلا به، وأغنى الناس من صار غيره به غنيًا .

قـال على بن أبى رباح اللخمى : كنـت عند مسلمـة بن مخلد الأنصـارى وهو يومئذ على مصر وعبد الله بن عمرو بن العاص جالس معه . فتمثل مسلمة ببيت من شـعر أبى طالب ، فـقال : لو أن أبا طالب رأى مـا نحن فـيه اليـوم من نعمـة الله وكرامته لعلم أن ابن أخيه سيد قد جاء بخير [كثير][1] فقال[عبد الله بن عمرو][2]، ويومئذ كان سيدًا كريمًا قد جاء بخير، فقال مسلمة: ألم يقل الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾ [الضحى : ٦ـ ٨] . فقال عبد الله بن عـمرو : أما اليتـيم فقد كان يتـيمًا من أبويه . وأما العيلـة فكل ما كان بأيدى العرب إلى القلة . يقول: إن العرب كانت كلها مقلة حتى فتح الله عليه وعلى العرب الذين أسلمـوا ودخلوا فى دين الله أفواجًا، ثم توفاه الله قـبل أن يتلبس منها بشىء ومضى وتركها وحذر منها ومن فتنتها . قال: وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ وأما قـوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ ﴾[الضحى : ٥] . فلم تكن الدنيا لتـرضيه وهـو لا يرضاها كلها لأمتـه وهو يحـذر منها . وتعـرض عليه فيـأباها وإنما هو ما يعطيه من الثـواب ، وما يفتح عليـه وعلى أمته من ملك كـسرى وقيـصر ، ودخـول الناس فى الإسـلام وظهور الدين إذا كـان ذلك محـبتـه ورضاه صلوات الله وسلامه عليه» (٣) .

وروى سفيان الثورى عن الأوزاعى عن إسماعـيل عبيد الله بن علي بن عبد الله

---

(١)سقط من ب . (٢)في أ : عبد الله بن عمر .

(٣)أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٧/ ٦٢) .

ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « **رأيت ما هو مفتوح بعدى كـفرًا كفرًا فسرنى ذلك : فنزلت** : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [الضحى : ٥] . قال : «**أعطانى ألف قـصـر من لؤلؤ ترابهـا المسك فى كل قـصر مـا ينبغى له**»(١) .

قالوا : وما ذكرتم من الزهد فى الدنيا والتقلل منها ،فالزهد لا ينافى الغنى ، بل زهد الغنى أكمل من زهد الفقير فإن الغنى زهد عن قدرة ،والفـقير عن عجز وبينهما بون بعيـد ولهذا قال بعض السلف : وقد سـمي له جماعة من الزهاد فـقال: الزاهد عمر بن عـبد العزيز الذي جاءت الدنيا تحت قدمـيه فزهد فيها وقـد كان رسول الله ﷺ فى حـال غناه أزهد الخلق ، وكذلك إبراهـيم الخليل كان كـثيـر المال وهو أزهد الناس فى الدنيا .

وقد روى التـرمذى فى «جامـعه »(٢)، من حديث أبى ذر عن النبى ﷺ قال : «**الزهادة فى الدنيا ليست بتحريم الحـلال ولا إضاعه المال . ولكن الزهادة فى الدنيا أن لا تكون بما فى يديك أوثق بما فى يد الله وأن تكون فـى ثواب المصيبـة إذ أنت أصبت بها أرغب فى ثوابها لو أنها بقيت لك** » .

وسئل الإمام أحمـد : عن الرجل يكون معه ألف دينار [وهل](٣) يكون زاهدًا ؟ قال : نعم بشرط أن لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت .

وقال بعض السلف : الزاهد من لا يغلب الحلال شكره ولا الحرام صبره .

وهذا من أحسن الحدود : [فإن الزهد](٤) حقيـقة مركبة من الصـبر والشكر فلا يستحق اسم الزاهد من لا يتصف بهما . فمن غلب شكره لما وسع عليه من الحلال ، وصبـره لما عرض له من الحـرام فهو الزاهد علـى الحقيـقة ، بخلاف من غـلب عليه الحلال شكره والحرام صبره ، فكان شكره وصبره مغلوبين فإن هذا ليس بزاهد .

وسمـعت شيخ الإسلام يقـول : الزهد تركك ما لا ينفـعك ، والورع تركك ما [قد](٥) يضرك .

فالزهد فراغ القلب من الدنيـا لا فراغ [اليدين](٦) منها، ويقابله الشح والحرص

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٧/ ٦١) .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٤٠) وابن ماجه (٤١٠٠) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٣١٩٤) .

(٣) سقط من أ .

(٤) سقط من ط و ب .

(٥) سقط من ط و ب .

(٦) في أ : اليد .

وهو ثلاثة أقسام : زهد فى الحرام ،وزهد [ق/ ١٤٣أ] فى الشبهات والمكروهات وزهد فى الفضلات. فالأول: فرض والثانى :فضل والثالث : متوسط بينهما بحسب درجة الشبهة، وإن قويت التحق بالأول وإلا فبالثالث ،وقد يكون الثالث واجباً بمعنى أنه لا بد منه ، وذلك لمن شمر إلى الله والدار الآخرة ، فزهد الفضلة يكون ضرورة ، فإن إرادة الدنيا قــادحة فى إرادة الآخرة ، ولا يصح لــلعبد مــقام الإرادة حتى يفــرد طلبه وإرادته ومطلوبه ، فلا ينقسم المطلوب ولا الطلب .

أما توحـيد المطلوب: أن لا يتعلق طلبــه وإرادته بغير الله وما يقــرب إليه ويدنى منه. وأما توحيــده فى الطلب أن يستأصل الطلب والإرادة نوازع الشــهوات وجواذب الهوى، وتسكن الإرادة فى أقطار النفس فتــملأها فلا يدع فيها فضــلا لغير الانجذاب إلى جانب الحق جل جلاله فتتمحض الإرادة له ،ومــتى تمحضت كان الزهد لصاحبها ضرورة، فإنه يفرغــه لعمارة وقته وجمع قلبه على ما هو بصــدده وقطع موارد طمعه اللاتى هى من أفــســد شىء للقلب ،بل أصل المعــاصى والفــساد والفــجــور كله من الطمع، فــالزهد يقطع مواده ويفــرغ البال ويملأ القلب. ويســتحث الجــوارح ويذهب الوحشة التى بين العبد وبين ربه ،ويجلب الأنس به ويقوى الرغبة فى ثوابه إن ضعف عن الرغبة فى قربه والدنو منه وذوق حلاوة معرفته ومحبته .

فالزاهد أروح الناس بدنًا وقلبًا ، فإن كان زهده وفراغه من الدنيا قوة له فى إرادة الله والدار الآخرة ،بحيث فرغ قلبه لله وجعل حــرصه على التقريب إليه وشحه على وقتــه أن يضيع منه شىء فى غــير مــا هو أرضى لله وأحب إليه كــان من أنعم الناس عيشًا وأقربهم عــينًا وأطيبهم نفسًا وأفرحهم قلبًا ، فإن الرغــبة فى الدنيا تشتت القلب وتبدد الشمل وتطيل الهم والغم والحزن ،فــهى عذاب حاضر يؤدى إلى عذاب منتظر أشد منه ، وتفوت على الــعبد من[النعم][1] أضعــاف ما يروم تحصيله بالرغــبة فى الدنيا.

قال الإمام أحمد[2] : حدثنا الهيثم بن جميل ، حدثنا محمد ـ يعنى ابن مسلم ـ عن إبراهيم ـ يعنى ابن ميسرة ـ عن طاووس قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الزهد فى الدنيا يريح القلب والبدن وإن الرغبة فى الدنيا تطيل الهم والحزن** » .

---

(١) في أ : النعيم .

(٢) أخرجــه في الزهد (ص/ ١٠) وابن أبي الدنيا في ذم الدنيــا (١٣١) وضعفــه الألباني . انظر ضعــيف الجامع (٣١٩٥) .

وإنما تحصيل الهموم والغموم والأحزان من جهتين : إحداهما : الرغبة فى الدنيا والحرص عليها والثانى: التقصير فى أعمال البر والطاعة . قال عبد الله بن أحمد(١): حدثنى بيـان بن الحكم حدثنا محمـد بن حاتم عن بشر بن الحارث قـال : حدثنا أبو بكر بن عـياش عن ليث عن الحكم قـال : قال رسـول الله ﷺ :« **إذا قصـر العبد بالعمل ابتلاه الله عز وجل بالهم** » .

وكما أن الرغـبة فى الدنيا أصل المعاصى الظاهرة فهـى أصل معاصى القلب من [التسخط](٢) والحسد والكبر والفخـر والخيلاء والتكاثر . وهذا كله من امتلاء القلب بها لا من كـونها فى اليـد ، وامتـلاء القلب بها ينافى الشكر ، ورأس الشكـر تفريغ القلب منها وبالله التوفيق.

وامتداد المال كامتداد العمر والجاه ، [فخيركم في الدنيا](٣) من طال عمره وحسن عمله ، فهكذا من امتـد ماله وكثر به خيره فنعم المرء وماله وجـاهه . وإما أن يرفعه درجات وإما أن يضعه درجات .

وسر المسـألة أن طريق الفقـر والتقلل طريق سـلامة مع الصبـر ، وطريق الغنى والسعة فى الغالب طريق عطب ، فإن اتقى الله فى ماله ووصل به رحمه وأخرج منه حق الله . وليس مقصـوراً على الزكاة ، بل من حقه إشباع الجـائع ، وكسوة العارى وإغـاثة الملهوف [وإعـانة](٤) المحـتاج والمضطر . فطريقـه طريق غنيـمة وهى فـوق السلامة.

فمثل صاحب الفـقر كمثل مريض قد حبس بمرضه عن أغراضـه فهو يثاب على حسن صبره على حبـسه . وأما الغنى فخطره عظيم فى جمعه وكسـبه وصرفه، فإذا سلم كسبه وحسن أخذه من وجهه وصرفه فى حقه كان أنفع له .

فالفقـير كالمتعـبد المنقطع عن الناس، والغنى المنفق فى وجوه الخـير [كالمعين](٥) والمعلم والمجاهد [ق/ ١٤٤أ]، ولهذا جعله النبى ﷺ قـرين الذى أتاه الله الحكمة فهو يقضى بهـا ويعلمها. فـهو أحد المحسـودين اللذين لا ثالث لهما. والجـهلة يغبطون [المنفق والعالم](٦) المتخلى المقصور النفع على نفسه ويجعلونه أولى بالحسد من الغنى المنفق والعالم المعلم .

---

(١) أخرجه في زوائده على الزهد (ص/ ١٠) .
(٢) في أ : السخط
(٣) في أ : فخير الناس .
(٤) في أ : وإغاثة .
(٥) في أ : كالمفتي .
(٦) في ط و ب : المنقطع .

فإن قيل فأيهما أفضل : من يختار الغنى والتصدق والإنفاق فى وجوه البر أم من يختـار الفقر والـتقلل ليبـعد عن الفتـنة ويسلم من الآفة ويرفه قلـبه على الاستـعداد للآخرة فلا يشغله بالدنيا ،أم من لا يختـار لا هذا ولا ذاك، بل يختار ما يختاره الله له فلا يعين باختياره واحدا من الأمرين .

قيل : هذا موضع اختلف فيه حال السلف الصالح، فمنهم من اختار المال للجهاد به والإنفاق وصرفه فى وجوه البر كعبد الرحمن بن عوف وغيره من مياسير الصحابه، وكان قيس بن سـعد يقول: اللهم إنى من عبـادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى ومنهم من اختار الفقر والتقلل كأبى ذر وجمـاعة من الصحابة معه، وهؤلاء نظروا إلى آفات الدنيا وخشوا الفتنة بها، وأولئك نظروا إلى مصالح الإنفاق وثمراته العاجلة والآجلة. والفرقة الثالثة لم تختر شيئًا بل كان اختيارها ما اختاره الله لها .

وكذلك اخـتيار طول البقـاء فى الدنيا لإقامة ديـن الله وعبادته، فطائفة اخـتارته وتمنته، [وطائفة أحبت الموت ولـقاء الله والراحة من الدنيا] (1)[ق/ ١٤٦] أ، وطائفة ثالثة لم تختر هذا ولا ذاك بل اخـتارت ما يختاره الله لها .وكان اختـيارهم معلقاً بما يريده الله دون مراد معين منهم، وهى حال الصديق رضى الله عنه فإنهم قالوا له فى مرض موته ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: قـد رآنى، فقالوا : فما قال لك؟ قال لى: إنى فعال لما أريد»(2) .

والأولى حال مـوسى عليه السلام ،فإنه لما جـاءه ملك الموت لطمه ففقـأ عينه ، ولم يكن ذلك حبًا منه للدنيـا والعيش فيها ولكن لينفذ أوامـر ربه ويقيم دينه ويجاهد أعداءه فكأنه قال لملك الموت: أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور وأنا فى تنفيذ أوامر ربى وإقامة دينه، فلما عـرضت عليه الحياة الطويلة وعلم أن الموت بعدها اختـار ما اختاره الله له.

وأما نبـينا صلوات الله وسلامه عليـه ،[فإن ربه أرسل إليه يخيـره ،وكان أعلم الخلق بالله](3)فعلم أن ربه تبارك وتعالى يحب لقاءه ويختـاره له فاختار لقاء الله ، ولو علم أن ربه يحب له البقاء فى الدنيا لتنفيذ أوامره وإقامة دينه لما اختار غير ذلك، فكان اختياره تابعًا لاختيار ربه عز وجل .فكما أنه لما خيره ربه عز وجل بين أن يكون ملكًا نبيا وبين أن يكون عبدًا نبيًا ،وعلم أن ربه يختـار له أن يكون عبدًا نبياً اختار ما

---
(1) سقط من أ .　　(2) تقدم تخريجه

(3) في أ : فإن ربه تبارك وتعالى يحب لقاءه ويختاره له فاختار لقاء الله .

اختاره الله له، فكان اختياره فى جميع أموره تابعًا لاختيار الله له، ولهذا يوم الحديبية احتمل مـا احتمل من تلك الشروط فى ذاك الوقت ووفى هذا المقام حـقه ،ولم يثبت عليه من كل وجه إلا الصديق، فلم يكن له اختيـار سوى ما اختاره الله له ولأصحابه من تلك الحال التى تقرر الأمر منهـا فكان راضيا بها مختاراً لها ،مـشاهدًا اختيار ربه لها ،وهذا غاية العبودية، فشكر الله له ذلك وجعل شكرانه ما بشره به فى أول سورة الفتح حتى هنأه الصحابة به وقالوا: هنيئًا لك يا رسول الله ، وحق له أن يهنأ بأعظم ما هنأ به بشر صلوات الله وسلامه عليه .

(فصل)

ومما ينبغـى أن يعلم أن كل خصلة من خـصال الفضل قـد أحل الله ـ سبـحانه ـرسوله ﷺ فى أعلاها وخصه بذروة سنامها ،فإذا احتجت بحاله فرقة من فرق الأمة التى تفرقت تلك الخصال وتقـاسمتها على فضلها على غيـرها ،أمكن الفرقة الأخرى أن تحتـج به على فضلهـا أيضًا، فـإذا احتج به الغـزاة والمجاهدون على أنهم أفـضل الطوائف، احتج به العلماء والفقهاء على مثل ما احتج به أولئك.

وإذا [ما](١) احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم احتج به الداخلون فى الدنيا والولاية وسياسة الرعية لإقامة دين الله وتنفيذ أمره.

وإذا احتج به الفقير الصابر احتج به الغنى الشاكر.

وإذا احتج به [أهل](٢) العبادة ـ على فضل نوافل العبـادة وترجيحها ـ احتج به العارفون على فضل المعرفة .

وإذا احتج به أربـاب التواضع [ق/ ١٤٥أ] والحلم، احـتج به أرباب العز والقـهر المبطلين والغلظة عليهم والبطش بهم.

وإذا احتج به أرباب الوقار والهيبة والرزانة، احتج به أرباب الخلق الحسن والمزاح المباح الذى لا يخرج عن الحق وحسن العشرة للأهل والأصحاب.

وإذا احتـج به أصحـاب الصدع بالحق والقـول به فى المشهـد والمغيب احـتج به أصحاب المداراة والحياء والكرم أن يبادروا الرجل بما يكرهه فى وجهه.

وإذا احتج به المتورعون على الورع المحمـود ، احتج به الميسرون المسهلون الذين لا يخرجون عن سعة شريعته ويسرها وسهولتها .

---

(١) سقط من أ . (٢) سقط من أ .

وإذا احـتج به من صـرف عنايتـه إلى إصـلاح دينه وقلبـه، احـتج به من راعى إصلاح بدنه ومعيشته ودنياه فإنه ﷺ بعث لصلاح الدنيا والدين.

وإذا احـتج به من لم يعلق قلبـه بالأسبـاب ولا ركن إليهـا ، احتج به من قـام بالأسباب ووضعها مواضعها وأعطاها حقها .

وإذا احتـج به من جاع وصـبر على الجـوع ،احتج به من شـبع وشكر ربه على الشبع وإذا احـتج به من أخذ بالعـفو والصـفح والاحتـمال، احتج به من انـتقم فى مواضع الانتقام.

وإذا احتج به من أعطى لله ووالى لله ،احتج به من منع لله وعادى لله.

وإذا احتج به من لم يدخر شيئاً لغد، احتج به من يدخر لأهله قوت سنة.

وإذا احتج به من يأكل الخشن من القـوت والأدم كخبز الشعـير والخل، احتج به من يأكل اللذيذ الطيب، كالشواء والحلوى والفاكهة والبطيخ ونحوه .

وإذا احتج به من سرد الصوم ،احتج به من سرد الفطر فكان يصوم حتى يقال : لا يفطر ويفطر، حتى يقال : لا يصوم.

وإذا احتج به من رغب عن الطيبات والمشتـهيات احتج به من أحب أطيب ما فى الدنيا وهو النساء والطيب .

وإذا احتج به من ألان جـانبه وخـفض جناحه لنسائه، احـتج به من أدبهن وآلى منهن وطلق وهجرهن وخيرهن .

وإذا احتج به من ترك مباشـرة أسباب المعيشة بنفسه، احـتج به من باشرها بنفسه فأجر واستأجر وباع واشترى واستسلف وأدان ورهن.

وإذا احتج به من يجتنب النساء بالكلية فى الحـيض والصيام. احتج به من يباشر امرأته وهى حـائض بغير الوطء ومن يقـبل امرأته وهو صـائم وإذا احتج به من رحم أهل المعاصى بالقـدر احتج به من أقام عليهم حدود الله فـقطع السارق ورجم الزانى وجلد الشارب .

وإذا احتج به من أرباب الحـكم بالظاهر ،احتج به أرباب السيـاسة العـادلة المبنية على القرائن الـظاهرة، فإنه حبس فى تهـمة وعاقب فى تهـمة .وأخبـر عن نبى الله سليمان أنه عليه السلام حكم بالولد للمرأة بالقرينة الظاهرة مع اعترافها لصاحبتها به،

فلم يحكم بالاعتراف الذى ظهر له بطلانه بالقرينة (١) ، وترجم أبو عبد الرحمن(٢) على الحديث ترجـمتين: إحداهما : قـال التوسعة للحـاكم أن يقول للشيء الذى لا يفعله افعله ليستبين به الحق ،ثم قـال : الحكم بخلاف ما يعترف به المحكوم عليه،إذا تبين للحاكم أن الحق غير مـا اعترف به ،وكذلك الصحابة عمـلوا بالقرائن فى حياته وبعده، فقال على رضى الله عنه للمرأة التى حملت كتاب حاطب: لتخرجن الكتاب أو لأجردنك (٣) ، وحد عمر ﷺ فى الزنا بالحبل، وفى الخمر بالرائحة .

وحكى الله سبحانه عن شاهد يوسف حكاية تقرير غير منكر أنه حكم بقرينة شق القميص من دبر على براءته .وقال ﷺ : لابن أبى الحقيق وقد زعم أن النفقة أذهبت كنز حيي بن أخطب: « **العهد قريب والمال أكثر من ذلك** » (٤) ،فاعتبر قرينتين دالتين على بقاء المال وعاقبه حتى أقر به ،وجوز لأولياء القتيل أن يحلفوا على رجل أنه قتله ويقتلونه به بناء على القرائن المرجحة صدقهم، وشرع الله سبحانه رجم المرأة إذا شهد عليها زوجها فى اللعان وأبت أن تلاعن للقرينة الظاهرة على صدقه .

وشـريعتـه ﷺ طافحـة بذلك لمن تأملها ، فـالحكم بالقـرائن الظاهرة من نفس [ق/١٤٦أ] شريعتـه وما جاء به فهو حجـة لقضاة الحق وولاة العدل ،كمـا أنه حجة على قضاة السوء وولاة الجور والله المستعان .

والمقـصود بهـذا الفـصل أنه ليس الفـقراء الصـابرون بأحق به ﷺ من الأغنيـاء الشاكرين، وأحق الناس به [أعلمهم بسنته وأتبعهم لها] (٥) ، وبالله التوفيق .

* * * *

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٦٩) ومسلم (١٧٢٠) .

(٢) أبو عبد الرحمن هو الإمام النسائي . انظر المجتبي (٥٤٠٣) ، (٥٤٠٤) .

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٧٤) .

(٤) أخـرجـه ابن حـبـــان (٥١٩٩) والبـيـهـقي في الكبـرى (١٨١٦٨) والـدلائل (٤/٢٢٩ـ ٢٣١) وأصله في الصحيحين.

(٥) في أ : أتبعهم لسنته وأعلمهم بها .

الباب الخامس والعشرون
فى بيان الأمور المضادة للصبر والمنافية له والقادحة فيه

لما كان الصبر حبس اللسان عن الشكوى إلى غير الله ،والقلب عن [التسخط][(١)]، والجوارح عن اللطم وشق الثياب ونحوها ـ كان ما يضاده واقعًا على هذه الجملة.

فمنه الشكوى إلى المخلوق فإذا شكا العبد ربه إلى مخلوق مثله فقد شكا من يرحمه إلى من لا يرحمه ،ولا تضاده الشكوى إلى الله كما تقدم فى شكاية يعقوب إلى الله مع قوله : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:١٨] ، وأما إخبار المخلوق بالحال، فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته والتوصل إلى زوال ضرره، لم يقدح ذلك فى الصبر: كإخبار المريض للطبيب بشكايته، وإخبار المظلوم لمن ينتصر به بحاله، وإخبار المبتلى ببلائه لمن كان يرجو أن يكون فرجه على يديه .وقد كان النبى ﷺ إذا دخل على المريض يسأله عن حاله، ويقول: « **كيف تجدك ؟** » [(٢)] ، وهذا استخبار منه واستعلام بحاله .

وأما الأنين: فهل يقدح فى الصبر ؟ فيه روايتان عن الإمام أحمد، قال أبو الحسين: أصحهما الكراهة لما روى عن طاوس أنه كان يكره الأنين فى المرض وقال مجاهد: كل شيء يكتب على ابن آدم مما يتكلم حتى أنينه فى مرضه قال هؤلاء: وإن الأنين شكوى بلسان الحال ينافي الصبر . وقال عبد الله ابن الإمام أحمد :قال لي أبي فى مرضه الذي توفي فيه : أخرج إلي كتاب عبد الله بن إدريس. فأخرجت الكتاب، فقال : أخرج أحاديث ليث بن أبي سليم ،فأخرجت أحاديث ليث، فقال : اقرأ على أحاديث ليث، قال: قلت لطلحة: إن طاووساً كان يكره الأنين فى المرض، فما سمع له أنين حتى مات. فما سمعت أبي أن فى مرضه ذلك إلى أن توفى.

والرواية الثانية : أنه لا يكره ولا يقدح فى الصبر .قال بكر بن محمد عن أبيه: سئل أحمد عن المريض يشكو ما يجد من الوجع، فقال : تعرف فيه شيئًا عن رسول

---

(١) في أ : السخط .

(٢) أخرجه الترمذي (٩٨٣) وابن ماجه (٤٢٦١) عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وصححه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (١٠٥١) .

الله ﷺ؟ قال : نعم، حديث عائشة «وارأساه»[(١)] وجعل يستحسنه .

وقال المروذي: دخلت على أبي عبد الله وهو مريض ،فسألته، فتغرغرت عيناه، وجعل يخبرني ما مر به فى ليلته من العلة .

والتحقيق أن الأنين على قسمين: أنين شكوى فيكره ،وأنين استراحة وتفريج فلا يكره. والله أعلم .

وقد روى فى أثر: أن المريض إذا بدأ بحمد الله، ثم أخبر بحاله، لم يكن بشكوى وقال شقيق البلخي :من شكا من مصيبة نزلت به إلى غير الله، لم يجد فى قلبه حلاوة لطاعة الله أبدًا.

(فصل)

والشكوى نوعان: شكوى بلسان الحال ، وشكوى بلسان القال ،ولعلها أعظمها. ولهذا أمر النبي ﷺ من أنعم عليه: أن يظهر أثر نعمة الله عليه. وأعظم من ذلك من يشتكي ربه وهو بخير فهذا أمقت الخلق عند ربه .

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن زيد، حدثنا كهمس ،عن عبد الله بن شقيق ، قال : قال كعب الأحبار : إن من حسن العمل سبحة الحديث ومن شر العمل التحذيف.

قيل لعبد الله: ما سبحة الحديث؟ قال: سبحان الله وبحمده فى خلال الحديث. قيل: فما التحذيف؟ قال : يصبح الناس بخير، فينالون، فيزعمون أنهم بشر .

(فصل)

ومما ينافي الصبر فى شق الثياب عند المصيبة ،ولطم الوجه ،والضرب بإحدى اليدين على الأخرى ،وحلق الشعر، والدعاء بالويل ،ولهذا برئ النبي ﷺ ممن صلق وحلق وخرق .صلق : رفع صوته عند المصيبة ،وحلق رأسه، وشق ثيابه، ولا ينافيه البكاء والحزن ،قال الله تعالى عن يعقوب: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤]. قال قتادة: كظيم على الحزن فلم يقل إلا خيرًا .

وقال حماد بن سلمة ،عن على بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال : « **ما كان من العين والقلب فمن الله والرحمة، وما**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٦٦) .

كان من اليد واللسان فمن الشيطان » (١).

وقال هشيم [ق/١٤٧أ] ،عن عبد الرحـمن بن يحيى، عن حبان بن أبي جبلة، قال : قال رسول الله ﷺ: « **من بث لم يصبر** » (٢).

وقال خالد بن أبي عـثمان : مات ابن لي فرآني سعـيد بن جبير متقـنعًا فقال : إياك والتقنع، فإنه من الاستكانة .

وقال بكر بن عبد الله المزني: كان يقـال : من الاستكانة الجلوس فى البيت بعد المصيبة.

وقال عـبيد بن عمـير: ليس الجزع أن تدمع العين ويحـزن القلب، ولكن الجزع القول السيئ والظن السيئ .

وسئل القاسم بن محمد عن الجزع ،فقال : القول السيئ والظن السيئ .

ومات ابن لبعض قضاة البصرة ،فاجتمع إليه العلماء والفقهاء، فتذاكروا ما يتبين به من جزع الرجل من صبره ،فأجمعوا أنه إذا ترك شيئًا مما كان يصنعه فقد جزع.

وقال [الحسن] (٣) بن عبد العزيز الجروي: مات ابن لي نفيس ،فقلت لأمه: اتقي الله واحتسبيه، واصبري، فقالت : مصيبتي به أعظم من أن أفسدها بالجزع .

وقال عبـد الله بن المبارك : أتى رجل يزيد بن يزيد وهو يصلي وابنه فى الموت، فقال: ابـنك يقضي وأنت تصلي؟! فقال : إن الرجل إذا كـان له عمل يعمله فـتركه يومًا واحدًا كان ذلك خللا فى عمله .

وقال ثابت : أصيب عبد الله بن مطرف بمصيبـة فرأيته أحسن شىء سارة وأطيبه ريحًا، فذكرت له ما رأيت[منه](٤)، فقال : تأمرنى يا أبا محمد أن أستكين للشيطان وأريه أنه قد أصـابنى سوء ؟! والله يا أبا محمـد لو كانت لى الدنيا كلهـا ثم أخذها منى ثم سقانى شربة يوم القيامة ما رأيتها ثمنا لتلك الشربة .

ومما يقدح فى الصبر إظهار المصيبة ،والتحـدث بها. وكتمانها رأس الصبر، وقال الحسن بن الصباح فى مسنده: حدثنا خلف بن تميم حـدثنا زافر بن سليمان، عن عبد

---

(١) أخرجه أحمد (٣١٠٣) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٤٧) .
(٢) تقدم تخريجه .
(٣) في أ : الحسين .
(٤) سقط من ط و ب .

العزيز ابن أبي رواد ، عن نافع عن ابن عمر، قال : قال رسول الله ﷺ :« **من البر كتمان المصائب والأمراض والصدقة** » ، وذكر أنه : « **من بث الصبر لم يصبر**» [(١)] ، وروى من وجه آخر عن الحسن يرفعه : «**من كنوز البر كتمان المصائب، وما صبر من بث**» [(٢)] .

ولما نزل فى إحدى عـينى عطاء الماء ،مكث عشرين سنـة لا يعلم به أهله ،حتى جاء ابنه يومًا من قبل عينيه، فعلم أن الشيخ قد أصيب .

ودخل رجل على داود الطائى فى فراشـه فرآه يرجف ، فقـال : إنا لله وإنا إليه راجعون ،فقـال : مه ، لا تعلم بهذا أحداً .وقد أقعد قـبل ذلك أربعة أشهر لا يعلم بذلك أحد .

وقال مغيـرة :شكا الأحنف إلى عمه وجع ضرسه ،فكرر ذلك عنيـه فقال : ما تكرر على ،لقد ذهبت عينى منذ أربعين سنة فما شكوتها إلى أحد .

(فصل)

ويضاد الصبر الهلع ، وهو الجزع عند ورود المصيبة ، والمنع عند ورود النعمة . قال : تعالى : ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا**﴾ [المعارج : ١٩ ـ ٢١] . وهذا تفسير الهلوع .

قال الجوهرى : الهلع: أفحش الجزع ، وقد هلع بالكسر فهو هلع وهلوع .

وفى الحديث : « **شر ما فى العبد شح هالع وجبن خالع** » [(٣)] .

قلت : هنا أمران : أمر لفظى ، وأمر معنوى :

فأما اللفظى : فإنه وصف الشح بكونه هالعًا ، والهالع صاحبه ، وأكثر ما يسمى هلوعًا ، ولا يقال: هالع له ، فإنه لا يتعدى ، ففيه وجهان :

أحدهما : أنه على النسب كقولهم: ليل نائم،وسـر كاتم ، ونهار صائم ، ويوم عاصف . كله عند سيبويه على النسب ، أى ذو كذا كما قالوا: تامر ولابن .

والثانى : أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع . وله نظير .

---

(١) أخرجه الروياني في مسنده (١٤٤٧) وأبو نعيم في الحلية (٨/١٩٧) وابن عدي في الكامل (٥/٢٩٦) وضعفه الألباني . انظر السلسلة الضعيفة ٦٩٣) .

(٢) قال الألباني : موضوع . انظر السلسلة الضعيفة (٦٦٤) .

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥١١) وأحمد (٧٩٩٧) ، (٨٢٤٦) وابن أبي شيبة في مصنفه (٦٦٦٠) وابن حبان (٣٢٥٠) والبيهقي (١٨٣٤٢) من حديث أبي هريرة . وصححه الألباني . انظر السلسلة الصحيحة (٥٦٠).

وأما المعنوى : فإن الشح والجبن أردى صفتين فى العبد ، ولا سيما إذا كان شحه هالعًا. أى ملق له فى الهلع ، وجبنه خالعًا . أى قد خلع قلبه من مكانه ، فلا سماحة ولا شجاعة ولا نفع بماله ولا ببدنه ، كما يقال : لا طعنة ولا حفنة ، ولا يطرد ولا يشرد، بل قد قمعه وصغره وحقره ودساه الشح والخوف والطمع والفزع .
وإذا أردت معرفة الهلوع ، فهو الذى إذا أصابه الجوع مثلا أظهر الاستجاعة وأسرع بها ،وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها وإذا أصابه القهر أظهر الاستطامة والاستكانة وباء بها سريعا وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعًا ، وإذا ظفر به أحله من نفسه محل الروح ، فلا احتمال ولا أفضال ، وهذا كله من صغر النفس . ودناءتها وتدسيسها فى البدن وإخفائها وتحقيرها . . والله المستعان .

*****

الباب السادس والعشرون
فى بيان دخول الصبر والشكر
فى صفات الرب جل جلاله وتسميته بالصبور والشكور
ولو لم يكن للصبر والشكر من الفضيلة إلا ذلك لكفى به

أما الصبر : [ق/١٤٨أ] فقد أطلقه عليه أعرف الخلق به وأعظمهم تنزيهًا له بصيغة المبالغة ، ففى « الصحيحين» ، من حديث الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن أبي عبد الرحمن السلمى عن أبي موسى، عن النبى ﷺ ، قال : « **ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله عز وجل ، يدعون له ولدًا وهو يعافيهم ويرزقهم** » [(١)] .

وفى أسمائه الحسنى : الصبور ، وهو من أمثلة المبالغة ، أبلغ من الصابر والصبار . وصبره تعالى يفارق صبر المخلوق ، ولا يماثله من وجوه متعددة ، منها أنه على قدرة تامة، ومنها أنه لا يخاف الفوت ، والعبد إنما يستعجل لخوف الفوت ، ومنها أنه لا يلحقه بصبره ألم ولا حزن ولا نقص بوجه ما . وظهور أثر هذا الاسم فى العالم مشهود بالعيان كظهور اسمه الحليم .

والفرق بين الصبر والحلم : أن الصبر ثمرة الحلم وموجبه ، فعلى قدر حلم العبد يكون صبره . فالحلم فى صفات الرب تعالى أوسع من الصبر . ولهذا جاء اسمه الحليم فى القرآن فى غير موضع . ولسعته يقرنه سبحانه باسم العليم ، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الاحزاب: ٥١] ، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء : ١٢] .

وفى أثر : « أن حملة العرش أربعة اثنان يقولان : **سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك** . واثنان يقولان : **سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك** » . فإن المخلوق يحلم عن جهل ، ويعفو عن عجز ، والرب تعالى يحلم مع كمال علمه ، ويعفو مع تمام قدرته ، وما أضيف شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم ، ومن عفو إلى اقتدار . ولهذا كان فى دعاء الكرب وصفه سبحانه بالحلم مع العظمة ، كونه حليمًا من لوازم ذاته سبحانه .

وأما صبره سبحانه : فمتعلق بكفر العباد ، وشركهم ، ومسبتهم له سبحانه ،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٨) ومسلم (٢٨٠٤)

وأنواع معاصـيهم وفجورهم ، فلا يزعـجه ذلك كله إلى تعجيل العقـوبة ، بل يصبر على عبده، ويمهله، ويسـتصلحه ، ويرفق به ، ويحلم عليه ، حـتى إذا لم يبق فيه موضع للضيعة ، ولا يصلح على الإمهال والرفق والحلم ، ولا يثيب إلى ربه ويدخل عليه ، لا من باب الإحسان والنعم ولا من باب البلاء والنقم أخذه أخذ عزيز مقتدر، بعد غـاية الإعذار إليه، وبذل النصـيحة له، ودعائه إلـيه من كل باب .وهذا كله من موجبات صفة حلمه، وهى صفة ذاتية لا تزول .

وأما الصبر : فإذا زال متعلقـه ،كان كسائر الأفعال التى توجـد لوجود الحكمة، وتزول بزوالها . فتأمـله ،فإنه فرق لطيف ما عثرت الحذاق بعـشره، وقل من تنبه له ونبه عليـه، وأشكل على كثـير منهم يعني هذا الاسم ،وقالـوا :لم يأت فى القرآن، فأعرضوا عن الاشتـغال به صفحًا ،ثم اشتغلوا بالكلام فى صبر العـبد وأقسامه، ولو أنهم أعطوا هذا الاسم حقـه، لعلموا أن الرب تعالى أحق به من جمـيع الخلق، كما هو أحق باسم العليم، والـرحيم، والقـدير، والسمـيع ،والبـصيـر ،والحى، والملك وسائر أسمائه الحـسنى من المخلوقين. وأن التفاوت الذى بين صبره سبـحانه وصبرهم كالتفاوت الذى بين حياته وحياتهم، وعلمه وعلمهم، وسمعه وأسماعهم، وكذا سائر صفاته .

ولما علم ذلك أعرف خلقه به قال: **«لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله»** (١) . فعلم أرباب البصائر بصبـره سبحانه كعلمهم برحمته وعفـوه وستره، مع أنه صبر مع كمال علم وقدرة وعظمة وعزة، وهو صبر من أعظـم مصبور عليه، فإن مقابلة أعظم العظماء، وملك الملوك، وأكرم الأكرمين ،ومن إحسانه فـوق كل إحسان بغاية القبيح وأعظم الفجور وأفحش الفواحش، ونسبـته إلى كل ما لا يليق به، والقدح فى كماله وأسمائه وصفاته، والإلحاد فى آياته ،وتكذيب رسله عليهم السلام، ومقابلتهم بالسب والشتم والأذى، وتحريق أوليائه وقتلهم وإهانتهم أمر لا يصبر عليه إلا الصبور، الذى لا أحد أصـبر منه، ولا نسـبة لصبـر جمـيع الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صـبره سبحانه .

وإذا أردت معـرفة صـبر الـرب تعالى وحلمـه ،والفرق بينهـما ،فـتأمل قـوله تعالى :[ق/ ١٤٩أ] ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ

---

(١) تقدم تخريجه .

مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر :٤١] وقوله : **﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾** [مريم : ٨٨ ـ ٩١] ، وقوله : **﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾**[إبراهيم : ٤٦] على قراءة من فتح اللام .

فأخبر سبحانه أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السموات والأرض فالحلم أمسكهما وإمساكهما أن تزولا هو الصبر، فبحلمه صبر عن معالجة أعدائه.

وفى الآية إشعار بأن السموات والأرض تهم وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتى به العباد، فيمسكها بحلمه ومغفرته. وذلك حبس عقوبته عنهم ،وهو حقيقة صبره تعالى. .فالذى عنه الإمساك هو صفة الحلم ،والإمساك هو الصبر، وهو حبس العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها، فتأمله .

وفى «مسند» (١)الإمام أحمد مرفوعًا: « ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بنى آدم» . وهذا مقتضى الطبيعة، لأن[كثرة] (٢) الماء تعلو [كثرة] (٣)التراب بالطبع، ولكن الله ـ [سبحانه وتعالى] (٤)ـ يمسكه بقدرته وحلمه وصبره.

وكذلك خرور الجبال ،وتفطير السموات ،الرب ـ سبحانه وتعالى يحبسها عن ذلك بصبره وحلمه، فإن ما يأتى به الكفار والمشركون والفجار فى مقابلة العظمة والجلال والإكرام يقتضى ذلك، فجعل سبحانه فى مقابلة هذه الأسباب أسبابًا يحبها ويرضاها ويفرح بها أكمل فرح وأتمه ،تقابل تلك الأسباب التى هي سبب زوال العالم وخرابه، فدفعت تلك الأسباب وقاومتها.

وكان هذا من آثار الرحمة أثر مدافعة رحمته لغضبه وغلبتها له وسبقها إياه، فغلب أثر الرحمة أثر الغضب ،كما غلبت الرحمة الغضب، ولهذا استعاذ النبى ﷺ بصفة الرضا من صفة السخط ،وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، ثم جمع الأمرين فى الذات، إذ هما قائمان بها، فقال : « **أعوذ برضاك من سخطك ،وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**» (٥)، فإن ما يستعاذ به هو صادر عن مشيئته وخلقه بإذنه

(١) أخرجه أحمد (٣٠٣) وابن حجر في المطالب العالية (٢٠٦٠) وضعفه الألباني . انظر ضعيف الجامع (٤٩٣٥) .

(٢) في ط و ب : كرة . (٣) في ط و ب : كرة .

(٤) زيادة من أ .

(٥) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ .

وقضائه، فهو الذى أذن فى وقوع الأسباب التى يستعاذ منها خلقاً وكوناً ، وهو الذي يعيـذ منها ويدفع شرها خلقاً وكـوناً فمنه السبب والمسـبب، وهو الذى حرك الأنفس والأبدان وأعطاها قوى التـاثير ،وهو الذى أوجدهـا وأعدها ومدها وسلطهـا على ما شاء، وهو الذى يمسكها إذا شاء ويحول بينها وبين قواها وتأثيرها .

فتأمل ما تحت قوله : « **أعوذ بك منك** » من محض التوحيـد، وقطع الالتفات إلى غيره ،وتكميل التوكل عليه سبحـانه تعالى والاستعانة به وحده، وإفراده بالخوف والرجاء ودفع الضر وجلب الخـير، وهو الذى يمس بالضر بمشيـئته، وهو الذى يدفع بمشيئته من مشيئته، وهو المستعاذ بمشيئته من مشيئته ،وهو المعيذ من فعله بفعله، وهو الذى سبحانه خلق مـا يصبر عليه وما يرضى به ،فإذا أغضبه مـعاصى الخلق وكفرهم وشركهم وظلمهم ، أرضاه تسبيح ملائكته وعبادة المؤمنين له وحمدهم إياه ،وطاعتهم له، فيعيذ رضاه من غضبه .

قال عـبد الله بن مسـعود رضى الله عنه : ليس عند ربكـم ليل ولا نهار ، نور السـموات والأرض من نور وجـهـه ، وإن مقـدار يوم من أيامكم عنده اثنتـا عشـرة ساعة، فتعرض عليه أعمالكم بالأمس أول الـنهار اليوم، فينظر فيها ثلاث ساعات ، فيطلع منها على ما يكره فـيغضبه ذلك ، فأول ما يعلم بغضبـه حملة العرش يجدونه يثقل عـليهم، فتـسبـحه حملة العـرش وسرادقـات العرش والملائكة المقـربون وسائر الملائكة، حتى ينفخ إسـرافيل فى القرن فلا يبقى شىء إلا يـسمع صوته ،فيسـبحون الرحمن ثلاث سـاعات حتى يمتلئ الرحمن رحـمة ،فتلك ست ساعـات .قال : ثم يؤتى بالأرحام ،فينظر فيهـا ثلاث ساعات، فذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [آل عمران : ٦] ، ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى : ٤٩ ، ٥٠] ، فتلك تسع سـاعات . ثم يؤتى بالأرزاق فينظر فـيها ثلاث ساعات ، فـذلك قوله : ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد : ٢٦]. وقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن : ٢٩] . قال : هذا شأنكم وشأن ربكم . رواه أبو القاسم الطبـرانى فى [ق/ ١٥٠أ] السنة ، وعثمان بن سـعيد الدارمى، وشيخ الإسـلام الأنصارى، وابن مندة ،وابن خزيمة وغـيرهم[1] .ولما ذكر سبحانـه فى سورة الأنعام أعداءه وكفرهم وشـركهم وتكذيب رسله ذكر فى أثر ذلك

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٨٨٦) وأبو نعيم في الحلية (١/١٣٧) وسنده ضعيف .

شأن خليله إبراهيم ، وما أراه من ملكوت السموات والأرض ، وما حاج به قومه فى إظهار دين الله وتوحيده. ثم ذكر الأنبياء من ذريته ، وأنه هداهم وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة، ثم قال : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [الأنعام : ٨٩] .

فأخبر أنه سبحانه ،كما جعل فى الأرض من يكفر به ،ويجحد توحيده ويكذب رسله، كذلك جعل فيها من عباده من يؤمن بما كفر به أولئك ، ويصدق بما كذبوا به، ويحفظ من حرماته ما أضاعوه .

وبهذا تماسك العالم العلوى والسفلى، وإلا فلو اتبع الحق أهواء أعدائه لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ولخرب العالم .ولهذا جعل سبحانه من أسباب خراب العالم رفع الأسباب الممسكة له من الأرض ،وهى كلامه وبيته ودينه والقائمون به . لا يبقى لتلك الأسباب المقتضية لخراب العالم أسباب تقاومها وتمانعها.

ولما كان اسم الحليم أدخل فى الأوصاف ، واسم الصبور فى الأفعال ، كان الحلم أصل الصبر ، فوقع الاستغناء بذكره فى القرآن عن اسم الصبور . . والله أعلم.

فصل

وأما تسميته سبحانه بالشكور ، فهو فى حديث أبى هريرة [١] ، وفى القرآن تسميته شاكرا ،قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾ [النساء : ١٤٧] ، وتسميته أيضا شكوراً ، قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) ﴾ [التغابن : ١٧] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا (٢٢) ﴾ [الإنسان : ٢٢] . فجمع لهم سبحانه بين الأمرين : أن شكر سعيهم ، وأثابهم عليه ، والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته ، ويغفر له إذا تاب إليه ، فجمع للعبد بين شكره لإحسانه ، ومغفرته لإساءته ، إنه غفور شكور .

وقد تقدم فى الباب العشرين ذكر حقيقة شكر العبد وأسبابه ووجوهه . وأما شكر الرب تعالى ، فله شأن آخر كشأن صبره ،فهو أولى بصفة الشكر من كل شكور، بل هو الشكور على الحقيقة ،فإنه يعطى العبد ويوفقه لما يشكره عليه ، ويشكر القليل من العمل والعطاء فلا يستقله أن يشكره ،ويشكر الحسنة بعشر أمثالها

---

(١) تقدم تخريجه .

إلى أضعـاف مضاعـفة ، ويشكر عبـده بقوله بأن يثنى عليـه بين ملائكتـه وفى ملئه الأعلى ، ويلقى له الشكر بين عباده، ويشكره بفعله ، فإذا ترك له شيئا أعطاه أفضل منه ،وإذا بذل له شيـئا رده له أضعافـا مضاعـفة ، وهو الذى وفقه للتـرك والبذل ، وشكره على هذا [وذاك] (١). ولما عقر نبيـه سليمان الخيل غضبـا له ، إذ شغلته عن ذكره ، فـأراد ألا تشغله مـرة أخرى ، أعـاضه عنهـا متن الريح. ولما ترك الصـحابة ديارهم ، وخرجوا منها فى مرضاته ، أعاضهم عنهـا أن ملكهم الدنيا وفتحها عليهم . ولما احتـمل يوسف الصـديق ضيق السـجن ، شكر له ذلك بأن مكنه فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء . ولما بذل الشهداء أبدانهم له حتى مزقتها مزقها أعداؤه ، شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منهـا طيرا خضرا أقر أرواحهم فيـها ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها إلى يوم البعث ، فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه. ولما بذل رسله أعراضهم فـيه لأعدائهم ،فنالوا منهم وسبوهم ،أعـاضهم من ذلك بأن صلى عليهم هو وملائكته، وجـعل لهم أطيب الثناء فى سمواته وبين خلقه ، فأخلصـهم بخالصة ذكرى الدار لا يضيع أجر من أحسن عملاً ولو أنه مثقال ذرة .

ومن شكره سبحانه : أنه يجازى عدوه بما يفعله من الخـير والمعروف فى الدنيا ، ويخفف به عنه يوم القيامة ،فلا يضـيع عليه ما يعمله من الإحسان ، وهو من أبغض خلقه إليه .

ومن شكره : أنه غفر للمرأة البـغى بسقيها كلبا كان قـد جهده العطش حتى أكل الثرى، وغفر لآخر بتنحيته غصن شوك عن المسلمين .

فهو سبحانه يشكر العبد على إحسانه إلى نفسه ، والمخلوق إنما يشكر من أحسن إليه . وأبلغ من ذلـك أنه سبحـانه هو الذى أعطى العبد مـا يحسن به إلى نفـسه ، وشكره عليه بل شكره عـلى قليله بالأضعاف المضـاعفة التى لا نسـبة لإحسان العـبد إليهـا، فهـو المحسن بإعطاء الإحـسان وإعطاء الشكر ، فـمن أحق باسم الشكور منه سبحانه ؟

وتأمل قوله سبحانه : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء : ١٤٧] ، كيف تجد فى ضمن هذا الخطاب أن شكره تعالى يأبى تعذيب عباده سدى بغيـر جرم ، كما يأبى إضـاعة سعيهم باطلاً ، فـالشكور لا يضيع [ق/ ١٥١أ]

---

(١) في أ : وهذا .

أجر محسن ولا يعذب غير مسيء.

وفي هذا رد لقول من زعم أنه سبحانه يكلف عبده مالا يطيقه ، ثم يعذبه على ما لا يدخل تحت قدرته، تعالى الله عن هذا الظن الكاذب والحسبان الباطل علواً كبيراً. فشكره سبحانه اقتضى أن لا يعذب المؤمن الشكور ،ولا يضيع عمله . وذلك من لوازم هذه الصفة فهو منزه عن خلاف ذلك، كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص التي تنافي كماله وغناه وحمده.

ومن شكره سبحانه : أنه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير ، ولا يضيع عليه هذا القدر .

ومن شكره سبحانه : أن العبد من عباده يقوم له مقاماً يرضيه بين الناس ،فيشكره له، وينوه بذكره ،ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين . . كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام، وأثنى[به][1] عليه ، ونوه بذكره بين عباده . . وكذلك شكره لصاحب «يس» مقامه ودعوته إليه فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك ،فإنه سبحانه غفور شكور ، يغفر الكثير من الزلل ، ويشكر القليل من العمل .

ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة ، كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر ، كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها واتصف بضدها ، وهذا شأن أسمائه الحسنى: أحب خلقه إليه من اتصف بموجبها ، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها .ولهذا يبغض الكفور ، والظالم ، والجاهل ، والقاسي القلب ، والبخيل ، والجبان والمهين ، واللئيم.وهو سبحانه جميل يحب الجمال ، عليم يحب العلماء ، رحيم يحب الراحمين، محسن يحب المحسنين ، شكور يحب الشاكرين ، صبور يحب الصابرين ، جواد يحب أهل الجود ، ستير يحب أهل التستر ، قادر يلوم على العجز ، والمؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف ، عفوٌ يحب العفو ، وتر يحب الوتر ، وكل ما يحبه فهو من آثار أسمائه وصفاته وموجبها ، وكل ما يبغضه فهو مما يضادها وينافيها .

---

[1] سقط من أ .

خاتمة

يا من عزم على السفر إلى الله والدار الآخرة ، قد رفع لك علـم فشمر إليه فقد أمكن التـشميـر ، واجعل سـيرك بين مطالعـة منته ومشـاهدة عيب النفـس والعمل والتقصير ، فما أبقى مشهـد النعمة والذنب للعارف من حسنة يقول هذه منجيتى من عذاب السعير ، مـا المعول إلا على عفوه ومغفرته فكل أحد إليهـما فقير ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى فاغفر لى ، أنا المذنب المسكين وأنت الرحيم الغفور.

ما تساوى أعـمالك لو سلمت مما يبطله أدنى نعمة من نعـمه عليك وأنت مرتهن بشكرها من حين أرسل بها إليك ، فهل رعيتـها بالله حق رعايتها وهى فى تصريفك وطوع يديك .

فتعلق بحبل الرجاء وادخل من باب التوبة والعمل الصالح إنه غفور شكور، نهج للعبـد طريق النجاة وفتح له أبوابهـا وعرفه طرق تحصـيل السعادة وأعطاه أسبـابها ، وحذره من وبال معصيتـه وأشهده على نفسه وعلى غيره شؤمهـا وعقابها ، وقال إن أطعت فبفضلى وأنا أشكر ، وإن عصيت بقضائى وأنا أغفر ؛ إن ربنا لغفور شكور .

وأزاح عن العبد العلل ، وأمـره أن يستعيذ به من العـجز والكسل ، ووعده أن يشكر له القليل من العمل ، ويغفر له الكثير من الزلل ، إن ربنا لغفور شكور.

أعطاه ما يشـكر عليه ثم يشكره على إحـسانه إلى نفسـه لا على إحسـانه إليه . ووعده على إحسانه لنفسه أن يحسن جزاءه ويقربه لديه ، وأن يغفر له خطاياه إذا تاب منها ولا يفضحه بين يديه : ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) ﴾ [فاطر : ٣٤] .

وبقيت بعفوه هفوات المذنبين فوسعتـها ، وعكفت بكرمه آمال المحسنين فما قطع طمعها. وخرقـت السبع الطباق دعوات التائبين والسائلين فسمـعها ، ووسع الخلائق عفوه ومغفرته ورزقه ، فما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها، إن ربنا لغفور شكور .

يجود على عبيده بالنوال قبل السـؤال ، ويعطى سائله ومؤمله فوق ما تعلقت به منهم الآمال ، ويغـفر لمن تاب إليه ولـو بلغت ذنوبه عدد الأمواج والحـصى والتراب والرمال ، إن ربنا لغفور شكور .

أرحم بعبـاده من الوالدة بولدها ، وأفرح بتوبـة التائب من الفاقـد لراحلته التى

عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة إذا وجدها ، وأشكر للقليل من جميع خلقه، فمن تقرب إليه بمثقال ذرة من الخير شكرها وحمدها ، إن ربنا لغفور شكور .

تعرف إلى عباده [بأسمائه وأوصافه] [1] ، وتحبب[ق/ ١٥٢أ] إليهم بحلمه وآلائه ولم تمنعه معاصيهم بأن جاد عليهم بـآلائه ، ووعد من تاب إليه وأحسن طاعته بمغفرة ذنوبه يوم لقائه ، إن ربنا لغفور شكور .

السعادة كلهـا فى طاعته ، والأرباح كلها فى معاملتـه ، والمحن والبلايا كلها فى معصيته ومخالفته ، فليس للعبد أنفع من شكره وتوبته ،إن ربنا لغفور شكور .

أفاض على خلقه النعمة وكتب على نفسه الرحمة ، وضمن الكتاب الذى كتبه : « إن رحمته تغلب غضبه » إن ربنا لغفور شكور.

يطاع فيشكر وطاعته من توفيقه وفضله ، ويعصى فيحلم ومعصية العبد من ظلمه وجهله ، ويتوب إليه فـاعل القبيح فيغفـر له ، حتى كأنه لم يكن قط من أهله ، إن ربنا لغفور شكور .

الحسنة عنده بعـشر أمثـالها أو يضاعفـها بلا عدد ولا حـسبان ، والسيـئة عنده بواحدة ومصيـرها إلى العفو والغفران ، وباب التوبة مفـتوح لديه منذ خلق السموات والأرض إلى آخر الزمـان ، إن ربنا لغفـور شكور ، بابه الكريم مناخ الآمـال ومحط الأوزار، وسماء عطاياه لا تقلع عـن الغيث بل هى مدرار ، ويمينه ملأى لا تغيـضها نفقة سحاء الليل والنهار، إن ربنا لغفور شكور .

لا يلقى وصاياه إلا الصـابرون ولا يفوز بعطاياه إلا الشاكـرون ، ولا يهلك عليه إلا الهالكون ، ولا يشقى بعذابه إلا المتمردون إن ربنا لغفور شكور .

فإياك أيها المتمرد أن يأخذك على غرة فإنه غـيور . وإذا أقمت على معصيته وهو يمدك بنعمته فاحذره فإنه لم يهملك لكنه صبور .

وبشراك أيها المحسن التائب بمغفرته ورحمته إنه غفور شكور.

من علم أن الرب شكور تنوع فى مـعامـلته ومن عـرف أنه واسع المغفـرة تعلق بأذيال مغـفرته ، ومن علم أن رحمتـه سبقت غضـبه لم ييأس من رحمـته . إن ربنا لغفور شكور .

---

(١) في أ : تقديم وتأخير .

من تعلق بصفة من صـفاته أخذته بيده حتى تدخله عليه ومن سـار إليه بأسمائه الحسنى وصل إليه . ومن أحبه أحب أسماءه وصفاته وكانت آثر شيء لديه .

حياة القلوب فـي معرفته ومـحبته. وكمـال الجوارح في التقرب إليـه بطاعته ، والقيام بخدمته والألسنة في ذكره والثناء عليه بأوصاف مدحته .

فأهل شكره أهل زيادته ، وأهل ذكره أهل مجالسته، وأهل طاعته أهل كرامته ، وأهل معـصيتـه لا يقنطهم من رحمـته، إن تابوا فهـو حبيـبهم، وإن لم يتوبوا فـهو طبيبهم، يبتليهم بأنواع المصائب ليكفر عنهم الخطايا ويطهرهم من المعائب ؛ إنه غفور شكور .

والحمد لله رب العالمين حمـدًا كثيرا طيبًا مباركًا فـيه ، كما يحب ربنا ويرضى. وكما ينبغي لكرم وجـهه وعز جلاله حمدًا يملأ السموات والأرض ومابـينهما وما شاء ربنا من شيء بعد [بمجامع حمده كلها ، ما علمنا منها وما لم نعلم ،على نعمه كلها ما علمنا منها ومـا لم نعلم ، عدد ما حمد الحامدون . وغـفل عن ذكره الغافلون ، وعدد ما جرى به قلمه، وأحصاه كتابه ، وأحاط به علمه](١) .

وصلى الله وسلم على سـيدنا مـحمـد [خاتم النبـيين وعلى](٢) وآله وصحـبه أجمعين ، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ورضى الله عن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين . ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١)سقط من أ .
(٢)زيادة من أ .


فهرس الموضوعات



الفهرس

الموضوع	الصفحة